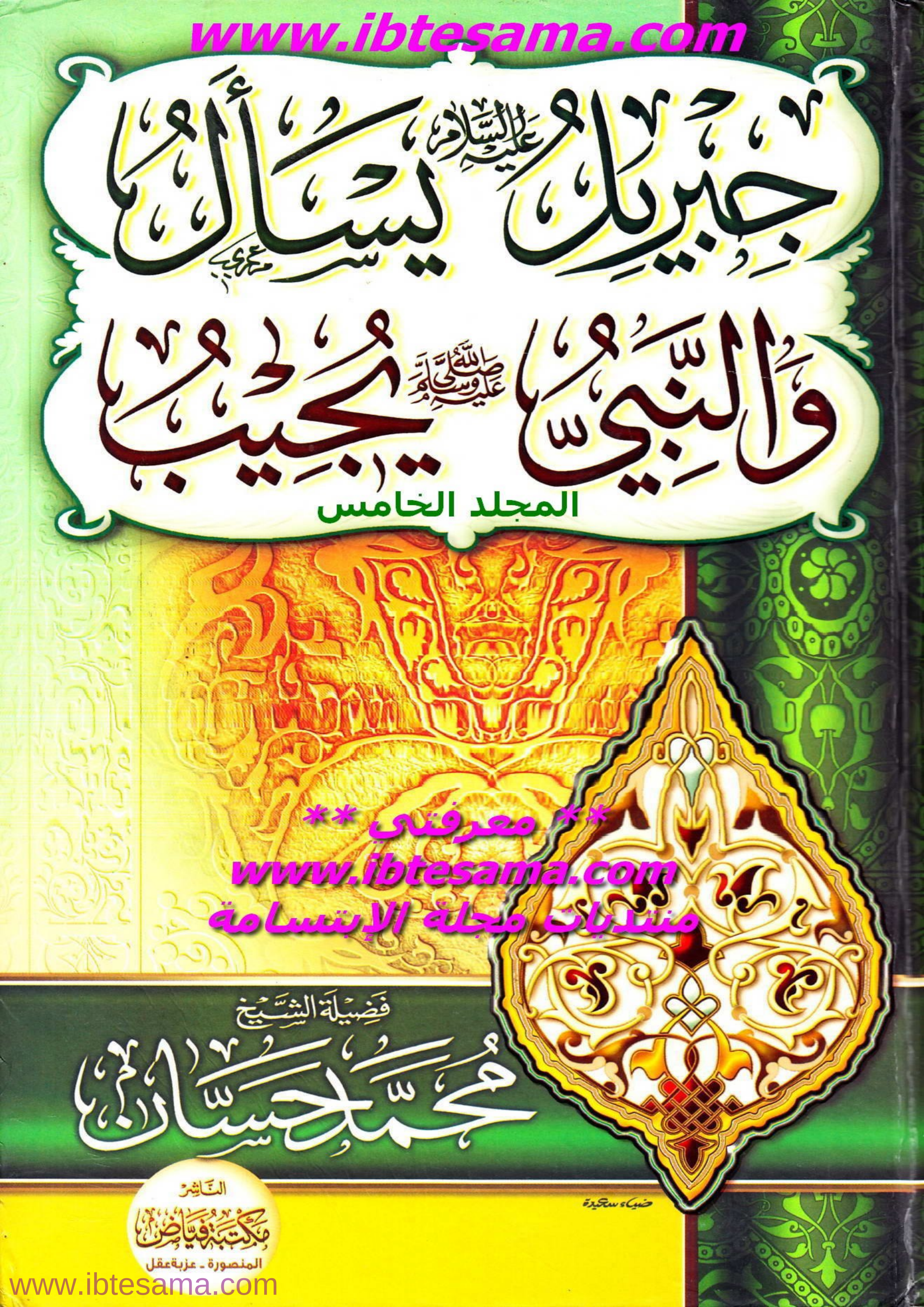


www.ibtesama.com
جبريل عليه السلام يسأل
والنبي صلى الله عليه وسلم يجيب
المجلد الخامس
** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة
فضيلة الشيخ
محمد حسان
الناشر
مكتبة فياض
المنصورة - عزبة عقل
www.ibtesama.com

جبريل عليه السلام يسأل
والنبي ﷺ يجيب

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠٩/٨٦٠٣

مكتبة
فياض للتجارة والتوزيع

المنصورة: شارع عبد الهادي ـ عزبة عقل

ت: ٢٢٦٧٣٩٨ / ٠٥٠

جبريل عليه السلام يسأل
والنبي صلى الله عليه وسلم يجيب

تأليف
فضيلة الشيخ
مُحَمَّد بن حَسَّان

المجلد الخامس

مكتبة
فياض للتجارة والتوزيع

وصف النار

قد يتألم البعض من الحديث عن النار وعن الترهيب ، فيقول : لِمَ لا تُفْتح من خلالكم أبواب الرجاء ، والرحمة والأمل؟ لِمَ تدندنون على الترهيب فحسب؟ والجواب ؛ إن منهج القرآن الكريم في تهذيب النفس البشرية وتربيتها هو الترغيب والترهيب ؛ فمنهج القرآن هو أعظم المناهج على الإطلاق ؛ لأنه منهج خالق هذه النفس ، فالنفس البشرية فيها الخير والشر ، فيها الفجور والتقوى ، فيها الحلال والحرام ، فيها الإحجام والإقبال ؛ قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[الشمس:٧ـ ١٠] .

فهناك نفوسٌ أبيَّةٌ زكيةٌ كريمةٌ لا تأتي إلى الله ـ جلَّ وعلا ـ إلا من باب الرجاء والرحمة ، ومن باب الآمال والترغيب ، وهناك نفوس بشرية عَلِمَهَا خالق البشرية لا تأتي إلى الله تعالى إلا من جانب الترهيب والوعيد ؛ قال تعالى : ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[غافر:١ـ٣] ، وقال تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر:٤٩ـ ٥٠] .

والآيات في القرآن الكريم التي جمعت بين الترغيب والترهيب كثيرة ، فالرجاء والخوف جناحان لطائرٍ واحدٍ لا يمكن أبدًا أن يحلِّق هذا الطائر في أجواء الفضاء إلا بهذين الجناحين معًا ، ولو طار في أفق السماء بجناحٍ ونجح في ذلك لمدةٍ ولو طالت ، فإنه حتمًا سيسقط لينكسر جناحه الآخر .

فمن باب فقه الدعوة إن وجدت رجلاً قد غلب عليه الرجاء مع تقصيرٍ في

العمل ، فلا تحدثه إلا بالخوف ، فهذا هو الفقه للمسألة .

قال الإمام ابن القيم [(١)] ــ رحمه الله تعالى : « القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر ، فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحاه . فمتى فقد الجناحان فهو عرضة لكلِّ صائد وكاسر ، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء ، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف ؛ هذه طريقة أبي سُليمان وغيره . قال : ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف ؛ فإن غلب عليه الرجاء فسد » !

وقال أيضًا [(٢)]: « قال أبو علي الرُّوذْباري : الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير ، وتمَّ طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهب صار الطائر في حدِّ الموت» ، فالخوف والرجاء جناحان يطير بهما المقربون إلى كلِّ مقام محمود ، ومطيتان كريمتان يقطع بهما السالكون لطريق الآخرة كلَّ عقبة كئود ؛ فلا يقود إلى قرب الرحمن ، وروح الجنان ، والنجاة من النيران ، إلا أزمَّةُ الرجاء ، ولا يصدُّ عن نار الجحيم والعذاب الأليم إلا الخوف من ربِّ الأرض والسماء [(٣)].

وقيل للحسن البصري [(٤)] رحمه الله: « يا أبا سعيد ؛ كيف نصنع؟ نجالس أقوامًا يخوفونا حتى تكاد قلوبنا أن تطير ؟ فقال الحسن : والله إنك إن تخالط أقوامًا يخوفونك في الدنيا حتى يدركك الأمن في الآخرة ، خيرٌ لك من أن تصحب أقوامًا يُؤمنونك في الدنيا حتى يدركك الخوف في الآخرة » .

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٧) .

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٦) .

(٣) «الإحياء» للغزالي(٤/ ١٤٢) ط المعرفة بتصرف يسير.

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٠) ، وابن أبي الدنيا في «الوجل والتوثق بالعمل» (٢٨) برقم (٣) ، والمزي في «تهذيب الكمال» (٦/ ١١٤) ، وذكره الغزالي في «الإحياء» (٤/ ١٦٢) .

وفي الحديث الذي رواه البيهقي في «الشعب» وابن حبان في «صحيحه»، وصححه شيخنا الألباني في «السلسلة الصحيحة»[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي لاَ أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ».

والخوف الحقيقي هو البعد عن معصية الله، وعن كلِّ ما يغضب الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه، ولكن الخائف هو الذي يترك ما يخاف أن يعاقبه الله عليه، ومن خاف من أي شيء هرب منه، ومن خاف من الله هرب إليه. إذ لا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه تبارك وتعالى؛ قال تعالى آمرًا عباده بالخوف منه: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [هود:١٠٢، ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج:١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

فكلَّما ازداد العبد علمًا بالله ومعرفة بقدر الله وجلال الله ازداد خوفًا من الله تبارك وتعالى؛ فأعلم الناس بالله وأشدُّهم خوفًا من الله هو النبيُّ ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٤٠)، والبيهقي في «الشعب» (٧٧٧)، ورواه البزار؛ كما في «كشف الأستار» (٤/ ٧٤/ ٣٢٣٢، ٣٢٣٣) عن الحسن مرسلاً وعن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٠٨): «رواهما البزار عن شيخه محمد بن يحيى بن ميمون، ولم أعرفه، وبقية رجال المرسل رجال الصحيح، وكذلك رجال المسند غير محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث». ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٧) مرسلاً، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٧٠) و(٦/ ٩٨) والطبراني في «مسند الشاميين» (٤٦٢، ٣٤٩٥) عن شداد ابن أوس رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألبانيُّ رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (٧٤٢، ٢٦٦٦).

ففي «الصحيحين»[(١)] من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال النبيُّ ﷺ : « إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ » ، وقال كما في حديث عائشة رضي الله عنها[(٢)] : « لأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِالله وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً » .

وفي « مسند أحمد » و« سنن الترمذي » بسندٍ حسن[(٣)] من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ ، وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لله ، والله لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى الله تعالى » .

وفي « الصحيحين »[(٤)] من حديث أنس رضي الله عنه قال : خَطَبَ رَسُولُ الله ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ ، فَقَالَ : « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » . قَالَ : فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ وُجُوهَهُمْ لَهُمْ خَنِينٌ .

وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والنسائي بسندٍ صحيح[(٥)] من

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣) ، ومسلم كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة (١٤٠١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب الأدب ، باب من لم يواجه الناس بالعتاب (٦١٠١) ، ومسلم كتاب الفضائل ، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته (٢٣٥٦) .

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣) ، والترمذي كتاب الزهد ، باب قول النبي ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا » (٢٣١٢) وقال : «حسن غريب» ، وابن ماجه كتاب الزهد ، باب الحزن والبكاء (٤١٩٠) ، والحاكم (٢/ ٥١٠) ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٤٩) ، و«المشكاة» (٥٣٤٧) ، وانظر : «الصحيحة» (١٠٥٩، ١٠٦٠ ، ١٧٢٢) .

(٤) أخرجه البخاريُّ كتاب التفسير ، باب ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ (٤٦٢١) وانظر (٩٣) ، ومسلم كتاب الفضائل ، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه (٢٣٥٩) .

(٥) خرجه أحمد (٤/ ٢٥ ، ٢٦) ، وأبو داود كتاب الصلاة ، باب البكاء في الصلاة (٩٠٤) ، الترمذي في «الشمائل» (٣٢٢) ، والنسائي ، كتاب السهو ، باب البكاء في الصلاة (١٢١٤) [illegible] «الكبرى» (٥٤٤، ٥٤٥، و ١١٣٥) ، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٥١٤) ، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٤٤) (٣٣٢٩) .

حديث مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، وَلِصَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ. يعني: مِنَ الْبُكَاءِ.

وكان ﷺ دائم التذكير لأصحابه بالجنة والنار كأنهما رأي العين.

كما في «صحيح مسلم»[1] من حديث حنظلة الأُسيِّدي ﷺ قال: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ! قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ الله! مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَالله! إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ: حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ الله! فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟». قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ، سَاعَةً وَسَاعَةً». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ.

فالترهيب منهج من مناهج القرآن؛ لأن من النفوس نفوسًا لا تأتي إلا بالترهيب؛ وإن من النفوس نفوسًا لا تأتي إلى الله ﷻ إلا بالترغيب، فوجب أن يسير منهج التهذيب والتربية بهذا الاتزان بالترغيب تارة وبالترهيب تارة، ومعتقد أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدًا، وقد خلقهما الله جلَّ وعلا قبل أن يخلق الخلق؛ فمن دخل الجنة فبفضل الله ورحمته، ومن دخل النار فبعدله وحكمته.

---

(١) أخرجه مسلم كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة (٢٧٥٠).

ففي «البخاري ومسلم» (١) من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال: «فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ»، قَالُوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «وَلا أَنَا، إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله مِنْهُ بِرَحْمَةٍ».

وفي رواية لمسلم (٢): من حديث جابر رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «لاَ يُدْخِلُ أَحَدًا مِنكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ، وَلاَ يُجِيرُهُ مِنَ النَّارِ، وَلاَ أَنَا، إِلاَّ بِرَحْمَةٍ مِنَ الله».

وقال تعالى: ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:٤٣].

ولا تعارض بين الحديث وظاهر الآية؛ فإن الباء في الآية ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ باء السببية، والباء في الحديث «بِعَمَلِهِ» باء العوض؛ فمهما عمل العاملون لن يوفي هذا العملُ موضع سوط في الجنة عند الله تعالى، وإنما العمل سببٌ لدخول الجنة، وإلا فالرحمة هي الأصل في دخول الجنة.

ألا تعلم ـ أخي في الله ـ أن هذه النار التي تراها بعينك في الدنيا هي جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم.

ففي «الصحيحين» (٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ»، قَالُوا: وَالله إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٤، ٦٤٦٧)، ومسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٨).

(٢) أخرجه مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٧)، ورُوي أيضًا من طريق أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري (٥٦٧٣، ٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٥)، ومسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (٢٨٤٣) واللفظ له.

وَسِتِّينَ جُزْءًا ، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا » . اللهم سلِّم سلِّم !!

ولذا رُوي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال : «أَكْثِرُوا ذِكْرَ النَّارِ ؛ فَإِنَّ حَرَّهَا شَدِيْدٌ ، وَإِنَّ قَعْرَهَا بَعِيْدٌ ، وَإِنَّ مَقَامِعهَا حَدِيْدٌ »[1] .

فهل تتخيل النار ، وسعتها ، وحرها ، ونارها ؟ وهل تصبر على عذابها ؟ وهل تصبرين ـ أختي في الله ـ على عذاب النار ؟

وفي «صحيح مسلم»[2] عن أبي هريرة ﷺ قال : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً ـ أي صوت عال ـ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قَالَ : قُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : «هَذَا حَجَرٌ ، رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا ، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا » .

والله لا أحد منا يتحمل الحرَّ إذا اشتد ، فما بالك بالنار؟ والحر هذا نفس لجهنم .

ففي «الصحيحين»[3] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا ، فَقَالَتْ : يَا رَبِّ ، أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا ، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ ، نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ » .

هل تتصور ذلك؟ بل تخيل أهون أهل النار عذابًا ، كيف يكون حاله؟

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب صفة جهنم ، باب ما جاء في صفة قعر جهنم (٢٥٧٥) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/ ٩٧) بسند منقطع بين الحسن وعمر كما قال غير واحد من أهل العلم . وقد حكم بالانقطاع الترمذيُّ.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها (٢٨٤٢).

(٣) أخرجه البخاريُّ كتاب مواقيت الصلاة ، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٥٣٧) ، وانظر: (٣٢٦٠) ، ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة ويناله الحر في طريقه (٦١٧) .

وما هو عذابه ؟

ففي «الصحيحين»[1] من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ » ، وفي لفظٍ : « جَمْرَةٌ » ، وفي لفظٍ : « لَهُ نَعْلاَنِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ ، كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا ، وَإِنَّهُ لأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا » .

وفي النار سجن يعذب فيه أهل الكبر !

ففي «مسند أحمد» و«مصنف ابن أبي شيبة» والبخاري في «الأدب» والترمذي ـ وهو حديثٌ حسنٌ[2] من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبيَّ ﷺ قال : «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ ، فِي صُوَرِ الرِّجَالِ ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ ، طِينَةِ الْخَبَالِ » .

إن أهل النار يودُّون الافتداء بالمال ؛ بل بالدنيا بأسرها من عذاب الله !!

ولكن هيهات هيهات ؛ قال ﷻ : ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [المعارج:١١ ـ ١٧] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار (٦٥٦١ ، ٦٥٦٢) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب أهون أهل النار عذابًا (٢١٣) .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٩) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩/ ٩٠) ، ونعيم بن حماد في «الزهد» (١٩١) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٥٧) والحميدي(٥٩٨) ، والترمذي ، كتاب صفة القيامة باب (٤٧) (٢٤٩٢) وقال : «حسن صحيح» ، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠٤٠) و«المشكاة» (٥١١٢) .

وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر:٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٦ ، ٣٧] ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران:٩١] ، وقال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [الرعد:١٨] .

وفي «الصحيحين»[1] عن أنس ﷺ أنه ﷺ قال : « يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا : لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ : أَنْ لاَ تُشْرِكَ وَلاَ أُدْخِلَكَ النَّارَ ، فَأَبَيْتَ إِلاَّ الشِّرْكَ » .

بل إن أهل النار يتمنون الموت ، ليستريحوا من عذاب النار ، ولكن الله قد كتب عليهم العذاب والخلود فيها !!

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف:٧٤-٧٧] ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته (٣٣٣٤) ، ومسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا (٢٨٠٥) واللفظ له .

فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢١-٢٦] ، وقال سبحانه : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٦ ، ٣٧] ، وقال تعالى : ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٥-١٧] ، وقال سبحانه : ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه:٧٤] ، وقال جلَّ وعلا : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر:٤٩، ٥٠] ، وقال جلَّ وعلا : ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٦، ١٠٧] .

بل في «الصحيحين»[(١)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ ، فَيَقُولُ : هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، هَذَا الْمَوْتُ ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ. ثُمَّ يُنَادِي : يَا أَهْلَ النَّارِ ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب التفسير باب ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ [مريم:٣٩] (٤٧٣٠) ، ومسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٩) .

تَعْرِفُونَ هَـذَا؟ فَيَقُولُـونَ : نَعَـمْ ، هَـذَا المَوْتُ ، وَكُلُّهُـمْ قَـدْ رَآهُ ، فَيُـذْبَحُ ، ثُـمَّ يَقُولُ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ ، خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ » . ثُـمَّ قَرَأَ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

[مريم:٣٩]

والغمسة الواحدة في نار جهنم تُنْسي العبد كلَّ نعيم ذاقه وتنعم به في الدنيا من شدة العذاب .

كما في «صحيح مسلم»[1] من حديث أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا ، مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا ابْنَ آدَمَ ! هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لاَ وَاللهِ يَا رَبِّ ».

بل تَدَبَّر معي ؛ فالطعام في النار نار ، والشراب في النار نار ، واللباس في النار نار؛ قال تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ [الحج:١٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم:٤٩، ٥٠] .

وفي «صحيح مسلم»[2] عن أبي مالك الأشعري ﷺ أنه ﷺ قال : « النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ (وهي التي ترفع صوتها وتشقُّ جيبها عند المصيبة) قَبْلَ مَوْتِهَا ، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ ».

والفرش والغطاء في النار نار؛ قال سبحانه : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾[الأعراف:٤١] ، والمهاد : ما يكون من تحتهم ، وغواشٍ: جمع

---

(١) أخرجه مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤسًا في الجنة (٢٨٠٧) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الجنائز ، باب التشديد في النياحة (٩٣٤).

غاشية وهي : التي تغشاهم من فوقهم ، وقال تعالى : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر:١٦] ، وقال جلَّ وعلا : ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [العنكبوت:٥٥] .

وشرابهم نار ، قال سبحانه : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف:٢٩] .

والمهل : هو الزيت المغليُّ العَكِر المترسب الشديد الحرارة ، فإذا كان بخار هذا المهل قبل أن يصل إلى الشفاة يشوي الوجوه . فكيف بالماء نفسه ؟! وهذا دليل على شدة حرارته . وكذلك يشربون الحميم والغساق ، والحميم : هو الماء الحار الذي وصل إلى منتهى الحرارة ، والغساق : ضده ، وهو البارد الذي بلغ شدة البرودة .

قال تعالى : ﴿ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الواقعة:٥٤ـ٥٦] ، وقال جلَّ وعلا : ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ [ص:٥٧] ، وقال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس:٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ:٢٥، ٢٦] ، وقال جلَّ وعلا : ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد:١٥] .

ويشربون من الصديد الذي يسيل من لحم الكافر وجلده في النار؛ قال تعالى : ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾
[إبراهيم:١٦، ١٧]

أما طعامهم ؛ فهو الزقوم والغسلين والضريع !! يا رب سلِّم سلِّم ؛ قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝

فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾[الواقعة:٥١ ـ ٥٣] ، وقال جلَّ وعلا : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾[الصافات:٦٢ ـ ٦٦] .

وطعامهم الضريع وهو شوك يقال له: الشبرق؛ قال سبحانه : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾[الغاشية:٦، ٧] .

وكذلك الغسلين والغساق وهو عصارة أهل النار من القيح والصديد الذي يسيل من جلودهم ؛ قال جلَّ وعلا : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ۝ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾[الحاقة:٢٥ ـ ٣٧] ؛ بل ويأكلون طعامًا يقف في حلوقهم لا يدخل الجوف ولا يخرج من الفم ؛ قال سبحانه : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾[المزمل:١٢، ١٣] .

بل يزيد الله الكافر حسرة بأن يريه مقعده في الجنة لو آمن وأطاع الله .

روى البخاريُّ [(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال : « لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلاَّ أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ ، لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً » .

ومن شدة العذاب يستغيث أهل النار بخزنة جهنم ليدعوا ربهم أن يخفف عنهم يومًا واحدًا من العذاب ؛ قال جلَّ وعلا : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار (٦٥٦٩) .

بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر:٤٩، ٥٠] ، وبعد فقدهم الأمل في خزنة جهنم يُنادُون على مَنْ ؟ على مالك خازن النار؛ قال تعالى : ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف:٧٧] ، وهنا يتذكَّر أهل النار إخوانهم من أهل التوحيد والإيمان الذين طالما سخروا منهم واستهزؤوا بهم في الدنيا، فيلجؤون إليهم ليغيثوهم بشيء من الماء أو بشيء مما رزقهم الله ؛ قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف:٥٠، ٥١] ، يئسوا من خزنة جهنم ، ومن مالك ، ومن أهل التوحيد الذين دخلوا الجنة ، فإذا يئس أهل النار من الخلق جميعًا تضرعوا إلى الله ﷻ أن ينجيهم من هذا العذاب ، ولكن هيهات هيهات ؛ قال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠٦ ـ ١١١] ، وقال سبحانه : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر:٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ

وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[هود:١٠٥-١٠٨] .

أما من دخل النار من الموحدين ؛ ممن خفت موازينهم،وغلبت وزادت سيئاتهم على حسناتهم وماتوا على الكبائر وهم مصرِّين على المعاصي والذنوب ولم يتوبوا قبل الموت ؛ فهؤلاء يدخلون النار ليطَهِّرهم من ذنوبهم ربُّ الأرض والسماء ؛ ثم يخرجون بعد ذلك من النار برحمة العزيز الغفار وبشفاعة الملائكة ؛ بل وبشفاعة الشافعين وعلى رأسهم النبيُّ ﷺ .

فإن معتقد أهل السنة أنه لا يخلَّد أحد في النار ممن وحَّد الله ﷻ وقال : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ؛ ففي « صحيح مسلم »[1] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ ، مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا ».

وفي « الصحيحين »[2] من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبيَّ ﷺ ذكر شفاعة المؤمنين لإخوانهم في النار من أهل التوحيد ، وقد ذكرنا الحديث قريبًا ، وفيه: « حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لله ، فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لله يَوْمَ الْقِيَامَةِ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ : رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا ، وَيُصَلُّونَ ، وَيَحُجُّونَ . فَيُقَالُ لَهُمْ : أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ ثُمَّ يَقُولُونَ :

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب اختباء النبيِّ ﷺ دعوة الشفاعة لأمته (١٩٩) ، وانظر: (١٩٨) ، والبخاريُّ (٦٣٠٤، ٧٤٧٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب التوحيد باب قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣] (٧٤٣٩) ومسلم كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣) .

رَبَّنَا ! مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ ، فَيَقُولُ : ارْجِعُوا ، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا ! لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا ...» الحديث .

والسُّؤالُ الأخير : كيف النَّجاةُ من النار ؟

والجواب في كلمتين اثنتين :

أولهما : التوحيد والاتباع : فهذا هو السبيل : توحيد العزيز الغفار ، واتباع النبيِّ المختار ﷺ . والتوحيد ليس كلمة تقال باللسان فحسب ، ولكن التوحيد: قول باللسان ، وتصديق بالجنان ، وعمل بالجوارح والأركان ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:١١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥ ـ ٦٦] .

وفي «الصحيحين» (١) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» . وفي لفظ: «أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَيِّهَا شَاءَ » .

وفي رواية عتبان بن مالك رضي الله عنه : « فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ : لا إِلَهَ إِلا اللهُ ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ » (٢) .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [المائدة:٧٧] (٣٤٣٥) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري كتاب الصلاة ، باب المساجد في البيوت (٤٢٥) ، وانظر (٤٢٤) ، ومسلم=

وفي « صحيح مسلم »(١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ لَقِيَ الله لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارِ ».

وفي «صحيح مسلم» (٢) كذلك من حديث أبي ذر ﷺ قال : قال رسولُ الله ﷺ : «يَقُولُ اللهُ ﷻ: وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً » .

وفي « سنن الترمذي » (٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً » .

فالتوحيد ، واتباع النبيِّ ﷺ ، والمداومة على العمل الصالح ، وعلى خُلق النبيِّ ﷺ وهديه هو الطريق إلى الجنة، والاتباع ليس كلمةً تُقال باللِّسان فحسب؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١] .

ورحم الله من قال :

= كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٣٣) ، وكتاب المساجد ، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة لعذر (٢٦٣/ ٣٣) .

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار (٩٣) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (٢٦٨٧).

(٣) أخرجه الترمذيُّ في كتاب الدعوات ، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعبادة (٣٥٤٠) وقال : «حسن غريب» ، وله شاهد عند أحمد (٥/ ١٤٨ ، ١٦٧) عن أبي ذر ﷺ ، وحسنه الألباني بشواهده في «الصحيحة» (١٢٧) ، و«صحيح الجامع» (٤٣٣٨) و«المشكاة» (٢٣٣٦) .

من يدَّعي حبَّ النبيِّ ولم يفد ... من هديه فسفاهةٌ وهراء
فالحبُّ أول شرطه وفروضه ... إن كان صدقًا طاعة ووفاء

فالاتباع تصديق لخبره، وامتثال لأمره، واجتناب لنهيه، ووقوف عند حده، فليكن حبك للنبيِّ ﷺ يفوق حبك لمالك، وامرأتك، ووالدك، ووالدتك، وأولادك؛ بل ولنفسك التي بين جنبيك، وقد فصَّلت القول في ذلك في شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ.

وكذلك الإيمان بالله جلَّ وعلا وإن قلَّ يحجب صاحبه من النار؛ كما أخبر بذلك سيد البشرية ﷺ؛ ففي «صحيح مسلم»[1] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَلاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرِيَاءَ».

وكذلك المداومة على صلاة الفجر والعصر في وقتيهما فهما سبب للنجاة من النار؛ ففي «صحيح مسلم»[2] عن عمارة بن رؤيبة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا». يَعْنِي: الْفَجْرَ وَالْعَصْرَ.

وكذلك الصيام جُنة ووقاية من النار؛ ففي «الصحيحين»[3] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ، بَعَّدَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا».

وروى أحمد والنسائي وابن ماجه وغيرهم[4] عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه (١٤٨/ ٩١).

(٢) أخرجه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٦٣٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ كتاب الجهاد والسير باب فضل الصوم في سبيل الله (٢٨٤٠) ومسلم كتاب الصيام باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه، بلا ضرر أو تفويت حق (١١٥٣).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢١، ٢٢، ٢١٧) وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣/ ٥٠٠٤) وابن خزيمة في «صحيحه» (١٨٩١) والنسائي كتاب الصيام (٢٢٣٠، ٢٢٣١) وابن ماجة كتاب الصيام باب فضل الصيام (١٦٣٩) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٦٦، ٣٨٦٧، ٣٨٧٩).

قال : قال رسول الله ﷺ: « الصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنْ عَذَابِ الله » .

وفي رواية : « الصِّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ كَجُنَّةِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْقِتَالِ » .

وكذلك البكاء من خشية الله والجهاد .

روى «أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه» بسندٍ صححه الشيخ الألبانيُّ [(١)] من حديث أبي هريرة ﷺأن النبيَّ ﷺقال : « لاَ يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ الله ﷻحَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ ، وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ الله وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي مَنْخِرَيِ امْرِئٍ أَبَدًا ».

فالخشية من الله ﷻ تباعد عن النار ، وكذلك الجهاد في سبيل الله ﷻ.

ففي « صحيح البخاري » [(٢)] من حديث أبي عَبْسٍ ﷺأن النبيَّ ﷺقال : « مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ الله حَرَّمَهُ الله عَلَى النَّارِ » .

وكذلك عتق الرقاب ؛ ففي «الصحيحين» [(٣)] عن أبي هريرة ﷺأنه ﷺ قال : « أَيُّمَا رَجُلٍ أَعْتَقَ امْرَءًا مُسْلِمًا اسْتَنْقَذَ الله بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ » .وفي لفظٍ « حَتَّى فَرْجَه بِفَرْجِهِ ».

وكذلك الإحسان إلى البنات سببٌ في النجاة من النار ؛ ففي «الصحيحين» من حديث عائشة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ ،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٥) ، والحميدي (١٠٩١) ، والترمذي كتاب فضائل الجهاد ، باب في فضل الغبار في سبيل الله (١٦٣٣) وقال : «حسن صحيح» وبرقم (٢٣١١) ، والنسائي كتاب الجهاد ، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٣١٠٧، ٣١٠٨) ، وابن ماجه كتاب الجهاد ، باب الخروج في النفير (٢٧٧٤) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٧٧٨) و«المشكاة» (٣٨٢٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجمعة ، باب المشي إلى الجمعة (٩٠٧) و (٢٨١١) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العتق ، باب ما جاء في العتق وفضله (٢٥١٧) و(٦٧١٥) ، ومسلم كتاب العتق ، باب فضل العتق (١٥٠٩) .

فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ »[(١)] .

وروى أحمد والبخاريُّ في «الأدب المفرد» وابن ماجه وغيرهم[(٢)] عن عقبة ابن عامر رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاثُ بَنَاتٍ ، فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ ، وَأَطْعَمَهُنَّ ، وَسَقَاهُنَّ ، وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ ـ أي غناه ـ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وكذلك من مات له أولاد فاحتسب كانوا له حجابًا من النار ؛ ففي «الصحيحين»[(٣)] عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه أَنَّ النِّسَاءَ قُلْنَ لِلنَّبِيِّ ﷺ اجْعَلْ لَنَا يَوْمًا ، فَوَعَظَهُنَّ ، وَقَالَ : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَ لَهَا ثَلاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ ، كَانُوا حِجَابًا مِنَ النَّارِ » . قَالَتِ امْرَأَةٌ : وَاثْنَانِ . قَالَ : « وَاثْنَانِ » .

وفي «الصحيحين»[(٤)] عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « لاَ يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ ، فَيَلِجَ النَّارَ إِلاَّ تَحِلَّةَ الْقَسَمِ » .

وكذلك الذكر ، والاستغفار ، وإماطة الأذى عن الطريق ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر يزحزح العبد نفسه عن النار بهذه الأعمال .

ففي «صحيح مسلم»[(٥)] من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : إن رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الزكاة باب اتقوا النار ولو بشق تمرة ، والقليل من الصدقة (١٤١٨) وانظر (٥٩٩٥) ، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل الإحسان إلى البنات (٢٦٢٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤) والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٧٦) ، وابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات (٣٦٦٩) ، وقال البوصيري في «الزوائد» : «إسناد صحيح» ، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٩٤) و (٣/ ٢٥) و«صحيح الجامع» (٦٤٨٨) .

(٣) أخرجه البخاريُّ كتاب الجنائز ، باب فضل من مات له ولد فاحتسب (١٢٤٩) ، وراجع: (١٠١) ، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه (٢٦٣٣) .

(٤) أخرجه البخاريُّ كتاب الجنائز ، باب فضل من مات له ولد فاحتسب (١٢٥١) ، وانظر: (٦٦٥٦) ، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه (٢٦٣٢) .

(٥) أخرجه مسلم كتاب الزكاة ، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٧) .

قال : « إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلاَثِمِائَةِ مِفْصَلٍ ، فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ ، وَحَمِدَ اللهَ ، وَهَلَّلَ اللهَ ، وَسَبَّحَ اللهَ ، وَاسْتَغْفَرَ اللهَ ، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ ، أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ ، وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ ، عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلاَثِمِائَةِ السُّلاَمَى ، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ » .

وكذلك الاستعاذة والاستجارة من النار ؛ ففي «الصحيحين» [1] من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ في ذكر الملائكة الذين يلتمسون مجالس وحلق الذكر ، وفيه : « فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ ، مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا : يَقُولُونَ يُسَبِّحُونَكَ ،وَيُكَبِّرُونَكَ ، وَيَحْمَدُونَكَ ، وَيُمَجِّدُونَكَ . قَالَ : فَيَقُولُ : هَلْ رَأَوْنِي ؟ قَالَ : فَيَقُولُونَ: لاَ وَاللهِ مَا رَأَوْكَ ! قَالَ : فَيَقُولُ : وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً ، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا ، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا . قَالَ : يَقُولُ : فَمَا يَسْأَلُونِي ؟ قَالَ : يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ . قَالَ : يَقُولُ : وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : لاَ وَاللهِ يَا رَبِّ ! مَا رَأَوْهَا . قَالَ : يَقُولُ : فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ : يَقُولُونَ : لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا ، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا ، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً . قَالَ : فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : مِنَ النَّارِ . قَالَ : يَقُولُ : وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : لاَ وَاللهِ مَا رَأَوْهَا . قَالَ : يَقُولُ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا ، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً . قَالَ : فَيَقُولُ : فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ » . وفي لفظِ مسلم : « فَيَقُولُ : قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ ، فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الدعوات ، باب فضل ذكر الله ﷻ (٦٤٠٨) ، ومسلم كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل مجالس الذكر (٢٦٨٩) .

وروى أحمد والترمذيُّ والنسائي وابن ماجة وابن حبان [١] عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَأَلَ اللهَ الْجَنَّةَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ قَالَتِ الْجَنَّةُ : اللَّهُمَّ أَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ ، وَمَنِ اسْتَجَارَ مِنَ النَّارِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، قَالَتِ النَّارُ : اللَّهُمَّ أَجِرْهُ مِنَ النَّارِ ».

وأخيرًا ؛ فمن أسباب النجاة: أن يحبَّك الله ﷻ ؛ فإن أحبَّك الله نجَّاك من النار ؛ كما في «مسند» أحمد و«مستدرك» الحاكم بسندٍ صحيح على شرط الشيخين ؛ كما قال الحاكم وأقرَّه الذهبيُّ والألبانيُّ [٢] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « وَاللهِ ! لاَ يُلْقِي اللهُ حَبِيبَهُ فِي النَّارِ » .

اللهم إنا نسألك الجنة ونعوذ بك من النار .

*****

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١١٧) ، والترمذي كتاب صفة الجنة ، باب ما جاء في صفة أنهار الجنة (٢٥٧٢) ، والنسائي كتاب الاستعاذة ، باب الاستعاذة من حر النار (٥٥١٢) ، وابن ماجه كتاب الزهد ، باب صفة الجنة (٤٣٤٠) ، وابن حبان كما في «الإحسان» (١٠٣٤) ، والحاكم (١/ ٥٣٥) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٧٥) و«المشكاة» (٢٤٧٨) .

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٤ و ٢٣٥) ، والحاكم (٤/ ١٧٧) ، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي والألباني كما في «الصحيحة» (٢٤٠٧) ، و«صحيح الجامع» (٧٠٩٥) .

وصف الجنة

وقبل أن نبدأ في وصف الجنة نردُّ بهذا التأصيل المهم على من زعم ـ من قبيل فهمه القاصر وعقله الضيق ـ أن الجنة والنار ما خلقهما الله ﷻ بعد !! بل سيخلق الله الجنة والنار يوم القيامة !! وهذا قولٌ باطل ؛ فالجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن لا تبيدان ولا تفنيان ، وهذا الذي اتفق عليه أصحاب النبيِّ ﷺ والتابعون لهم بإحسان من أهل السنة إلى يوم الدين ؛ بل لقد رأى النبيُّ ﷺ الجنة والنار بعينيه في الدنيا [1]، وفي ليلة الإسراء والمعراج [2] ، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة : قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النجم:١٣ـ ١٥] ، أي: ولقد رأى النبيُّ ﷺ جبريل ليلة الإسراء والمعراج مرة أخرى ، أي على هيئته التي خلقه الله عليها ، وذلك عند سدرة المنتهى ، وسدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، فكانت الجنة موجودة .

وفي « الصحيحين » [3] من حديث أنس ﷺ في حديث الإسراء الطويل ، وفيه : أن النبيَّ ﷺ قال : « ثُمَّ انْطَلَقَ جِبْرِيلُ حَتَّى انْتَهى بِي إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لاَ أَدْرِي مَا هِيَ ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ » .

فلماذا دخل النبيُّ ﷺ الجنة ؟ حتى إذا حدَّث بعد ذلك أمته وما أعد الله فيها لأوليائه من نعيم مقيم ، حدَّث حديث مَنْ عَلِمَ اليقين ومن رأى عين اليقين ، فالنبيُّ ﷺ يقول : « ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ ، وَإِذَا

(١ ، ٢) ستأتي الأحاديث بذلك .

(٣) أخرجه البخاريُّ في أحاديث الأنبياء ، باب ذكر إدريس ﷺ (٣٣٤٢) ، وانظر: (رقم: ٣٤٩)، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ (١٦٣) .

تُرَابُهَا الْمِسْكُ » (١).

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى (٢):« إن الحديث عن الجنة يحدو النفوس إلى مجاورة الملك القدوس » .

وقد جاء رجلٌ من خراسان ؛ فقال للإمام أحمد : يا أبا عبد الله ، قصدتك من خراسان أسألك عن مسألة ، فقال له : سل ، فقال : متى يجدُ العبدُ طعمَ الراحة ؟ قال : «عند أول قدم يضعها في الجنة» (٣).

ولله درُّ القائل :

أحـــزان قلبـــي لا تـــزول ... حتَّـــــى أُبَشَّر بــــــالقبول
وأرى كتـــــابي بـــــاليمين ... وتقـــرَّ عينـــي بالرســـول

ولله در من قال :

النفسُ تبكي على الدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها
وكم من مدائن في الآفاق قد بنيت ... أمست خرابًا وأفنى الموت أهليها
أين الملوك التي كانت مسلطنة ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
إن المكارم أخلاق مطهرة ... الدين أولها والعقل ثانيها

---

(١) هو الحديث المُتَقدِّم .

(٢) انظر: « حادي الأرواح » للعلامة ابن القيم (ص ١٦) بتصرف يسير .

(٣) « طبقات الحنابلة » لابن أبي يعلى (١/ ١١٥) ، وانظر : « تاريخ دمشق » (٦/ ١٣) ، و«حلية الأولياء» (١٠/ ١٣٢) .

والعلم ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والفضل باقيها
لا تركنن إلى الدنيا وزينتها ... فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدارِ غدٍ رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيشٌ نابت فيها
أنهارها لبن مصفًّى ومن عسل ... والخمر يجري رحيقًا في مجاريها
والطير تجري على الأغصان عاكفة ... تسبح الله جهرًا في مغانيها
فمن يشتري الدار في الفردوس يعمرها ... بركعةٍ في ظلام الليل يحييها

وفي « الصحيحين » [(١)] من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ : هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والحاكم بسندٍ صححه الألبانيُّ وغيره [(٢)] من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وهو حديث طويل ، وفيه أن النبيَّ ﷺ قال : « فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ : أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ ، قَالَ : فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا » .

وفي « الصحيحين » [(٣)] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي (١٣٧٩)، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار (٢٨٦٦) .

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧) ، وأبو داود ، كتاب السنة ، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (٤٧٥٣) ، والحاكم (١/ ٣٧، ٣٨) ، وصححه الشيخ الألباني في « أحكام الجنائز » (١٥٦ ـ ١٥٩) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر (١٣٧٤) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة (٢٨٧٠) .

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ قَالَ : فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ ، فَيُقْعِدانِهِ ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ فَأَمَّا المؤمِنُ فَيَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ . فَيُقَالُ لَهُ : انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ ، قَدْ أَبْدَلَكَ الله بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا » .

وفي « الصحيحين » (١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : انخَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ ـ فذكر الحديث ـ وفيه : أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله ، لاَ يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَاذْكُرُوا الله ﷻ » . (وقام يصلي صلاة الكسوف فمدَّ يده وهو يصلي وكأنه يريد أن يتناول شيئًا ، ثم ترك هذا الشيء وتكعكع) فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا ، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا ، وَرَأَيْتُ النَّارَ ، فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ ». قَالُوا : بِمَ يَا رَسُولَ الله ؟ فَقَالَ : « بِكُفْرِهِنَّ » ، قِيلَ : يَكْفُرْنَ بِالله ؟ ! قَالَ : « يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ : مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ ».

وفي « صحيح البخاري » (٢) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « قَدْ دَنَتْ مِنِّي الْجَنَّةُ حَتَّى لَوِ اجْتَرَأْتُ لَجِئْتُكُمْ بِقِطَافٍ مِنْ قِطَافِهَا ، وَدَنَتْ مِنِّي النَّارُ حَتَّى قُلْتُ : أَيْ رَبِّ ، وأَنَا مَعَهُمْ ؟ قَالَ : فَإِذَا امْرَأَةٌ ـ حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ ـ تَخْدِشُهَا هِرَّةٌ ، قُلْتُ : مَا شَأْنُ هَذِهِ ؟ قَالُوا : حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الكسوف ، باب صلاة الكسوف في جماعة (١٠٥٢) ، ومسلم ، كتاب الكسوف باب ما عرض على النبيِّ ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار (٩٠٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأذان ، باب (٩٠) ما يقول بعد التكبير (٧٤٥) .

لاَ أَطْعَمَتْهَا ، وَلاَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشِيشِ أَوْ خَشَاشِ الأَرْضِ » .

وفي « صحيح مسلم »[١] من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلاَّ قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلاَتِي هَذِهِ ، لَقَدْ جِيءَ بِالنَّارِ . وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ لَفْحِهَا ، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمِحْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ ، كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمِحْجَنِهِ ، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ : إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي ، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ . وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهِرَّةِ الَّتِي رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا . ثُمَّ جِيءَ بِالْجَنَّةِ وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْتُ حَتَّى قُمْتُ فِي مَقَامِي ، وَلَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَنَاوَلَ مِنْ ثَمَرِهَا لِتَنْظُرُوا إِلَيْهِ ، ثُمَّ بَدَا لِي أَنْ لاَ أَفْعَلَ ؛ فَمَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلاَّ قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلاَتِي هَذِهِ » .

وفي « صحيح مسلم »[٢] من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلاَةَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ ، فقَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي إِمَامُكُمْ ، فَلاَ تَسْبِقُونِي بِالرُّكُوعِ وَلاَ بِالسُّجُودِ وَلاَ بِالْقِيَامِ وَلاَ بِالانْصِرَافِ . فَإِنِّي أَرَاكُمْ أَمَامِي وَمِنْ خَلْفِي ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، قَالُوا : وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ » .

وفي سنن أبي داود والترمذي والنسائي بسندٍ حسنٍ[٣] من حديث أبي

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الكسوف ، باب ما عرض على النبيِّ ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار (٩٠٤) (١٠) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما (٤٢٦) .

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب السنة ، باب في خلق الجنة والنار (٤٧٤٤) والترمذي ، كتاب صفة الجنة ، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات (٢٥٦٠) وقال : «هذا حديث حسن صحيح» ، والنسائي كتاب الأيمان والنذور ، باب الحلف بعزة الله تعالى (٧/ ٣) ، وأحمد

هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ الله تعالى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ فَقَالَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا، فَجَاءَهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ الله لأَهْلِهَا فِيهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا. فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: فَارْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا، فَقَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَقَدْ خَشِيتُ أَلاَ يَدْخُلَهَا أَحَدٌ؛ فَقَالَ: اذْهَبْ إِلَى النَّارِ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْها فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا. قَالَ: فَأَمَرَ بِهَا، فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ مَاذَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا؟ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا».

وفي «الصحيحين»[1] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «اخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ».

وفي لفظٍ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ الْجَنَّةُ: يَا رب مَالِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، وَقَالَتِ النَّارُ: مَالِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلاَّ الْجَبَّارُون والمتكَبِّرُون، فَقَالَ الله تَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ». وفي لفظٍ: «أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَقَالَ لِلنَّارِ: وَأَنْتِ عَذَابِي أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ». وفي لفظٍ: «أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا».

= (٢/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣) وحسن إسناده الألباني في «المشكاة» (٥٦٩٦).

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] (٧٤٤٩)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦) وجميع هذه الألفاظ في «الصحيحين».

وفي «صحيح مسلم»[1] من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال : سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فِيهَا قَصْرًا أَوْ دَارًا ، فَقُلْتُ : لِمَنْ هَذَا ؟ فَقِيلَ : لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَلَوْلاَ غَيْرَتُكَ يَا أَبَا حَفْصٍ لَدَخَلْتُهُ». فَبَكَى عُمَرُ ، وَقَالَ : أَيْ رَسُولَ الله ! أَوَ عَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ الله ؟!

وها أنت ترى أدلة كثيرة على وجود الجنة والنار الآن وأنهما لا تفنيان ولا تبيدان ، ومن زعم أن الجنة والنار لم يخلقا الآن وسيخلقا يوم القيامة ، فقد كذب على القرآن والسنة ؛ فهذا تأصيلٌ مهم قبل أن نتعرف على وصف الجنة .

أبواب الجنة:

قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ [الزمر:٧٣، ٧٤] .

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى[2] : « فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها وأبوابها مغلقة ، حتى إذا وصلوا إليها فتحت في وجوههم ، فيفجؤهم العذاب بغتة ، فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها بلا مهلة ؛ فإن هذا شأن الجزاء المترتب على الشرط أن يكون عُقيبه ، فإنها دار الإهانة والخزي ، فلم يستأذن لهم في دخولها ، ويطلب من خزنتها أن يمكنوهم من الدخول ، أما الجنة ؛ فإنها دار الله ، ودار كرامتة ومحل خواصه وأوليائه ، فإن انتهوا إليها صادفوا أبوابها مغلقة ، فيرغبون إلى صاحبها ومالكها - جلَّ جلاله - أن يفتحها لهم ، ويستشفعون إليه بأولي العزم

(١) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر ﷺ (٢٣٩٤) ، وهو في « الصحيحين » البخاري (٥٢٢٧) ، ومسلم (٢٣٩٥) عن أبي هريرة ﷺ .

(٢) انظر « حادي الأرواح » (ص : ٦٩) بتصرف .

من الرسل ـ ليفتح لهم أبواب الجنة ـ وكل أولي العزم يتأخر عن ذلك ، حتى تقع الدلالة على خاتمهم ، وسيدهم ، وأفضلهم ، محمد ﷺ فيقول : « أَنَا لَهَا » [١] ، فيأتي إلى تحت العرش ، ويخر ساجدًا لله ، فيدعه ربه ما شاء الله ﷻ أن يدعه ، ثم يأذن له في رفع رأسه ، وأن يسأل حاجته ، فيشفع النبيُّ ﷺ عند الله تعالى في فتح أبواب الجنة ، فيشفعه ، ويفتحها تعظيمًا لخطرها ، وإظهارًا لمنزلة رسوله وكرامته عليه .. وهذا أبلغ وأعظم في تمام النعمة وحصول الفرح والسرور ».

وقال تعالى : ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ [ص:٥٠، ٥١]. ولا تعارض بين الآيتين ، فهم في أول الأمر ينتظرون فتح الأبواب، وبعد دخولهم لا تغلق الأبواب لأنها دار من لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتاجون إلى غلق أبوابهم في الدنيا .

وفي « الصحيحين » [٢] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ فِي سَبِيلِ الله يُدْعَى يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةَ : يَا عَبْدَ الله هَذَا خَيْرٌ ـ وفي رواية : « دَعَاهُ خَزَنَةُ الجَنَّةِ ، كُلُّ خَزَنَةِ بَابٍ:أَيْ فُلُ ! هَلُمَّ » ، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ وَبَابِ الرَّيَّانِ » ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : يَا رَسُولَ الله مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ ، فَهَلْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٧٥١٠) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣/ ٣٢٦) وهو جزءٌ من حديث الشفاعة . وراجع في هذه الجزئية أيضًا «صحيح البخاري» (٧٤٤٠) عن أنس رضي الله عنه ، و«صحيح مسلم» (١٩٥) عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذًا خليلاً » (٣٦٦٦) ، ومسلم كتاب الزكاة ، باب من جمع الصدقة وأعمال البر (١٠٢٧) .

يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأَبْوَابِ كُلِّهَا ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « نَعَمْ ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ يَا أَبَا بَكْرٍ » .

وفي رواية الطبراني وابن حبان بسندٍ صحيح [(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال أبو بكر : وهل يدعى أحدٌ منْ هذه الأبوابِ كلِّها يا رسول الله ؛ فقال النبيُّ ﷺ : « نَعَمْ ، وأنْتَ هُوَ يَا أَبَا بَكْرٍ » .

وفي « الصحيحين » [(٢)] من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ ، فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ لاَ يَدْخُلُهُ إِلاَّ الصَّائِمُونَ » .

وفي « صحيح مسلم » [(٣)] من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ - أَوْ : فَيُسْبِغُ - الْوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، إِلاَّ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ . يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ ».

ولا يعلم عظمة سعة الأبواب إلا خالقها سبحانه وتعالى .

ففي « الصحيحين » [(٤)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ ؟ فَقَالُوا : كَيْفَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فَقَالَ : يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ - وفي رواية : يَجْمَعُ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ - فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي ، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ - فذكر حديث الشفاعة

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١١١٦٦) ، وابن حبان (٦٨٦٧) ، وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد» (٩/ ٤٦) : « رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، ورجاله رجال الصحيح ، غير أحمد ابن أبي بكر السالمي ، وهو ثقة ».

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق، باب صفة أبواب الجنة (٣٢٥٧)، ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام (١١٥٢) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الطهارة ، باب الذكر المستحب عقب الوضوء (٢٣٤) .

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، (٣٣٤٠) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤/ ٣٢٧ ، ٣٢٨) .

الطويل وفيه: « فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ ، ثُمَّ يَفْتَحُ الله عَلَيَّ ، وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ، ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ! ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي . فَأَقُولُ : يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ! أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَر ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَي » .

والسُّؤال المهم : ما من باب إلا ولابد له من مفتاح ليفتح به الفاتحُ ، فما هو مفتاح أبواب الجنة ؟

والجواب- كما قال ابن القيم [1] : « لا يوفق لمعرفة مفاتيح الخير ومفاتيح الشر إلا من عظم حظه وتوفيقه ؛ فإن الله سبحانه وتعالى جعل لكلِّ خير وشر مفتاحًا ، وبابًا يُدخل منه إليه ، فالشرك والكبر والإعراض عما بعث الله به رسوله ، والغفلة عن ذكره والقيام بحقه ؛ مفتاحًا للنار ، وكما جعل الخمر مفتاح كلِّ إثم .. وجعل إطلاق النظر في الصور (للنساء المتبرجات): مفتاح العشق والزنا ، وجعل الكسل والراحة: مفتاح الخيبة والحرمان .. وجعل الكذب: مفتاح النفاق ، وجعل الشح والحرص: مفتاح البخل ، وقطيعة الرحم ، وجعل الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ مفتاح كلِّ بدعة وضلالة » ا.هـ .

وكذلك مفتاح الجنة توحيد العزيز الغفار، واتباع النبي المختار .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [2] : « إن دين الله الذي هو الإسلام مبنيٌّ على أصلين : **الأول** : أن نعبد الله وحده لا شريك له . **والثاني** : أن نعبد الله بما شرعه على لسان رسوله ﷺ ، وهذان الأصلان هما حقيقة قولنا : «أشهد أن

(١) انظر: « حادي الأرواح » (٩٣ و ٩٤ الباب الرابع عشر) ط ابن رجب . بتصرف .

(٢) انظر: « مجموع الفتاوى » (١/ ٨٠ و ٣٦٥) .

لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله » .

فبالشهادة الأولى يعرف المعبود ﷻ ، وبالشهادة الثانية يعرف الطريق الذي يتوصل منه إلى المعبود ﷻ ؛ فكلُّ الطرق إلى الله مسدودة إلا من خلف المصطفى ﷺ [(١)] .

وهذا ابن القيم ﵀ يقول[(٢)] : « مفتاح الجنة: التوحيد ، ومفتاح الصلاة: الطهور ، ومفتاح الحج : الإحرام ، ومفتاح البر : الصدق ، ومفتاح العلم: حسن السؤال ، وحسن الإصغاء ، ومفتاح النصر والظفر: الصبر ، ومفتاح المزيد : الشكر ، ومفتاح الولاية والمحبة: الذكر ، ومفتاح الفلاح: التقوى ، ومفتاح التوفيق: الرغبة والرهبة ، ومفتاح الإجابة: الدعاء ، ومفتاح الرغبة في الآخرة : الزهد في الدنيا ، ومفتاح الإيمان: التفكر فيما دعا الله عباده إلى التفكر فيه ، ومفتاح الدخول على الله : إسلام القلب وسلامته له والإخلاص له في الحب والبغض ، والفعل والترك ، ومفتاح حياة القلب : تدبر القرآن ، والتضرع بالأسحار ، وترك الذنوب ، ومفتاح حصول الرحمة : الإحسان في عبادة الخالق ، والسعي في نفع عبيده ، ومفتاح الرزق : السعي مع الاستغفار والتقوى ، ومفتاح العز : طاعة الله ورسوله ، ومفتاح الاستعداد للآخرة: قِصَرُ الأمل ، ومفتاح كل خير: الرغبة في الله والدار الآخرة ، ومفتاح كل شر: حب الدنيا وطول الأمل » .

درجات الجنة:

إن للجنة درجات ، وأهل الجنة متفاضلون في الجنة بحسب منازلهم ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾

---

(١) انظر: « الاستقامة » لشيخ الإسلام (١/ ٩٧) ، و« مفتاح دار السعادة » (١/ ٤٧) ط دار الكتب .

(٢) انظر: « الحادي » (٩٢ ، ٩٣) .

[طه:٧٥] ؛ فأهل الجنة متفاضلون في درجاتهم في الجنة بتفاضلهم في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى [1] : «والجنة درجات متفاضلة تفاضلًا عظيمًا ، وأولياء الله المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم ؛ قال الله تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء:١٨ ـ ٢١] .

فبيَّن الله سبحانه وتعالى أنه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة (يمد الجميع) من عطائه تعالى ، وأن عطاءه ما كان محظورًا من برٍّ ولا فاجر ، فبيَّن الله جلَّ وعلا أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا ، وأن درجات الآخرة أكبر من درجات الدنيا ، وتفاضل أنبياء الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كتفاضل سائر عباده المؤمنين ؛ قال تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾[البقرة:٢٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء:٥٥] .

وفي «الصحيحين» [2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وعمرو بن العاص رضي الله عنه

---

(١) انظر : «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٨٨ ـ ١٩٠) بتصرف .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٧٣٥٢) ، ومسلم ، كتاب الأقضية ، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (١٧١٦) .

أن النبيَّ ﷺ قال : « إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ ، فَلَهُ أَجْرَانِ ، فَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ ».

وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد:١٠] ، وقال تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٥] ، وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:٩] ، وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١١] » . ا.هـ المراد .

ومن أرق الآيات ؛ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال:٢ـ ٤] . فكلٌّ له درجة بحسب إيمانه ؛ فالإيمان يتفاضل ، وبناءً عليه تتفاضل الدرجات .

وفي « صحيح البخاري »[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا » فَقَالَ الصحابة : أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب درجات المجاهدين في سبيل الله (٢٧٩٠) .

الله لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ الله فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ » .

وفي « صحيح البخاري » [(١)] من حديث أنس رضي الله عنه قال : أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلامٌ ، فَجَاءَتْ أُمُّ حَارِثَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ الله ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي ، فَإِنْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ ، وَإِنْ تَكُ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ ؟ فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ : « وَيْحَكِ ، أَوَ هَبِلْتِ ، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ ، وَإِنَّهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الأَعْلَى » .

وفي « الصحيحين » [(٢)] من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ » ، قَالُوا : يَا رَسُولَ الله : تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ ؟ قَالَ : « بَلَى ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، رِجَالٌ آمَنُوا بِالله وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ » .

وفي « مسند أحمد » بسند صححه الألباني في « صحيح الجامع » [(٣)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى يَرَاهُمْ مَنْ هُمْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ ، كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الطَّالِعَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعَمَا » .

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب المغازي ، باب فضل من شهد بدرًا (٣٩٨٢) ، وانظر رقم (٢٨٠٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة (٣٢٥٦) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف (٢٨٣١) .

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٧) وأبو داود ، كتاب الحروف والقراءات ، (٣٩٨٧) ، والترمذي كتاب المناقب ، باب مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٣٦٥٨) ، وابن ماجة ، في المقدمة ، باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (٩٦) ، وصححه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٢٠٣٠) .

وفي « الصحيحين »[١] من حديث سهل بن سعد ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرَفَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ فِي السَّمَاءِ » .

قال الإمام القرطبيُّ رحمه الله في « التذكرة »[٢] : « اعلم أن هذه الغرف مختلفة في العلو والصفة ، بحسب اختلاف أصحابها في الأعمال ، فبعضها أعلى من بعض وأرفع . ثم قال : قوله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ »[٣] .

ولم يذكر عملاً ولا شيئًا سوى الإيمان بالله والتصديق للمرسلين ، وذلك ليُعلم أنه عنى الإيمان البالغ ، وتصديق المرسلين من غير سؤال آية ، ولا تلجلج ، وإلا فكيف تنال الغرفات بالإيمان والتصديق الذي للعامة » ا.هـ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ [الحجرات:١٥] .

وروى البخاريُّ تعليقًا بصيغة الجزم ووصله الطبراني بسندٍ صحيح[٤] عن ابن مسعود ﷺ قال : « اليقين الإيمان كلُّه » .

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى[٥] : « ومراد ابن مسعود أن اليقين

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار (٦٥٥٥) ، ومسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب تراني أهل الجنة أهل الغرف كما يُرى الكوكب في السماء (٢٨٣٠) .

(٢) انظر : « التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » للقرطبي (٥٨٦ ، ٥٨٧) ، باب (ما جاء في غرف الجنة ، ولمن هي ؟) .

(٣) تقدَّم وهو في «الصحيحين» .

(٤) أخرجه البخاري معلقًا في « الصحيح » (١/ ٦٠ الفتح) كتاب الإيمان ، باب قول النبي ﷺ : « بني الإسلام على خمس » ، ووصله الطبراني في « الكبير » (٨٥٤٤) ، وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١/ ٥٧) : « ورجاله رجال الصحيح » ، وصحح سنده الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١/ ٦٣) ط الريان .

(٥) انظر : « الفتح » (١/ ٦٣) .

هو أصل الإيمان » .

وقال سفيان الثوري رحمه الله[١] : « لو أنَّ اليقين اسْتَقرَّ في القلب كما ينبغي لطار فرحًا وحزنًا ، وشوقًا إلى الجنة ، وهربًا من النار » .

فالصحابة يتفاضلون ؛ فليس من المعقول أن يكون إيمان أبي بكر كإيمان عمر رضي الله عنهما ، فأعلى إيمانًا في الأمة بعد نبينا ﷺ إيمان أبي بكر ، ثم إيمان عمر ، ثم إيمان عثمان ، ثم إيمان عليٍّ ، وهذا الذي ندين لله به .

ففي « الشعب » للبيهقي[٢] بسند حسن أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح إيمان أبي بكر » .

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى[٣] : «هذا هو أبو بكر الصديق الذي عاين طائر الفاقة يحوم حول حب الإيثار ، فألقى له الصديق حب المال على روض الرضا ، واستلقى على فراش الفقر (آمنًا مطمئنًا) فنقل الطائر الحب إلى حوصلة المضاعفة (وتركه هنالك) ثم علا على أفنان شجرة الصدق يغرد (للصديق بأغلى وأعلى) فنون المدح ، ثم قام في محاريب الإسلام يتلو في حقِّه قَوْلَ ربِّهِ : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل:١٧ ـ ٢١] .

فما هي أقل درجة في الجنة ؟

والجواب من النبيِّ ﷺ ؛ ففي « صحيح مسلم »[٤] من حديث المغيرة

---

(١) انظر : « حلية الأولياء » (٧/ ١٧) .

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زيادات فضائل الصحابة» (٦٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٥ ط الرشد) ، وقد رُوي مرفوعًا ، وفيه ضَعف ، انظر : « مسند أحمد » (٥/ ٤٤ ، ٥٠) .

(٣) انظر : « الفوائد » (ص ٩٢ ، ٩٣) للعلامة ابن القيم ـ فصل : فضائل أبي بكر .

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٨٩) .

ابن شعبة ﷺ عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « سَأَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ رَبَّهُ ﷻ فَقَالَ : يَا رَبِّ ، مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً ؟ فَقَالَ اللهُ ﷻ لِمُوسى بْنِ عِمْرَانَ:هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، فَيُقَالُ لَهُ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ . فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ ، فَيُقَالُ لَهُ : أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا ؟ فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ ! فَيَقُولُ : لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ . فَيَقُولُ فِي الْخَامِسَةِ : رَضِيتُ رَبِّ ! فَيَقُولُ هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ . فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ ! قَالَ رَبِّ : فَأَعْلاَهُمْ مَنْزِلَةً ؟ فَقَالَ تَعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي ، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا ، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ».

وقد يلتبس الأمر على أحد ويقول: ألا ترى تعارضًا ظاهرًا بين بعض آيات القرآن التي تحدثت عن الجنة وبين بعض الأحاديث الصحيحة التي ذكرت وتحدثت هي الأخرى عن الجنة ؟

فالله ﷻ تارة يذكر جنة واحدة وتارة يذكر جنتين وتارة يذكر جنات كثيرة ، وهكذا يذكر النبيُّ ﷺ تارة جنة واحدة ، وفي أحاديث أخرى جناتٍ كثيرة ؛ كقول الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الحشر:٢٠] ، ويقول تعالى : ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى:٧] ، ويقول تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ [آل عمران:١٣٣] ، ويقول تعالى : ﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ ﴾ [الأعراف:٤٣] ، ويقول تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ ﴾ [البقرة:٢٥] ، ويقول تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ ﴾ [النساء:١٣] ، ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ

لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[الكهف:١٠٧] ، ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾[القمر:٥٤] .إلى آخر الآيات .

وفي « الصحيحين » [(١)] من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِهَا الثَّمَانِيَةِ شَاءَ » .

وفي « البخاري ومسلم » [(٢)] من حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال لأم حارثة : « وَيْحَكِ أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ ، وَإِنَّهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الأَعْلَى » .

كيف الجمع بين هذه الأدلة ؟

والجواب : قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى في أسماء الجنة [(٣)]: «ولها عدة أسماء باعتبار صفاتها ، ومُسَمَّاهَا واحد باعتبار الذات فهي مترادفة من هذا الوجه ، وتختلف باختلاف الصفات ، فهي متباينة من هذا الوجه ، (مختلفة الأسماء باعتبار الصفات) ، وهكذا أسماء الرب تبارك وتعالى ... فالاسم الأول (من أسماء الجنة: الجنة) وهو الاسم العام المشتمل على أنواع النعيم واللذة والسرور وقرة العين ، وأَصْلُ اشتقاق لفظة الجنة من الستر والتغطية ، وبذلك يُسمَّي الجنين في بطن أمه ؛ لأنه مستتر عن الأعين ، ومنه كذلك الجن لاستتاره عن الأعين ، ومنه المجنون لاستتار عقله ، ومنه الجنة .

الاسم الثاني : دار السلام :

قال الله تعالى : ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[الأنعام:١٢٧] ، وقال تعالى :

---

(١) تقدَّم .

(٢) تقدَّم قريبًا .

(٣) انظر : « حادي الأرواح » (١٢٦) بتصرف (الباب ٢١) .

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس:٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ [يونس:١٠] ، وقال تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس:٥٧، ٥٨] .

الاسم الثالث : دار الخلد :

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾ [الفرقان:١٥] ، وقال تعالى : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص:٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر:٤٨] .

الاسم الرابع : دار المقامة :

قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر:٣٤، ٣٥] .

قال الفراء والزجاج [١] : «المقامة مثل الإقامة ، يقال : أقمت بالمكان إقامة ومقامة ومقامًا أي : أحلنا دار الخلود من فضله» .

الاسم الخامس : جنة المأوى :

قال تعالى : ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ [النجم:١٥] ، والمأوى مفعل ؛ من : أوى يأوي إذا انضم إلى المكان واستقر به ، قال عطاء : عن ابن عباس رضي الله عنهما : « هي الجنة التي يأوي إليها جبريل والملائكة » ، وقال مقاتل والكلبي : « هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء » ، وقالت عائشة : « هي جنة من الجنان » .

---

(١) انظر : « معاني القرآن » (٤/ ٢٧١) . ط عالم الكتب .

الاسم السادس : جنات عدن :

وهي اسم جنة من الجنات ، والصحيح أنها اسم لجملة الجنان ؛ كما قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾ [مريم:٦١] ، وقال تعالى : ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾ [فاطر:٣٣] .

والاشتقاق يدل على جميعها ، فعدن من الإقامة والدوام يقال : عَدَنَ بالمكان إذا أقام به ، وعَدِنْتُ البلد أي أقمت به وتوطنتُهُ، وعدنت الإبل بمكان كذا إذا لزمت الإبل هذا المكان ولم تبرح منه .

قال الجوهري : ومنه جنات عدن أي: جنات إقامة ، ومنه سمي المعْدِن ، لأن الناس يقيمون فيه في الصيف والشتاء ، ومركز كل شيء معدِنه ، والعادن: الناقة المقيمة في المرعى .

الاسم السابع : دار الحيوان :

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت:٦٤] .

والمراد بها الجنة عند أهل التفسير ، قالوا : وإن الدار الآخرة ـ أي الجنة ـ لهي دار الحياة التي لا موت فيها .

قال الكلبيُّ : هي حياة لا موت فيها .

وقال الزجاج : هي دار الحياة الدائمة .

وقال أهل اللغة : إن الحيوان هنا بمعنى الحياة التي لا تنقطع ولا تنتهي .

الاسم الثامن : الفردوس .

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون:١١] ، وقال

تعالى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف:١٠٧] . والفردوس اسم يطلق على جميع الجنة ، ويقال على أفضلها وأعلاها ، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات ، وأصل الفردوس البستان ، والفراديس: البساتين .

الاسم التاسع : جنات النعيم .

قال تعالى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [لقمان:٨] ، وهذا اسمٌ جامع لجميع الجنات لما تضمنته من الأنواع التي يتنعم بها أهل الجنة من المأكولات والمشروبات والملبوسات والصور والرائحة والحور العين إلى غير ذلك .

الاسم العاشر : هو المقام الأمين .

قال تعالى :﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان:٥١] ، والمقام هو موضع الإقامة ، والأمين هو الآمن من كل مكروه وسوء ، وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلِّه ، وهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص إلى غير ذلك ، وقال تعالى :﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الدخان:٥٥] .

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى : « فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام ، فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها ، وأمن الخروج منها ، فلا يخافون ذلك ، وأمن الموت فلا يخافون فيها موتًا » ؛ فهم آمنون في الجنة آمنون في نعيمها .

الاسم الحادي عشر : دار مقعد الصدق :

قال تعالى :﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر:٥٤، ٥٥] » ا.هـ المراد.

فالجنة مُسَمَّاهَا واحدٌ باعتبار الذَّات ، وهي مختلفة متباينة متعددة الأسماء باعتبار الصفات .

فما تربة الجنة ؟ وما طينتها ؟ وما بناؤها ؟ تَدبَّر معي هذا الحديث الذي رواه أحمد وابن حبان وابن خزيمة وابن ماجه والترمذي ـ مختصرًا ـ وغيرهم بسندٍ صحيح بشواهده كما قال الشيخ الألباني ـ رحمه الله تعالى [1] ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسولَ الله ، إِذَا رَأَيْنَاكَ رَقَّتْ قُلُوبُنَا وَكُنَّا مِنْ أَهْلِ الآخِرَةِ ، وَإِذَا فَارَقْنَاكَ أَعْجَبَتْنَا الدُّنْيَا ، وَشَمَمْنَا النِّسَاءَ ، وَالأَوْلاَدَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَوْ تَكُونُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَلَى الحَالِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا عِنْدِي ، لَصَافَحَتْكُمُ المَلاَئِكَةُ بِأَكُفِّهِمْ ، وَلَزَارَتْكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ، وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ كَيْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ». قَالَ : قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ حَدِّثْنَا عَنِ الجَنَّةِ مَا بِنَاؤُهَا ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ ، وَمِلاَطُهَا المِسْكُ الأَذْفَرُ ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَاليَاقُوتُ ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ لاَ يَبْؤُسُ ، وَيَخْلُدُ لاَ يَمُوتُ ، لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ » ثم قال : « ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الإِمَامُ العَادِلُ ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الغَمَامِ ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَوَاتِ ، وَيَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ وَعَلاَ : وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ ».

والجنة يقف الخيال أمامها ، ويقصر الوصف دونها ، فهذا كلُّه تقريب ، وإلا

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٥) ، والترمذي (مختصرًا) ، كتاب الدعوات ، باب في العفو والعافية (٣٥٩٨) ، وابن ماجه ـ مختصرًا ـ كتاب الصيام ، باب في الصائم لا ترد دعوته (١٧٥٢) ، وابن حبان ، باب ذكر الإخبار عن وصف بناء الجنة التي أعدها ﷻ لأوليائه وأهل طاعته (٨٣٨٧)، وابن خزيمة (١٩٠١) ، وفيه أبو المدلة مجهول ، وقد وُثِّق ، وله شواهد كما في « سنن الترمذي » (٢٥٢٦) ، والحديث صححه الألباني بشواهده في « السلسلة الصحيحة » (تحت رقم : ٩٦٩) .

فإن فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وفي رواية في « صحيح مسلم »[(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « يُنَادِي مُنَادٍ : إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلاَ تَسْقَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلاَ تَبْأَسُوا أَبَدًا ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ ». [الأعراف:٤٣] .

وفي « الصحيحين »[(٢)] من حديث أنس بن مالك ﷺ قال : كان أبو ذر ﷺ يُحدث أن رسول الله ﷺ قال ـ في حديث طويل ـ وفيه : « أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ » .

وفي « صحيح مسلم »[(٣)] من حديث أبي سعيد ﷺ قال : إن النبيَّ ﷺ سُئل عن تربة الجنة ؛ فقال : « دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ ، مِسْكٌ خَالِصٌ » .

والدرمكة : مفرد درمك ، والدرمك هو الدقيق النقيُّ الصافي من النخال ، الناصع البياض[(٤)] .

وفي « مسند أحمد » بسندٍ حسَّنه العلامة أحمد شاكر ﷺ وصحَّحه بشواهده الشيخ الألباني ﷺ[(٥)] من حديث جابر بن عبد الله ﷺ عن النبيِّ ﷺ أنه قال لليهود : « إِنِّي سَائِلُهُمْ عَنْ تُرْبَةِ الْجَنَّةِ ، وَهِيَ دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ »

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب في دوام نعيم أهل الجنة (٢٨٣٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ذكر إدريس ﷺ (٣٣٤٢) ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٣) .

(٣) أخرجه مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر ابن صياد (٢٩٢٨) .

(٤) انظر « لسان العرب » لابن منظور (١٣٦٧) « مادة درمك » .

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٣٦١) ، والترمذي ، في تفسير القرآن ، باب ومن سورة المدثر (٣٣٢٧) ، وفي سنده مجالد بن سعيد ليس بالقوي ، لكن للحديث شواهد صححه بها العلامة الألباني في « الصحيحة » (١٤٣٨) ، وحسنه لغيره الأرناؤوط في تخريج «المسند» (٢٣/ ١٦٤) .

فَسَأَلَهُمْ فَقَالُوا : يَا أَبَا الْقَاسِمِ هِيَ خُبْزَةٌ ؛ فَقَالَ النبِّي ﷺ : «الْخُبْزَةُ مِنْ الدَّرْمَكِ» .

وفي رواية للترمذي [(١)] أن النبيَّ ﷺ جاءه رجلٌ يومًا وقال : يا مُحَمَّدُ غُلِبَ أَصْحَابُكَ الْيَوْمَ ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ : «وَبِمَ غُلِبُوا ؟» قَالَ : سَأَلَهُمْ يَهُودُ هَلْ يَعْلَمُ نَبِيُّكُمْ عَدَدُ خَزَنَةِ النَّارِ؟ قَالَ : فَمَا قَالُوا ؟ قَالَ : قَالُوا : لاَ نَدْرِي ! حَتَّى نَسْأَلَ النبيَّ ﷺ فقَالَ ﷺ : « أَيُغْلَبُ قَوْمٌ سُئِلُوا عَمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ، فَقَالُوا : لاَ نَعْلَمُ حَتَّى نَسْأَلَ نَبِيَّنَا ، لَكِنَّهُمْ قَدْ سَأَلُوا نَبِيَّهُمْ فَقَالُوا : أَرِنَا الله جَهْرَةً ، عَلَيَّ بِأَعْدَاءِ الله ، إِنِّي سَائِلُهُمْ عَنْ تُرْبَةِ الْجَنَّةِ وَهِيَ الدَّرْمَكُ » ، فَلَمَّا جَاؤُوا قَالُوا : يَا أَبَا الْقَاسِمِ كَمْ عَدَدُ خَزَنَةِ النَّارِ ؟ فَقَالَ النبيُّ ﷺ : « هَكَذَا وَهَكَذَا » . فِي مَرَّةٍ عَشْرَةٌ ، وَفِي مَرَّةٍ تِسْعٌ ، قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ : « مَا تُرْبَةُ الْجَنَّةِ ؟» . فَسَكَتُوا هُنَيْهَةً ، ثُمَّ قَالُوا : خُبْزَةٌ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « الْخُبْزُ مِنَ الدَّرْمَكِ » .

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى [(٢)] : « فهذه ثلاث صفات في تربة الجنة لا تعارض بينها ـ المسك ، والزعفران ، والدرمكة .

وذهبت طائفة من السلف ـ رضوان الله عليهم جميعًا ـ إلى أن تربة الجنة متضمنة للنوعين ـ المسك والزعفران ـ ثم قال : ويحتمل معنيين آخرين : أحدهما : أن يكون ترابها الزعفران، فإذا عُجن بالماء صار مسكًا، فلما كانت تربتها طيبة ، وماؤها طيبًا ، فانضم أحدهما إلى الآخر حدث لهما طيب آخر فصار مسكًا ، المعنى الثاني : أن يكون الترابُ زعفرانًا باعتبار اللون ، ومسكًا

---

(١) انظر : الحديث المتقدِّم .

(٢) انظر : « حادي الأرواح » (ص ١٧٥) ط دار ابن رجب ـ بتصرف.

باعتبار الرائحة ، وهذا من أحسن شيءٍ يكون » .

ثم قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى: « فالبهجة والإشراق لون الزعفران ، والرائحة رائحة المسك ، وكذلك تشبيهها بالدرمك وهو الخبز الصافي الذي يضرب لونه إلى صفرة مع لينها ونعومتها ، وهذا هو معنى ما ذكره سفيان بن عيينة[1] عن ابن أبي نجيح عن مجاهد بهذا : « أرض الجنة من فضة ، وترابها المسك » ، فاللون في البياض لون الفضة ، والرائحة رائحة المسك » انتهى المراد .

قال الإمام ابن القيم في « النونية »[2] :

سبحان من غرست يداه جنة الـ ... فردوس عن تكامل البنيان

ويداه أيضًا أتقنت لبنائها ... فتبارك الرحمن أعظم بان

وبناؤها اللبنات من ذهب وأخـ ... رى فضة نوعان مختلفان

وقصورها من لؤلؤ وزبرجدٍ ... أو فضة أو خالص العقيان

وكذاك من دُرٍّ وياقوت به ... نُظم البناء بغاية الإتقان

والطين مسك خالص أو زعفرا ... ن جابذا أثران مقبولان

ليسا بمختلفين لا تنكرهما ... فهما الملاط لذلك البنيان

والأرض مرمرة كخالص فضة ... مثل المرات تناله العينان

في مسلم تشبيهها بالدَّرمك الصـ ... ـافي وبالمسك العظيم الشان

هذا لحسن اللون لكن ذا لطيـ ... ـب الريح صار هناك تشبيهان

---

(١) كما في « الزهد » لابن المبارك (زيادات نعيم رقم ٢٢٩) ط ابن خلدون ، وابن أبي شيبة (١٥٨٠١) .

(٢) انظر « القصيدة النونية » بشرحها للشيخ هراس (٢/ ٣٢٨ ـ ٣٣٢) ط الفاروق .

حصباؤها درٌّ وياقوت كذا ... ك لآلئ نثرت كنثر جمان
وترابها من زعفران أو من الـ ... مسك الذي ما استل من غزلان

وفي الحديث الذي رواه ابن ماجه وابن حبان وأبو نعيم والبيهقي وغيرهم من حديث أسامة ، وفي سنده ضعف ؛ فيه سليمان بن موسى والضحاك المعافري ، وكلاهما متكلَّم فيه [1] ، قال : قال رسول الله ﷺ يومًا لأصحابه : « أَلَا مُشَمِّرٌ لِلْجَنَّةِ ؟ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا ، هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ، وَنَهَرٌ مُطَّرِدٌ ، وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ ، فِي مَقَامٍ أَبَدًا ، فِي حَبْرَةٍ وَنَضْرَةٍ ، فِي دُورٍ عَالِيَةٍ سَلِيمَةٍ بَهِيَّةٍ » قَالُوا : نَحْنُ الْمُشَمِّرُونَ لَهَا يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : « قُولُوا إِنْ شَاءَ اللهُ » .

فماذا عن غرف الجنة ؟ وقصور الجنة ؟ وخيام الجنة ؟

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الصف:١٠ـ ١٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ:٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٧٥] ، وقال تعالى : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ [الزمر:٢٠] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب صفة الجنة (٤٣٣٢) وابن حبان (٧٣٨١) والبيهقي في «البعث» (٤٣٣) وأبو نعيم في « صفة الجنة » (٢٤) .

قال البوصيري في « مصباح الزجاجة » : « في إسناده مقال ، والضحاك المعافري الدمشقي ، ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال الذهبي في « طبقات التهذيب » : « مجهول ، وسليمان بن موسى مختلف فيه ، وباقي رجال الإسناد ثقات » . فالحديث ضعيف ، وقد ضعفه الشيخ الألباني في « الضعيفة » (٣٣٥٨) و « ضعيف ابن ماجه » (٣٥٤) .

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى: « أخبر الله ﷻ عن عباده السعداء أن لهم غرفًا في الجنة ، وهي القصور الشاهقة ﴿ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ طباق فوق طباق ، مبنيات محكمات مزخرفات عاليات » [1] . وقد وصف لنا رسول الله ﷺ هذه القصور .

ففي الحديث الذي رواه عبد الله بن أحمد في « زوائد المسند » والترمذي بسند حسّنه الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ في « صحيح الجامع » [2] من حديث عليٍّ ﷺ وأخرجه أحمد من حديث أبي مالك الأشعريِّ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا ، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا ، أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَأَلَانَ الْكَلَامَ ، وَتَابَعَ الصِّيَامَ ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » .

وفي « الصحيحين » [3] من حديث سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرَفَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ فِي السَّمَاءِ » زاد في رواية : « كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ فِي الْأُفُقِ الشَّرْقِيِّ أَوِ الْغَرْبِيِّ » .

وفي « الصحيحين » [4] من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ » ، قَالُوا : يَا رَسُولَ

---

(١) انظر: « تفسير ابن كثير » عند آية [الزمر ٢٠] (١٢/ ١١٩) ط أولاد الشيخ .

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد (١/ ١٥٦)، والترمذي في كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في قول المعروف (١٩٨٤) وابن خزيمة (٢١٣٦) عن عليٍّ ، وأخرجه عبد الله (٥/ ٣٤٣) عن أبي مالك الأشعري . والحديث له شواهد حسنه بها الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٢١٢٣) و« صحيح الترغيب » (٩٣٨) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار (٦٥٥٥) ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف (٢٨٣٠) والرواية الثانية عندهما من حديث أبي سعيد . وأخرجه أحمد كذلك (٥/ ٣٤٠) .

(٤) أخرجه البخاريُّ في الرقاق (٦٥٥٦) ، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٣١) .

الله تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ ، فَقَالَ : « بَلَى ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِالله وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ » .

وقد أخبر الحق سبحانه وتعالى بأن في الجنة خيامًا ، فقال : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ [الرحمن:٧٢] .

وهذه الخيام عجيبة ، فهل تتصور خيمة من لؤلؤ ، طولها ستون ذراعًا في السماء ؟

ففي « صحيح البخاري » [(١)] من حديث عبد الله بن قيس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الْخَيْمَةُ دُرَّةٌ طُولُهَا فِي السَّمَاءِ ثَلَاثُونَ مِيلاً ، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا لِلْمُؤْمِنِ أَهْلٌ لَا يَرَاهُمُ الآخَرُونَ » .

وفي رواية لمسلم [(٢)] : « الْخَيْمَةُ دُرَّةٌ طُولُهَا فِي السَّمَاءِ سِتُّونَ مِيلًا ، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ لِلْمُؤْمِنِ لَا يَرَاهُمُ الْآخَرُونَ » .

وفي رواية أخرى عند الشيخين [(٣)] : « فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلاً فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ » .

وقد أخبر النبيُّ ﷺ عن صفات قصور بعض أهل الجنة : ففي « الصحيحين » [(٤)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة (٣٢٤٣) ، ومسلم ، في كتاب صفة القيامة ، باب صفة خيام الجنة ، وما للمؤمنين فيها من الأهلين (٢٨٣٨) .

(٢) وهو العزو السابق . وانظر « صحيح البخاري » كتاب التفسير ، باب حور مقصورات في الخيام (٤٨٧٩).

(٣) وهو العزو السابق .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٨٢٠) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة رضي الله عنها (٢٤٣٢) .

فَدَخلَتْ خَدِيجَةُ ﵂ ، فَلَمَا رآهَا جِبْرِيلُ ، قَالَ : يَا رَسُولَ الله ، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي ، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ (أي لؤلؤة مجوفة) لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ » .

وفي « الصحيحين »[(١)] من حديث أبي هريرة ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال : « بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ رَأَيْتُنِي فِي الجَنَّةِ . فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرٍ . فَقُلْتُ : لِمَنْ هَذَا القَصْرُ ؟ فَقَالُوا : لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ـ فقال النبيُّ ﷺ : فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ ، فَذَكَرْتُ غَيْرَةَ عُمَرَ فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا » فلمَّا أَخبرَ النبيُّ ﷺ عُمَرَ بِذَلِكَ بَكَى عُمَرُ ، وَقَالَ : أَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ الله ؟ » .

وفي « الصحيحين »[(٢)] من حديث عثمان بن عفان ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ الله بَنَى اللهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الجَنَّةِ » . وفي رواية: « بَيْتًا فِي الجَنةِ » .

وفي رواية للإمام أحمد من حديث ابن عباس ﵄ ورواه ابن ماجة من حديث جابر ﵁[(٣)] أنه ﷺ قال : « مَنْ بَنَى لله مَسْجِدًا وَلَوْ كَمِفْحَصِ قَطَاةٍ[(٤)]

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة (٣٢٤٢) ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر ﵁ (٢٣٩٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الصلاة ، باب من بنى مسجدًا (٤٥٠) ، ومسلم كتاب المساجد ، باب فضل بناء المساجد والحث عليها (٥٣٣).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٤١) عن ابن عباس ، وأخرجه ابن ماجه ، كتاب المساجد ، باب من بنى لله مسجدًا (٧٣٨) من حديث جابر ، والحديث صححه الألباني في « صحيح الجامع » (٦١٢٨ ، ٦١٢٩) و« صحيح الترغيب » (٢٦٧ ، ٢٦٨) .

(٤) قال في « النهاية » (١/ ٤١٥) : « مفحص القطاة ، موضعها الذي تجثم فيه وتبيض ، وكأنها تفحص عنه التراب ، أي تكشفه ، والفحص : البحث والكشف » ثم قال : « المَفْحَص : مفعل من الفَحْص » .

لِبَيْضِهَا ، بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ » .

وفي « صحيح مسلم »(١) من حديث أم حبيبة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال : «مَنْ صَلَّى اثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ تَطَوُّعًا بَنَى الله لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ » .

وفي رواية الترمذي بسنِدٍ صحيح(٢) أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ صَلَّى فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ : أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلاَةِ الْفَجْرِ ».

وفي « الصحيحين »(٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ ، أَعَدَّ الله لَهُ فِي الْجَنَّةِ نُزُلًا كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ » .

فماذا عن شجر الجنة ؟ وماذا عن ظلال الجنة ؟ وماذا عن أنهار الجنة ؟ وماذا عن عيون الجنة ؟

قال تعالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ۝ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ [النبأ:٣١ـ ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن:٦٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة:٢٧ـ ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض وبعدهن وبيان عددهن (٧٢٨) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، في أبواب الصلاة ، باب ما جاء فيمن صلَّى في يوم وليلة ثنتي عشرة ركعة من السنة وما له فيه من الفضل (٤١٥) ، ورواه الترمذي أيضًا (٤١٤) عن عائشة ، والحديث صححه الألبانيُّ في « صحيح الترمذي » (١/ ١٣١) وانظر : « الصحيحة » (٢٣٤٧) (٥/ ٤٥٩) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب فضل من غدا إلى المسجد ومَنْ راح (٦٦٢) ، ومسلم ، كتاب المساجد ، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وتُرفع بها الدرجات (٦٦٩) .

[الرحمن:٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾[ص:٥١] ، وقال تعالى : ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾[الواقعة:٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾[المرسلات:٤١، ٤٢].

فقوله : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾والسدر ؛ هو : شجر النبق ، وهو مختلف عن نبق الدنيا ، فهو شجرٌ لا شوك فيه ؛ مخضود : أي منزوع الشوك .

وورد في الحديث الذي رواه الحاكم في « المستدرك » وصحَّحه ووافقه الذهبي [(١)]، وإسناده حسن من حديث أبي أمامة ﷺ: أن أعرابيًّا أقبل يومًا على النبيِّ ﷺ وقال : يَا رسُولَ الله ، إِنَّ في الجَنَّةِ شجرة مُؤْذِية ومَا كُنْتُ أرى فِي الجَنَّة شَجَرةً تُؤْذِي صَاحِبَهَا ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ : «وَمَا هِيَ؟ » فَقَالَ الأعرابيُّ : السِّدْرُ ، فإنَّ لَهُ شَوْكًا مُؤْذِيًا ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ: « أَوَلَيْسَ الله تَعالَىٰ يَقُولُ : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾خَضَدَ الله شَوْكَهُ فَجَعَلَ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمرةً ، فَإنَّها تُنْبِتُ ثمرًا تَفتَّقُ الثَّمرةُ مِنْها ، عَنِ اثْنَيْنِ وسَبْعِين لَوْنًا ، مَا فِيهَا لَوْنٌ يُشْبِهُ الآخَر » .

أما الطلح ؛ فقَالَ جمهور المفسرين ؛ هو : الموز ، ولا تظن أن موز الجنة كموز الدنيا ، ومنهم من قال : الطلح : شجر الحجاز من نوع العضاه ، فيه شوك ، ولكنه في الجنة منضود ، أي : معدٌّ للتناول بلا كدٍّ ولا تعب أو مشقة ، وقالت طائفة ثالثة : الطلح شجرة عظيمة طويلة ، وهو شجر البوادي الكثير الشوك ؛ ولهذا الشجرِ رائحةٌ جميلة ، وظلٌّ ظليل ، وقد أضفت بالورق والثمر مكان الشوك الذي كان يوجد في الدنيا .

وهذا الذي ذكره الله من شجر الجنة إنما هو قليلٌ من كثير ؛ فإن في الجنة

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥١٨) ، والبيهقي في «البعث» (٢٦٤) ، وابن أبي الدنيا في «صفة الدنيا» (١٠٥) وغيرهم من حديث أبي أمامة مرفوعًا ، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٦٦، ٢٦٧) .

من أنواع الشجر والثمار والفاكهة والنعيم ما تشتهيه النفوس ، وتلذُّ به العيون ؛ قال تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف:٧١] .

ومن جميل ما قاله الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى [1] : « وإذا كان السدر الذي في الدنيا لا يثمر إلا ثمرة ضعيفة وهو النبق وشوكه كثير، والطلح الذي لا يراد منه في الدنيا إلا الظل يكونان في الجنة في غاية من كثرة الثمار والحسن، حتى إن الثمرة الواحدة منها تتفتق عن سبعين نوعًا من الطعام والألوان التي يشبه بعضها بعضًا ».

فما ظنك بثمار الأشجار التي تكون في الدنيا حسنة الثمار كالتفاح والنخل والعنب وغير ذلك ؟ وما ظنك بأنواع الرياحين والأزاهير ؟

وبالجملة : فإن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ نسأل الله تعالى من فضله . وشجر الجنة دائم العطاء ، فشجر الدنيا منه ما يثمر في الصيف ، ومنه ما يثمر في الشتاء ، ومنه ما يثمر في الخريف ، ثم ينقطع الثمر فترة ، أما ثمر الجنة دائم الإثمار والظل .

وقال تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد:٣٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة:٣٢، ٣٣] .

والثمر لا ينقطع ولا ينتهي ، وإذا أخذت منه خرج غيره في التو واللحظة .

ففي « صحيح مسلم » [2] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ

---

(١) «النهاية في الفتن» (١٧٦) ط التوفيقية.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الكسوف ، باب ما عُرض على النبيِّ ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار (٩٠٤).

قال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ حَتَّى لَوْ تَنَاوَلْتُ مِنهَا قِطفًا أَخَذْتُهُ » .

وفي لفظٍ : « فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا قِطفًا فَقَصُرَتْ يَدِي عَنْهُ » .

وفي لفظٍ : بَيْنَمَا نَحنُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ في صُفُوفِنَا في الصَّلاَةِ ، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ تَنَاوَلَ شَيئًا لِيَأْخُذَهُ ثُمَّ تَأَخَّرَ فَتَأَخَّرَ النَّاسُ ، فَلَـمَّا قَضَى الصَّلاَةَ قَالَ لَهُ أُبَيُّ ابْنُ كَعْبٍ : يَا رَسُولَ الله ، صَنَعتَ اليَومَ فِي صَلاتِك شَيئًا مَا كُنْتَ تَصْنَعُهُ ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ بِمَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرَةِ وَالنَّضْرَةِ ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا قِطفًا مِنْ عِنَبٍ لآتِيَكُمْ بِهِ ، فَحِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَلَوْ أَتَيْتُكُمْ بِهِ لأَكَلَ مِنْهُ مَنْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ يُنْقِصُونَهُ »[(١)].

وفي لفظٍ : « إِنِّي رَأَيْتُ الجَنَّةَ ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا ، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَابَقِيَتِ الدُّنْيَا »[(٢)].

بل بين النبيُّ ﷺ أن في الدنيا من الأشياء ما إذا أخذت منها تزداد ولا تنقص ، كل شيء ينقص بالنفقة إلا العلم ؛ فإنه يزكو بالإنفاق ؛ فشجر الجنة دائم ، وظلُّها أيضًا دائم ، قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة:٢٥] .

يقول ابن القيم ﷺ : « أي: يشبه بعضه بعضًا ليس أوله خيرًا من آخره ، فكلُّه خيار »[(٣)].

وأشجارُ الجنة ذات فروع وأغصان ؛ قال تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٢ ، ٣٥٣) ، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٠٣٤) من طريق : عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر . وابن عقيل مختلف فيه . وأصْلُ الحديث ثابتٌ كما سبق .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الكسوف ، باب ما عُرض على النبيِّ ﷺ في صلاة الكسوف (٩٠٧).

(٣) انظر: « حادي الأرواح » (٢١٤ الباب ٤٥) .

جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٍ﴾ [الرحمن:٤٦-٤٨].

وأفنان: جمع فنن وهو الغصن.

والجنة شديدة الخضرة؛ قال تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدۡهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢-٦٤].

فأشجارها كثيفة ملتفة تميل من شدة الخضرة إلى السواد.

أما ثمار الأشجار فهي قريبة من اليد؛ قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾ [الرحمن:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾ [الإنسان:١٤].

قال البراء بن عازب رضي الله عنه[1]: «يتناول الثمرة وهو نائم»، وقال: «إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قيامًا وقعودًا ومضطجعين على أي حال شاءوا».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إذا هَمَّ أحدهم أن يتناول من ثمرها تدلت إليه»[2].

أما الظلُّ؛ فقال تعالى فيه: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ [الواقعة:٣٠]، وقال تعالى فيه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ [المرسلات:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ [النساء:٥٧].

والنبيُّ ﷺ وصف بعض أشجار الجنة:

ففي «البخاري ومسلم»[3] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْجَوادُ الْمُضَمَّرُ السَّرِيعُ مِائَةَ عَامٍ ومَا

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ـ زيادات نعيم ـ (٢٣٠)، والبيهقي في «البعث» (٣١٣)، والطبري في «تفسيره» لسورة الحاقة (٣٤٨٠٦)، والحاكم (٢/ ٥١١) وهو صحيح.

(٢) راجع «حادي الأرواح» (٢١٦ الباب ٤٥).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦٥٥٣)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إن في الجنة شجرة (٢٨٢٨).

يَقْطَعُهَا ».

وفي « صحيح البخاري »[(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ ، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾[الواقعة:٣٠] »

وفي « صحيح مسلم »[(٢)] من حديث أبي هريرة وسهل بن سعد ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ لاَ يَقْطَعُهَا » .

وهناك شجرة تُسمَّى سدرة المنتهى التي رآها النبيُّ ﷺ ليلة المعراج ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم:١٣ـ ١٧] وصفها النبيُّ ﷺ فقال ؛ كما في «البخاري ومسلم»[(٣)] من حديث مالك بن صعصعة ﷺ ـ في حديث الإسراء والمعراج الطويل ـ وفيه : « ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى ، فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلاَلِ هَجَرَ ، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ ، فَقَالَ جِبرِيلُ للنَّبيِّ ﷺ : هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى ، وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ : نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ ، قُلْتُ: مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ ؟ فَقَالَ جِبرِيلُ : أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ » .

وفي « الصحيحين »[(٤)] من حديث أبي ذر ﷺ في قصة الإسراء وفيه قال

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة (٣٢٥٢) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب إن في الجنة شجرة (٢٨٢٦ و ٢٨٢٧) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب المعراج (٣٨٨٧) ، وانظر : (٣٢٠٧) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات (١٦٤).

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الصَّلاة ، باب كيف فرضت الصلاة في حديث الإسراء (٣٤٩)، ومسلم كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٣) .

النبيُّ ﷺ : « ثُمَّ انطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لاَ أَدْرِي مَا هِيَ ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ » .

ووصف النبيُّ ﷺ شجرةً أخرى ، ألا وهي : «شجرة طوبى» .

ففي الحديث الذي رواه أحمد وابن حبان وحسَّن إسناده بشواهده الشيخ الألباني [1] ـ رحمه الله تعالى ـ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « طُوبَى شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا ».

وفي «مسند» أحمد والنسائي في «الكبرى» والطيالسي ، وحسَّن إسناده لغيره الشيخ الألباني [2] ـ رحمه الله تعالى ـ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : أنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله أَخْبِرْنَا عَنْ ثِيَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، خَلْقاً تُخْلَقُ ، أَمْ نَسْجاً يُنْسَجُ ، فَضَحِكَ بَعْضُ الْقَوْمِ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «مِمَّ تَضْحَكُونَ ؟ مِنْ جَاهِلٍ يَسْأَلُ عَالِمًا؟» ثُمَّ أَكَبَّ رَسُولُ الله ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : « أَيْنَ السَّائِلُ ؟ » فَقَالَ : هُوَ ذَا أَنَا يَا رَسُولَ الله ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لاَ ، بَلْ تُشَقَّقُ عَنْهَا ثَمَرُ الْجَنَّةِ ، بَلْ تُشَقَّقُ عَنْهَا ثَمَرُ الْجَنَّةِ ، بَلْ تُشَقَّقُ عَنْهَا ثَمَرُ الْجَنَّةِ » .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٧١) ، وأبو يعلى (١٣٧٤) والطبريُّ في « تفسيره » (الرعد : ٢٩) ، وابن حبان (٧٢٣٠ إحسان) ـ مختصرًا ، ورواية درَّاج عن أبي الهيثم ضعيفة ؛ قال الألباني : « وهذا سندٌ لا بأس به في الشواهد ، لسوء حفظ دراج ، ويشهد له ما رواه فرات بن أبي الفرات عن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « طوبى لهم وحسن مآب شجرة غرسها الله بيده ، ونفخ فيها من روحه بالحلي والحلل ، وإن أغصانها لتُرى من وراء سور الجنة » ، أخرجه ابن جرير ، ثم أورد له الشيخ شواهد أخرى ؛ كما في « الصحيحة » (١٩٨٥) تحت باب : « تفسير (طوبى) » .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٠٣ ، ٢٢٥) ، والنسائي في « الكبرى » (٥٨٧٢) ، والطيالسي (٢٣٩١) عن عبد الله بن عمرو ، وفيه حنان به خارجة مجهول ، وله شاهدٌ عن جابر بسندٍ فيه مجالد ؛ أخرجه أبو يعلى (٢٠٤٦) وانظر: « الصحيحة » (٤/ ٤٦٠) .

وأخبر النبيُّ ﷺ أنَّ سيد ريحان أهل الجنة : الحناء ؛ قال تعالى : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾[الواقعة:٨٨، ٨٩] .

وروى الطبراني في « معجمه الكبير » بإسنادٍ صحيح على شرط الشيخين ، وصححه الألباني في « السلسلة » [(١)] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « سَيِّدُ رَيْحَانِ الجَنَّةِ الحنَّاءِ » وفي رواية : « الفاغية » وهي هي ؛ قال ابن القيم : « فاغية هي: نورُ الحناء ، وهي من أطيب الرياحين ، ... ثم قال : وهي معتدلة في الحر واليُبس ، فيها بعض القبض ، وإذا وضعت بين طيِّ ثياب الصوف حفظتها من السوس ، وتدخل في مراهم الفالج والتمدد ، ودهنها يحلل الأعضاء ، ويلين الأعضاء » انتهى .

هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فلها حالٌ آخر ، نسأل الله من فضله .

وفي الحديث الذي رواه البخاري في « كتاب التوحيد » [(٢)] في باب « كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة » عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ كَانَ يُحَدِّثُ يَوْمًا وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ : « أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ ﷻ فِي الزَّرْعِ ، فَقَالَ الله لَهُ : أَوَ لَسْتَ فِيمَا شِئْتَ ، قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ ، فأَسْرَعَ وَبَذَرَ ، فَتَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ ، وَتَكْوِيرُهُ أَمْثَالَ الجِبَالِ . فَيَقُولُ الله ﷻ : دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ فَإِنَّهُ لاَ يُشْبِعُكَ شَيْءٌ » ، فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ : يَا رَسُولَ الله ، لاَ تَجِدُ هَذَا إِلاَّ قُرَشِيًّا أَوْ أَنْصَارِيًّا ، فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ ، أَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » كما في «اللآلئ المصنوعة» (٢/ ٢٢٨) و« الصحيحة » (١٤٢٠) وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٨١) : رواه الطبرانيُّ ، ورجاله رجال الصحيح خلا عبد الله ابن أحمد بن حنبل ،وهو ثقة مأمون » ، وللأمانة العلمية توقَّف العلامة ابن القيم في الحكم على هذا الحديث ؛ كما في « زاد المعاد » (٤/ ٣٤٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٩).

أخي: اعلم أنه لا يوجد في الجنة شجرة ساقها من خشب، ولكن ساقها من ذهب، فاقطع الطمع تمامًا، ولا تشبه أشجار الجنة بأشجار الدنيا .

فلقد روى الترمذيُّ والبيهقي وابن حبان بإسنادٍ صحيح [1] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَا فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ إِلاَّ وَسَاقُهَا مِنْ ذَهَبٍ » .

قال مجاهد ـ رحمه الله تعالى: « أرض الجنة من وَرِق، وترابها مسك، وأصول أشجارها من ذهب وورق، وأفنانها من اللؤلؤ والزبرجد والورق والثمر والشجر بين ذلك، فمن أكل قائمًا لم يؤذه، ومن أكل جالسًا لم يؤذه، ومن أكل مضطجعًا لم يؤذه ؛ قال تعالى : ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ » [2] [الإنسان:١٤] .

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه لجرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه : « يَا جَرِيرُ ! تَوَاضَعْ لله ، فَإِنَّ مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَا جَرِيرُ ! هَلْ تَدْرِي مَا الظُّلُمَاتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ جَرِيرٌ: لاَ أَدْرِي ، فَقَالَ سَلْمَانُ : الظُّلُمَاتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظُلْمُ النَّاسِ بَيْنَهُم ، ثُمَّ أَخَذَ سَلْمَانُ عُوَيْدًا مِنَ الأَرْضِ لاَ أَكَادُ أَرَاهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ ، فَقَالَ جَرِيرُ : إِذَا طَلَبْتَ مِثْلَ هَذَا فِي الْجَنَّةِ لَمْ تَجِدْهُ ، قُلْتُ : يَا عَبْدَ الله فَأَيْنَ النَّخْلُ ؟ وأَيْنَ الشَّجَر ؟ فَقَالَ : أُصولُها اللُّؤْلُؤُ والذَّهَبُ ، وأَعْلاها الثَّمَرُ » [3] .

والسُّؤالُ المهم: كيف يُكثر المؤمن حظَّه من شجر الجنة وثمار الجنة وفاكهة الجنة ؟

والجوابُ من النبيِّ ﷺ مباشرةً ؛ ففي الحديثِ الذي رواهُ الترمذيُّ بإسنادٍ

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة شجر الجنة (٢٥٢٥)، وابن حبان (٧٤١٠)، وله شاهدٌ عند البيهقي في « البعث » (٣١٦) عن جرير عن سلمان موقوفًا وسيأتي، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٥٦٤٧) .

(٢) أخرجه البيهقي في « البعث » (٣١٤)، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١٣/ ٩٥) .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ١٢٠)، وأحمد في «الزهد» (١٥٠)، وهناد في «الزهد» (١/ ٩١) (٩٨)، والبيهقي في « البعث » (٣١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٢)، وصححه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٧٣٣) .

صحيح بشواهده[1] عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :
« لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! أَقْرِأْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا : سُبْحَانَ اللهِ ، وَالْحَمْدُ للهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ » .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله[2] في قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ [الواقعة:١٠ـ ١٤] ؛ فقال : «السابقون في الآخرة إلى الرضوان والجنات ، هم السابقون في الدنيا إلى الخيرات والطاعات » .

فعلى قدر السبق هنا يكون السبق هناك .

أنهار وعيون الجنة :

أخبرنا الله سبحانه وتعالى أن الجنة تجري من تحتها الأنهار ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [البقرة:٢٥] ، وقال سبحانه : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [الكهف:٣١] ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [محمد:١٢] .

وقد حثنا الصادق الذي لا ينطق عن الهوى عن أنهار الجنة حديثًا واضحًا جليًّا ؛ ففي ليلة الإسراء والمعراج رأى أربعة أنهار ؛ كما في « الصحيحين »[3]

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الدعوات ، باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد (٣٤٦٢) وفي سنده عبد الرحمن بن إسحاق وهو ضعيفٌ اتفاقًا ، لكن يقويه أن له شاهدين من حديث أبي أيوب ومن حديث ابن عمر ؛ كما في « مسند أحمد » (٥/ ٤١٨) ، والطبراني في « الكبير » (١٣٣٥٤) ، وصححه بشواهده العلامة الألباني في « الصحيحة » (١٠٥) .

(٢) « حادي الأرواح » (ص ١٤٨ باب ٢٧) بتصرف .

(٣) تقدَّم قريبًا .

في الحديث الطويل ، وفيه: « رَأَيْتُ نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ ، فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ: مَا هَذِه الأَنْهَارُ؟ فَقَالَ جِبرِيلُ : أَمَّا النَهْرانِ الْبَاطِنَانِ ، فَنَهْرَانِ فِي الجَنَّةِ ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ ، فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ » .

وفي « صحيح البخاري » [١] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « رُفِعَتْ لِيَ السِّدْرَةُ ، فَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ ظَاهِرَانِ وَنَهْرَانِ بَاطِنَانِ ، فَأَمَّا الظَّاهِرَانِ ؛ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ ، وَأَمَّا الْبَاطِنَانِ ؛ فَنَهَرَانِ فِي الْجَنَّةِ » .

وفي رواية في « صحيح مسلم » [٢] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « سَيْحَانُ ، وَجَيْحَانُ ، وَالْفُرَاتُ ، وَالنِّيلُ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ».

وقال الشيخ الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ في تعليقه على الحديث قبل المتقدِّم في « السلسلة » [٣] قال : « ولعل المراد من كون هذه الأنهار من الجنة أن أصلها منها ؛ كما أن أصل الإنسان من الجنة ، فلا ينافي الحديث ما هو معلوم مشاهد من أن هذه الأنهار تنبع من منابعها المعروفة في الأرض ، فإن لم يكن هذا هو المعنى أو ما يشبهه ؛ فالحديث من أمور الغيب التي يجب الإيمان بها ، والتسليم للمخبر عنها ﷺ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥] ».

وقال الحافظ رحمه الله في « شرحه لصحيح البخاري » [٤]: « قال القرطبي : فجعل الأنهار الأربعة من أنهار الجنة لما فيها من شدة العذوبة ، والهضم ، ولتضمنها البركة الإلهية ، وتشرفها بورود الأنبياء إليها وشربهم منها » [٥].

---

(١) تقدَّم قريبًا .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة (٢٨٣٩) .

(٣) « السلسلة الصحيحة » تحت حديث رقم (١١٢) (القسم الأول من المجلد الأول / ٢٢٩) .

(٤) « فتح الباري » للحافظ ابن حجر (٧/ ٢١٤) ط المعرفة .

(٥) انظر: « فيض القدير » للمناوي (٤/ ١٥٥) ط المكتبة التجارية .

وذكر النبيُّ ﷺ نهر الكوثر، وأن هذا النهر للنبيِّ ﷺ وحده، ولأمته يوم القيامة، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾.

فما هو الكوثر؟

الكوثر نهر في الجنة.

ففي «صحيح مسلم»[1] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فِي الْمَسْجِدِ، إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا. فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ ﷺ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ». فَقَرَأَ: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾. فَقَالَ ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟». فَقُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: «إِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عز وجل، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ».

فالبدعة؛ هي: كل أمر محدث في الدين، والمبتدع يتَّهم ـ من حيث لا يدري ـ الإسلام بالنقص، والرسول بالتفريط في تبليغ ما أمر الله به على وجه التمام والكمال! كيف ذلك؟ لأن الله جل جلاله ما قبض نبيَّه ﷺ إلا بعد ما أكمل الدين وأتم النعمة، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

وفي «الصحيحين»[2] من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ».

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة (٤٠٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨).

وفي «سنن الترمذي» وابن ماجه بسندٍ صحيح [(١)] من حديث العرباض بن سارية ﷺ أنه قال: وَعَظَنَا النبيُّ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي، فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَالأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ».

وفي لفظٍ في «صحيح مسلم» [(٢)] من حديث جابر بن عبد الله ﷺ: «وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ» وفي زيادة [(٣)]: «وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ».

فالمبتدع الذي أحدث أمرًا جديدًا في الدين لم يأت به النبيُّ ﷺ، يظن من حيث لا يدري أن رسول الله ﷺ قد غفل عن إبلاغ أمته هذه الجزئية الجديدة فهو يأتي ليضيفها للنبيِّ ﷺ أو للدين!!

فكلُّ خيرٍ في اتباع من سلف ... وكلُّ شرٍّ في ابتداع من خلف

فما فعله رسول الله ﷺ نفعله، وما لم يفعله رسول الله ﷺ لا نفعله، فلو

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة، واجتناب البدع (٢٦٧٦)، وابن ماجه، في المقدمة (٤٢)، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين؛ وأبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة (٤٦٠٧)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٤٥٥)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ١٣)، والخلفاء الراشدون هم الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧).

(٣) هذه الزيادة عند النسائي (١/ ٢٣٤)، وصحح سندها الألباني في «خطبة الحاجة» (٢٦) فقال: «وإسنادها صحيح، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «إقامة الدليل على إبطال التحليل» من «الفتاوى» (٣/ ٥٨)».

كان خيرًا لسبقنا إليه ، ولسبقنا إليه أصحاب النبيِّ ﷺ - ورضي الله تعالى عنهم أجمعين .

فالمبتدع يحال بينه وبين النبيِّ ﷺ يوم القيامة في وقت هو أحوج ما يكون فيه إلى أن يشرب من حوض النبيِّ ﷺ شربة هنيئة مريئة ، وفي رواية للإمام مسلم[1] : « إِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي فِي الْجَنَّةِ عَلَيْهِ حَوْضٌ »

وفي « الصحيحين »[2] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال : « أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، وَلَيُرْفَعَنَّ رِجَالٌ مِنْكُمْ ثُمَّ لَيُخْتَلَجُنَّ دُونِي ، فَأَقُولُ : يَا رَبِّ أَصْحَابِي أَصْحَابِي . فَيُقَالُ ، إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ » .

وفي « صحيح البخاري »[3] من حديث أنس رضي الله عنه قال : « لَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ قال : « أَتَيْتُ عَلَى نَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ الْمُجَوَّفِ ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ فَقَالَ : هَذَا الْكَوْثَرُ » .

وفي روايةٍ أخرى[4] : « بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ ، إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ الْمُجَوَّفِ ، قُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ ، فَإِذَا طِيبُهُ ، أَوْ طِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ » .

وفي روايةٍ للترمذي[5] قال : « بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ ، إِذْ عَرَضَ لِي نَهْرٌ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ ، قُلْتُ لِلْمَلَكِ : مَا هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَهُ

---

(١) أخرجها مسلم ، كتاب الصلاة ، (٤٠٠ مكرر) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب في الحوض (٦٥٧٦) ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٢٢٩٧) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب سورة : « إنا أعطيناك الكوثر » (٤٩٦٤) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، بابٌ في الحوض (٦٥٨١) .

(٥) أخرجه الترمذيُّ في كتاب التفسير ، باب ومن سورة الكوثر (٣٣٦٠) ، وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » (٣/ ١٣٥) .

الله ﷻ، قَالَ : ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ إِلَى طِينَةٍ فَاسْتَخْرَجَ لِي مِسْكًا ، ثُمَّ رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى فَرَأَيْتُ عِنْدَهَا نُورًا عَظِيمًا ».

وفي رواية للترمذي أيضًا [(١)] : في قوله تعالى : ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ أن النبيَّ ﷺ قال : « هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ » ؛ فَقَالَ : « رَأَيْتُ نَهْرًا فِي الْجَنَّةِ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ ، قُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي قَدْ أَعْطَاكَهُ الله ﷻ ».

وفي رواية في « صحيح البخاري » [(٢)] عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر : « هُوَ الْخَيْرُ الَّذِي أَعْطَاهُ الله إِيَّاهُ » قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن ناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة ؟ فقال سعيد : النهرُ الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه » .

وروى الترمذيُّ [(٣)] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : الْكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ ».

وروى البخاريُّ [(٤)] عن أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن مسعود قال : سألتُ عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى : ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ فقالت : « هو نَهْرٌ أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُمْ ﷺ ، شَاطِئَاهُ عَلَيْهِ دُرٌّ مُجَوَّفٌ ، آنِيَتُهُ كَعَدَدِ النُّجُومِ » .

ونهر الكوثر : نهرٌ اختص الله به نبيه ﷺ ، وهو من تكريم الله لنبيِّه ، وقد

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٥٩) وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » (٣/ ١٣٤) .

(٢) أخرجها البخاري ، كتاب التفسير ، باب سورة إنا أعطيناك الكوثر (٤٩٦٦) .

(٣) أخرجه الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الكوثر (٣٣٦١) ، وابن ماجه «كتاب الزهد» ، باب صفة الجنة (٤٣٣٤) والدارمي (٢٨٣٧) ، وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » (١/ ١٣٥) .

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب سورة إنا أعطيناك الكوثر (٤٩٦٥) .

ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « والله ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا هي أكرم عليه من محمد ﷺ »[(١)] .

وأنهار الجنة ليست ماءً فحسب ؛ فمعلوم أن كلَّ الأنهار في الدنيا من الماء فقط ، لكنَّ أنهار الجنة ليست ماءً فحسب ، فالجنة فيها أنهار الماء ، وأنهار اللبن ، وأنهار الخمر ، وأنهار العسل ، قال تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد:١٥] .

وفي « سنن الترمذي »[(٢)] بسندٍ حسن أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَحْرَ الْعَسَلِ ، وَبَحْرَ الْخَمْرِ ، وَبَحْرَ اللَّبَنِ ، وَبَحْرَ الْمَاءِ ، ثُمَّ تُشَقَّقُ الأَنْهَارُ بَعْدُ » .

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى[(٣)] : « ذكر سبحانه وتعالى هذه الأجناس الأربعة ، ونفى عن كلِّ واحدٍ منها الآفة التي تعرض لها في الدنيا ؛ فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه ، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصًا ، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شرابها ، وآفة العسل عدم تصفيته ، وهذا من آيات الرب تعالى أن تجري أنهار في الجنة من أجناس لم تجر العادة في الدنيا بإجرائها ، وأن يجريها في الجنة في غير أخدود ، وأن ينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها كما ينفي عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول واللغو والإنزاف وعدم

---

(١) أخرجه الطبريُّ (٢١٢٣٠ ، ٢١٢٣١) ، والحارث بن أبي أسامة في « مسنده » كما في « بغية الباحث » (٩٣٤) للهيثمي .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب صفة الجنة ، باب ما جاء في صفة أنهار الجنة (٢٥٧١) ، وأحمد (٥/ ٥) وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » (٢٠٧٨) و(٢/ ٣١٩) .

(٣) انظر « حادي الأرواح » (٢٢١ و ٢٢٢) ط ابن رجب . بتصرف يسير .

اللذة ؛ فهذه خمس آفات من آفات خمر الدنيا تغتال العقل ويكثر اللغو على شربها ، بل لا يطيب لشرابها ذلك إلا باللغو ، وتنزف في نفسها ، وتنزف المال ، وتصدع الرأس ، وهي كريهة المذاق ، وهي رجس من عمل الشيطان توقع العداوة والبغضاء بين الناس ، وتصد عن سبيل الله ، وتصد عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، وتدعو إلى الزنا ، وربما دعت إلى الوقوع على البنت والأخت وذوات المحارم ، وتُذهب الغيرة ، وتورث الخزي ، والندامة ، والفضيحة ... وتهتك الأستار ، وتظهر الأسرار ، وتدل على العورات ، وتهون ارتكاب القبائح والمآثم ، وتُخرج من القلب تعظيم المحارم ، « وَمُدْمِنُ الخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ »[(١)]، وكم أهاجت الخمر من حرب ، وأفقرت من غني ، وأذلت من عزيز ، ووضعت من شريف ، وسلبت من نعمة ، وجلبت من نقمة ، وفسخت مودة ، ونسجت عداوة ، وكم فرقت بين رجل وزوجته ، فذهبت بقلبه وراحت بلبه ، وكم أورثت من حسرة ، وأجرت من عبرة ، وكم أغلقت في وجه شاربها بابًا من الخير وفتحت له بابًا من الشر ، وكم أوقعت في بلية ، وعجلت من منية ، وكم أورثت من خزية ، وجرت على شاربها من محنة ، فهي جماع الإثم ، ومفتاح الشر ، وسلّابة النعم ، وجالبة النقم ، ولو لم يكن من رذائلها إلا أنها لا تجتمع هي وخمر الجنة في جوف عبد ، كما ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الآخِرَةِ »[(٢)] لكفى .وآفات الخمر

(١) هذا حديثٌ جاء عن النبي ﷺ؛ أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢) من حديث ابن عباس ، وله طرقٌ أخرى يصحُّ بمجموعها ؛ وصححه العلامة الألباني في « الصحيحة » (٦٧٧) . وقال : « فائدة » : ذكر الضياء عن ابن حبان - وهو في « صحيحه » (٧/ ٣٦٧) - أنه قال : « يشبه أن يكون معنى الخبر : من لقي الله مدمن خمر مستحلًّا لشربه ؛ لقيه كعابد وثن ؛ لاستوائهما في حالة الكفر » .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الأشربة ، باب عقوبة من شرب الخمر إذا لم يتب منها بمنعه إياها في الآخرة (٣/ ٢٠٠٣/ ٧٦) .

أضعاف أضعاف ما ذكرنا ، وكلُّها منتفية عن خمر الجنة » . انتهى .

فما أحل الله شيئًا وحرَّم شيئًا إلا ليسعد البشر في الدنيا قبل الآخرة .

طهر الله خمر الجنة من كل آفات خمر الدنيا ، فمن لم يشرب الخمر في الدنيا أكرمه الله ﷻ بخمرٍ لذَّةٍ للشاربين في جنات النعيم .

ثم قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى: « فإن قيل : فقد وصف سبحانه وتعالى الأنهار في الجنة بأنها جارية ، ومعلوم أن الماء الجاري لا يأسن ؛ فما فائدة قول الله تعالى : ﴿ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ [محمد:١٥] ؟

قيل : الماء الجاري وإن كان لا يأسن ، فإنه إن أخذ منه شيء وطال مكثه أسن ، أما ماء الجنة لا يعرض له ذلك ولو طال مكثه ما طال (يعني: إن أخذته من النهر وطال مكثه عندك لا يأسن) ، وتأمل اجتماع هذه الأنهار الأربعة التي هي أفضل هذه الأشربة للناس ، فهذا لشرابهم وطهورهم ، وهذا لقوتهم وغذائهم ، وهذا للذتهم وسرورهم ، وهذا لشفائهم ومنفعتهم »[١] .

قال العلامة الألوسي ـ رحمه الله تعالى[٢] :

« وبُدئ بالماء ؛ لأنه في الدنيا مما لا يستغنى عنه ، ثم باللبن إذ كان يجري مجرى المطعم لكثيرٍ من العرب في كثير من أوقاتهم ثم بالخمر ؛ لأنه إذا حصل الرَّيُّ والمطعم تشوقت النفس إلى ما يلتذ به ، ثم بالعسل ؛ لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخر بالرتبة ، قال سعيد بن جبير[٣] :

---

(١) «حادي الأرواح» (ص٢٢٢ باب في ذكر أنهار الجنة وعيونها وأصنافها ومجراها الذي تجري فيه) .

(٢) « روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني » (١٣/ ٢٠٥) ط دار الكتب العلمية .

(٣) عزاه السيوطي في « الدر المنثور » (تفسير سورة محمد : ١٥) لابن المنذر عن سعيد بن جبير .

« إن لبن تلك الأنهار لم يخرج من بين فرث ودم ، وخمر الجنة لم تدسها الأرجل [١] ، وعسلها لم يخرج من بطون النحل » .

فماذا عن عيون الجنة ؟

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الذاريات:١٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات:٤١] ، وقال تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ [الرحمن:٥٠] .

وقال : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾[الرحمن : ٦٦] ، وفي الجنة عينان يشرب المقربون ماؤها صرفًا غير مخلوط ، ويشرب منها الأبرار الشراب مخلوطًا ممزوجًا بغيره ؛ لأن المقربين أخلصوا أعمالهم كلها إلى رب العالمين ، فاستحقوا أن يشربوا الماء من العين خالصًا غير ممزوج ، العين الأولى : هي عين الكافور قال تعالي : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان : ٥، ٦] ، فقد أخبر أن الأبرار يشربون شرابًا ممزوجًا من عين الكافور ، بينما عباد الله يشربونها خالصة .

العين الثانية : هي عين التسنيم قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين : ٢٢ : ٢٧] .

الكافور عين الأبرار ، والتسنيم عين المقربين ، اللهم اجعلنا من المقربين .

ومن عيون الجنة:عين السلسبيل؛قال تعالى : ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ [الإنسان : ٥] .

أسأل الله ـ جلَّ وعلا ـ أن يجعلني وإياكم جميعًا من أهل الجنة .

---

(١) وفي نسخة الدر : « لم تدنسه الرجال بأرجلهم » .

أهل الجنة

فمن هم أهل الجنة ؟ وما هي صفاتهم ؟ وما هو نعيمهم ؟ ولا شك أنه لا جواب على هذه الأسئلة إلا من القرآن والسنة ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:٧٢] .

فأَهْلُ الجنة في آيات كثيرة من القرآن ، هم المؤمنون الذين يعملون الصالحات .

فما هو الإيمان ؟ وما هو العمل الصالح الذي يستحقُّ به هؤلاء الجنان ؟

الإيمان ـ أخي الكريم ـ الذي يدخلك الجنة ليس قولًا باللسان فحسب ، ولكنَّ الإيمان قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعملٌ بالجوارح والأركان ، ومعتقد سلف الأمة أن الإيمان : قولٌ وعمل ، ويزيدُ وينقص ، يزيد بالطاعات ، وينقص بترك الطاعات وبارتكاب المعاصي والزلَّات ؛ قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح : ٤] ، فأثبت الله زيادة في الإيمان بعد تنزل السكينة .

وقال ﷺ كما في الحديث الذي رواه الطبرانيُّ والحاكم بسندٍ حسَّنه الألبانيُّ رحمه الله [(١)] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه ﷺ قال : « إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٤) وقال : «رواته مصريون ثقات» ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٥٢) : « رواه الطبراني في «الكبير» وإسناده حسن » ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٨٥) ، و«صحيح الجامع» (١٥٩٠) .

فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ ـ أي: كما يبلى الثوب ـ فَاسْأَلُوا الله أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ » .

هذه هي حقيقة الإيمان ، والإيمان له أركان ، وهي: أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وقد فصَّلْتُ الحديث في أركان الإيمان تفصيلًا.

ففي «الصحيحين» [1] من حديث المسيَّب بن حزن رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لأَبِي طَالِبٍ :

« يَا عَمِّ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله » .

ووالله لو علم أبو طالب أن الإيمان مجرد كلمة يرددها باللسان فحسب لقالها ـ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ : يَا أَبَا طَالِبٍ ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ . فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ:هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « أَمَا وَالله لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ » ؛ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة : ١١٣] وعلى النبيِّ الأمين نزل قَوْلُ رب العالمين : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥،٦٦]. هذا بإيجازٍ شديدٍ جدًّا في الإيمان .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب إذا قال المشرك عند الموت : لا إله إلا الله (١٣٦٠) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة (٢٤) من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه .

فما هو العمل الصالح ؟

العمل الصالح : هو أيُّ عملٍ يبتغي به صاحبه وجه الله ، وأن يكون هذا العملُ موافقًا لهدي رسول الله ﷺ وإن قلَّ العمل ؛ هذا هو العمل الصالح ، فقد يكون العمل في أعين الناس صغيرًا وهو عند الله كبير ، وقد يكون العمل في أعين الناس كبيرًا وهو عند الله حقير ؛لأن صاحبه ما ابتغى به وجه الملك القدير ، ولم يكن عملك على هدي البشير النذير، فهذا عملٌ مردودٌ ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾[الكهف : ١١٠] .

وفي «الصحيحين»[(١)] من حديث عائشة ﵂ أنه ﷺ قال :

« مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا ـ أي في ديننا هذا ـ مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » .

أي: مردودٌ عليه ، لا قبول له من الله جلَّ وعلا ، فإن قلَّ العمل وابتغيتَ به وجه الله وكان عملك موافقًا لهدي رسول الله ﷺ ؛ فهو عملٌ صالح ، وقد فصَّل القرآن الكريم تفصيلًا في العمل الصالح الذي يكون سببًا لدخول الجنة ، وأستطيعُ في آياتٍ سريعة جدًّا أن أبين أهم الأعمال الصالحة التي ذكرها القرآن وجعلها سببًا لدخول الجنان .

فمن أعظم هذه الأعمال: الصلاة ، وكثرة السجود ، وقيام الليل .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ

(١) سبق تخريجه .

رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٥-١٧]، أي : في الجنة التي فيها مالا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [العنكبوت: ٥٨] .من هؤلاء ؟ ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٩] الصبر والتوكل : الصبر يكون على المأمور ، ويكون عن المحظور ، ويكون على المقدور ، أي: صبرٌ على الأوامر ، وعلى ما قدر الله ﷻ ، وعن النواهي ، أي: عن المعاصي ، والصبر هو : حبس النفس عن الجزع ، وحبس اللسان عن التشكي ، وحبس الجوارح عن المعاصي ، هذا هو تعريف الصبر ؛ كما قال ابن القيم[1] ، فعند الصدمة الأولى ، تقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٦] وليس كما يفعل البعض إذا مات له حبيب أو عزيز أو فقد مالًا أو ابتلي بأي ابتلاء يصرخ ، ويلطم خده ، ويشق جيبه ، ويضع التراب على رأسه ، فإذا كَلَّ ومَلَّ وتعب جلس، وقال : أنا صابر ، لا .. ليس هذا صبرًا ، إنما الصبر عند الصدمة الأولى ، اللهم ارزقنا الصبر ، والشكوى نوعان : شكوى إلى الله ، وشكوى من الله ، والشكوى إلى الله مشروعة وهى فعل الأنبياء ، قال نبيُّ الله يعقوب: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦] اشكُ إلى الله كما شئت ، وكيف شئت ، وفي أيِّ وقتٍ شئت ؛ فشكواك إلى الله قرب ، وشكواك إلى الله ذلٌّ ، وشكواك إلى الله تضرع ، وشكواك إلى الله انكسار ، أما الشكوى من الله ـ نسأل الله أن يحفظنا

(١) «عدة الصابرين» (١٨) .

وإياكم منها ـ فهي اعتراضٌ ، وتسخطٌ على الله ، وعلى قَدَرِهِ جلَّ جلاله ، وأنا أقولُ : من خاف من شيء هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه ، وكلَّما ازددت هروبًا إلى الله وشكوى إلى الله ازددت قربًا من الله .

والتوكُّل ما أعظمه ؛ فهو نهاية تحقيق التوحيد ، وهو جماع الإيمان . فما أحلى التوكل ، وما أكرمه ، وما أشرفه ؛ بل لقد جعل الله التوكل ثمرة حتمية للإيمان ؛ فقال تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣] ، وقال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم:١٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥] ، وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥] .

فمن أحسن الأعمال الصالحات الصبر والتوكل .

ومن أعظم هذه الأعمال: الاستقامة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] ؛ فما هي الاستقامة؟

ارتقى عمر ﷺ المنبر يومًا ، فقرأ هذه الآية ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود:١١١] ؛ فقال [١]: « استقاموا ـ والله ـ بطاعته ، فلم يروغوا روغان الثعالب» .

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٢٥) ، وأحمد في «الزهد» (١/ ١١٥) .

وفي «صحيح مسلم»[(١)] عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ! قُلْ لِي فِي الإِسْلامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ ، قَالَ : « قُلْ آمَنْتُ بِالله ثُمَّ اسْتَقِمْ» .

فهيا ـ أخي الحبيب ـ امتثل الأمر، واجتنب النهي ، وقِفْ عند الحدِّ ، إن زلت قدمك في بؤرة المعصية لبشريتك وضعفك ، فجدد التوبة ، والأوبة ، واستقم على طاعة الله ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها .

ومن الأعمال الصالحة: الإخبات والخوف .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[هود : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[الرحمن : ٤٦] .

وانتبهوا ؛ فإن الخوف ثمرة حتمية للإيمان ؛ قال سبحانه : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧] ؛ فالخوف ثمرة لازمة للإيمان ، وعلى قدر معرفتك بالله وعلمك به على قدر خوفك منه ، وإخباتك له .

ففي الحديث الذي رواه « البخاريُّ ومسلم » [(٢)] من حديث عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال : « أَنَا أَعْلَمُهُمْ بِالله وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً » .

واعلم بأنك ما تجرأت على معصية الله إلا لما قلَّ في قلبك قدر الله سبحانه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الزمر:٦٧] .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب جامع أوصاف الإسلام (٣٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب من لم يواجه الناس بالعتاب (٦١٠١) ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته (٢٣٥٦) .

ومن الأعمال الصالحات: الولاء والبراء .

الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين ، والبراء من الشرك والمشركين ؛ قال تعالى :﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] ؛ فأهل الولاء والبراء ، هم أهل الفرقان ، وأهل التميز والمفاصلة ، وأهل البعد عن الغبش العقدي ، والفكري ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة : ١] ؛ وقال سبحانه : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [المائدة : ٨٢] ؛ وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥١] .

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه [١] : « ليتق أحدكم أن يكون يهوديًّا أو نصرانيًّا وهو لا يشعر » .

وما أحوجنا الآن إلى الولاء والبراء ، الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين ،

(١) أخرجه عبد بن حميد ؛ كما في «الدر المنثور» (٣/ ١٠٠) وروي من كلام عبد الله بن عتبة؟ كما عند ابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١١٥٧) (٦٥١٢) ، والخلال في «السنة» (١٦٢٣) ، وابن بطة في «الإبانة» (١١٥٨ ، ١١٥٩) ، ورواه ابن جرير في «تفسيره» (١٠/ ٤٠١) (١٢١٦١) بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

والبراء من الشرك والمشركين ؛ فهذا أصلٌ من أصول الاعتقاد .

ومن الأعمال الصالحة أيضًا ما ذكره الله ﷻ في قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾
[المؤمنون: ١ - ١١]

إذًا أهل الجنة بنص القرآن هم المؤمنون ، العاملون للصالحات ، وبيَّن الله - جلَّ وعلا - أيضًا في قرآنه الكريم أن أهل الجنة هم المتقون ؛ قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ من المتقون؟ قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٥، ١٣٦] هؤلاء هم المتقون وتلك بعض صفاتهم بنص القرآن الكريم .

فما هي التقوى ؟

التقوى كما يقول ابن مسعود رضي الله عنه في الحديث الذي يصح موقوفًا [(١)]

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٧٥٣٩-٧٥٤٦) ، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢٨١)، وابن الجوزي في «نواسخ القرآن» (١٠٨) ، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٣٩٠٨) ، والحاكم=

ويضعف مرفوعًا قال : « أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر » .

قال أبو هريرة ﷺ[١] حينما سأله سائل ؛ ما التقوى؟ قال : « أخذت طريقًا ذا شوك ؟ » قال : نعم ، قال : «كيف صنعت ؟» قال : إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه ـ أي ابتعدت عنه ـ قال أبو هريرة : «ذاك التقوى» .

وقال طلق بن حبيب[٢] : «التقوى هي : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله».

وقال عليٌّ ﷺ : « التقوى هي : الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل»[٣] ، هذه هي التقوى وهؤلاء هم المتقون ؛ قال سبحانه : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣] .

فأخبر أنه أعد الجنة للمتقين ، ثم ذكر أوصافهم ، فذكر بذلهم للإحسان في حالة العسر واليسر ، والشدة والرخاء ، فمن الناس من يبذل في حال اليسر

= (٢/ ٢١٤) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي ، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ١٢٩) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ١٠٦) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٣٨) مرفوعًا وموقوفًا ، وابن المبارك في «الزهد» (٢٢) ، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٢٣٥، ٢٣٦) ، وانظر: «الدر المنثور» (٢/ ٢٨٣) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤٨) : «رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح ، والآخر ضعيف» ، وصحح ابن رجب الموقوف ؛ كما في «جامع العلوم» (٢٨٩) .

(١) أخرجه البيهقيُّ في «الزهد الكبير» (٩٦٣) ، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٦١) لابن أبي الدنيا .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤٥٣، ٢٣٦٤) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٣٥٦، ٣٥١٦٠) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٦٤) ، وابن المبارك في «الزهد» (١٣٤٣) ، وهناد في «الزهد» (٥٢٢) ، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٩٦٥) .

(٣) «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (١/ ٤٢١) .

والرخاء ولا يبذل في حال العسر والشدة ، ثم ذكر كف أذاهم عن الناس بحبس الغيظ بالكظم ، وحبس الانتقام بالعفو ، ثم ذكر حالهم بينهم وبين ربهم في ذنوبهم ، وأنهم إذا صدرت منهم ذنوب قابلوها بذكر الله والتوبة والاستغفار وترك الإصرار ، فهذا حالهم مع الله ، وذاك حالهم مع خلقه ؛ فقال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٤، ١٣٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، وهذه إضافة جديدة بين الله فيها ـ جلَّ وعلا ـ أن الجنة للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ولمن تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة ؛ فالتابع للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار بإحسانٍ معهم بموعود الله في جنة العزيز الغفار .

أما السنة النبوية المطهرة ؛ فقد بينت أهل الجنة في مواضع كثيرة ؛ فتدبروا معي طائفةً من الأحاديث النبوية على نبينا أفضل الصلاة والسلام .

ففي «صحيح مسلم»[(١)] من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قَالَ :لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ صَحَابَةِ النبيِّ ﷺ فَقَالُوا : فُلَانٌ شَهِيدٌ ؛ فُلَانٌ شَهِيدٌ حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « كَلَّا إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ » .

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم الغلول وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (١١٤).

وقد مات في الميدان ؛ ولذلك أنا أقول لأحبابنا وطلابنا : لا ينبغي البتة أن نحكم لأحدٍ بجنة أو بنار أو بشهادة ، فلا تقل : الشهيد فلان ، وقل فلان ﷾، ونرجو الله أن يتقبله عنده في الشهداء ، هكذا نقول ؛ فالصحابة يقولون فلان شهيد ؛ فقال النبيُّ ﷺ : « كَلَّا إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ أَوْ عَبَاءَةٍ غَلَّهَا » ، أخذها قبل أن تقسم الغنائم ؛ فهو يعذب بها في جهنم .

ثم قال النبيُّ ﷺ - وهذا هو محلُّ الشاهد: « يَا ابْنَ الْخَطَّابِ اذْهَبْ ، فَنَادِ فِي النَّاسِ : أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ » قالَ : فَخَرَجْتُ فَنَادَيْتُ : « أَلَا إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ » .

فهذا كما يقولُ علماء الأصول : من باب تضافر الأدلة في الموضوع الواحد ؛ فها هي السنة هي الأخرى تؤكِّد أن الجنة للمؤمنين ، كما أكَّدت آيات القرآن التي ذكرناها آنفا أن الجنة للمؤمنين .

وفي «الصحيحين» [(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ أمر بلالًا ينادي في الناس ويقول : « إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ » وفي بعض طرق الحديث: « إِلَّا مُؤْمِنٌ » .

وفي «الصحيحين» [(٢)] من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي قُبَّةٍ - أي: في بيت من بيوت الشعر - فَقَالَ ﷺ : «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟» قُلْنَا : نَعَمْ ، قَالَ : « أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟» قُلْنَا : نَعَمْ ، قَالَ : «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ ، قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر (٣٠٦٢) ، وانظر(٦٦٠٦) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١١١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب كيف الحشر (٦٥٢٨) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة (٢٢١) . .

وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ » .

وفي «صحيح مسلم»[1] عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ : « أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي ، يَوْمِي هَذَا ، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا ، حَلَالٌ ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا ، فَقُلْتُ : رَبِّ ! إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً ، قَالَ : اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ ، قَالَ: وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ : ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ » .

لا يمدُّ يده لأحدٍ ، وقد يكون محتاجًا ، لكنه عفيف ومتعفف ، هؤلاء هم الذين لا يسألون الناس إلحافًا ، ويحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، اللهم ارزقنا العفة .

وفي الحديث الذي رواه تمام في «فوائده» وابن عساكر وأبو نعيم والطبراني

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب الصفات التي يُعرَفُ بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥) .

وصححه لشواهده شيخنا الألباني [١] من حديث ابن عباس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِرِجَالِكُمْ فِي الْجَنَّةِ: النَّبِيُّ ﷺ فِي الْجَنَّةِ، وَالصِّدِّيقُ فِي الْجَنَّةِ، وَالشَّهِيدُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْمَوْلُودُ (مَوْلُودُ الإِسْلام) فِي الْجَنَّةِ، وَالرَّجُلُ يَزُورُ أَخَاهُ يَكُونُ فِي نَاحِيَةِ الْمِصْرِ - يعني: في بلد من البلدان أوفي قرية من القرى - لا يَزُورُهُ إِلا للهِ فِي الْجَنَّةِ، أَلا أُخْبِرُكُمْ بنِسَائِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ الْوَدُودُ الْوَلُودُ الْعَؤُودُ عَلَى زَوْجِهَا، إِذَا غَضِبَتْ أَوْ غَضِبَ - أَيْ: زَوْجُهَا - قَالَتْ: هَذِهِ يَدِي فِي يَدِكَ لَا أَكْتَحِلُ بِغِمْضٍ - أَيْ نَومٍ - حَتَى تَرْضَى».

وفى الحديث الذي رواه ابن ماجه وغيره وصححه الألباني رحمه الله [٢] من حديث ابن عباس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْ مَلأَ أُذُنَيْهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ خَيْرًا وَهُوَ يَسْمَعُ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنْ مَلأَ أُذُنَيْهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ شَرًّا وَهُوَ يَسْمَع».

وفى «الصحيحين» [٣] من حديث أنس ﷺ قال: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَجَبَتْ»، ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا

---

(١) أخرجه تمام في «الفوائد» (٢/ ١٢٠) (١٣١١) ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥/ ٣٦١)، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٤٢٥) (١٠/ ٤٠٣)، والطبراني في «الكبير» (١٢٤٦٧) (١٢/ ٥٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٠٣)، والبيهقي في «الشعب» (٨٧٣٢، ٩٠٢٨)، وابن قدامة المقدسي في «المتحابين في الله» (٢١، ٢٣)، وابن أبي الدنيا في «الإخوان» (١٠٣) وفي «النفقة على العيال» (٥٢٢)، و«مداراة الناس» (١٧٦)، والنسائي في «الكبرى» ببعضه (٩١٣٩)، وصححه لشواهده الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٨٧، ٣٣٨٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الثناء الحسن (٤٢٢٤)، والطبراني في «الكبير» (١٢٧٨٧) (١٢/ ١٧٠) والبيهقي في «الشعب» (٧٠١٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٨٠)، وقال البوصيري في «الزوائد»: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات»، وصححه لشواهده الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٧٤٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت (١٣٦٧، ٢٦٤٢)، ومسلم كتاب الجنائز، باب من يثنى عليه خيرٌ أو شر من الموتى (٩٤٩).

عَلَيْهَا شَرًّا ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « وَجَبَتْ » ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه : مَا وَجَبَتْ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ » .

وفي لفظٍ حسَّنه شيخُنا الألبانيُّ في صحيح سنن ابن ماجه[1] من حديث أبي زهير الثقفي قال: قال ﷺ : «يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، قَالُوا :كَيْفَ يَا رَسُولَ الله ؟ قال : «بِالثَّنَاءِ الحَسَنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّءِ » اللهم اجعل لنا ودًّا في قلوب عبادك المؤمنين .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] أي: محبة في قلوب المؤمنين.

وقال تعالى في أهل الجنة : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] ؛ أسأل الله أن يجعلنا منهم ومعهم ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الثناء الحسن (٤٢٢١) ، وأحمد (٣/ ٤١٦) ، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٤٤٢) ، وابن حبان في «صحيحه» (٧٣٨٤) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٩٦٠) ، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٦٠١، ١٦٠٢) ، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» .

نعيم أهل الجنة

تعرفنا على أهل الجنة ؛ فهم المؤمنون ، الموحدون ، المتقون ، الذين يعملون الصالحات في جميع الأمم السابقة وفي أمة النبي ﷺ ؛ فهؤلاء هم الذين يساقون إلى الجنات معززين مكرمين ، بعد شفاعة صاحب المقام المحمود ﷺ.

ففي «صحيح مسلم» [1] من حديث حذيفة بن اليمان وأبي هريرة رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : - « يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ - يوم القيامة - فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ» - أي: حتى تُقرَّب لهم الجنة ، قال سبحانه : ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[ق:٣١]، أي : قربت .

وانتبه: فهذه شفاعة ليست للقضاء ، كلَّا وإنما هي شفاعة لدخول الجنة ؛ فالشفاعة ليقضي الله بين الخلق في أرض الموقف تحدَّثْتُ عنها بالتفصيل، لكنني أتحدث عن شفاعة لدخول الجنة ، فأهْلُ الإيمان والتوحيد والتقوى من الأمم السابقة كلِّها ، لا يدخل أحدٌ منهم الجنة إلا بعد شفاعة النبيِّ محمدٍ ﷺ في أن يفتح الملك الموكل من الله أبواب الجنان ؛ فالنبيُّ ﷺ يقول : « يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يوم القيامة ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ ؛ فَيَأْتُونَ آدَمَ عليه السلام فَيَقُولُونَ : يَا أَبَانَا ، اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ آدَمُ عليه السلام ، وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ ؟ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ - أي : لم أرتق إلى هذه الدرجة وإلى هذه المكانة لأستفتح لكم الجنة - اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ الله » قال : فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ : « لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ » - أي: هذه المكانة ليست لي « إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلاً مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ » أي: منزلته معلومة وهو يعلم -

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٥) .

كما قال بعض أهل العلم الشارحين لهذا الحديث : إن منزلته لا ترتقي لهذه الدرجة ، وإنما هذه المنزلة محفوظة لأفضل الأنبياء والمرسلين ؛ فيقول الخليل ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام : « اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى ـ اعمدوا: بكسر الميم ، أي : انطلقوا إلى موسى ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ الَّذِي كَلَّمَهُ الله تَكْلِيمًا ، فَيَأْتُونَ مُوسَى ، فَيَقُولُ مُوسَى : لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ الله وَرُوحِهِ » فيأتون عيسى ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ فَيَقُولُ : « لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ » يقول ﷺ : « فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ » أي: يطلب من ربه الشفاعة أن يستفتح الجنة ؛ فهو صاحب هذه المكانة ،وهذه المنزلة « فَيُؤْذَنُ لَهُ ، وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالاً ، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ ؛ قال أبو هريرة أوحذيفة ـ رضوان الله عليهما ـ قُلْتُ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ ؟ قَالَ : « أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ ـ أي : على الصراط ـ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ : رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ » أي: الأعمال أقل من أن يمروا على الصراط مرور الكرام ! اللهم استرنا ولا تفضحنا .

ولله درُّ من قال:

أبت نفسي تتوب فما احتيالي	إذا برز العباد لذي الجلال
وقاموا من قبورهم سكارى	بأوزارٍ كأمثال الجبال
فمنهم من يمرُّ على الصراط	ومنهم من يكبُّ على الشمال
ومنهم من يسير لدارِ عَدْنِ	تلقَّاه العرائس بالغوالي

يقـــول لـــه المهيمـــين يـــا وليـــي غفـرتُ لـك الـذنوب فـلا تبـالي [١]

يقول ﷺ : « تَجْرِى بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ : رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلاَ يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلاَّ زَحْفًا ، قَالَ : وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ ، كَلاَلِيبُ ـ كلاليب جمع كلوب وهو الخطاف ـ كَلاَلِيبُ مُعَلَّقَةٌ ، مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ ».

وهكذا يتبين لنا بجلاء ووضوح أنه لن يدخل الجنة أحدٌ من الخلق ولو كان من الأمم السابقة إلا بعد شفاعة النبيِّ ﷺ في أن يفتح الله أبواب الجنة لأهل الجنة من المؤمنين والموحدين والمتقين من الأمم السابقة وبها فيهم أمة النبيِّ ﷺ؛ فلن يتقدم أحدٌ في دخول الجنة على المصطفى ﷺ أبدًا ، فهو أول من يستفتح باب الجنة ويقرع باب الجنة ، ويدخل الجنة ؛ فإن الله قد حرم الجنة على أي أحد قبل المصطفى ﷺ، ثم لا تدخل الجنة أمةٌ من الأمم قبل أمة محمد ﷺ؛ كما في «صحيح مسلم» [٢] من حديث أنس بن مالك ﷺ قال : «... وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ ».

وفي «صحيح مسلم» [٣] من حديث أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ ـ أي: أريد أن أفتح الباب ـ « فَيَقُولُ الْخَازِنُ : مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لاَ أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ» .

إذًا أول نبيٍّ وأولُ بشرٍ يقرع باب الجنة يوم القيامة هو سيد البشر ﷺ؛

---

(١) «التذكرة» للقرطبي (٤٢٩) ، و«النهاية» لابن كثير (٢/ ٧١) ط التوفيقية.

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب في قول النبيِّ ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة» (١٩٦/ ٣٣١) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٥) .

فالنبي محمد قد فضله الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

أما أمة الحبيب ﷺ فهي أمة من بين سبعين أمة هي خيرها وأكرمها على الله تعالى ومع ذلك فهي أول أمة تدخل الجنة يوم القيامة ؛ بل هي أول أمة ينادي ربُّنا تبارك وتعالى عليها للحساب في أرض المحشر ـ كما بينتُ ذلك ـ كما في «الصحيحين» [1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ : « نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَنَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولاً الْجَنَّةَ ».

ولله درُّ من قال:

ومما زادني فخرًا وتيها	وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي	وأنْ أرسلت أحمد لي نبيًّا

يا لها من كرامة ، ويا له من شرف أن تنسب إلى أمة النبيِّ ﷺ ، لكن نسأل الله ﷻ أن يجعلنا أهلاً لهذا النسب ، وأن يجعلنا أهلاً لهذا الشرف ، فإن أمة النبيِّ ﷺ أمة مكرمة ؛ قال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠] ؛ فخيرية الأمة ليست ذاتية ، ولا عِرْقية ، ولا عصبية ، وإنما هي خيريةٌ مستمدةٌ من إيمان الأمة بربها ، وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ؛ فهذه هي شروط خيرية الأمة ما كرمت وما شرفت إلا بتوحيدها لربها واتباعها لنبيها ﷺ .

فأول من يدخل الجنة هو نبينا وحبيبنا محمد ﷺ ، ويستفتح لأهل الجنة بعد ذلك ، وأول أمة تدخل الجنة هي أمة النبيِّ ﷺ .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجمعة ، باب هل على من يشهد الجمعة غسل؟ (٨٩٦) وانظر (٢٣٨) ، ومسلم ، كتاب الجمعة ، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٨٥٥) .

والسؤالُ الآن: يا تُرى من أول الناس يدخل الجنة من أمة النبيِّ ﷺ ؟

والجوابُ : أول من يدخل الجنة من الأمة طائفة تنطلق مباشرة من أرض المحشر إلى الجنة بلا حساب ولا عذاب ، إنهم أهل السبق ، والفضل ، والكرم ، وهم القمم الشامخة في أمة النبيِّ ﷺ ، قمم شامخة في الإيمان والتوحيد والتقى والتوكل على الله .. قمم شامخة في العمل الصالح والاستقامة على الدين ، يدخلون الجنة صفًا واحدًا ، يدخل أولهم مع آخرهم لا تفريق ولا تمييز بينهم ، تلك الكوكبة الكريمة التي تحدثت عنها من قبل ، تنطلق إلى الجنة مباشرة بلا حساب ولا عذاب ، فَمَنْ هؤلاء ؟

روى «البخاريُّ ومسلم» [1] من حديث ابن عباس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ - أي: وهي تدخل الجنة - فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيطُ - ما دون العشرة - وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلاَنِ ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي ، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ . فَنَظَرْتُ ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ ؛ فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ الآخَرِ. فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ » .

ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ الله - ﷺ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلاَمِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِالله. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ ؛ فَقَالَ : «مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟». فَأَخْبَرُوهُ ،

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الطب ، باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو (٥٧٠٥) وانظر (٣٤١٠) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢٢٠) واللفظ له .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ ـ في رواية البخاري: « هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ ، وَلاَ يَكْتَوُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ».

وقوله : « لاَ يَسْتَرْقُونَ » : أي لا يطلبون الرقية من أحد ، ولكن لا حرج إن تقدم أحد لرقيتهم فهم لا يمنعون ذلك ، وكذلك : « لاَ يَكْتَوُونَ » أي : لا يطلبون هم بأنفسهم الكيَّ من أحد ، « وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ » أي : لا يتشاءمون ؛ لأنهم يعلمون يقينًا أن الأمر كلَّه بيد الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ ومن ثم فهم يتوكَّلُون على الله ، ولا يسألون إلا الله ، ولا ينزلون حوائجهم إلا بالله وحده تبارك وتعالى ـ فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ؟ فَقَالَ : « أَنْتَ مِنْهُمْ » ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ ؛ فَقَالَ : ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: « سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ ».

وقد وصف النبيُّ ﷺ هؤلاء السعداء في رواية في «الصحيحين» [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ : « يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ » .

وروى «البخاريُّ ومسلم» [(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: واللفظ للبخاري : « أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ ، صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا ، وَلاَ يَمْتَخِطُونَ ، وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ ، آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ ، وَلِكُلِّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب اللباس ، باب البرود والحبرة والشملة (٥٨١١ ، ٦٥٤٢) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢١٦) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٥) ، ومسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٣٤) .

وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ لا اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ».

وروى «البخاريُّ ومسلمٌ »[1] عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: « لَيَدْخُلَنَّ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا، أَوْ سَبْعُ مَائَةِ أَلْفٍ لاَ يَدْخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ، وَجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ».

ولقد ذكر النبيُّ ﷺ أنه بعدما يدخل هؤلاء الجنة بغير حساب ولا عذاب يحبس بقية المؤمنين على قنطرة بين الجنة والنار للقصاص والتهذيب والتصفية والتنقية قبل أن يدخلوا الجنة.

ففي الحديث الذي رواه «البخاريُّ»[2] من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لأَحَدُهُمْ أَهْدَى ـ أي: أعرف ـ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا »

أسأل الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

*****

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٧، ٦٥٤٣، ٦٥٥٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢١٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة (٦٥٣٥) وانظر (٢٤٤٠).

سادات وسيدات أهل الجنة

وسوف نتحدَّث عن سادة وسيدات أهل الجنة ؛ فمن هم السادة؟ ومن هن السيدات؟

تعالوا بنا لنجيب على هذين السؤالين ؛ ولنبدأ بالكهول ، ثم بالشباب ، ثم بالنساء ، ويالـه والله من موضوع رقيق .

ففي الحديث الذي رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وابن عدي ، وابن عساكر ، وغيرهم بسندٍ صحيح بمجموع طرقه من حديث جابر بن عبد الله وأنس وأبي سعيد الخدري وعليٍّ بن أبي طالب [1] وغيرهم رضي الله عنهم أن النبيَّ ﷺ قال : « **أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، إِلَّا النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ** » .

فمن سادة الشباب ؟

الجوابُ : من سيد الأنبياء ﷺ ـ كما في الحديث الذي قال فيه شيخنا الألبانيُّ ـ رحمه الله تعالى : « وهو حديث صحيح بلا ريب » ـ وقد رواه جمع كبير من أصحاب النبيِّ ﷺ حتى بلغ حد التواتر ، رواه الترمذي ، وأحمد ، والطبراني ، والحاكم ، وغيرهم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **اَلْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ** » [2] .

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (١/ ٨٠) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٩٤١) ، والترمذي ، كتاب المناقب ، باب مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما (٣٦٦٥، ٣٦٦٦) ، وابن ماجه في «المقدمة» ، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٩٥) عن علي رضي الله عنه ، ورُوي عن أنس وأبي جحيفة وجابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري ، ولذلك صححه الشيخ الألباني بمجموع طرقه في «السلسلة الصحيحة» (٨٢٤) .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٠، ٨٢) ، وابن حبان في «صحيحه» (٥٩٥٩) ، والترمذي في كتاب المناقب ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (٣٧٦٨) وقال: «حسن صحيح» ، والحاكم (٣/ ١٦٦، ١٦٧) ، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٣٨) (٢٦١٠- ٢٦١٥) ، و«الأوسط» (٢١٩٠، ٥٦٤٤) ، وأبو يعلى في «مسنده» (١١٦٩) ، وابن أبي شيبة في=

وفي الحديث الذي رواه الترمذيُّ، وابن حبان، وأحمد، والطبراني، وغيرهم [١] من حديث حذيفة ﷺ وفيه أنه ﷺ قال: «عَرَضَ لِي مَلَكٌ لَمْ يَنْزِلِ الْأَرْضَ قَطُّ قَبْلَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ، اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيَّ وَيُبَشِّرَنِي بِأَنَّ فَاطِمَةَ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

وفي الحديث الذي رواه الحاكم وابن عساكر [٢] عن عبد الله بن عمر ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «ابْنَايَ هَذَانِ ـ يريد الحسن والحسين ـ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

فسيدا شباب أهل الجنة هما: الحسن والحسين.

فمن سيدات نساء الجنة؟

والجوابُ من رسول الله ﷺ؛ ففي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والحاكم، والطحاوي في «مشكل الآثار» وغيرهم [٣] من حديث ابن عباس

= «مصنفه» (٣٢١٧٦)، والنسائي في «الكبرى» (٨١٦٩، ٨٥١٤- ٨٥٢٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٧١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧٩٦).

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٩١، ٣٩٢)، والترمذي، كتاب المناقب، باب ٣٠ (٣٧٨١) وقال: «حسن غريب من هذا الوجه»، وابن حبان في «صحيحه» (٦٩٦٠)، والحاكم (٣/ ٤٢٩) ط العلمية، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٣٧، ٣٨) و(٢٢/ ٤٠٢)، و«الأوسط» (٦٢٨٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٢١٧٧)، والنسائي في «الكبرى» (٨٢٩٨، ٨٣٦٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٩٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧٩٦).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ١٦٧)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٣/ ٢٠٩)، وراجع «الصحيحة» ـ كما تقدم ـ و«صحيح الجامع» (٤٧).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣، ٣١٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠١٠)، والحاكم (٢/ ٥٩٤) و(٣/ ١٦٠، ١٨٥)، والطحاوي في «المشكل» (١/ ٥٠)، والطبراني في «الكبير» (١١٩٢٨) (١١/ ٣٣٦) و(٢٢/ ٤٠٧)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٧٢٢)، والنسائي في «الكبرى» (٨٣٥٥، ٨٣٥٧، ٨٣٦٤)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٥٩٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٠٨).

رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : «أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ » رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ.

فسيدات أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ﷺ، ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون .

فَمَنْ أهل الجنة ممن بشرهم النبيُّ ﷺ بالجنة وهم في الدنيا؟

ففي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والترمذي وغيرهما [1] عن عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَسَعْدٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَسَعِيدٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ » .

فهؤلاء عشرة بشرهم النبيُّ ﷺ في الدنيا بأنهم من أهل الجنة .

وهناك من غير العشرة من بشره رسول الله ﷺ بالجنة ؛ فتعالوا بنا لنتعرف على من بُشِّرَ بالجنة من غير العشرة .

من هؤلاء : جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعبد الله بن سلام ، وزيد بن حارثة ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وحارثة بن النعمان ، وبلال بن رباح ، و أبو الدحداح ، وورقة بن نوفل ، وعمرو بن الجموح ، وعمير بن الحمام ،وعكاشة بن محصن ، وثابت بن قيس بن شماس ،وحارثة بن سراقة ، وعمار بن ياسر وآله ، وحذيفة بن اليمان ، وسعدبن معاذ رضي الله عنهم جميعًا .

---

(١) أخرجه الترمذيُّ في كتاب المناقب ، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه (٣٧٤٧) ، وأحمد في «مسنده» (١/ ١٩٣) ، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٠٢) ، وأبو يعلى في «مسنده» (٨٣٥) ، والنسائي في «الكبرى» (٨١٩٤) ، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣٢) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٠) .

ففي الحديث الذي رواه الطبراني وابن عدي والحاكم [(١)] عن ابن عباس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ الْبَارِحَةَ، فَنَظَرْتُ فِيهَا، وَإِذَا جَعْفَرٌ، يَطِيرُ مَعَ الْمَلائِكَةِ، وَإِذَا حَمْزَةُ مُتَكِئٌ عَلَى سَرِيرٍ».

وروى الترمذي وابن حبان وأبويعلى والحاكم [(٢)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «رَأَيْتُ جَعْفَرَ بنَ أَبِي طَالِبٍ مَلَكًا يَطِيرُ فِي الْجَنَّةِ بِجَنَاحَيْهِ».

ومنهم عبد الله بن سلام ﷺ، ففي «الصحيحين» [(٣)] عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ: إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِلَّا لِعَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ، قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ [الأحقاف:١٠]. ولفظُ مسلم: «مَا سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ لِحَيٍّ يَمْشِي: إِنَّهُ فِي الْجَنَّةِ، إِلَّا لِعَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ».

وفي «مسند» أحمد و«صحيح» ابن حبان والحاكم وعبد بن حميد [(٤)] من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِقَصْعَةٍ، فَأَكَلَ مِنْهَا،

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢١٧، ٢٣١)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ١٠٧)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣٣٩)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٥/ ٦١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٦٣).

(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب المناقب، باب مناقب جعفر ﷺ (٣٧٦٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٤٧)، وأبو يعلى (١٥٢٨، ١٥٢٩)، والحاكم (٣/ ٢٠٩)، وصححه بشواهده الألباني في «الصحيحة» (١٢٢٦)، و«صحيح الجامع» (٣٤٦٥).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب عبد الله بن سلام (٣٨١٢)، ومسلم ـ مختصرًا ـ كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن سلام (٢٤٨٣).

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ١٦٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٧١٦٤)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٥١، ١٥٢)، وأبو يعلى (٢/ ٧٥، ٩٨)، والحاكم (٣/ ٤١٦) وصححه ووافقه الذهبي، وحسن إسناده الشيخ شعيب في تحقيقه للمسند.

فَفَضَلَتْ فَضْلَةٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « يَجِيءُ رَجُلٌ مِنْ هَذَا الْفَجِّ ، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَأْكُلُ هَذِهِ الْفَضْلَةَ » ، قَالَ سَعْدٌ : وَكُنْتُ تَرَكْتُ أَخِي عُمَيْرًا يَتَوَضَّأُ ، فَقُلْتُ : هُوَ عُمَيْرٌ ، قَالَ : فَجَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلامٍ فَأَكَلَهَا»

ومنهم زيد بن حارثة رضي الله عنه ؛ كما روى الروياني والضياء في «المختارة» وابن عساكر وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» [١] عن بريدة أن النبيَّ ﷺ قال : « دَخَلْتُ الجَنَّةَ فاسْتَقْبَلَتْنِي جَارِيَةٌ ، فَقُلْتُ : لِمَنْ أَنْتِ ؟ قَالَتْ: أَنَا لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ » .

ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل ؛ كما عند ابن عساكر بسندٍ حسنه شيخنا الألباني في «الصحيحة» [٢] من حديث عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال : « دَخَلْتُ الجَنَّةَ ، فَرَأَيْتُ لِزَيْدِ بْنِ عَمْرو بن نُفَيْلٍ دَرَجَتَيْنِ فِي الجَنَّةِ » .

ومنهم حارثة بن النعمان رضي الله عنه ؛ كما في «مسند» أحمد و«فضائل الصحابة» له وعبد الرزاق في«مصنفه» والنسائي في «فضائل الصحابة» والحاكم وأبي يعلى وغيرهم [٣] عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : « نِمْتُ فَرَأَيْتُنِي فِي الجَنَّةِ فَسَمِعْتُ صَوْتَ قَارِئٍ يَقْرَأُ ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ ؛ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ : كَذَاكَ الْبِرُّ كَذَاكَ الْبِرُّ » وَكَانَ أَبَرَّ النَّاسِ بِأُمِّهِ .

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٥٦) ، وابن عساكر في«تاريخه» (١٩/ ٣٧١) ، وعزاه السيوطي في «الجامع الصغير» للروياني والضياء في «المختارة» ، وصححه على شرط مسلم الألباني في «الصحيحة» (١٨٥٩) .

(٢) أخرجه ابن عساكر (١٩/ ٥١٢) وفيه :«دوحتين» بدلًا من: «درجتين» ، وحسن إسناده الألباني في «الصحيحة» (١٤٠٦) ، و«صحيح الجامع» (٣٣٦٧) .

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣٦، ١٥١، ١٥٢، ١٦٦، ١٦٧) ، وفي «فضائل الصحابة» (١٥٠٧) ، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠١٤) ، وعبد الرزاق في «مصنفه» (١١/ ١٣٢) ، وأبو يعلى (٧/ ٣٩٩) ، والحاكم (٣/ ٢٠٨) ،وصححه ووافقه الذهبي ، والحميدي (٢٨٥) ، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٥٦) ، وابن وهب في «الجامع» (٢٠/ ٢٢) وغيرهم ، وصححه الألباني على شرط الشيخين في «الصحيحة» (٩١٣) ، و«صحيح الجامع» (٣٣٧١) .

ومنهم بلال ﷺ، والرميصاء أم سليم ﷺ؛ كما في «الصحيحين»[(١)] عن جابر بن عبد الله ﷺ أنه ﷺ قال: «رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ، امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ، وَسَمِعْتُ خَشَفَةً فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا بِلَالٌ».

ومنهم أبو الدحداح؛ كما في «صحيح مسلم»[(٢)] من حديث جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ﷺ، قَالَ: صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ عَلَى ابْنِ الدَّحْدَاحِ، ثُمَّ أُتِيَ بِفَرَسٍ عُرْيٍ فَعَقَلَهُ رَجُلٌ فَرَكِبَهُ، فَجَعَلَ يَتَوَقَّصُ بِهِ، وَنَحْنُ نَتَّبِعُهُ، نَسْعَى خَلْفَهُ، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كَمْ مِنْ عِذْقٍ مُعَلَّقٍ - أَوْ مُدَلًّى - فِي الْجَنَّةِ لِابْنِ الدَّحْدَاحِ». أو «لأَبِي الدَّحْدَاحِ».

وفي «مسند» أحمد وعبد بن حميد وأبي يعلى وابن حبان وغيرهم[(٣)] عن أنس ﷺ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ لِفُلَانٍ نَخْلَةً وَأَنَا أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا فَأْمُرْهُ أَنْ يُعْطِيَنِي حَتَّى أُقِيمَ حَائِطِي بِهَا؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعْطِهَا إِيَّاهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ» فَأَبَى، فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَقَالَ: بِعْنِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي، فَفَعَلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي قَدْ ابْتَعْتُ النَّخْلَةَ بِحَائِطِي، قَالَ: فَاجْعَلْهَا لَهُ فَقَدْ أَعْطَيْتُكَهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَاحَ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ» قَالَهَا مِرَارًا، قَالَ: فَأَتَى امْرَأَتَهُ، فَقَالَ يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ، اخْرُجِي مِنَ الْحَائِطِ؛ فَإِنِّي قَدْ بِعْتُهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَتْ: رَبِحَ الْبَيْعُ، أَوْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب (٣٦٧٩)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم سليم أم أنس بن مالك وبلال (٢٤٥٧).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب ركوب المصلي على الجنازة إذا انصرف (٩٦٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٤٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٣٣٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٧١٥٩)، والحاكم (٢/ ٢٠) وصححه ووافقه الذهبي، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٩٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (٣٤٥١)، وصححه الشيخ شعيب على شرط مسلم.

كَلِمَةٌ تُشْبِهُهَا .

ومنهم ورقة بن نوفل ؛ كما في «مسند» أبي يعلى و«تاريخ» ابن عساكر وحسَّن إسناده الألبانيُّ [(١)] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : وَسُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنْ وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ ، قَالَ : «أَبْصَرْتُهُ فِي بُطْنَانِ الْجَنَّةِ عَلَيْهِ سُنْدُسٌ» .

وروى الحاكم والبزار وابن عساكر وغيرهم [(٢)] عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : « لَا تَسُبُّوا وَرَقَةَ فَإِنِّي رَأَيْتُ لَهُ جَنَّةً أَوْ جَنَّتَيْنِ » .

ومنهم عمرو بن الجموح رضي الله عنه ؛ كما في «مسند» أحمد بسندٍ حسن [(٣)] من حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال: أَتَى عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلْتُ فِي سَبِيلِ الله حَتَّى أُقْتَلَ ، أَمْشِي بِرِجْلِي هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الْجَنَّةِ ؟ وَكَانَتْ رِجْلُهُ عَرْجَاءَ ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « نَعَمْ ». فَقُتِلُوا يَوْمَ أُحُدٍ هُوَ وَابْنُ أَخِيهِ وَمَوْلًى لَهُمْ ؛ فَمَرَّ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ : « كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ تَمْشِي بِرِجْلِكَ هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الْجَنَّةِ ». فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِهِمَا وَبِمَوْلَاهُمَا فَجُعِلُوا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ .

ومنهم عمير بن الحمام رضي الله عنه ؛ كما في «صحيح مسلم» [(٤)] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ بُسَيْسَةَ ، عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ ،

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٢٠٤٧) ، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٦٠٢) ، وابن عساكر في «تاريخه» (٦٣/ ٢٢، ٢٣) ، وحسنه الألباني في «صحيح السيرة» (٩٤) .

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٦٠٩) وصححه ووافقه الذهبي ، والبزار (٢٧٥٠) وابن عساكر في «تاريخه» (٦٣/ ٢٤) ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٠٥) و«صحيح الجامع» (٧٣٢٠) .

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٩٩) ، وابن شبة في «أخبار المدينة» (٣٧٣) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٣١٥) : «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير يحيى بن نصر الأنصاري وهو ثقة» وحسن إسناده الحافظ في «الفتح» (٥/ ١٧٨) ، وقال شعيب: «إسناده حسن».

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠١) .

فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: لاَ أَدْرِي مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ قَالَ: فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ ، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ فَتَكَلَّمَ فَقَالَ: «إِنَّ لَنَا طَلِبَةً فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا». فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: « لاَ إِلاَّ مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا ». فَانْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « لاَ يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ ». فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ». قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ الله ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: بَخٍ بَخٍ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ: بَخٍ بَخٍ ». قَالَ: لاَ وَالله يَا رَسُولَ الله إِلاَّ رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ: « فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا ». فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ» .

وعكاشة بن محصن ﷺ كذلك ؛ وقد سبق حديثه في «الصحيحين»[1] عند حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، قال عكاشة بن محصن: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: «نَعَمْ» .

ومنهم ثابت بن قيس بن شماس ﷺ ؛ كما في «الصحيحين» [2] من حديث أنس ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ ؛ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله ، أَنَا

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٧٠٥، ٦٥٤٢) ، ومسلم (٢١٦، ٢١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ ، ومن حديث ابن عباس ﷺ .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الحجرات:٢] (٤٨٤٦) ، وانظر (٣٦١٣) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله (١١٩) .

أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ ؛ فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ مُنَكِّسًا رَأْسَهُ ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ ، فَأَتَى الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا ؛ فَقَالَ مُوسَى بْنُ أَنَسٍ : فَرَجَعَ المَرَّةَ الآخِرَةَ بِبِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ فَقَالَ: «اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ : إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَلَكِنْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» . وفي رواية لمسلم ؛ قال الصحابة : « فَكُنَّا نَرَاهُ يَمْشِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» .

ومنهم حارثة بن سراقة ؓ ؛ كما في «صحيح البخاري» [(١)] عن أنس ؓ قال: أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي ، فَإِنْ يَكُنْ فِي الجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ ، وَإِنْ تَكُ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ؟ فَقَالَ: «وَيْحَكِ أَوَهَبِلْتِ أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ ، إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ ، وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ» .

ومنهم عمار بن ياسر وآله ؓ ؛ كما روى الحاكم والبيهقي وابن سعد في «الطبقات» وغيرهم [(٢)] عن جابر ؓ ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَرَّ بِعَمَّارٍ وَأَهْلِهِ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ ، فَقَالَ: «أَبْشِرُوا آلَ عَمَّارٍ وَآلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الجَنَّةَ» .

ومنهم حذيفة بن اليمان ؓ ؛ كما عند أحمد وابن إسحاق في «السيرة» [(٣)]

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب فضل من شهد بدرًا (٣٩٨٢) ، وانظر (٢٨٠٩) .

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١٨٨) مرسلًا ، والحاكم (٣/ ٣٨٨، ٣٨٩) ، ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٨٢) ، وله شواهد عند أحمد (١/ ٦٢) ، وابن سعد (٣/ ١٧٧، ١٧٨) ، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٤٠) ، والبيهقي في «الشعب» (١٥١٥، ١٦٣١) ، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٣٠٣) ، وابن إسحاق في «السيرة النبوية» (٤/ ١٧٢) ، وذكره الشيخ الألباني في «صحيح السيرة النبوية» (١٥٤) وقال: «حسن صحيح» في تخريج «فقه السيرة» (١٠٣) .

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٩٢، ٣٩٣) ، وابن إسحاق في «السيرة» (٣/ ٢٣١) ، وقال شعيب : «صحيح ، وهذا إسناد حسن لولا إرساله» .

عن محمد بن كعب القرظي ، وفيه : «... مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ». يَشْتَرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ ، فَمَا قَامَ رَجُلٌ ، ثُمَّ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ ». يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجْعَةَ «أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ...» وأصله في «صحيح مسلم»[١] وفيه : « أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

ومنهم سعد بن معاذ رضي الله عنه ؛ كما في «الصحيحين»[٢] عن أنس رضي الله عنه قال: أُهْدِيَ لِلنَّبِيِّ ﷺ جُبَّةُ سُنْدُسٍ ، وَكَانَ يَنْهَى عَنِ الْحَرِيرِ ، فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْهَا ؛ فَقَالَ : «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا» .

ومنهم عائشة رضي الله عنها ؛ كما عند ابن سعد في «الطبقات» وابن أبي شيبة في «مصنفه» والحاكم وغيرهم[٣] أن النبيَّ ﷺ قال : «عَائِشَةُ زَوْجِي فِي الْجَنَّةِ» .

وفي رواية عند «البخاريِّ»[٤] من حديث عمار رضي الله عنه أَنَّهُ قال : « ... وَاللهِ إِنَّهَا لَزَوْجَة نَبِيكُمْ ﷺ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » .

وأكتفي بهذا القدر فيمن بشرهم النبيُّ ﷺ أو شهد لهم بالجنة ، وأسأل الله أن يلحقنا بهم وإن قصَّرت أعمالنا ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الجهاد ، باب غزوة الأحزاب (١٧٨٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الهبة ، باب قبول الهدية من المشركين (٢٦١٥، ٣٢٤٨) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل سعد بن معاذ (٢٤٦٩) ، وروي من حديث البراء رضي الله عنه عند البخاري (٥٨٦٣) ، ومسلم (٢٤٦٨) .

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٦٥، ٦٦) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٢٢٧٥) ، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٠، ١٣) ، وصححه لشواهده الألباني في «الصحيحة» (١١٤٢) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الفتن ، باب (١٨) (حديث ٧١٠٠) .

والسُّؤالُ : كيف يدخل أهل الجنة الجنة ؟ وكيف يتعرفون على منازلهم فيها ؟ وما الذي يُستقبلون به عند دخولها؟ وما هي صفاتهم التي يدخلون بها الجنة من الناحية الخِلقية والخُلقية ؟ وما هو نعيمهم ؟

والجوابُ على كلِّ هذه الأسئلة هو ما يأتي في الصفحات المقبلة إن شاء الله.

ففي «صحيح البخاري»[1] من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال :« إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ » ، وقد تحدثتُ عن هذه القنطرة وأنا أتحدث عن الصراط ؛ فهذه القنطرة بعد الصراط ، فالصراط يُضرب بين ظهراني جهنم ، فيمر عليه المؤمن كالبرق ، وكالطرف ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل ، والركاب، فناج مُسَلَّمٌ ، ومخدوش مُرسَل ، ومكدوس في نار جهنم ، نسأل الله أن ينجينا من النار إذا عبر المؤمنون الصراط ونجاهم الله جلَّ وعلا ، حُبِس المؤمنون بعد ذلك مرة أخرى على قنطرة بعد الصراط قبل دخول الجنة . لماذا ؟ ليقتص الله سبحانه وتعالى ، وليقضي في المظالم التي كانت بين المؤمنين في الدنيا ، حتى لا يدخل أحد الجنة وفي عنقه مظلمة لأخيه أبدًا ؛ فيقول ـ عليه الصلاة والسلام : « إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِيَدِهِ ! لأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا » ، فلا يحتاج أحدهم مَلكًا من الملائكة ليعرفه بمنزله وزوجاته في الجنة ، لا يحتاج الواحد منا إلى من يدله على بيته في الدنيا ، فكذلك أهل الجنة إذا خلصوا من المظالم على هذه القنطرة ، ينطلق كل واحدٍ منهم إلى منزله في الجنة ، عرَّفه له

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المظالم ، باب قصاص المظالم (٢٤٤٠) .

ربه تبارك وتعالى، قال جلَّ وعلاً: ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد: ٦]، قال مجاهد[١]: «﴿ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أي: يهتدي أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم لا يخطئون؛ كأنهم ساكنوها منذ خُلِقوا لا يستدلون عليها أحدًا».

وقال ابن عباس ﵄[٢]: «إنهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم».

وقال محمد بن كعب[٣]: ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾[محمد: ٦] «يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة»، هذا قول جمهور المفسرين، وتلخيصُ أقوالهم في ما قاله أبو عبيدة[٤]: ﴿ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أي: «بينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال».

إذًا؛ كيف ينطلق أهل الجنة إلى هذه المنازل في غاية التكريم والتعظيم والتبجيلِ؟ قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: ٨٥] أي: ركبانًا، كما أخرج هذا المعنى جماعةٌ عن ابن عباس ﵄[٥]، وروي عن علي بن أبي طالب ﵁ مرفوعًا وموقوفًا بسند ضعيف جدًّا أنه قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: ٨٥] مَا الْوَفْدُ إِلَّا رَكْبٌ؟ فقال ـ

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٣١١٩٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٢٨٩)، وذكره البيهقي في «شعب الإيمان» فصل: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال (١/ ٢٦) (٢٨١).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير تفسير سورة محمد ﷺ (٤/ ١٧٥).

(٤) انظر: «حادي الأرواح» لابن القيم (٣٠٨).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» لسورة مريم (١٦/ ١٢٧)، وذكره البيهقي في «الشعب» (١/ ٣١٥) وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور» (٥/ ٥٣٨) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «البعث».

عليه الصلاة والسلام [١] : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ ، اسْتُقْبِلُوا بِنُوقٍ بِيضٍ لَهَا أَجْنِحَةٌ عَلَيْهَا رِحَالُ الذَّهَبِ ، شُرُكُ نِعَالِهِمْ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ كُلُّ خُطْوَةٍ مِنْهَا مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ ، وَيَنْتَهُونَ بِهَا إِلَى الجَنَّةِ » الحديث .

وعن النعمان بن سعد عن عليٍّ ﷺ قال [٢]: « أما والله ما يحشر الوفد على أرجلهم ، ولا يساقون سوقًا ، ولكن يُؤتون بنوق لم تر الخلائق مثلها ، عليها رحال الذهب ، وأزمتها الزبرجد ، فيركبون عليها حتى يضربوا باب الجنة» .

قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [الزمر : ٧٣، ٧٤] ، زمرًا ؛ أي: جماعات مرتبة .

روى البخاريُّ ومسلم [٣] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال :

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٢٣٧٤٥) ، وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (١/ ١٥٥) وفي «الفضائل» (١٢٢٨) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٠١٤) ، والحاكم (٢/ ٤٠٩) ، و(٤/ ٦٠٩) ، والبيهقي في «الشعب» (١/ ٣١٥) ، وهناد في «الزهد» (٨٦) موقوفًا على عليٍّ ﷺ ، وأخرجه مرفوعًا: ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» رقم (٧) ، وابن أبي حاتم وابن مردويه ؛ كما قال السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٥٣٩) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٥١) : «رواه أحمد ، وفيه: عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي ، وهو ضعيف » ، وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله (٩/ ٢٩٩) عن الموقوف : «هو أشبه بالصحة» ، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٢٥٩) عن الموقوف : «هو أصح وأشهر» ، وقال الشيخ الألباني عن المرفوع : «ضعيف جدًا »؛ كما في«ضعيف الترغيب » (٢١٨١) .

(٢) انظر: التخريج السابق .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته (٣٣٢٧) ، ومسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب أول زمرة تدخل الجنة (٢٨٣٤) .

« إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ » .

وقال النبيُّ ﷺ[1] : « لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا ، أَوْ سَبْعُ مِائَةِ أَلْفٍ مُتَمَاسِكُونَ آخِذٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، لاَ يَدْخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ ، وَجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ».

والنبيُّ ﷺ يقول في حديث ابن عباس في «الصحيحين»[2] : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلاَنِ ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي ، فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ ، وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْأُفُقِ ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فَقِيلَ لِي : هَذِهِ أُمَّتُكَ ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ » .

وفي رواية[3] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ » .

وفي رواية في «مسند أحمد» ، و«البعث» للبيهقي بسندٍ حسَّنه الحافظ ابن حجر ، وصححه شيخنا الألباني في السلسلة بالشواهد[4] من حديث أبي

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة والنار (٣٢٤٧) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢١٩) من حديث سهل بن سعد ﷺ .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الطب ، باب من اكتوى أو كوى غيره (٥٧٠٥) ، وانظر (٤١٠) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (٢٢٠) واللفظ له .

(٣) أخرجها البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب (٦٥٤٢) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (٢١٦).

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٥٩) ، وعزاه الحافظ في الفتح (١١/ ٤١٨) للبيهقي في «البعث» وقال : سنده جيد ، وصححه لشواهده الألباني في «الصحيحة» (١٤٨٤) .

هريرة ﷺ أنه ﷺ قال : « سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ ، فَوَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي ﷻ فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفاً » هذا فضل الله على أمة النبي المصطفى ﷺ .

ارجع لحديث أبي هريرة [١] : قال ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً ، لاَ يَبُولُونَ ، وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ ، وَلاَ يَتْفِلُونَ ، وَلاَ يَمْتَخِطُونَ ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ الأَلَنْجُوجُ عُودُ الطِّيبِ ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ ، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ » .

إنَّ أهل الجنة يأكلون ويشربون ؛ فكيف يتصرف أحدهم في هذا الطعام الذي كان يخرجه في الدنيا بولًا وغائطًا ؟ يخرجه في الجنة رشحًا كالمسك ، وكذلك لا تفل في الجنة ولا مخاط ؛ بل إن المشط الذي يسرح به شعره في الجنة من الذهب ، والمجامر جمع مجمرة ، وهي مصنعة من الطيب والعود ، وأزواجهم الحور العين ، « عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ » ، وفي رواية في «الصحيحين» ، قال عليه الصلاة والسلام : « لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ » [٢] ، فلا حسد ولا غل في الجنة ؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر : ٤٧] ، فلا يوجد في الجنة بغض ، ولا ضغائن ، ولا أحقاد ، ولا كره ، ولا غيبة ، ولا نميمة ، فيطهر أهل الجنة من كل هذه الأمراض والآفات ، « لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُض

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٥) ، ومسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب أول زمرة تدخل الجنة (٢٨٣٤، ٣٢٤٥) .

قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ الله بُكْرَةً وَعَشِيًّا » .

وقوله ﷺ[١] : « خَلَقَ الله ﷻ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا » وفيه : « فكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ ، وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا ، فَلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَهُ حَتَّى الآنَ » .

فكان آدم طويلاً ، والخلق في تناقص وانقراض إلى يومنا هذا إلى أن يرث الله الأرض وما عليها ، لكن إذا دخل أهل الجنة الجنة ردهم الله تبارك وتعالى على صورة أبيهم آدم .

قال الإمام النووي في تعليقه على الحديث[٢] : « وهذه الرواية ظاهرة في أن الضمير في «صورته» عائد إلى آدم ، وأن المراد : أن الله تعالى خلقه في أول نشأته على صورته التي كان عليها في الأرض ، وتوفي عليها وهي طوله ستون ذراعًا ، ولم يتنقل أطوارًا كذريته ، وكانت صورته في الجنة هي صورته في الأرض لم تتغير» ا.هـ .

هذا معنى : « خَلَقَ الله ﷻ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» ، أي : على صورته التي نزل بها في الأرض ، وعاش بها ، ومات بها ، وهي أنه كان ستين ذراعًا في السماء ؛ فالله تبارك وتعالى يردُّ أهل الجنة على خَلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعًا في السماء ؛ فهكذا يدخل أهل الجنة الجنة على أكمل وأجمل صورة ، فلا أكمل ولا أتم من تلك الصورة والخلقة التي خلق الله عليها أبا البشر ﷺ ، فقد خلقه الله تعالى بيده ، فأتم خلقه ، وأحسن تصويره ، وكلُّ من يدخل الجنة يكون على صورة آدم وخلقته ، وإذا كان خَلْقهم الظاهري

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الاستئذان ، باب بدء السلام (٦٢٢٧) ، ومسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير (٢٨٤١) .

(٢) «شرح مسلم» للنووي (٩/ ١٩٥) .

متفق على شكل واحد ؛ فكذلك خلقهم في باطنهم واحدٌ ؛ كما في الحديث : «أَخْلاَقُهُمْ عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ» .

ومن جمال صورة أهل الجنة أنهم سيكونون جُردًا مُردًا مكحلين ، والأجرد الذي لا ينبت له شعر على جسده ، والأمرد : الذي لا ينبت له شعر على لحيته .

ففي «سنن» الترمذي و«مسند» أحمد بسندٍ صححه شيخنا الألباني[١] ، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه ﷺ قال : «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُردًا مُرْدًا مُكَحَّلِينَ أَبْنَاءَ ثَلاَثِينَ أَوْ ثَلاَثٍ وَثَلاَثِينَ» .

ومن تمام الكمال والنعيم لأهل الجنة أنهم لا ينامون في الجنة ؛ كما في الحديث الذي رواه أبو نعيم في «الحلية» وابن عدي في «الكامل» ، والطبراني في «الأوسط» بسندٍ صححه بمجموع طرقه شيخنا الألباني رحمه الله[٢] ، وأعله أبو حاتم بالإرسال ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبيُّ

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب صفة الجنة ، باب ما جاء في سن أهل الجنة (٢٥٤٥) وقال: «حسن غريب» ، وأحمد في «المسند» (٥/ ٢٣٢، ٢٣٩، ٢٤٣) ، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٦٤) ، والشاشي في «مسنده» (١٣٤٢) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠٧٢) ، و«المشكاة» (٥٦٣٩) ، و«صحيح الترغيب» (٣٦٩٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٨١٦) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٩٥) ، وفي «وصف الجنة» (٢١٥) ، والعقيلي في «الضعفاء» (٨٧٦) ، وتمام في «الفوائد» (٤٠٦) ، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢١٨) ، والمقدسي في «صفة الجنة» (٥٦) ، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٥٥٣) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا . لكن رواه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (٤٣) ، ونعيم بن حماد في «الزهد» (١٨٩١) من طريق ابن المنكدر مرسلًا . وصحح أبو حاتم في «العلل» (٢١٤٧) الإرسال ، لكن صححه مسندًا ومرسلًا الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٨٧) وقال: «لا منافاة بينهما ؛ فإن الراوي قد ينشط أحيانًا فيسنده ، ولا ينشط تارة فيرسله».

ﷺ : « النَّوْمُ أَخُو المَوْتُ وَلَا يَنَامُ أَهْلُ الجَنَّةِ » .

أما عن النعيم : فاسمح لي بمقارنة بين نعيم الجنة ونعيم الدنيا ، وهذه مقارنة مهمة :

فإن نعيم الدنيا واقع وملموس ومحسوس ومشهود ، ونعيم الجنة : غيب موعود ، ولا شك أن الناس يتأثرون بها يشاهدونه ويحسونه ويلمسونه ، ويثقل على قلوبهم ترك ما في أيديهم إلى شيء سينال بعد الموت ، من أجل ذلك ذكر الله تبارك وتعالى في كثير من آيات القرآن الكريم الفارق الكبير بين نعيم الجنة ومتاع الدنيا الزائل ، فمدح الجنة ومتاعها في كثير من المواطن ؛ وذم الدنيا في كثير من المواطن ، قال تعالى : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٨] ، نزلًا : جمع منزل ، وهو ما يُهيأ للضيف .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه :١٣١] ، وقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ١٤ ، ١٥] .

فلو انطلقنا نقارن بين نعيم الجنة ومتاع الدنيا نرى أن متاع الدنيا قليل ، ومَهْمَا نُعِّم أهل الدنيا في الدنيا فمتاعها قليل ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [النساء:٧٧] وصوَّر لنا النبيُّ ﷺ قلة متاع الدنيا

بالمقارنة إلى نعيم الجنة في مقارنة جميلة ؛ كما في «صحيح مسلم»[1] من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال ﷺ : «والله مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ ـ وأشار بالسبابة ـ فِي الْيَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟» ، يعني: ما الذي تأخذه الإصبع إذا انغمست في اليم وخرجت؟ لا شيء .

قال النووي رحمه الله[2] في تعليقه على الحديث في شرح «صحيح مسلم» : « ومعنى الحديث : ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قصر مُدتها، وفناء لذاتها ، ودوام الآخرة ، ودوام لذاتها ونعيمها ، إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر» ؛ ولذا قال الله تعالى : ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[التوبة : ٣٨] ، أيضًا نعيم الجنة أفضل من متاع الدنيا من حيث النوع ، فمتاع الدنيا يقل بلا شك ، لا وجه للمقارنة بين ما في الجنة من نعيم وما في الدنيا من متاع ، فثياب أهل الجنة ، و طعامهم ، وشرابهم ، وحليهم وقصورهم أفضل من كلِّ هذه الأنواع في الدنيا ؛ فإن النبيَّ ﷺ قال كما عند البخاري[3] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ تَغْرُبُ » .

فنساء الجنة في وضع مختلف تمامًا عن نساء الدنيا ، حتى لو أن زوجتك في الدنيا أصبحت من أهل الجنة سَتُعدُّ إعدادًا جديدًا ، فلو قارنت بين ما كانت عليه في الدنيا وما هي عليه في الجنة ، فلا وجه للمقارنة مطلقًا ، قال ــ عليه الصلاة والسلام ــ كما في «صحيح البخاري»[4] من حديث أنس رضي الله عنه : « لَوْ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٨) .
(٢) «مسلم بشرح النووي» (٩/ ٢١٢) .
(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة (٣٢٥٣) .
(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير، باب الحور العين وصفتهن (٢٧٩٦).

أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا ـ أي: ما بين السماء والأرض ـ وَلَمَلأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

والنصيف: هو الخمار.

والجنةُ خاليةٌ من كلِّ كدر الدنيا؛ فنعيم الجنة لا كدر فيه ولا شوائب، ونعيم الدنيا مكدر مليء بالشوائب والهموم، وطعام أهل الدنيا وشراب أهل الدنيا يلزم منه البول والغائط والعرق الكريه، وإذا شرب المرء الخمر في الدنيا فقد عقله! ونساء الدنيا يَحِضْنَ ويلدن! والمحيض أذى؛ كما قال الله تعالى، والجنة خالية من كلِّ ذلك؛ فأهل الجنة لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يبصقون، ولا يتفلون، وخمر الجنة كما وصفها خالقها جلَّ وعلاً: ﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات: ٤٦]، وماء لا يأسن ولا يتغير لونه أو طعمه أو ريحه؛ وكذلك لبن الجنة لا يتغير لونه أو طعمه أو ريحه؛ كما قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد:١٥]؛ فخمر الجنة فيه لذة للشاربين، أما خمر الدنيا يستلذ به صاحبه وقت تناوله، وبعد ذلك يفقد العقل، ويأتي المخازي والفضائح من الأقوال والأفعال!!

ونساء أهل الجنة مطهرات من الحيض والنفاس، قال الله ﷻ: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥]، أي مطهرات من كلِّ دنس وقذر مما هو معلوم في هذه الحياة الدنيا، حتى القلوب؛ فقلوب أهل الجنة صافية، وأقوالهم طيبة، وأعمالهم طيبة، لا تسمع في الجنة كلمة تكدر الخاطر أو تعكر المزاج أو تستثير الأعصاب؛ فالجنة خالية من سيء الأقوال والأعمال؛ قال تعالى: ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور: ٢٣]، ولا يطرق المسامع في الجنة إلا كل كلام صادق، قال تعالى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴾ [النبأ: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا

لَٰغِيَةً﴾[الغاشية : ١١] ، وقال تعالى : ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾[الواقعة : ٢٥] .

ولذلك ؛ فإن أهل الجنة إذا خلصوا من النار حبسوا على القنطرة ، حتى يهذبون وينقون ، ويقتص لبعضهم من بعض ، فإذا دخلوا الجنة دخلوا ونفوسهم وقلوبهم صافية من التباغض والتحاسد والغل والحقد .

وقد نُقل عن ابن عباس وعلي رضي الله عنهم [(١)] : أن أهل الجنة عندما يدخلون الجنة تعرض لهم عينان ، فيشربون من إحدى العينين ؛ فيُذهِب اللهُ ما في قلوبهم من غل ، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها ؛ فتشرق ألوانهم وتصفوا وجوههم ، وتجري عليهم نضرة النعيم .

فنعيم الدنيا وإن وجد فهو إلى زوال ، إما أن تزول عنه وإما أن يزول عنك ؛ قال تعالى : ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران : ٢٦] ؛ فكم من غني أصبح فقيرًا ، وكم من فقير أصبح غنيًّا ، وسبحان من يرزق العباد وهو أعلم بحالهم ، وكم من سعيد أصبح شقيًّا ، وكم من شقيٍّ أصبح وليًّا ، فسبحان من يدبر الأمر ، وسبحان من يعلم السر وأخفى ، فنعيم الدنيا زائل ، إما أن يتحول الغنى إلى فقر ، أو الصحة إلى مرض ، أو العلم إلى جهالة ، وإما أن تزول أنت عن هذا النعيم بالموت وتترك ما جمعت للورثة ؛ ولذلك سأل النبيُّ ﷺ أصحابه ؛ كما في «صحيح البخاري» [(٢)] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه : «أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» . قَالُوا يَا

---

(١) «تفسير القرطبي» سورة الحجرات آية [٤٧] ، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٣/ ٢٠٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب ما قدم من ماله فهو له (٦٤٤٢) .

رَسُولَ الله : مَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ إلاَّ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ ، قَالَ: « فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ ، وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ ».

أما نعيم الآخرة فهو دائم ، قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل : ٩٦] ، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾[ص:٥٤] ، وقال تعالى :﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الكهف : ٤٥ ، ٤٦] ، فالماء يزهر ويثمر، وما هي إلا فترة وجيزة حتى تزول هذه البهجة وينتهي هذا الخضار ، ويذبل ويصفر لونه ، ثم تعصف به الريح بعد ذلك في كلِّ مكان ، كذلك زينة الدنيا .. من المال .. من الشباب .. من الصحة .. من المنصب .. من الأبناء .. من النساء.. من الحرث .. من الزرع .. كلُّ هذا يتلاشى وينتهي وينقضي ويزول .

وصدق من قال:

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت	أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها	إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه	وإن بناها بشرٍّ خاب بانيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها	ودورنا لخراب الدهر نبنيها
وكم من مدائن في الآفاق قد بنيت	أمست خرابًا وأفنى الموت أهليها
أين الملوك التي كانت مسلطنة	حتى سقاها بكأس الموت ساقيها؟
إن المكارم أخلاق مطهرة	الدين أولها والعقل ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها	والجود خامسها والفضل باقيها
لا تركنن إلى الدنيا وزخرفها	فالموت لا شك يفنينا ويفنيها

واعمل لدارٍ غدٍ رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن ناشيها

قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

أنهارها لبن مصفى ومن عسل والخمر يجري رحيقًا في مجاريها

والطير تجري على الأغصان عاكفة تسبح الله جهرًا في مغانيها

فمن يشتري الدار في الفردوس يعمرها بركعة في ظلام الليل يُحييها

وبعد هذه المقارنة تعلم أن العمل من أجل الدنيا فحسب ، إلى الحد الذي يَنْسى الإنسان فيه الآخرة حسرة وندامة ؛ فلا مانع أن تعمل من أجل الدنيا ، وأن تعمر ، وأن تجمع المال ؛ بل إن استطعت أن تجمع مليارًا فافعل بشرطين : الأول : أن تجمع من الحلال ، والثاني : أن تؤدي حق الكبير المتعال ، فلا ينبغي أن يشغلنا متاع الدنيا عن الآخرة ، فهناك من الناس من لا همَّ لهم إلا الدنيا ومتاعها ، فتراه يجوب الأرض من أجل المال والتجارة ، وقد يسمع المؤذن يؤذن ولا يتحرك ليؤدي حق الله تعالى ، فيسافر من مكان إلى آخر ، وإذا سمع المؤذن كأنه ما سمع شيئا ؛ فالعمل من أجل الدنيا فقط يعقبه حسرة وندامة إن أنستك الدنيا الآخرة ؛ قال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

فكلُّ نعيم الدنيا إلى زوال ، فإن لم يُقربك هذا النعيم من الكبير المتعال فهو حسرة ووبال .

أسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم من أهل الجنة ، وأن لا يحرمنا وإياكم من نعيمها ، وأن لا يجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

نعيم أهل الجنة في الجنة

والسُّؤال: فما هو نعيم أهل الجنة في الجنة؟ ما طعامهم؟ وما شرابهم؟ وما لباسهم؟ وما فرشهم؟ ما أسرتهم؟ ما خدمهم؟ ما هي أمنياتهم؟ أولًا: ما هو طعام أهل الجنة ؟ بل ما هو أول طعام يقدم إلى أهل الجنة إن دخلوها ؟

أما عن طعام أهل الجنة ؛ فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴾[الواقعة : ٢٠] ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ۝ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ۝ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[المرسلات:٤٢] والباء هنا هي باء السببية ، وما من شيء في الدنيا والآخرة إلا بسبب ، والله خالق الأسباب والمسببات ، وقال الله تعالى : ﴿ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴾[الطور: ٢٢] ، وفيها ما تشتهيه كلُّ نفس وما تقر به كلُّ عين ، وقال تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ ﴾ [الزخرف:٧١] ثم بين تبارك وتعالى أنه قد أباح لأهل الجنة إن دخلوها أن يمتعوا بكلِّ ما فيها من نعيم ، من طعام وشراب ؛ فقال جلَّ وعلاً : ﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة:٢٤] أي: بما كنتم تعملون من طاعات في الدنيا.

وفي «الصحيحين» [(١)] من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « تَكُونُ الأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً يَتَكَفَّؤُهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ نُزُلاً لأَهْلِ الْجَنَّةِ » .

وقوله : «يَتَكَفَّؤُهَا» أي : يميلها من يد إلى يد [(٢)] ، حتى تجتمع وتستوي ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة (٦٥٢٠) ، ومسلم ، كتاب صفات المنافقين ، باب نزل أهل الجنة (٢٧٩٢) .

(٢) «شرح مسلم» للنووي (٩/ ١٤٩، ١٥٠) .

كلتا يديه يمين تبارك وتعالى .

والنزل في اللغة هو : ما يهيأ للضيف من كرامة ؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٢] أي: ضيافة وإكرامًا وإنعامًا من غفورٍ، غفر لكم الذنوب ، رحيم رحمكم يوم الأهوال والكروب ، اللهم اجعلنا من هؤلاء المؤمنين المستقيمين المبشرين برحمتك يا أرحم الراحمين .

ثم قال أبو سعيد رضي الله عنه : فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ ؛ فقال : بَارَكَ الرَّحْمَنُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، أَلاَ أُخْبِرُكَ بِنُزُلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «بَلَى» ، قَالَ : تَكُونُ الأَرْضُ خُبْزَةً وَاحِدَةً كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْنَا ثُمَّ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، ثُمَّ قَالَ : «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِإِدَامِهِمْ ؟ قَالَ : إِدَامُهُمْ بَالامٌ وَنُونٌ. قَالُوا : وَمَا هَذَا ؟ قَالَ : « ثَوْرٌ وَنُونٌ ، يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةِ كَبِدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا » ، ومعنى الحديث : أن الله تعالى يجعل الأرض كالرغيف العظيم ويكون طعامًا ونزلًا لأهل الجنة ، والنون : الحوت ، والثور هو الثور الوحشي الكبير ، وزائدة كبد الحوت هي القطعة المنفردة المتعلقة بالكبد وهي أطيب ما في الكبد ، ولا يعرف هذا إلا الملوك ومن يجيدون الأطعمة ، وهذا هو أول طعام يقدم لأهل الجنة .

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ[١] عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه سأل النبيَّ ﷺ عند أول قدومه إلى المدينة أسئلة ، منها: ما هو أول ما يأكله أهل الجنة؟ فقال : « زِيَادَةُ كَبِدِ الحُوتِ» .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته (٣٣٢٩) .

وفي «صحيح مسلم» [(١)] عن ثوبان أن يهوديًا سأل النبيَّ ﷺ فقال: فَمَا تُحْفَتُهُمْ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ»، قَالَ: فَمَا غِذَاؤُهُمْ عَلَى إِثْرِهَا؟ قَالَ: «يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا»، قَالَ: فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً». قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾[الإنسان: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾[الإنسان: ١٧]، ولا تعارض، فهذه أنواع مختلفة للكؤوس والشراب؛ قال تعالى: ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨]، وقال الله تعالى: ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾[محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾[الواقعة: ١٧-١٩].

قال ابنُ كثير رحمه الله [(٢)]: «خمر الجنة لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم؛ بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة».

روى الضحاك عن ابن عباس قال [(٣)]: «في الخمر أربع خصال: السكر والصداع والقيء والبول، فذكر الله خمر الجنة ونزَّهها عن هذه الخصال».

وقال الله تعالى في شراب أهل الجنة: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[المطففين: ٢٥، ٢٦]، والرحيق: الخمر، ووصف الخمر هنا بوصفين: الأول: أنه مختوم عليه، أي: موضوع

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحيض، بيان صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما (٣١٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٣٥٧).

(٣) المصدر السابق نفسه.

عليه خاتم ، والثاني: أنهم إذا شربوه وجدوا في ختام شربهم رائحة كالمسك ، ومن أهل العلم من أهل التفسير من قال : رحيق مختوم : أي : رحيق مخلوط بالمسك [(١)] ، هذا عن طعام أهل الجنة وشرابهم ، وقد يتبادر إلى الذهن أن الطعام والشراب ينتج عنه ما ينتج عن شراب وطعام أهل الدنيا من بول وغائط ، وقد ذكرت من قبل أنه لا يوجد في الجنة بول ولا غائط .

وهناك رواية في «صحيح مسلم» تبين أن هذا عام في كلِّ من يدخل الجنة ؛ كما قال النبيُّ ﷺ [(٢)] : « أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً ، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنَازِلُ ، لاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ وَلاَ يَبْزُقُونَ ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ ، أَخْلاَقُهُمْ عَلَى خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، عَلَى طُولِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا » .

إذًا فأين تذهب الفضلات؟ ذكر النبيُّ ﷺ أن الفضلات تخرج على هيئة رشح كالمسك ، وتخرج جشاء ، والجشاء في الجنة تنبعث له رائحة كالطيب ، رائحة المسك ؛ كما في «صحيح مسلم» [(٣)] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ ، وَلاَ يَتْفُلُونَ وَلاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ» ، قَالُوا : فَمَا بَالُ الطَّعَامِ ؟ قَالَ : «جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ ، كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ» .

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٣٦٥٤٦، ٣٦٥٤٧) ، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٢١٩) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر (٢٨٣٤) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب في صفات أهل الجنة وتسبيحهم فيها بكرة وعشيًّا (٢٨٣٥) .

وقد يقول قائل : إذا كان أهل الجنة خالدين فيها ، وإذا كانت خالية من الأحزان و الهموم ، لا جوع فيها ولا عطش فيها ، ولا قاذورات ولا أوساخ ، فلماذا لا يعيشون من غير أكل ؟ وإذا كان الطعام في الجنة يخرج في صورة مسك، فلماذا يضعون الطيب ؟ فكلُّه مسك في مسك .. العرق مسك .. والجشاء مسك ؛ فلماذا يتطيبون ؟ ومجامرهم الألوة ، والمجمرة هي: المبخرة التي يوضع فيها المسك وهي العود ، وإذا كانت المجمرة من الطيب ؛ فما ظنك بالطيب الذي سيوضع في الطيب ؟ فلماذا يتطيبون ويأكلون ويشربون ؟

أجاب على ذلك كلِّه الإمام القرطبي في «التذكرة» ؛ فقال رحمه الله [1]: «نعيم أهل الجنة وكسوتهم ليس عن رفع ألمٍ اعتراهم ؛ فليس أكلهم عن جوع ، ولا شربهم عن ظمأ ، ولا تعليهم عن نتن ، وإنما هي لذات متوالية ، ونعم متتابعة ، ألا ترى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾[طه : ١١٨ ، ١١٩] ، وحكمة ذلك أن الله تعالى نعمهم في الجنة بنوع ما كانوا يتمتعون به في الدنيا ، وزادهم على ذلك ما لا يعلمه أحد إلا الله ﷻ » ، فهذا من باب النعيم المقيم والمتتالي ، فنعيم الله يتوالى على أهل الجنة وحكمة ذلك أن الله تعالى كرمهم في الجنة بنوع ما كانوا يتمتعون به في الدنيا ، وزادهم على ذلك ما لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى .

أما عن آنية طعامهم وشرابهم ؛ فهي من الذهب والفضة وإن كانت في الدنيا حرام ، لكنها في الجنة حلال ؛ قال تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾[الزخرف:٧١] ، يعني: وأكواب من ذهب ؛ فإذا كان الإناء الذي يوضع فيه الطعام من ذهب ؛ فما ظنك بطعامٍ يوضع في صحاف من

---

(١) «التذكرة في أحوال الموتى والدار الآخرة» (٤٣٧) ط فياض .

ذهب ؟ والأكواب من ذهب ومن فضة أيضًا ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ [الإنسان:١٥، ١٦] ، أي: اجتمع فيها صفاء القوارير وبياض الفضة ، وقدروها تقديرًا : أي: قد قَدَّره لك الملك تقديرًا بحسب حاجتك لا يزيد ولا ينقص.

وقد روى «البخاريُّ ومسلم»[1] من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

« جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ» .

فالبناء ذهب ، والصحاف ذهب ، والأكواب ذهب ؛ قال تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾[الواقعة : ١٧ ، ١٨] والكوبُ معروفٌ ، وهو ما ليس له أُذُن ، والأباريق معروفة الذي له الأذن وله العروة ، والكأس والقدح معروف كذلك .

أما عن لباس أهل الجنة ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان:١٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج : ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان:٢١] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى :﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ (٤٨٧٨) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم (١٨٠) .

وقال تعالى في شأن أهل النار: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩]، وقد ذكرت هذه الآية لأبين أن لباس أهل الكفر في النار من النار، كما أن لباس أهل الجنة في الجنة من حرير وإستبرق؛ كما في قوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٣١].

وقال سبحانه: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الدخان:٥٣].

وفي البخاري ومسلم [١] من حديث البراء بن عازب ﷺ قال: أُهديت للنبيِّ ﷺ جبة من الحرير فجعل الناس يعجبون من حسن الثوب ولينه؛ فقال - عليه الصلاة والسلام:

«لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْهَا وَأَلْيَنُ».

وإذا كانت مناديل سعدٍ في الجنة أفضل من حرير الدنيا؛ فكيف بثياب سعدٍ في الجنة؟ وثياب أهل الجنة، وحلى أهل الجنة لا تبلى ولا تفنى، كما في «صحيح مسلم» [٢] عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال:

«مَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لاَ يَبْأَسُ، لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ».

أما فرشهم وسُررهم؛ فقد قال الله تعالى فيها: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣-١٦]، والزرابي هي:

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في دوام نعيم أهل الجنة (٢٨٣٦).

البسط ، و«مبثوثة» أي منتشرة ومفروشة في كلِّ مكان ، أما في الدنيا تقدم الزرابي في مقدمة المجلس حتى يجلس عليه الأشراف فقط ، ثم في آخر المجلس لا يجد الفقراء مجلسًا من الزرابي ، أما في الجنة فالزرابي مبثوثة في كلِّ مكان ، وقال تعالى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾[الرحمن : ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾[الطور : ٢٠] ، وقال تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾[الواقعة:١٣-١٦] موضونة ؛ أي: منسوجة بدقة ، وأرجو أن تتصور أن هذا النسج يقدمه لأهل الجنة ملكُ الملوك وجبار السماوات والأرض ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾[الواقعة : ١٥ ، ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ [الحجر :٤٧] ؛ وقال تعالى : ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ﴾ [الكهف:٣١]، والمراد بالنمارق: جمع نمرقة وهي المخدة، أو الوسائد والمساند ، وقال سبحانه: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن : ٧٦] ، الرفرف قال أهل التفسير : رياض الجنة ، وعبقري قال أبو عبيدة [١] : كل شيء من البسط يقال له عبقري ، وعبقري حسان أي : بسط حسنة جميلة ، ويخدم أهل الجنة في الجنة بعد كلِّ هذا النعيم غلمان في غاية الحسن والجمال كاللؤلؤ المنثور .

قال تعالى : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ [الإنسان : ١٩] ، أي : إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج الناس السادة وكثرتهم ، وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وحسن ثيابهم وحليهم ، حسبتهم لؤلؤًا منثورًا ، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ، وقد ذهب أهل العلم أن هؤلاء

(١) انظر: «حادي الأرواح» (٤٣٢) ط ابن عباس .

الولدان هم الذين يموتون صغارًا من أبناء المؤمنين أو المشركين .

وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [١] على هذا القول وبين أن الولدان المخلدين الذين يطوفون على أهل الجنة خلق من خلق الجنة ، وليسوا من أبناء الدنيا ؛ بل أبناء أهل الدنيا إذا دخلوا الجنة كمَّل الله خلقهم كأهل الجنة على صورة أبيهم آدم أبناء ثلاث وثلاثين في طول ستين ذراعًا ، ألم يقل ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴾[الواقعة : ٣٥ : ٣٧] ، وهذه الآية تدل على أنه إنشاء جديد ينشئه الله تبارك وتعالى لأهل الدنيا الذين مَنَّ الله ﷻ عليهم بدخول الجنة .

وهنا سؤالٌ مهمٌّ : هل يعرف أهل الجنة بعضهم بعضًا؟

والجوابُ: نعم ؛ كما عند مسلم [٢] من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال ﷺ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالاً ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالاً ، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ - أي: من النساء في الخيام وفي القصور: وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً ، فَيَقُولُونَ : وَأَنْتُمْ وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً » يعني: تركتمونا ورجعتم إلينا زيادة في الحسن والجمال ، فأهل الجنة يأتون السوق يجتمعون كلَّ جمعة .

قال النوويُّ [٣] : « والمراد بالسوق : مجمع لهم يجتمعون كما يجتمع الناس في الدنيا في السوق ، ومعنى يأتونها كلَّ جمعة ؛ أي: في مقدار كلِّ جمعة أي:

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٧٩) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب سوق الجنة (٢٨٣٣) .

(٣) «شرح مسلم» للنووي (١٧/ ١٧٠) .

أسبوع ، وليس هناك حقيقةً أسبوع ـ فالنبيُّ ﷺ يقرب لنا المعنى ولكن ليس في الجنة مقدار أسبوع ولا مقدار جمعة ـ لفقد الشمس والليل والنهار ، وخصَّ ريح الشمال ؛ لأنها ريح المطر عند العرب ، كانت تهب من جهة الشام ، وبها يأتي سحاب المطر ، فكانوا يرجون سحاب المطر الشامية ، وجاءت تسمية هذه الريح المثيرة أيْ المحركة لأنها تثير في وجوههم ما تثير من مسك أرض الجنة ، من أجل ذلك بشروا بهذه الريح التي كانوا يبشرون بها في الدنيا ، فهي ريح تثير المسك في أرض الجنة » . في وجوههم وفي ثيابهم ، وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ [الطور : ٢٥، ٢٦] .

فالسبب الذي نجانا الله به ، والذي جعلنا نلتقي به في الجنة هو خوفنا من الله في الدنيا ، وربُّ العزة أخبر بهذا ؛ كما في الحديث القدسي الذي رواه الطبراني وابن حبان والبيهقي بسندٍ صححه الألباني [1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « قَالَ اللهُ تَعَالَى : وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ » .

لذا قال سبحانه : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور:٢٥- ٢٧] ؛ وقال الله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٧) ، وابن حبان (٦٤٠) ، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٧٧) ، والطبراني في «مسند الشاميين» (١/ ٢٦٦) ، والبزار ؛ كما في «كشف الأستار» (٣٢٣٢، ٣٢٣٣) ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٦٦٦).

أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ ۝ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات:٥٠-٦١].

وأختم هذه الجزئية ببعض ما يتمناه أهل الجنة في الجنة ؛ فالنبيُّ ﷺ قد ذكر بعض الأماني لأهل الجنة في الجنة ، قال ﷺ ؛ كما في «صحيح البخاري»[1] من حديث أبي هريرة ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَوْمًا يُحَدِّثُ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ : « أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ ، فَقَالَ لَهُ : أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ ؟ قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ ، قَالَ : فَبَذَرَ فَبَادَرَ الطَّرْفَ - يعني البصر - نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ فَكَانَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ ، فَيَقُولُ الله: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ فَإِنَّهُ لاَ يُشْبِعُكَ شَيْءٌ ». فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ : وَالله لاَ تَجِدُهُ إِلاَّ قُرَشِيًّا أَوْ أَنْصَارِيًّا فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ ، وَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ »، وترى شخصًا لم ينجب في الدنيا وليس له ولد ، فيسأل الله الولد ، فيحقق الله له أمنيته في ساعة واحدة .

روى الترمذيُّ في «سننه» وأحمد في «المسند» بسندٍ صححه شيخنا الألباني في «صحيح الجامع»[2] من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « الْمُؤْمِنُ إِذَا اشْتَهَى الْوَلَدَ فِي الْجَنَّةِ كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسِنُّهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا يَشْتَهِي » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المزارعة ، باب (٢٠) رقم (٢٣٤٨) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب صفة الجنة ، باب ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة (٢٥٦٣) وقال: «حسن غريب» ، وابن ماجه كتاب الزهد ، باب صفة الجنة (٤٣٣٨) ، وأحمد في «المسند» (٣/ ٩) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٤٩) و«المشكاة» (٥٦٤٨) .

فماذا عن نساء أهل الجنة ؛ قال الله ﷻ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة : ٢٥] أيْ : في الجنة .

قال ابن القيم رحمه الله [١]: « فتأمل جلالة المبشر ومنزلته ، وصدقه ، وعظمة من أرسله إليك ليبشرك بهذه البشارة ، وقدر ما بشرك به ، وضمنه لك على أسهل شيء عليك وأيسره ، وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنان ، وما فيها من الأنهار والثمار ، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ، ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد ، وعدم انقطاعه » .

والأزواج: جمع زوج ؛ والرجل زوج المرأة ، وهي زوجه وزوجته [٢] ؛ كما قال الله تعالى: ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[البقرة : ٣٥] وهذا أصح ما ورد في لغة العرب أن يقال للرجل: زوج ، وأن يقال للمرأة أيضًا: زوج ، والمطهرة : أي التي طهرت من الحيض والنفاس والبول والغائط والقذر والبصاق ؛ طهرت من كل أدناس وأقذار الدنيا ، فطُهِّرَ باطنها من الأخلاق السيئة ، والصفات المذمومة ، وطُهِّرَ لسانها من الفحش والبذاءة ، وطهر طرفها ـ أي بصرها ـ من أن تطمع به ـ أي بهذا الطرف لغير زوجها ـ فالمرأة في الجنة لا تنظر بطرفها إلى آخر أبدًا ، بخلاف الزوج ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى ، وطهر كذلك أثوابها من أن تتعرض لأيِّ دنس أو وسخ ، وليس في الجنة شيئًا من هذا .

---

(١) «حادي الرواح» (٤٤٨) .

(٢) «لسان العرب» (٢/ ٢٩١) .

قال عبد الله بن مسعود ﷺ[١] : ﴿أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ : «لا يحضن ولا يمذين ولا يتنخمن» ، والحدث هو : الغائط أو البول ، وقال ابن عباس ﷺ[٢] : مطهرة من القذر والأذى ، وقال مجاهد[٣] : « لا يبلن ولا يتغوطن ، ولا يمذين ، ولا يمنين ، ولا يحضن ، ولا يبصقن ، ولا يتنخمن ، ولا يلدن» . إذا اشتهت المرأة أن تلد ـ كما بينا قبل ذلك ـ يكون حملها ووضعها في ساعة واحدة ؛ كما قال رسول الله ﷺ وكما قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة : ٣٥ - ٣٨] قال قتاده[٤] : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ : أي: خلقناهن خلقا جديدًا .

قال ابن عباس ﷺ ـ وهذا مهم جدًا وهى بشارة لأخواتنا المسلمات الصالحات القانتات في الدنيا قال[٥] : يريد نساء الآدميات ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي: ينشئ الله ﷻ نساء الدنيا إنشاءً جديدًا في الجنة .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي والطبري[٦] وهو حديث ضعيف من حديث أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : «هُنَّ عَجَائِزُكُمُ الْعُمْشُ الرُّمْصُ» ،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٣٨) .

(٢) المصدر السابق (٥٣٩) ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٦٤) .

(٣) رواه هناد في «الزهد» (٢٧-٢٩) ، ونعيم في «زوائده على الزهد» لابن المبارك (٢٤٣) ، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٦٢) ، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٢٩٢) ، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦) ، والطبري في «تفسيره» (٥٤٠، ٥٤٥) ، والبيهقي في «البعث» (٣٩٩).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٣٢٤٥) ، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢٧٨) .

(٥) القرطبي (١٥/ ١٩٣) ، و«حادي الأرواح» (٣٠٠) ط ابن رجب .

(٦) أخرجه الترمذي ، كتاب تفسير القرآن (٣٢٩٦) ، وهناد في «الزهد» (٢١) ، والطبري في تفسيره لسورة الواقعة (٣٥) ، وابن أبي حاتم في تفسيره ، والبيهقي في «البعث» (٣٣٣) ، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٩٠) ، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٢٨٧) ، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» .

العمش : أي: التي ضعف بصرها ، والرمص : أي التي يخرج من عينها العماص ، وهي لفظة عربية صحيحة لكبر سنها ومرضها ، هذه المرأة التي تموت على هذه الحالة إن كانت من المؤمنات الصالحات في الدنيا يعيد الله ﷻ إنشاءها في الجنة إنشاءً جديدًا ، ربما يفوق جمالها جمال الحور كما سنوضح الآن من كلام ابن القيم رحمه الله تعالى ، فإن الله ﷻ ينشيء المسلمة المؤمنة الصالحة في الجنة إنشاءً جديدًا ، قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما في الحديث الذي رواه الترمذي في «الشمائل» ومن طريقه البغوي في «التفسير» والبيهقي في «البعث» عن الحسن مرسلًا ، وله شاهد يتقوى به من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه البيهقي في «البعث» والطبراني في «الأوسط» وصححه بهذه الطرق الألباني في «الصحيحة» عن عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ أتته عجوزٌ من الأنصار ، فقالت: يا رسول الله أدعوا الله أن يدخلني الجنة . فقال ﷺ : «إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا عَجُوزٌ»[1] ، ثم قام النبي ﷺ فصلى ثم رجع إلى عائشة ، فقالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله ، لقد لقيت المرأة من كلمتك مشقة وشدة . فقال ﷺ : «إِنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، إِنَّ الله تَعَالَى إِذَا أَدْخَلَهُنَّ الْجَنَّةَ حَوَّلَهُنَّ أَبْكَارًا» وفي لفظ : «أَلَمْ تَقْرَأْ قَوْلَ الله تَعَالَى : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾

---

(١) أخرجه الترمذيُّ في «الشمائل» (٢٣٨) ، وعنه البغوي في «التفسير» (٨/ ١٤) ، والبيهقي في «البعث» (٣٣٥) مرسلًا ، وأخرجه أحمد في «الزهد» (١٦٩٢) ، وعبد الرزاق في « تفسيره» (٢٧٣٧) عن الحسن عن بعض المهاجرين والأنصار ، وأخرجه البيهقي في «البعث» (٣٧٩) ، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ١٤٢) ، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (٨٧) ، والطبري في «التفسير» (١٧/ ٨٠) ، عن مجاهد عن عائشة رضي الله عنها .
وأخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٩١) ، والطبراني في «الأوسط» (٥٧٠٣) عن سعيد بن المسيب عن عائشة رضي الله عنها ، وحسنه الألباني بمجموع طرقه في «الصحيحة» (٢٩٨٧) ، و«غاية المرام» (٣٧٥) .

فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة : ٣٥ـ٣٨] » .

قال ابن القيم[1] كلامًا في غاية النفاسة ، قال : « والحديث لا يدل على اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف ـ أي بوصف الإنشاء الجديد في البكارة فحسب ـ قال : بل يدل على مشاركتهن ـ يقصد نساء الدنيا ـ للحور العين في هذه الصفات المذكورة ـ أي للحور ـ فلا يتوهم انفراد الحور العين عنهنَّ ـ أي عن نساء الدنيا ـ بما ذكر من الصفات بل هي أحق به منهن ـ أي: بل نساء الدنيا أحق من الحور بهذه الصفات ـ فالإنشاء واقع على الصنفين والله أعلم» اهـ .

لأن المرأة في الدنيا كابدت وعانت ، وامتثلت الأمر واجتنبت النهى ، ووقفت عند الحد ، وقامت بالليل فصلت ، وأطاعت ربها ، وأطاعت زوجها ، وصامت شهرها ، وصلت فرضها ، وحفظت فرجها ، فهي امرأة تستحق التقدير ، أما الحور فهن خلق من خلق الله ، ينشئهن إنشاءً لأهل الجنة ، فلا شك أبدًا أن هناك فارقًا كبيرًا بين من خلقها الله تعالى في بيئة الدنيا وتعرضت للفتن والأذى والمحن والابتلاء ، فصبرت ، وبين من هُيِّئتْ للطاعة ، وأُعِدت بهذه الزينة والجمال لكرامة من الكبير المتعال للصادقين من الرجال المؤمنين ، فالمؤمنة الصادقة الصالحة في الدنيا من أهل الجنة أحق بهذه الصفات كلها من الحور العين ، قال الله ﷻ : ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا﴾ [الواقعة : ٣٥ ـ ٣٨] ، عربا : جمع عروب ، والعروب : المرأة المحببة لزوجها ، والعاشقة المطيعة لزوجها ، قال أبو عبيدة[2] : العروب في

---

(١) «حادي الأرواح» الباب الثالث والخمسون (٤٦٥) ط ابن عباس .

(٢) «التبيان في أقسام القرآن» (١٧٣) ، و«حادي الأرواح» (٤٦٦) .

لغة العرب : الحسنة التبعل ، وحسنة التبعل : أي شديدة الطاعة والتزين لزوجها .

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى [(١)] :

« فجمع سبحانه وتعالى بين حسن صورتها وحسن عشرتها ، وهذا غاية ما يطلب من النساء ، وبه تكمل لذة الرجل بهن » ا.هـ ، أي: بنسائه في الدنيا بل والآخرة ، أن تكون المرأة حسنة الخلق وكذلك العشرة ، هذا غاية ما يتمناه أيُّ رجلٍ من امرأته ، أن تكون جميلة الخُلُق جميلة الخِلْقَة جميلة الطباع والصفات .

قال تعالى : ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة : ٣٧] أترابا : أي: في سن واحدة متقاربة ، وقال ﷻ : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ۝ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ [النبأ : ٣١ ـ٣٣] ، الكواعب : جمع كاعب ، وهى المرأة التي استدار صدرها وجمل وحسن ، أترابًا : أي في سنٍ واحدة متماثلة ، وقال تبارك وتعالى بعد ما بين أن أهل الجنة يزوجون بنسائهم المؤمنات الصالحات بعد إنشائهن إنشاءً جديدًا ؛ ويزوجهم الله تبارك وتعالى كذلك بالحور العين قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الدخان:٥١-٥٦] .

قال ابن القيم رحمه الله [(٢)] : « فجمع الله لهم بين حسن المنزل ، وحصول الأمن فيه من كل مكروه ، واشتماله على الثمار والأنهار ، وحسن اللباس ، وكمال

---

(١) «حادي الأرواح» (٤٦٦) .

(٢) «حادي الأرواح» (٤٥٠) .

العشرة لمقابلة بعضهم بعضا ، وتمام اللذة بالحور العين ، ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة مع أمنهم من انقطاعها ومضرتها وغائلتها ، وختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتًا ».

من دخلها ينعم ولا يبأس ويخلد ولا يموت ، والحور : جمع حوراء ، الحور العين ، وهي : المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء شديدة سواد العين ، يقال : امرأة حوراء ، أي:امرأة شديدة بياض البياض في العين ، وشديدة سواد السواد في العين ، وقال الحسن [(١)] : الحوراء : شديدة بياض العين شديدة سواد العين ، واختُلِف في اشتقاق هذه اللفظة ، فقال ابن عباس: الحور في كلام العرب يعني البيض ، وأصل الحور البياض ، والتحوير التبيض ، والصحيح أن الحور مأخوذ من الحور في العين ، وهو شدة بياضها مع شدة سوادها فيتضمن الأمرين معًا ، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد ، والحور العين : العين جمع عيناء وهي العظيمة العين من النساء ، قال مقاتل : العين حسان الأعين.وقال ﷻ : ﴿ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الطور:٢٠] وقال ﷻ في صفة الحور: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴾ [الرحمن : ٥٦ ـ ٥٨].

قال ابن القيم رحمه الله [(٢)]: لقد وصف الله الحور بقصر الطرف في ثلاثة مواضع : أحدها : قال ربنا تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾ ، والثاني: قال تعالى في سورة الصافات أيضًا : ﴿ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ﴾ [الصافات: ٤٨] والثالث: قال في

---

(١) رواه بنحوه البيهقي في «البعث» (٣٩٣، ٣٩٤) ، والطبري في «التفسير» (٣١١٧٧) .

(٢) «حادي الأرواح» (٤٥٤) بتصرف.

سورة ص : ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾[ص :٥٢] ، فكرر الله صفة قصر الطرف من الحورية على زوجها في الجنة ليكمل له الرضا والسعادة ، فهو لا يرى زوجته من نساء الجنة تتطلع ببصرها إلى غير زوجها أبدًا ـ والمفسرون كلهم على أن المعنى قصرن طرفهن على أزواجهن ؛ فلا يطمحن ولا يتطلعن إلى غيرهم .

وعن مجاهد قال [(١)] : ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أي: على أزواجهن ، فلا يبغين غير أزواجهن .

وعن الحسن قال [(٢)]: ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أي: قصرن طرفهن على أزواجهن ، فلا يردن غيرهم والله ما هن متبرجات ولا متطلعات ، أي: لا تتطلع المرأة منهن إلى غير زوجها .

قال مجاهد[(٣)]:"قصرن أبصارهن وقلوبهن وأنفسهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم » . أي غير الأزواج.وأما الأتراب : جمع ترب وهو لدة الإنسان أي قرينه أو مثيله أو شبيه .

قال ابن عباس: «مستويات على سن واحد وميلاد واحد ، وقال تعالى في صفه الحور: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : ٥٦]» .

قال المفسرون : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ أي: لم يجامعهن قبل الزوج أحد لا من الإنس ولا الجن ؛ وقال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : ٥٨] .

قال الحسن [(٤)] : أراد صفاء الياقوت ، في بياض المرجان ، شبههُنَّ في صفاء

---

(١) أخرجه البيهقي في «البعث» (٣٨٥) ، وهناد في «الزهد» (١٧٢١٦) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ١٣٠) ، والطبري في «تفسيره» (٢٩٣٦٣) و(٣٢١٨١، ٣٣١٨٤) .

(٢) أخرجه البيهقي في «البعث» (٣٨٧) .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٥٦٨، ٥٦٩) ، والبيهقي في «البعث» (٣٨٨) ، والطبري في «التفسير (٣٣١٨٣) .

(٤) «حادي الأرواح» (٢٩٩) .

اللون وبياضه بالياقوت والمرجان.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ [(١)] : إن المرأة من نساء أهل الجنة لتلبس عليها سبعين حلة من حرير فيرى بياض ساقيها من ورائهن ، ذلك بأن الله يقول : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ قال ابن مسعود : ألا وإن الياقوت حجر لو جعلت فيه سلكًا ثم استصفيته نظرت إلى السلك من وراء الحجر » .

وقال تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴾ [الرحمن : ٧٢] ، قال أبو عبيدة : المراد أنهن محبوسات في الخيام على أزواجهن ، لا يرون غيرهم وهن في الخيام ، وهذا معنى قول من قال : قصرن على أزواجهن فلا يُردنَ غيرهم ولا يَطْمَحْنَ إلى من سواهم ، وقال ﷻ : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن : ٧٠] ، فالخيرات : جمع خيرة وهي مخففة ، وحِسَانٌ : جمع حسنة ، فهن خيرات الصفات والأخلاق والشيم ، حِسان الوجوه ، هذه بعض آيات القرآن في وصف نساء أهل الجنة من نساء الدنيا ومن الحور ، وتأتي السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلوات والتسليمات ، لتبين هي الأخرى جمال وكمال نساء أهل الجنة .

ففي الحديث الذي رواه الإمام البخاري في صحيحة [(٢)] من حديث أنس ابن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال : « لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ الله أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدَم مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا ، وَلَمَلأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا ، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » هل

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١١/ ٤١٤) ، ونعيم بن حماد في «زوائد الزهد» لابن المبارك (٢٦٠) ، والطبراني في «الكبير» (٨٨٦٤) ، والترمذي (٢٦٥٤) ، والطبري في «التفسير» (٣٣١٢٤، ٣٣١٢٦) ، وهناد في «الزهد» (١٠) ، وابن أبي شيبة (١٣/ ١٠٧) .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد والسير، باب الحور العين وصفتهن (٢٧٩٦) ، وانظر (٦٥٦٨).

يستطيع أحد أن يخرج المؤمنات الصالحات من أهل الدنيا ممن دخلن الجنة؟ لا دليل على ذلك قال ﷺ: «وَلَوِ اطَّلَعَتِ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ - فإن دخلت المؤمنة الصالحة التقية النقية - من نسائنا وأمهاتنا وبناتنا وأخواتنا في الدنيا - فهي من نساء أهل الجنة - لَمَلأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»، الغدوة والروحة يعني الخروج إلى الجهاد، ولنصيفها: يعني خمارها.

وفي «الصحيحين»[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَإِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ»، وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه أيضا: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ»[2]، وهم إضافة إلى نساء الدنيا قال ﷺ: «يُرَى مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ».

وقد استدل بهذا الحديث أبو هريرة رضي الله عنه على أن النساء في الجنة أكثر من الرجال، قال ﷺ: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ ثِنْتَانِ يُرَى مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ»، أي أن النساء الضِّعف، إذًا كيف الجمع بين هذا وحديث النبيِّ ﷺ[3]: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته (٣٣٢٧) وانظر (٣٢٤٥)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب أول زمرة تدخل الجنة (٢٨٣٤)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٢٣٠) واللفظ له.

(٢) أحمد في «المسند» (٢/ ٥٠٧).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب (١٤٦٢)، ومسلم، كتاب الإيمان (٨٠) مختصرًا.

أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ » فَقُلْنَ : وَبِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله؟ قال :« تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ» .

والجمع بين الحديثين: أي: كل واحد في الجنة له زوجتان من الحور ، حتى لو كانا من الحور فقط يكون عدد النساء أكثر ، فما بالك بنساء الدنيا ممن دخلن الجنة ، فالنساء أكثر . فالجمع أن النساء من أهل الدنيا هن أكثر أهل النار ، فإذا أضيف إلى المؤمنات الصالحات ممن دخلن منهن الجنة الحور كنَّ أكثر في الجنة من الرجال .

وهناك من يتزوج في الجنة بأكثر من اثنين ؛ بل يتزوج اثنتين وسبعين من الحور العين ففي الحديث الذي رواه أحمد والترمذي والبيهقي وصححه شيخنا الألباني في صحيح الجامع [(١)] من حديث المقدام بن معد يكرب ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « لِلشَّهِيدِ عِنْدَ الله سِتُّ خِصَالٍ يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَيَأْمَنُ مِنْ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنْ الْحُورِ الْعِينِ ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ » .

وقد ثبت في الصحيح أيضًا ما يدل على أن المؤمن يزوج في الجنة بأكثر من زوجتين سواءً من الحور أو من نساء الدنيا ، دل على ذلك ما رواه البخاري ومسلم [(٢)] من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب فضائل الجهاد ، باب في ثواب الشهيد (١٦٦٣) وقال: حسن صحيح غريب ، وابن ماجه ، كتاب الجهاد ، باب فضل الشهادة في سبيل الله (٢٧٩٩) ، وأحمد (٤/ ١٣١) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٨٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب «حور مقصورات في الخيام» (٤٨٧٩) ، ومسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب صفة خيام الجنة (٢٨٣٨) واللفظ له .

لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُهَا سِتُّونَ مِيلاً ، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ ، فَلاَ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا » .

ومن كمال النعيم لأهل الجنة ؛ ما رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط» بسندٍ صححه شيخنا الألبانيُّ (١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ أَزْوَاجَ أَهْلِ الجَنَّةِ لَيُغَنِّينَ أَزْوَاجَهُنَّ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتٍ سَمِعَهَا أَحَدٌ قَطُّ إِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ :

نَحْـنُ الْخَـيِّرَاتُ الْحِسَـانُ أَزْوَاجُ قَـوْمٍ كِـرَامِ

يَنْظُرْنَ بِقُرَّةِ أَعْيَانِ

وَإِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ بِهِ :

نَحْـنُ الْخَالِـدَاتُ فَـلا يُمِتْنَـهْ نَحْـنُ الآمِنَـاتُ فَـلا يَخَفْنَـهْ

نَحْنُ الْمُقِيمَاتُ فَلا يَظْعَنَّهْ »

فلا يوجد موتٌ في الجنة ؛ كما في «الصحيحين» (٢) أن النبيَّ ﷺ يقول : «يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ ، وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ ، هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ ، فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ ».

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٢٢، ٤٣٠) ، والطبراني في «الأوسط» (٤٩١٧) ، وفي «الصغير» (٧٣٤) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٤١٩) : «رجاله رجال الصحيح» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٦١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير، سورة مريم ، باب «وأنذرهم يوم الحسرة» (٤٧٣٠) ، ومسلم ، كتاب الجنة ، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٩) واللفظ له.

« نَحْنُ الآمِنَاتُ فَلا يَخَفْنَ » : لا يوجد خوف في الجنة

« نَحْنُ الْمُقِيمَاتُ فَلا يَظْعَنَّ » : أي لا نغضب ولا نبرح المكان معك أبدًا.

وحتى تكتمل الصورة عن الجنة أذكر بحديثين اثنين عن أدنى أهل الجنة منزلة ، وعن آخر رجل يدخل الجنة ، وأكون بذلك قد أنهيت الحديث عن وصف أهل الجنة فيما صح عن رسول الله ﷺ بعد القرآن الكريم .

روى مسلم في صحيحه [١] من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ؛ فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ ، كَيْفَ؟ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ ؟ فَيُقَالُ لَهُ : أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا ؟ فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ ! فَيَقُولُ : لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ : رَضِيتُ رَبِّ ، فَيَقُولُ : هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ ، فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ ، قَالَ : رَبِّ فَأَعْلاهُمْ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي ، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا ، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ». قَالَ : وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧] .

أما آخر رجل يدخل الجنة فحديثه في «صحيح البخاري ومسلم» [٢] من حديث ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال : « آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ ، فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً وَيَكْبُو مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً ، فَإِذَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ:

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٨٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار (٦٥٧١) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب آخر أهل النار خروجًا (١٨٦ ، ١٨٧) .

تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ ، لَقَدْ أَعْطَانِي الله شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ » أليس هو القائل : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[آل عمران : ١٨٥] ـ قَالَ : فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ـ أي قربني منها يارب لأستظل بظلها وأشرب من مائها ـ فَلأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا. فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَا ابْنَ آدَمَ ، لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا. فَيَقُولُ : لاَ يَا رَبِّ. وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا ، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا ، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَى ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا ، لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا ، فَيَقُولُ : يَا ابْنَ آدَمَ ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا ؟ فَيَقُولُ : لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا؟ فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا ، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ، لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا ، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا. ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ ، هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَيَيْنِ ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا ، لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. فَيَقُولُ : يَا ابْنَ آدَمَ أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا ؟ قَالَ : بَلَى يَا رَبِّ هَذِهِ لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا ، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْه ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا ، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِيهَا ، فَيَقُولُ : يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِي مِنْكَ ، أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا ؟ قَالَ : يَا رَبِّ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ » ، فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ : أَلاَ تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ ؟ فَقَالُوا : مِمَّ تَضْحَكُ ؟ قَالَ : هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ ، فَقَالُوا : مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قال : « مِنْ ضِحْكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ :

أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فَيَقُولُ : إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ » .

قال أبو رزين ﷺ : «لن نعدم من ربٍّ يضحك خيرًا »[1] .

فما هو أجل وأشرف وأكرم نعيم يُنْعِمُ الله ﷻ به على أهل الجنة ؟

والجواب هو: « النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى » ، وهذا النعيم هو أشرف أنواع النعيم في الجنة ـ كما ذكرت ـ والأدلة من القرآن والسنة وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة في هذا الموضوع كثيرة ، لا تكاد أن تعد أو تحصى .

أولا : قال تعالى حينما سأله كليمه موسى ﷺ : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ فقال الله ﷻ : ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

يستنبط الإمام ابن القيم بفهمه الدقيق العالي من هذه الآيات الكريمة دليلا على رؤية الرب تبارك وتعالى في الآخرة ، إذ أن نبيَّ الله موسى ﷺ قد عجز عن رؤية الله في الدنيا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يهيئه ولن يهيئ بشريته في الدنيا للنظر إلى وجهه جلَّ جلاله .

يقول ابن القيم[2] : « وبيان الدلالة على رؤية الرب سبحانه وتعالى من هذه الآية من وجوه عديدة :

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١١ ، ١٢) ، وفي «السنة» (٤٥٢) ، وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٢٥٣) ، والطيالسي في «مسنده» (١٠٩٢) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٥٤) ، وابن ماجه (١٨١) وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٨١٠) .

(٢) «حادي الرواح» (٥٧٦) وما بعدها بتصرف .

الوجه الأول : أنه لا يُظَنُّ بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه ، بل هو من أبطل الباطل ، وأعظم المحال .

الوجه الثاني : أن الله سبحانه وتعالى لم ينكر على موسى عليه السلام سؤاله ، كما لم ينكر ربنا تبارك وتعالى على إبراهيم عليه السلام حين سأله كيف يحي الموتى قال :

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] .

ولم ينكر الله على عيسى عليه السلام حينما سأله أن يُنزل عليه وعلى قومه مائدة من السماء ، وإنما أنكر الله ﷻ على نوح عليه السلام حينما سأله أن ينجي ابنه ، أنكر عليه سؤاله حينما قال نوح عليه السلام : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ [هود: ٤٥ : ٤٦] .

انظر إلى هذا الوعيد وهذا التهديد يقول الله لنبيه الكريم ﷺ : ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٦ ، ٤٧] فأنكر الله على نوح سؤاله ، ولم ينكر الله على موسى سؤاله ، ولم ينكر الله على إبراهيم سؤاله ، ولم ينكر الله على عيسى سؤاله ، فلو كان محالا أن يُرى لأنكر الله على موسى حين سأله الرؤية .

الوجه الثالث: أن الله ﷻ قد أجاب موسى بقوله : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ ، ولم يقل ربنا لموسى : إني لست بمرئي ولا تجوز رؤيتي ، وإنما قال : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ ، والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله ، وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى يُرى ،

ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته سبحانه في هذه الدار لضعف قوى البشر ، ومن رحمة الله بموسى عليه السلام أنه لم يره ؛ لأن الحق حينما تجلى للجبل ، وهو أعظم قوة وصلابة من نبي الله موسى ، دك الجبل المتجلي عليه فصعق ، فلم يهيئ العباد في الدنيا لرؤية الحق سبحانه ؛ لأن هذا هو أعلى النعيم في الجنة ، فليس نعيم الجنة الحقيقي في فضتها أو ذهبها أو حورها أو خمورها أو حريرها أو قصورها ، وإنما هو في رؤية وجه ربنا جلَّ جلاله .

قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [يونس : ٢٦ ، ٢٧] .

قال ابن القيم [1] : « فالحُسنى : الجنة ، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم .

كذلك فسر الآية من أنزل عليه القرآن ﷺ والصحابة من بعده » .

كما في صحيح مسلم [2] من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه أنه ﷺ قال بعد ما قرأ هذه الآية : « إِذا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ ، قَالَ : يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّض وُجُوهنَا ؟ أَلَمْ تُدْخِلنَا الجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّار ؟ قَالَ : فَيَكْشِف الحِجَاب ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عز وجل » .

وكما في «الصحيحين» [3] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: « إِنَّ الله يَقُولُ لأَهْلِ الجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ ، وَالخَيْرُ فِي

---

(١) «حادي الرواح» (٥٧٩) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨١) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار (٦٥٤٩) ، ومسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة ، فلا يسخط عليهم أبدًا (٢٨٢٩) .

يَدَيْكَ ؛ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَارَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ: أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ قَالُوا: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي ، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » .

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه [1] : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ : «النظر إلى وجه الله الكريم » .

قال حذيفة رضي الله عنه [2]: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: «النظر إلى وجه ربهم سبحانه وتعالى ».

قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم [3] : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ قال : «أما الحسنى : فالجنة ، وأما الزيادة : فالنظر إلى وجه الله تعالى ، أما القتر : فهو السواد» ، قال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٧] ، ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠] .

أما أهل الجنة قال الله في حقهم : ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي لايعلو وجوههم السواد ، قال غير واحد من السلف: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي بعد النظر إلى وجه الله تعالى ، والأحاديث في ذلك كثيرة .

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٤٧٣) ، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص١٨٣) ، وهناد في «الزهد» (١٧٠) ، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٧٠) ، والطبري في «تفسيره» (١٧٦٢٥) ، وابن منده في الرد على الجهمية (٨٤) ، والدارقطني في «الرؤية» (٢١٠، ٢٢٣) ، والآجري في «الشريعة» (٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٤٧٤) ، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٧٣) ، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص١٨٣) ، والدارقطني في «الرؤية» (٢٢٤-٢٢٨) ، والطبري في «تفسيره» (١٧٦٢٩) ، والآجري في «الشريعة» (٥٩١) .

(٣) أخرجه اللالكائي (٧٨٧، ٧٨٨) .

قال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥] ، وقد استدل الإمام الشافعي من هذه الآية على رؤية الرب استدلالاً فقهيًّا رائعًا ، فقد قال [(١)] الربيع بن سليمان : « حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها : ما تقول في قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾؟

فقال الشافعي : «لما أن حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا» .

قال له الربيع بن سليمان : يا أبا عبد الله ، وبه تقول ؟ قال : نعم ، وبه أدين الله ﷻ، ولو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عبد الله ﷻ.

فمن أشد أنواع العذاب أن يحجب الله سبحانه وتعالى عن النظر إليه أهلَ الشرك وأهلَ الكفر ، ومن أعلى أنواع النعيم أن يرزق الله أهل التوحيد والإيمان النظر إليه سبحانه وتعالى .

وقال ﷻ : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٥] أي: في الجنة .

قال الطبري : « قال علي بن أبي طالب [(٢)]، وأنس بن مالك رضي الله عنهما [(٣)]: «هو النظر إلى وجه الله ﷻ ».

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢،٢٣] ، وهذه آية لا تحتمل التأويل من جهم وإخوانه وأقرانه !! وهي من أعظم الأدلة على ذلك .

قال ابن القيم رحمه الله [(٤)] : وهذه الآية الكريمة صريحة في أن الله تعالى أراد

---

(١) أخرجه اللالكائي (٨٨٣) ، وأبو القاسم في «الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٢٤٧) ، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص٥٣) .

(٢) أخرجه اللالكائي (٨٥٢) .

(٣) أخرجه اللالكائي (٨١٣) ، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٩٤) .

(٤) «حادي الرواح» (٣٨٦) بتصرف.

بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الربِّ جلَّ وعلا ، فإن النظر له عدة استعمالات بحسب صِلاته وتعديه بنفسه وموقعها في الجمل ، فمثلا إن عُدِّيَ لفظ النظر بنفسه فمعناه : التوقف والانتظار كقول الله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد : ١٣] ؛ وإذا عدى بـ «في» فمعناه التفكر والاعتبار والتدبر كقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥] ، وإن عدي بـ «إلى» فمعناه المعاينة والمشاهدة بالإبصار كقوله تعالى : ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩٩] . فكيف إذا أضيف النظر إلى الوجه الذي هو محل الإبصار أصلًا ؟ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢،٢٣] .

قال الحسن [١] : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال : نظرت إلى ربها تبارك وتعالى فنضرت بنوره » ، وهذه النضرة تأتي بعد النظر إلى ربها تبارك وتعالى .

وعن ابن عباس [٢] : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ تنظر إلى وجه الله ﷻ .

قال عكرمة [٣] : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ من النعيم ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي : تنظر إلى ربها نظرا ، ثم حكى عن ابن عباس مثل هذا ، وهكذا فسرها كل علماء أهل السنة ، وتأتي الأحاديث النبوية لتوضيح هذه الآيات الكريمة ، فإن

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٧٩) ، واللالكائي (٨٠٠) ، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص١٨٤) ، والطبري في «التفسير» (٣٥٦٤٥، ٣٥٦٥٤) ، والدارقطني في «الرؤية» (٢٤١) ، والآجري في «الشريعة» (٥٨٥) ، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص١٠٠) .

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٨٥) ، والآجري في «الشريعة» (٥٨٣) ، والبيهقي في «الاعتقاد» (١٠٠) ، واللالكائي (٨٩٩) .

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٨١) ، واللالكائي (٨٠٣) ، والآجري في «الشريعة» (٥٨٦، ٥٨٧) ، والطبري في «التفسير» (٣٥٦٥٢) .

السنة موضحة مبينة للقرآن أيضًا ـ كما ذكرنا من قبل .

والأحاديث في رؤية الله تعالى قد بلغت حد التواتر ، رواها عن رسول الله ﷺ جمعٌ من الصحابة مثل : أبي بكر الصديق ، وأبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري ، وصهيب الرومي ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي موسى الأشعري ، وأنس بن مالك ، وعدي بن حاتم ، وجابر بن عبد الله ، وزيد بن ثابت ، وعمار ابن ياسر ، وعائشة ، وسلمان ، وحذيفة ، وابن عباس ، وابن عمر وغيرهم [1] ، رواها كثير من الصحابة عن الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

ففي «الصحيحين» [2] من حديث أبي هريرة ﷺ قال : قَالَ أُنَاسٌ : يَا رَسُولَ الله ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ : « هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ ؟» قَالُوا :لَا يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : « هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟» قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : « فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ».

« تُضَارُّونَ »: من المضارة ، يعني : هل يضايق بعضكم بعضًا في رؤيته ليلة البدر؟ أو حينما يرى الشمس ليس دونها سحاب ؟

قال الجوهري : يقال : أضرني فلان إذا دنى مني دنوا شديد وقال بعضهم : لا تَضَارُونَ ـ بفتح التاء ـ أي لا تضانون أو لا تضامون ولفظة «تضامون» واردة في حديث صحيح متفق عليه من حديث جرير بن عبد الله البجلي ــ سأذكره بعد ، إن شاء الله تعالى .

هل تضامون ؟ والتضام يكون من الانضمام للازدحام الشديد ، أي لا

(١) راجعها في «حادي الأرواح» (٣٨٨-٤٢٥) ط ابن رجب .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب الصراط جسر جهنم (٦٥٧٣) ، وانظر (٨٠٦) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢) .

يقترب بعضكم من بعضٍ فتزدحمون ، إذ يراه كل واحد منكم موسعًا منفردًا ، أي لا يضايقه أحد من الناس حال رؤيته لربه تبارك وتعالى إلى آخر الحديث الطويل ، وفي «صحيح البخاري ومسلم»[1] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ الله ﷺ قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ! هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟قَالَ : رَسُولُ الله ﷺ : « نَعَمْ » ، قَالَ : « هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ ؟ » قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : « مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا ، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ: لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ الله سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ - من اليهود والنصارى - فَيُدْعَى الْيَهُودُ ، فَيُقَالُ لَهُمْ : مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله ، فَيُقَالُ : كَذَبْتُمْ ، مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ ، فَمَاذَا تَبْغُونَ ؟ قَالُوا : عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا ، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ : أَلَا تَرِدُونَ ، فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى ، فَيُقَالُ لَهُمْ : مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ؟ ، قَالُوا : كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ الله ، فَيُقَالُ لَهُمْ : كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ ، فَيُقَالُ لَهُمْ : مَاذَا تَبْغُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا ، قَالَ : فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (٤٥٨١) ، وانظر (٤٩١٩، ٦٥٧٤، ٧٤٣٨، ٧٤٣٩) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣) واللفظ له.

كَانَ يَعْبُدُ الله تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ ، أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنْ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا ، قَالَ : فَمَا تَنْتَظِرُونَ ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ ، قَالُوا : يَا رَبَّنَا ، فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ ، فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ ، فَيَقُولُونَ : نَعُوذُ بِالله مِنْكَ ، لَا نُشْرِكُ بِالله شَيْئًا - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ ، فَيَقُولُ : هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » لا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، فكل ما دار ببالك فالله بخلاف ذلك: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] جلَّ عن الشبيه ، وعن النظير، وعن المثيل ، لا كفء له ، ولا ند له ، ولا شبيه له ، ولا ولد له ، ولا زوجة ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل:٧٤] «فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لله مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ الله لَهُ بِالسُّجُودِ ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ الله ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً ، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ ، وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَقَالَ : أَنَا رَبُّكُمْ ، فَيَقُولُونَ : أَنْتَ رَبُّنَا ، ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ ، سَلِّمْ » قِيلَ: يَا رَسُولَ الله ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ : « دَحْضٌ مَزِلَّةٌ ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ ، تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ ، يُقَالُ لَهَا : السَّعْدَانُ ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ ، وَكَالْبَرْقِ ، وَكَالرِّيحِ ، وَكَالطَّيْرِ ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ ، وَالرِّكَابِ ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لله فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لله يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ ، يَقُولُونَ : رَبَّنَا ، كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ

سَاقَيْهِ ، وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا ، مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ ، فَيَقُولُ : ارْجِعُوا ، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا ، لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا ، ثُمَّ يَقُولُ : ارْجِعُوا ، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا، ثُمَّ يَقُولُ : ارْجِعُوا ، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا ، لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا » .

وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ : إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] .

«فَيَقُولُ الله ﷻ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ ، قَدْ عَادُوا حُمَمًا ، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ : نَهَرُ الْحَيَاةِ ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ ، أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ أَوْ إِلَى الشَّجَرِ مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ؟» فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالْبَادِيَةِ ؟ قَالَ : فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ ، هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ الله الَّذِينَ أَدْخَلَهُمْ الله الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ ، ثُمَّ يَقُولُ : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ، فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ ، فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ : لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا ، فَيَقُولُونَ : يَا رَبَّنَا ، أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ : رِضَايَ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » .

قليل منك يكفيني ولكن ... قليلك لا يقال له قليل

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[التوبة: ٧٢]، يعني: إذا حل على أهل الجنة رضوان الله فهو أكبر من كل نعيم هم فيه، قال سبحانه: «رِضَايَ» وفي لفظ[1]: «رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

وفي «الصحيحين»[2] من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا عند النبيِّ ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا - أَيْ بِأَعْيُنِكُمْ - كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ فَافْعَلُوا ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[ق: ٣٩]».

صلاة قبل طلوع الشمس هي صلاة الصبح، وصلاة قبل الغروب هي صلاة العصر.

وقف بعض أهل العلم مع حرف الكاف في قوله ﷺ: «كَمَا تَرَوْنَ هَذَا لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ» فظنوا أن الكاف هنا هي كاف التشبيه للمرئي، أي: للحق سبحانه وتعالى، ولكنها كاف التشبيه للرؤية، يعني ترون ربكم رؤية ينزاح فيها الشك كرؤيتكم القمر ليلة البدر لا ترتابون فيها ولا تشكُّون.

أما أقوال الصحابة فهي كثيرة، كما قال الصديق رضي الله عنه - كما ذكرت - في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قالوا: ما الزيادة يا خليفة رسول الله؟ قال: النظر إلى وجه الله تعالى، وهكذا قال علي بن أبي طالب، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، ومعاذ بن

(١) سبق قريبًا.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر (٥٥٤)، وانظر (٧٤٣٤-٧٤٣٦)، ومسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٦٣٣).

جبل ، وأبو هريرة ، وأبو موسى الأشعري ، وغيرهم من أصحاب النبيِّ ﷺ .

وأما التابعون أيضًا من أئمة الإيمان والحديث والفقه والتفسير فأقوالهم أكثر من أن يحيط بها إلا الله تبارك وتعالى ، فقد قال بهذا [١] : سعيد بن المسيب ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وعامر بن سعد ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة وغيرهم كثير .

وقال الحسن [٢] : «لو علم العابدون في الدنيا أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا» .

وهذا ما قاله أيضا الأئمة الأربعة ، أئمة العلم والدين ، فقال إمام دار الهجرة [٣] : «الناس ينظرون إلى ربهم يوم القيامة بأعينهم» ، وقال عبد الله بن المبارك [٤] : «ما حجب الله عنه أحدًا إلا عذبه ثم قرأ : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] »، وقال بذلك محمد ابن إدريس الشافعي ـ كما ذكرت آنفًا .

وقال الإمام أحمد إمام أهل السنة [٥] حينما سُئل: أتقول بالرؤية ؟ يعني أتقول برؤية الرب يوم القيامة ؟ فقال : «من لم يقل بالرؤية فهو جهمي» ، وقال: «من قال: إن الله لا يُرى فهو كافر» ، قال أبو عبد الله : «إذا لم نقر بما جاء عن النبيِّ ﷺ ودفعناه رددنا على الله أمره ؛ قال الله ﷻ : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧] » .

قال إمام الأئمة محمد بن خزيمة رحمه الله في «التوحيد» [٦] : « إن العلماء لم

---

(١) انظر: «حادي الأرواح» (٤٢٩) ط ابن رجب .

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٨٦، ١١٣٣) ، والآجري في «الشريعة» (٥٧١) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٩) ، واللالكائي (٨٦٩) . .

(٣) أخرجه اللالكائي (٨٧٠) ، والآجري في «الشريعة» (٥٧٤) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٦) .

(٤) «حادي الأرواح» (٤٣٤) .

(٥) المصدر السابق (٤٣٧، ٤٣٨) .

(٦) «التوحيد» لابن خزيمة (٢/ ٥٨٧) .

أن جميع المؤمنين يرون خالقهم في الآخرة لا في الدنيا ، ومن أنكر ذلك فليس بمؤمن» .

بل هذا أعلى وأشرف صور النعيم التي أنعم الله تبارك وتعالى بها على أهل الجنة .

وأختم بكلمات نفيسة لابن القيم رحمه الله في نونيته الجميلة[١] :

ويرونه سبحانه من فوقهم	نظر[٢] العيان كما يرى القمران
هذا تواتر عن رسول الله لم	ينكره إلا فاسدُ الإيمان
وأتى به القرآن تصريحا وتـ	ـعريضًا هما بسياقه نوعان
وهي الزيادة قد أتت في يونس	تفسير من قد جاء بالقرآن
ورواه عنه مسلمٌ بصحيحه	يروي صهيب ذا بلا كتمان
وهو المزيد كذاك فسره	أبو بكر هو الصديق ذو الإيقان
وعليه أصحاب الرسول وتابعو	هم بعدهم تبعية الإحسان
ولقد أتى ذكر اللقاء لربنا الـ	ـرحمن في سور من الفرقان
ولقاؤه إذ ذاك رؤيته حكى الـ	إجماع فيه جماعةٌ ببيان
وعليه أصحاب الحديث جميعُهم	لغةً وعرفًا ليس يختلفان
ولقد أتى في سورة التطفيف أن	القوم قد حجبوا عن الرحمن
فيدل بالمفهوم أن المؤمنيـ	ـن يرونه في جنة الحيوان
وبذا استدل الشافعي وأحمد	وسواهما من عالمي الأزمان

(١) «نونية ابن القيم» (٢/ ٤١٠-٤٢٠) بتصرف ، ط الكتب العلمية ، و(٢/ ٥٧٦-٥٧٩) ط المكتب الإسلامي.

(٢) في نسخة المكتب الإسلامي (رؤيا) .

وأتى بـذا المفهوم تصريحابـا ... خـر هـا فـلا تخدع عن القـرآن
وأتى بـذاك[1] مكـذبًا للكافريـ ... ـن الساخرين بشريعة الـرحمن
ضحكوا من الكفار يومئذ كما ... ضحكوا هـم منهم على الإيمان
وأثـابهم نظـرا إليـه ضـد مـا ... قـد قالـه فـيهم أولـوا الكفـران
فلـذاك فسرهـا[2] الأئمـة أنـه ... نظـرٌ إلى الـرَّبِّ العظـيم الشـان
لله ذاك الفهـم يؤتيـه الـذي ... هـو أهلـه مـن جـاد بالإحسـان
وروى ابن ماجة مسندًا عن جابر ... خـبرا وشـاهده ففـي القـرآن
بينـا هُـم في عيشـهم وسرورهـم ... ونعـيمهم في لـذة وتهـان
و إذا بنـور سـاطعٍ قـد أشرقـت ... منـه الجنـان قاصـيها والـداني
رفعوا إليه رؤوسهم فـرأوه نـور ... الـرب لا يخفـى عـلى الإنسـان
و إذا بـربهم تعـالي فـوقهم ... قـد جـاء للتسـليم بالإحسـان
قـال السـلام علـيكم فيرونـه ... جهـرا تعـالى الـرب ذو السـلطان
مصـداق ذا ياسـين قـد ضـمنته عنـ ... ـد القـول مـن رب بهـم رحمـن
مـن رد ذا فعـلى رسـول الله رد ... وسـوف عنـد الله يلتقيـان
في ذا الحـديث عُلـوُّهُ و مجيئـه ... وكلامـة حتـى يـرى بعيـان
هـذي أصـول الـدين في مضـمونه ... لا قـول جهـم صـاحب البهتـان
وكـذا حـديث أبي هريـرة ذلـك الـ ... ـخبر الطويـل أتـى بـه الشـيخان
فيـه تجـلى الـرب جـل جلالـه ... ومجيئـه وكلامـه ببيـان

(١) في الطبعة السابقة (بذلك).
(٢) في طبعة المكتب (فسره).

وكــذاك رؤيتــه وتكلــيم لمــن يختــاره مــن أمــة الإنســان
أو مـا سـمعت منـادي الإيـمان يخـ ـبر عـن منـادي جنـة الحيـوان
يـا أهلهـا لكـم لـدى الـرحمن وعـ ـدٌ وهـو منجـزه لكـم بضـمان
قـالوا أمـا بيضـت أوجهنـا كـذا أعمالنـا أثقلـت [1] في الميـزان
وكـذاك قـد أدخلتنـا الجنـات حـ ـين أجرتنـا مـن مـدخل النـيران
فيقـول عنـدي موعـد قـد آن أن أعطيكمـوه برحمتـي وحنـان
فيرونـه مـن بعـد كشـف حجابـه جهـرًا روى ذا مسـلم بيـان
ولقـد أتانـا في الصـحيحين الذيـ ـن هما أصح الكتـب بعـد قـرآن
برواية الثقة الصدوق جرير البجلي عمـن جـاء بـالقرآن
أن العبـاد يرونـه سـبحانه رؤيـا العيـان كـما يـرى القمـران
فإن استطعتم كل وقت فاحفظوا الـ ـبردين مـا عشـتم مـدى الأزمـان
ولقـد روى بضـع وعشرون امـرأً مـن صـحب أحمـد خـيرة الـرحمن
أخبـار هـذا البـاب عمـن قـد أتـى بـالوحي تفصـيلا بـلا كـتمان
وألـذ شيء للقلـوب فهـذه الـ أخبـار مع أمثالها هي بهجة الإيمان
والله لـولا رؤيـة الـرحمن في الـ ـجنات مـا طابـت لـذي العرفـان

*****

---
[1] في الطبعة السابقة (ثقلت).



الإيمان بالقضاء والقدر

مقدمة مُهِمَّة في الإيمان بالقدر

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ـ في مقدمة كتابه القيم: « شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل »:

« إن أهمَّ ما يجبُ معرفته على المكلف النبيل، فضلًا عن الفاضل الجليل: ما ورد في القضاء والقدر والحكمة والتعليل، فهو في أسنى المقاصد، والإيمان به قطب رحى التوحيد ونظامه، ومبدأ الدين المبين وختامُه، فهو أحد أركان الإيمان، وقاعدة أساس الإحسان التي يرجع إليها، ويدور في جميع تصاريفه عليها، فالعدل قوام الملك، والحكمة مظهر الحمد، والتوحيد متضمن لنهاية الحكمة وكمال النعمة، فبالقدر والحكمة ظهر خلقُه وشرعهُ المبين: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقد سلك جماهير العقلاءِ في هذا الباب في كُلِّ واد، وأخذوا في كل طريق، وتولجوا كل مضيق، وركبوا كل صعب وذلول، وقصدوا الوصول إلى معرفته والوقوف على حقيقته، وتكلمت فيه الأمم قديمًا وحديثًا، وساروا للوصول إلى مغزاه سيرًا حثيثًا، وخاضت فيه الفرقُ على تباينها واختلافها، وصنَّف فيه المصنفون الكتب على تنوع أصنافها.

فلا أحد إلا وهو يحدِّثُ نفسَه بهذا الشأن ـ أي: بشأن القدر ـ ويطلبُ الوصول فيه إلى حقيقة العرفان، فتراه إما مترددًا فيه مع نفسه، أو مناظرًا لبني جنسه.

وكُلٌّ قد اختار لنفسه قولًا لا يعتقد الصوابَ في سواه، ولا يرتضي إلا إياه، وكلُّهم ـ إلا من تمسك بالوحي ـ عن طريق الصواب مردودٌ، وبابُ الهدى في وجهه مَسْدود، تَحَسَّى عِلْمًا غَيرَ طائل، وارتوى من ماءٍ آجن، قد

طافَ على أبوابِ الأفكار ففاز بأخَسِّ الآراءِ والمطالب ، وفَرِحَ بما عنده من العلم الذي لا يُسْمِنُ ولا يُغني من جوع ، وقدم آراء من أحسن به الظن على الوحي المُنَزَّلِ المشروع والنصِّ المرفوع ، حيران يأتمُّ بكلِّ حيران ، يحسب كُلَّ شراب ماءً ، فهو طول عمره ظمآن ، ويُنَادى إلى الصواب من مكان بعيد ، أقبلْ إلى الهدى فلا يستجيبُ إلى يوم الوعيد ، قد فَرِح بما عنده من الضلال ، وقنع بأنواع الباطل وأصنافِ المِحال ، مَنَعَهُ الكفر الذي اعتقده هدى وما هو ببَالغه عن الهُداة المهتدين ، ولسانُ حاله أو قَاله يقول : ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الأنعام :٥٣] .

ولَمَّا كان الكلامُ في هذا الباب نفيًا وإثباتًا موقوفًا على الخبر عن أسماء الله وصفاته وأفعاله وخلقه وأمره ، فَأَسْعَدُ الناسِ بالصواب فيه : من تَلَقَّى ذلك من مشكاة الوحي المبين ، ورغب بعقله وفطرته وإيمانه عن آراء المُتَهوِّكين ، وتشكيكاتِ المُشككين ، وتكلُّفات الـمُتنطِّعين، واستمطر دَيْم الهدايةِ من كلمات أعْلَمِ الخلق برب العالمين ؛ فإن كلماته الجوامع النوافع في هذا الباب وفي غيره كَفَتْ وشَفَتْ ، وجَمَعَتْ وفَرَّقَتْ ، وأوْضَحَتْ وبَيَّنَتْ ، وحَلَّتْ مَحَلَّ التفسيرِ والبيانِ لِما تَضَمَّنَهُ القرآن .

ثم تلاهُ أصحابهُ من بعده على نهجه المستقيم وطريقه القويم ، فجاءت كلماتُهم كافيةً شافيةً مختصرةً نافعةً لِقُربِ العهد ومباشرة التلقي من تلك المشكاة التي هي مظهر كل نور ، ومنبع كل خير ، وأساسُ كلِّ هدى ، ثم سلك آثارهم التابعون لهم بإحسان ، فاقتفوا طريقَهم ، وركبوا مناهجَهم ، واهتَدَوْا بهداهم ، وَدَعَوْا إلى ما دعوا إليه ، ومضوا على ما كانوا عليه» [١].

---

(١) «شفاء العليل» (٣،٤) طبعة دار التراث .

يقول أبو المظفر السمعانيُّ ـ فيما حكاه عنه الحافظ ابن حجر[1] :

« سَبيلُ المعرفةِ في هذا الباب : التوفيق إلى الكتاب والسنة دون محضِ القياسِ والعقلِ ، فَمَنْ عَدَلَ عن التوفيقِ فيه ضلَّ وتاه في بحار الحيرة ولم يبلغ شفاء العين ولا ما يطمئن به القلب ؛ لأن القدرَ سِرٌّ من أسرار الله تعالى اختص العليم الخبير به ، وضرب دونه الأستار وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم ، لما علمه من الحكمة ، فلم يعلمه نبيٌّ مرسل ولا ملكٌ مقرب » .

يقول الإمام الطحاويُّ رحمه الله تعالى[2] : « وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، لم يطلع على ذلك ملكٌ مقرب ولا نبيٌّ مرسل ؛ والتعمقُ والنظر في ذلك ذريعةُ الخذلان ، وَسُلَّمُ الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة ، فإن الله طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه ؛ كما قال تعالى : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣] » .

وقال الإمام أحمد رحمه الله[3] : «ومن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقبلها ويؤمن بها ، لم يكن من أهلها ؛ الإيمان بالقدر خيره وشره ، والتصديق بالأحاديث فيه ، والإيمان بها ، لا يقال : لم ، ولا كيف ؟ » .

فلا يقال : لم رزق الله فلانًا ؟ ولم منع الله عن فلان ؟ وكيف نصر الله فلانًا ؟ وكيف خذل الله فلانًا ؟ وكيف غفر الله لفلان ؟ وكيف لم يغفر الله لفلان ؟ وكيف هدى الله فلانًا ؟ وكيف أضل الله فلانًا ؟

قال رحمه الله : إنما هو التصديق والإيمان بها ، ومن لم يعرف تفسير الحديث ويبلغه عقله ، فقد كفي ذلك وأحكم له ، فعليه الإيمان به والتسليم له .

---

(١) «فتح الباري» (١١/ ٤٧٧) ط المعرفة .

(٢) «العقيدة الطحاوية» بتعليق الشيخ الألباني : (ص:٤٩ ، ٥٠) .

(٣) «أصول السنة» للإمام أحمد (ص١٠) ط الكيان .

وهذا الذي قرره أهل العلم في القدر .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب : ما دلَّ عليه الكتاب والسنة ، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وهو : أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد ، وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته ولا يمتنع عليه شيء شاءه ؛ بل هو القادر على كل شيء ، ولا يشاء شيئًا إلا وهو قادر عليه .

وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها ، وقد قدَّر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم .

قدر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم ، وكتب ذلك وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة ، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء ، وقدرته على كل شيء ، ومشيئته لكل ما كان ، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون ، وتقديره لها ، وكتابته إياها قبل أن تكون » [1].

وقال أيضًا رحمه الله تعالى : « سلف الأمة وأئمتها متفقون على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به منهيون عما نهاهم الله عنه ، ومتفقون على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة ، ومتفقون على أنه لا حُجَّة لأحد على الله في واجب تَرَكَه ولا مُحَرَّم فَعَلَهُ ؛ بل لله الحجَّة البالغة على عباده » [2].

وقال الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الآجُرِّيُّ رحمه الله : « مذهبنا في القدر أن

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٤٩، ٤٥٠) .

(٢) نفس المصدر (٨/ ٤٥٢) .

نقول : إن الله عزَّ وجلَّ خلق الجنة وخلق النار ، ولكل واحدة منهما أهلًا . وأقسم بعزته أن يملأ جهنم من الجِنَّةِ والناس أجمعين ، ثم خلق آدم ﷺ واستخرج من ظهره كل ذُرِّيَّةٍ هو خَالِقُهَا إلى يوم القيامة ، ثم جعلهم فريقين : فريق في الجنة ، وفريق في السعير .

الخلقُ كلهم له ، يفعل في خلقه ما يريد ، غير ظالم لهم ــ جلَّ ذكره ــ عن أن يُنسب ربنا إلى الظلم ، وإنما يظلم من يأخذ ما ليس له بملك .

وأما ربُّنَا عزَّ وجلَّ فله ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثَّرَى ، وله الدنيا والآخرة جلَّ ذكره وتقدست أسماؤه ، أحب الطاعة من عباده وأمر بها ، فجرت ممن أطاعه بتوفيقه لهم ، ونهى عن المعاصي وأراد كونها من غير محبةٍ منه لها ، ولا للأمر بها ، تعالى الله ﷻ أن يأمر بالفحشاء أو يحبها ، جلَّ ربُّنَا وعزَّ أن يجري في ملكه ما لم يرِدْ أن يجري ، أو شيء لم يحطْ به علمه قبل كونه قد علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم ، وبعد أن يخلقهم قبل أن يعملوا قضاءً وقدرًا .

قد جرى القلم بأمره ﷻ في اللوح المحفوظ بما يكون من برٍّ أو فجور. يثني على من عمل بطاعته من عبيده ، ويضيف العمل إلى العباد ويعدهم عليه الجزاء العظيم ، ولولا توفيقه لهم ما عملوا ما استوجبوا به منه الجزاء : ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الحديد: ٢١] .

وكذا ذم قومًا عملوا بمعصيته ، وتوعدهم على العمل به ، وأضاف العمل إليهم بما عملوا وذلك بمقدور جرى عليهم : ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[النحل: ٩٣] »[(١)] .

---

(١) «الشريعة» للآجري (١٥٠-١٥٢) بتصرف يسير .

ومن جميل ما قاله الإمام الآجريُّ أيضًا [(١)]: « لا يحسن بالمسلمين التنقيبُ والبحث ؛ لأن القدر سرٌّ من أسرار الله عز وجل ؛ بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شر واجب على العباد أن يؤمنوا به ، ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر ، فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد ، فيضل عن طريق الحق ».

وبعد هذه الكلمات الجامعات النافعات نستطيع أن نضع بعض القواعد والأصول المهمة بين يدي الحديث عن هذا الركن الكبير من أركان الإيمان بالله جلَّ وعلا .

بعض القواعد والأصول المهمة في الإيمان بالقدر :

الأصل الأول :

وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره ؛ إذ لا يصح الإيمان بدونه ، فهو أحد أركان الإيمان .

الأصل الثاني :

وجوب الاعتماد في مبحث الإيمان بالقدر على الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة ، وترك الاعتماد في ذلك على نظر العقول ومحض القياس ؛ فالعقل لا يستطيع بنفسه أن يحقق النجاة في هذا الباب من الانحراف والضلال ، والذين خاضوا بعقولهم في هذا الميدان الرَّحب ضلوا وتاهوا ، والذين أقدموا على السباحة بعقولهم في هذا البحر العميق غرقوا وضاعوا ، ومنهم من وصل في النهاية إلى التكذيب بالقدر .

وقد يظن البعض أن قولي هذا يُشكِّلُ حَجْرًا على العقل البشري المبدع ، الذي صنع القنبلة النووية والهيدروجينية ، وحوَّل العالم إلى قرية صغيرة عن طريق هذا التقدم المذهل في عالم الاتصالات والمواصلات !! كلَّا ؛ فنحن لا

---

(١) نفس المصدر السابق .

نكر ما وصل إليه العقل البشريُّ في هذا الجانب المادي الذي يجب على العقل أن يبدع فيه ، لكن لا مجال للعقل أن يتعرف على الله جلَّ وعلا بأسماء جلاله وصفات كماله ، وعلى أصول هذا الدين إلا بالعودة إلى وحي الله المعصوم من القرآن والسنة ، وأن نجعل العقل أساسًا لفهمهما ، لا أن نقدم العقل على النقل !

قال الله تعالى لنبينا ﷺ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى:٥٢] .

فعقلُ رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق ، ولو وُزن عقله بعقولهم جميعًا لرجحها ، ومع ذلك يخبر الحق تبارك وتعالى أن النبيَّ ﷺ قبل الوحي لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان .

فإذا كان أعقل أهل الأرض على الإطلاق لم يدر ما الكتاب ولا الإيمان إلا عن طريق الوحي ؛ فهل يستطيع سفهاء العقول والأحلام أن يهتدوا إلى الحق ، ويعرفوا الإيمان ، وأصوله ، وأركانه بمجرد عقولهم بغير نصوص الوحي القرآني والنبوي ؟! ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾[مريم: ٨٩، ٩٠] .

يقول الإمام ابن القيم في « مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة » : « إن المعارضة بين العقل والنقل هي أصل كل فساد في العالم ، وهي تخالف دعوة الرسل من كل وجه ؛ فإن الرسل دعوا إلى تقديم الوحي على الآراء والعقول ، وصار خصوم الرسل إلى ضِدِّ ذلك ، فأتباع الرسل قدَّموا الوحي على الرأي والعقل ، وأتباع إبليس ونُوابُهُ قدموا العقل على النقل »[1] .

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٣/ ١٠٧٨) ط العاصمة بتصرف .

ويقول الإمام الشهرستانيُّ رحمه الله في كتابه الماتع : « الملل والنِّحَل » [١]:

«اعلم أن أول شبهة وقعت في الخلق هي : شبهة إبليس ــ لعنه الله ــ ومصدرها استبدادُه بالرأي في مقابلة النص ، واختياره الهوى في معارضة الأمر ، واستكباره بالمادة التي خلق منها ، وهي النار على المادة التي خلق منها آدم ــ عليه السلام ــ وهي الطين ، وتشعبت عن هذه الشبهة شبهات » .

ومن ماتع ما قاله ابن القيم رحمه الله تعالى [٢]:

لا يستقلُّ العقلُ دون هدايةٍ ... بالوحي تأصيلًا ولا تفصيلًا

كالطَّرف دون النور ليس بمدرك ... حتى يراه بُكرةً وأصيلًا

فإذا النُّبوَّة لم ينلك ضياؤها ... فالعقل لا يهديك قط سبيلًا

نور النبوة مِثلُ نورِ الشمس ... للعين البصيرة فاتَّخِذْهُ دليلًا

طرق الهدى مسدودة إلا على ... من أمَّ هذا الوحي والتنزيلا

فإذا عدلت عن الطريق تعمُّدًا ... فاعلم بأنك ما أردت وصولًا

يا طالبًا دَرْكَ الهدى بالعقل دون ... النقل لن تلقى لذاك دليلًا

فالعقل له ميدانه ومجاله الذي يبدع فيه ويصول ويجول ويستخرج مكنوناته وأسراره ، ويربط بين أسبابه وعلله ، وبين مقدماته ونتائجه ، وللعقل أيضًا أن ينظر في الكون ليتعرف على عظمة الله وقدرته ، وله أن يفهم ويتدبَّر الوحي الذي أنزل الله على نبيِّه ﷺ .

لكن لا يجوز أبدًا أن ينصب العقل من نفسه حاكمًا على الوحي ليقبل منه ما يعقل ويردَّ منه ما لا يعقل ؛ فهذا مرفوض شرعًا وعقلًا !!

وقد أطلت النَّفَسَ في هذا الأصل لأهميته ، لا سيما ونحن نعيش عصرًا

---

(١) «الملل والنحل» (١/ ١٥) ط المعرفة.

(٢) «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» (٣/ ٩٧٩) ط العاصمة .

قُدِّمَ فيه العقل والعلم على صريح النقل وصحيحه .

الأصل الثالث :

البعد عن الخوض والتعمق في البحث في مسألة القدر :

فأصْلُ القدر سِرُّ الله تعالى في خلقه ، لَمْ يُطْلِع عليه ملكًا مقرَّبًا أو نبيًّا مرسلًا ؛ لذا فالخوض فيه ذريعة الخذلان وطريق الحرمان وباب الطغيان ؛ لأن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مَرامِه ، وقال جلَّ شأنه : ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء:٢٣] .

قال الإمام الطحاويُّ رحمه الله [١] : « فمن سأل : لِمَ فعل؟ فقد رَدَّ حكم الكتاب ، ومن رَدَّ حكم الكتاب كان من الكافرين » .

وكما قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : «لا يقال : لم ، ولا كيف؟» [٢].

وعلماء السلف والخلف متفقون على أن الله سبحانه وتعالى لا يأمر إلا لحكمة ، ولا يخلق إلا لحكمة ، ولا يعطي ولا يمنع إلا لحكمة، علمها من علمها ، وجهلها من جهلها .

ولا ريب أن سبيل النجاة في هذا الطريق الطويل أن يُقبل المؤمن على القرآن والسنة دون مُقرراتٍ عقلية أو أقيسة مادية مسبقة تجعله أسيرًا لتلك المقررات .

الأصل الرابع :

التزام الأدب مع الله تعالى ، بالاقتصار فقط على ألفاظ القرآن والسنة في هذا الباب خاصة ، وفي أبواب العقيدة عامة ، والبعد عن استخدام ألفاظ المتفلسفين وعبارات المتكلمين ؛ كألفاظ الجبر والاختيار ، فلم تثبت هذه الألفاظ لا في قرآن ولا في سنة ولا على ألسنة سلف الأمة الذين هم أعلم

---

(١) «شرح الطحاوية» (٢٤٩) ط المكتب الإسلامي .

(٢) «أصول السنة» للإمام أحمد (١٧) ، وأصول الاعتقاد للالكائي (١/ ١٥٦، ١٥٧) .

الناس بمراد الله ورسوله ﷺ .

قال عبد الله بن مسعود[1] رضي الله عنه: « من كان مُسْتَنًّا فليسْتَنَّ بمن قد مات ؛ فإن الحيَّ لا تُؤْمَنُ عليه الفتنة ، أولئك أصحابُ محمدٍ ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا ، اختارهم الله لصحبة نبيِّه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على آثارهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ طيَّب الله ثراه : « فإن كان الكلام في المعاني المجردة من غير تقييد بلفظ ، كما تسلكه المتفلسفة ونحوهم ممن لا يتقيد في أسماء الله وصفاته بالشرائع ؛ بل يسميه : علَّة وعاشقًا ومعشوقًا ونحو ذلك ، فهؤلاء إن أمكن نقل معانيهم إلى العبارة الشرعية كان حسنًا .

وإن لم يمكن مخاطبتهم إلا بلغتهم ، فبيان ضلالهم ودفع صيالهم عن الإسلام بلغتهم أولى من الإمساك عن ذلك لأجل مجرد اللفظ ، كما لو جاء جيش الكفار ولا يمكن دفع شرهم عن المسلمين إلا بلبس ثيابهم ـ أي : بلبس ثياب الكفار ـ فدفعهم بلبس ثيابهم خيرٌ من ترك الكفار يجولون في خلال الديار خوفًا من التشبه بهم في الثياب .

وأما إذا كان الكلام مع من قد يتقيد بالشريعة ؛ فإنه يقال له : إطلاق هذه

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٨١٠) بسندٍ ضعيف عن ابن مسعود . وله طرقٌ أخرى عنه ينهض بها ؛ كما عند الطبراني في «الكبير» (٩/ ١٦٦) (٨٧٦٤) ومن طريقه: أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٦) من طريق : الأعمش عن سلمة بن كهيل عن أبي الأحوص عن ابن مسعود قال: «ألا لا يقلِّدن أحدكم دينه رجلًا إن آمن آمن ، وإن كفر كفر ؛ فإن كنتم لا بد مقتدين فبالميت ، فإن الحيَّ لا يؤمن عليه الفتنة» . قال الهيثميُّ (١/ ١٨٠) : «رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح » . وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما بإسنادٍ ضعيف عند أبي نعيم في «الحلية» ١/ ٣٠٥) ، وراجع «المشكاة» (١٩٣) .

الألفاظ نفيًا وإثباتًا بدعة ، وفي كل منهما تلبيس وإيهام ، فلا بد من الاستفسار والاستفصال أو الامتناع من إطلاق كلا الأمرين في النفي والإثبات »[(١)] .

وأختتم هذه المقدمة المهمة قبل الحديث عن الإيمان بالقدر خيره وشره بسؤال مهم ألا وهو : لماذا نتكلم في القدر بعد هذه المقدمة التي بَيَّنَتَ لنا خطر الكلام في هذه المسألة ؟

لا سيما وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قد نهى عن التنازع في القدر ، وكان يغضب لذلك حتى وكأنما فقئ في وجنتيه الرُّمَّان ـ عليه الصلاة والسلام ـ من شدة الغضب ؛ فقال لأصحابه : « أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ » .

ثم قال ﷺ : « عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَنَازَعُوا فِيهِ »[(٢)] .

والجواب: وقف أهل العلم عند هذه الأحاديث واختلفوا على قولين:

القول الأول: هذه الأحاديث ثابتة ظاهرها أن نكف عن الخوض في القدر.

القول الثاني : هذه الأحاديث لا تثبت ولا تخلو أسانيدها من مقال ، فهي ضعيفة لا يحتج بها .

والراجح أن الأحاديث ثابتة يقوي بعضها بعضًا .

والجواب : أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان ، وقد وردت فيه الآيات ، والأحاديث عن النبيِّ ﷺ ؛ فكيف يأتي النهي بعد ذلك عن الكلام فيه بعد ما ثبتت فيه آيات القرآن وأحاديث النبيِّ ﷺ ؟!

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٢٣١، ٢٣٢) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ في كتاب القدر ، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر رقم (٢١٣٣) من حديث أبي هريرة وقال : « وفي الباب عن عمر وعائشة وأنس ، وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المري ، وصالح المري له غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها » ولكن الحديث له شواهد؛ لذا صححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٧٤٣) وفي «السلسلة الصحيحة» (٢٤٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﵁ .

إن هذا دليل قاطع على أن النهي إنما هو منصب على وجه الخوض فيه على سبيل التنازع والاختلاف والاعتراض على الله تعالى لا على وجه المعرفة الصادقة ، وفي كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ ما يدل على هذا الفهم ، فالنبيُّ ﷺ يقول : « إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا » .

فهل معناه : ألا نتكلَّم عن أبي بكر وعمر ولا نُبيِّن فضائل الصحابة، ونلغي من كتاب البخاري وكتب السنن فضائل الصحابة ؟! لا، فالمراد بـ « أَمْسِكُوا » أي : أمسكوا عن الخوض فيهم بالباطل ، وأمسكوا عن الخوض فيما قد وقع بينهم : « إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا ، وَإِذَا ذُكِرَتِ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا ، وَإِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا »[1] .

أي : لا تخوضوا فيه بالباطل على سبيل النزاع والخلاف والاعتراض على الله تعالى ، لكن لا حرج في أن نبحث في القدر بالأدلة المبثوثة الكثيرة في القرآن وفي سنة النبيِّ ﷺ ، إذ لو كان الأمر كذلك ما ذُكرت هذه الآيات الكثيرة في قرآن الله ، وما ذُكرت هذه الأحاديث الكثيرة في سنة رسول الله ﷺ .

وأيضًا ـ كثير من أهل العلم من علماء السلف قد ذكروا القدر وبحثوا فيه ، فهل خالف هؤلاء الأئمة أمر رسول الله ﷺ بالنهي عن الحديث في القدر ؟ لا.

قال الشيخ يحيى أبي الخير العمراني[2] رحمه الله بعد أن ذكر حديث

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢/ ٩٦) من حديث ثوبان ، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٢) وقال فيه : « وفيه يزيد بن ربيعة وهو ضعيف » .

وأخرجه الطبراني (١٠/ ١٩٨) من حديث عبد الله بن مسعود كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٢) وقال الهيثمي : « وفيه مسهر بن عبد الملك وثقه ابن حبان وغيره وفيه خلاف ، وبقية رجاله رجال الصحيح » . والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٤٥) لشواهده ، وانظر : «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣٤) .

(٢) «الانتصار في الرد على المعتزلة والقدرية الأشرار» (١/ ١٤٢، ١٤٣) .

عبد الله بن عمرو ﷺ : « فهذا الخبر وما أشبهه من الأخبار الواردة في النهي عن الخوض في القدر محمول على الكلام الذي تكلمت به القدرية : كيف يخلق الله المعاصي ونهى عنها وعذب عليها . فهذا الوجه من الكلام هو المنهي عنه ، فأما القول بأن الأشياء كلها بإرادة الله وخلقه وأن أحدًا لا يمنعه عن إرادته وما أشبهه من الكلام فليس ينهى عنه » .

وقد ذكر شيخ الإسلام ﷺ مذهب الجبرية والقدرية، وقال[1] : « وكلا القولين باطل ، وهذا هو الذي نهى عنه النبيُّ ﷺ في الحديث الذي في «المسند» وغيره وبعضه في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو ... الحديث ؛ ولهذا قال أحمد في بعض مناظرته لمن صار يضرب الآيات بعضها ببعض : إنا قد نهينا عن هذا ... » .

قال الإمام الآجريُّ[2] ﷺ : «فإن سأل سائل عن مذهبنا في القدر ؟

فالجواب في ذلك ـ قبل أن نخبره بمذهبنا : « أن ننصح للسائل ، ونعلمه أنه لا يَحْسُن بالمسلمين التنقير والبحث عن القدر ؛ لأن القدر سِرٌّ من أسرار الله ﷻ ؛ بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شر واجب على العباد أن يؤمنوا به ، ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر ؛ فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد ، فيضل عن طريق الحق .

إلى أن قال : ولولا أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لما بلغهم عن قوم ضُلَّال شردوا عن طريق الحق ، وكذبوا بالقدر ، فردُّوا عليهم قولهم وسبوهم وكفروهم ، وكذلك التابعون لهم بإحسان سَبُّوا من تكلم بالقدر وكذب به ، ولعنوا ونهوا عن مجالستهم ، وكذلك أئمة المسلمين ينهون عن

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٢٦) و(١٦/ ٤١٦) .
(٢) «الشريعة» للآجري (١٥٣، ١٥٤) ط إحياء التراث .

مجالسة القدرية وعن مناظرتهم ، وبينوا للمسلمين قبيح مذاهبهم ، فلولا أن هؤلاء ردُّوا على القدرية لم يَسَعْ مَنْ بعدهم الكلام على القدر، بل الإيمان بالقدر : خيره وشره ، واجب قضاءً وقدرًا ، وما قُدِّر يكن ، وما لم يُقَدَّر لم يكن » .

إذن المراد بالنهي : عدم الخوض والنزاع ، وليس المراد أن نبحث عن هذا الركن من أركان الإيمان في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ وعند سلف الأمة ليتقوى الإيمان .. فهذا هو الفهم الصحيح لهذا الأمر العظيم ، والله تعالى أعلم .

*****

معنى القضاء والقدر

أولاً : معنى القضاء في اللغة :

قال ابن فارس: «القاف والضاد والحرف المعتل «قضى» أصل صحيح يدل على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته»(١) .

وقال في النهاية : « القضاء في اللغة على وجوهٍ مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه »(٢) .

وترجع إليه جميع المعاني في اللغة العربية ، وورد لفظ القضاء ومشتقاته كثيرًا في « القرآن الكريم » ، وكل معاني هذه اللفظة قد تأتي متداخلة أحيانًا ، ولكنها في النهاية ترجع إلى الأصل الثابت وهو : إحكام الأمر وإتقانه وإنفاذه إلى جهته .

فمن المعاني التي وردت في القرآن الكريم للقضاء :

* جاء القضاء بمعنى الأمر ؛ قال تعالى :﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء :٢٣] فالقضاء هنا بمعنى الأمر﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ أي : وأمر ربك سبحانه وتعالى بعبادته وحده لا شريك له .

* وجاء أيضًا القضاء في القرآن بمعنى الإنهاء ؛ قال تعالى :﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر:٦٦] .

* وجاء القضاء بمعنى الحكم ؛ قال تعالى :﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه:٧٢] ، وهذا حكاية عن سحرة فرعون أي : اقض واصنع واحكم ، وافعل ما شئت ، وما وصلت إليه يدك ؛ فالقضاء هنا بمعنى : الحكمة .

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٩٩) .

(٢) «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (٤/ ٧٨) ، وانظر «لسان العرب» (١٥/ ١٨٦) .

* وجاء القضاء أيضًا بمعنى الفراغ ؛ قال تعالى : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾[فصلت:١٢] .

قال الإمام الطبريُّ في «تفسيره» : « أي : فرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين » .

* وجاء ـ أيضًا ـ بمعنى الأداء ؛ فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ ﴾ [البقرة:٢٠٠] أي : إذا أديتم مناسككم .

* وجاء القضاء أيضًا في القرآن الكريم بمعنى الإعلام أي : الإخبار ؛ قال تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الآية [الإسراء: ٤] أي : أعلمنا بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزل إليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين .

* وجاء القضاء أيضًا بمعنى : الموت ؛ قال تعالى : ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾[القصص:١٥] أي : أماته (١) .

هذه أهم معاني القضاء في اللغة التي وردت في القرآن ، جاء بمعنى : الأمر ، والإنهاء ، والحكم ، والأداء ، والإعلام ، والموت ، كل هذه الألفاظ وردت لمعنى قضى .

أما القدر لغةً : فالقاف والدال والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته (٢) .

ويطلق القدر على الحكم والقضاء أيضًا ، ومن ذلك حديث الاستخارة : « فَاقْدُرْهُ وَيَسِّرْهُ لِي » (٣) .

---

(١) انظر : «القضاء والقدر ومذاهب الناس فيه» للمحمود (ص ٣٤ ، ٣٥) ، ط الوطن .

(٢) «الصحاح» للجوهري (٢/ ٧٨٦) ، و«معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٦٢) .

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب التهجد ، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى رقم (١١٦٦) وانظر أطرافه هناك .

والقَدَر: بتحريك الدال أو تسكينها معناه : الطاقة ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ ﴾[البقرة:٢٣٦] أي : طاقته ، وفي قراءة : « ومتعوهن على الموسع قَدْرُهُ وعلى المقتر قَدْرُهُ » بالتحريك والتسكين سواء ، يعني : بالطاقة .

ويأتي أيضًا القدر بمعنى التضييق ؛ قال تعالى : ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ ﴾[الفجر:١٦] يعني: فضيق عليه ، ومنه قوله تعالى في حق نبيه يونس ﷺ : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء:٨٧] .

أي : لن نضيق عليه ، وليس كما ظن بعض الناس أن يونس ﷺ شك في قدرة الله ! كلًّا.

وقدرت الشيء أقدره من التقدير ، ومنه حديث النبيِّ ﷺ : « فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ » [١] من التقدير.

وهكذا يتبين لنا من التعريف اللغوي للقضاء والقدر : أن رابطًا قويًّا جدًّا بينهما وبين التأصيل اللغوي والشرعي كذلك .

أما المعني الشرعي للقضاء والقدر :

فمعنى القضاء والقدر شرعًا : « هو تقدير الله تعالى الأشياء في القِدَم ، وعلمه سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقاتٍ معلومة عنده ، وعلى صفاتٍ مخصوصة ، وكتابته لذلك ، ومشيئته لها ووقوعها على حسب ما قدرها ـ جلَّ وعلا ـ وخلقه لها » [٢].

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الصوم ، باب قول النبيِّ ﷺ : « إِذَا رَأَيْتُمُ الْهِلَالَ فَصُومُوا » رقم (١٩٠٦) ، ومسلم في كتاب الصيام ، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال رقم (١٠٨٠) من حديث عبد الله بن عمر ﷺ.

(٢) انظر: «شفاء العليل» لابن القيم (ص:٢٩)، وانظر : «العقيدة الواسطية» لابن تيمية (ص:٢١)، و«القضاء والقدر» للمحمود (٣٧-٤٠) .

وكما هو ظاهر من هذا التعريف فمراتب القدر أربع:

المرتبة الأولى : هي العلم .

والمرتبة الثانية : الكتابة .

والمرتبة الثالثة : المشيئة .

أما المرتبة الرابعة ؛ فهي : الخَلْقُ .

وسيأتي تفصيلها إن شاء الله تعالى فيما بعد .

الفرق بين القضاء والقدر :

من أهل العلم من قال : لا فرق بين القضاء والقدر ؛ فكل منهما يدخل في معنى الآخر ؛ فإذا أطلق التعريف على أحدهما فيشمل الآخر ، بمعنى : إذا أطلق التعريف على القضاء فإنَّه يشمل القدر ، وإذا أطلق التعريف على القدر فإنَّه يشمل القضاء .

والفريق الآخر قال : لا ، هناك فرق بين القضاء والقدر .

فالقضاء : هو الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل .

أما القدر : فهو الحكم في وقوع الجزئيات لهذه الكليات التي قُدِّرت في الأزل . فالقضاء أشمل وأعم من القدر .

ومنهم من قال : بأن القدر : هو التقدير ، والقضاء : هو التفصيل ، بمعنى : أن القدر : هو التقدير القديم الأزلي ، والقضاء : هو التفصيل لهذا القدر الكلي في أوقات معلومة بمشيئة الله تبارك وتعالى على الكيفية التي أرادها أو خلقها ﷻ .

وجمع الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فقال[1] : القضاءُ والقدرُ لفظان متباينان إن اجتمعا ، ومترادفان إن افترقا ، يعني : إذا افترقا اجتمعا ، وإذا اجتمعا افترقا ،

---

(١) انظر : «شرح العقيدة الواسطية» (ص ٥٣٩) ، ط دار الثريا .

بمعنى : إذا ذكر القضاء والقدر معًا ، فالمعنى لكل مفردة منهما واحد ، وإذا أفرد اللفظان صار لكل مفردة منهما معنى يختلف عن معنى الآخر .

فالتقدير : هو ما قدره الله سبحانه وتعالى في الأزل أن يكون في خلقه ، وعلى هذا يكون التقديرُ سابقًا على القضاء .

أما القضاء إذا ذكر مع القدر ، فكلاهما معنى واحد مشترك .

والراجح : والله أعلم أنه لا فرق بين القضاء والقدر ، والذين قالوا بالتفريق بين القضاء والقدر لغة واصطلاحًا لا دليل لديهم من السنة الصحيحة ، لا سيما وقد اتفقوا جميعًا على أنه إذا أطلق لفظ من هذين اللفظين فإنه يشمل الآخر » .

وبعد هذا التفصيل لمعنى القضاء والقدر لغةً واصطلاحًا ، تعالوا بنا لنتعرف على الأدلة القرآنية والنبوية على وجوب الإيمان بالقدر .

أولاً: أدلة القرآن على وجوب الإيمان بالقدر:

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩] أي : قدَّر الله كل شيء في الأزل وكتبه سبحانه ، وقال تعالى : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨] أي : قضاءً مقضيًّا وحكمًا منهيًّا مبتوتًا ، وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢] ، وقال سبحانه : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد:٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر:٢١] ، وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [الواقعة:٦٠] ، وقال سبحانه : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت:١٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٤٠] أي : جاء موسى موافقًا لقدر الله تعالى وإرادته ، وقال

جلَّ وعلا: ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴾ [المرسلات:٢١-٢٣]، وقال تعالى: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [عبس:١٩].

فهذه الآيات وغيرها كثير جدًّا في القرآن تدلُّ على أن الله تبارك وتعالى قد قدر كل شيء.

ثانيًا: الأدلة من السنة النبوية:

أما الأدلة من السنة النبوية فهي كثيرة أيضًا، وسيأتي تفصيلها في بيان المراتب الأربع في القدر؛ فلقد دلت السنة على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر؛ قال ﷺ في حديث جبريل لما قال له: «أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[١].

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ»[٢].

والله لو استقرت هذه العقيدة في القلب ما رأينا هذا الواقع الأليم بصفة عامة، ولكثير من المسلمين بصفة خاصة؛ فكل شيء بتقدير الله تبارك وتعالى.

وروى الترمذيُّ وابن ماجه وأحمد وغيرهم بسندٍ صحيح عن عليٍّ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنِّي مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله، بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، وَيُؤْمِنُ بِالْمَوْتِ، وَبِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر، وإغلاظ القول في حقه رقم (٨).

(٢) أخرجه الترمذيُّ في كتاب القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره رقم (٢١٤٤) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون، وعبد الله بن ميمون منكر الحديث» ولكن الحديث له شواهد تؤيده، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٧٤٣)، وفي «السلسلة الصحيحة» (٢٤٣٩).

وَيُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ»[(١)] .

قال طاوس بن كيسان اليماني ـ وهو من سادات التابعين ـ قال : أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ» . قال : وسمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ والْكَيْسُ»[(٢)] .

قال القاضي عياض ؛ كما نقل عنه الإمام النووي في شرح مسلم : «يُحْتَمَلُ أن العجز هنا على ظاهره وهو عدم القدرة . وقيل : هو ترك ما يجب فعله والتسويف به وتأخيره عن وقته ، والْكَيْسُ ضد العجز وهو النشاط والحذق بالأمور»[(٣)] ؛ فكل شيء بتقدير الله سبحانه وتعالى .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر ؛ فنزل قول الله تعالى : ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٨، ٤٩] »[(٤)] .

فكل هذه الأحاديث تدل دلالة صحيحة على وجوب الإيمان بالقدر ، وهي أدلة عامة ، وسيأتي تفصيلها في مراتب الإيمان بالقدر ، وهي تنقسم إلى أربع مراتب ؛ كما يلي :

---

(١) أخرجه الترمذيُّ في كتاب القدر ، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره رقم (٢١٤٥)، وابن ماجه في المقدمة ، باب في القدر رقم (٨١) ، وأحمد في «المسند» (١/ ٩٧) وقال المباركفوري في «تحفة الأحوذي» : «وحديث عليٍّ هذا رجاله رجال الصحيح» ، وقال الشيخ أحمد شاكر في «المسند» : «إسناده صحيح» . وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٢٤٦) ، و«صحيح الجامع» (٧٥٨٤) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كل شيء بقدر رقم (٢٦٥٥) .

(٣) «مسلم بشرح النووي» (٨/ ٤٥٦) بتصرف يسير ، ط الحديث .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كل شيء بقدر رقم (٢٦٥٦) .

مراتب الإيمان بالقدر

المرتبة الأولى : مرتبة العلم .

والمرتبة الثانية : هي مرتبة الكتابة .

والمرتبة الثالثة : هي مرتبة المشيئة .

والمرتبة الرابعة : وهي مرتبة الخَلْقِ .

المرتبة الأولى : مرتبة العلم :

وهي : الإيمان بأن الله تبارك وتعالى قد أحاط علمه بكل شيء من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات .

فَعَلِمَ ما كان سبحانه وتعالى ، وما هو كائن ، وما سيكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، لا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء .

فما من جبل على ظهر الأرض إلا ويعلم ما في وعره ، وما من بحر على سطح الأرض إلا ويعلم الله ما في قعره ، وما تحمل من أنثى ولا تضع على ظهر الأرض إلا بعلمه ، وما تسقط من ورقة في شجرة أو نخلة على سطح الأرض إلا بعلمه .

فعلم الله شامل بكل شيء ، كامل محيط بكل شيء ؛ قال تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ [الحشر:٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق:١٢] ، وقال تعالى : ﴿ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ ﴾ [سبأ:٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا

تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم:٣٢] ، وقال الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام:٥٣]، وقال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت:١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦] ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان:٣٤] .

آيات كثيرة جدًّا في القرآن تدل على أن علم الله شامل كامل محيط بكل شيء.

وفي «الصحيحين»[(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : سئل النبيُّ ﷺ عن أولاد المشركين فقال : « اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ » .

وفي « الصحيحين» [(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن ذراري المشركين ؟ فقال ﷺ : « الله أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ » .

وفي «الصحيحين» [(٣)] عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين رقم (١٣٨٣) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين رقم (٢٦٦٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين رقم (١٣٨٤) ، ومسلم في كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين رقم (٢٦٥٩) .

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ، وهل يعرض على الصبي الإسلام ، رقم (١٣٥٨) وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب القدر ، باب معنى=

يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ،أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتِجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ . هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا » ، قالوا : يَا رَسُولَ الله ، أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا؟ قال : « الله أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ ».

وفي «الصحيحين»[١] من حديث عمران بن حصين ﷺ قال : قال رجلٌ : يَا رَسُولَ الله ! أَيُعْرَفُ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟، قال : «نَعَمْ» قَالَ : فَلِمَ يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ؟ قال : « كُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا خُلِقَ لَهُ ـ أَوْ ـ لِمَا يُسِّرَ لَهُ » .

اللهم يَسِّرنا لليسرى ولا تيسرنا للعسرى يا رب العالمين .

وفي «الصحيحين»[٢] عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ قَالَ:نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى رَجُلٍ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ ـ وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْمُسْلِمِينَ غَنَاءً عَنْهُمْ ـ (والرجل يُبلي بلاءً حسنًا في الميدان) ـ فقال ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا» فَتَبِعَهُ رَجُلٌ ، فَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى جُرِحَ ؛ فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ ، فَقَالَ بِذُبَابَةِ سَيْفِهِ ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ، فَتَحَامَلَ عَلَيْهِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ. في رواية: فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مُسْرِعًا فَقَالَ:أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الله ، فَقَالَ: « وَمَا ذَاكَ؟ » ، قَالَ : قُلْتَ لِفُلَانٍ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ

= كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين رقم (٢٦٥٨) .

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب القدر ، باب جف القلم عن علم الله ، رقم (٦٥٩٦) وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٤٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب الأعمال بالخواتيم وما يُخاف منها (٦٤٩٣) ، وفي كتاب الجهاد والسير ، باب لا يقال : فلان شهيد ، رقم (٢٨٩٨) وانظر رقم (٦٦٠٧) ، ومسلم في كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (١١٢) .

أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَيه » ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِنَا غَنَاءً عَنْ الْمُسْلِمِينَ ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَا يَمُوتُ عَلَى ذَلِكَ ، فَلَمَّا جُرِحَ اسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَقَتَلَ نَفْسَهُ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ - فِيمَا يَرَى النَّاسُ - عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَيَعْمَلُ - فِيمَا يَرَى النَّاسُ - عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا» .

نسأل الله أن يرزقنا جميعًا حسن الخاتمة بمنه وكرمه.

وفي «صحيح مسلم» [(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِرًا ، وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا » .

وروى اللالكائي والطبراني وابن عدي في « الكامل » [(٢)] وغيرهم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «خَلَقَ الله يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا فِي بَطْنِ أُمِّهِ مُؤْمِنًا ، وَخَلَقَ فِرْعَوْنَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ كَافِرًا» .

وفي «صحيح مسلم» [(٣)] من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : تُوُفِّيَ صَبِيٌّ فَقُلْتُ: طُوبَى لَهُ ، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الجَنَّةِ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « أَوَ لَا تَدْرِينَ أَنَّ الله خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ النَّارَ . فَخَلَقَ لِهَذِهِ أَهْلًا ، وَلِهَذِهِ أَهْلًا» .

وفي «صحيح مسلم» [(٤)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين رقم (٢٦٦١) .

(٢) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١٠١٩ ، ١٠٢٠) ، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٢٤) ، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ٤٤٢) ، وحسنه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٤/ ٤٤٧) (١٨٣١) و«صحيح الجامع» (٣٢٣٧) .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين رقم (٢٦٦٢) .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٥١) .

الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ» .

واعلم أن هذا الحديث يسبب إشكالًا كبيرًا لدى بعض المسلمين ، لكن يزول إشكالك إذا فهمت كل هذه الأحاديث من خلال الرواية التي رواها الإمامان البخاريُّ ومسلم [(١)] من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه وفيه: أن النبيَّ ﷺ قد ذكر قيدًا في هذه الرواية يزيل الإشكال ؛ فقال : «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ» .

هذا القيد يزيل كل إشكال ؛ فهو يريد بعمله الثناء عند الناس ! ولا يريد به وجه ربِّ الناس .. يريد بعمله المخلوقين لا الخالقَ !!

اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل .

لذلك قال ابن القيم في حق المرائي [(٢)] : «قلب من تُرائيه بيَدِ من أعرضت عنه» . يعني الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو الذي يحول القلب بالحب والبغض ؛ فإن كان الأمر كذلك فلم توجه قلبك ووجهتك للناس ؛ فالمرائي خاسر في الدنيا والآخرة ؛ لأن المعاقبة بنقيض القصد ، أو بضد القصد ثابتة شرعًا وقدرًا .

يعني : من يريد بعمله الثناء عند الناس سيذمه نفس الناس الذين أراد عندهم الثناء ، قال ﷺ : «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ» [(٣)] .

---

(١) سبق تخريجه آنفًا .

(٢) «بدائع الفوائد» (٣/ ٧٥٨) ط مكتبة نزار .

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب الرقاق ، باب الرياء والسمعة رقم (٦٤٩٩) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله رقم (٢٩٨٧) من حديث جندب وهذا لفظ البخاري .

من أراد السمعة والشهرة بالباطل سمّع الله به ، ومن أراد وجه الله تعالى بعمله جعل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له الثناء الحسن على الألسنة ؛ كما في «صحيح مسلم» [(١)] عن أبي ذر ﷺ قال : قِيلَ لِرَسُولِ الله ﷺ : أَرَأَيتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيْرِ ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قال : « تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ» .

فالمرائي لا ينال ما يريده لا في الدنيا ولا في الآخرة !! فلقد أمر الله بالإخلاص في عبادته وحده ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥] ، وقال سبحانه : ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف:١١٠] .

وقال ربُّنا سبحانه في الحديث القدسي الجليل : « أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي ، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ » [(٢)] .

وفي لفظ ابن ماجه : « فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ » [(٣)] .

وقد يستطيع الإنسان العزف على وتر الرياء شهرًا أو شهرين أو عامًا أو عامين ، لكنه لا يمكن أبدًا أن يجيد العزف على وتر الرياء والنفاق طول عمره ! فلابد أن يفضحه الله ؛ كما قال الله لنبينا ﷺ : ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ [محمد:٣٠].

يأبى الله إلا أن يفضح المرائين والمنافقين على صفحات وجوههم وفي زلات ألسنتهم ، وفي كلمات أقلامهم ؛ نسأل الله أن يرزقنا الصدق في القول والعمل .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة ، باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره ، رقم (٢٦٤٢) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله رقم (٢٩٨٥) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ، باب الرياء والسمعة (٢ : ٤٢) من حديث أبي هريرة ، وقال البوصيريُّ في «الزوائد» : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » ، وصححه الألبانيُّ رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (٣١) .

وفي «صحيح مسلم» [1] عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ قَالَ : قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ : أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرِ مَا سَبَقَ؟ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ؟ فَقُلْتُ ـ أي : قَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ : بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ ، وَمَضَى عَلَيْهِمْ ، قَالَ (عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ) : أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا ؟ قَالَ : فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا وَقُلْتُ: كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُ الله وَمِلْكُ يَدِهِ . فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ . فَقَالَ لِي (أي : عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ) : يَرْحَمُكَ الله ، إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَحْزِرَ عَقْلَكَ .إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَا : يَا رَسُولَ الله ، أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ ، أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ : « لَا ؛ بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾» [الشمس:٧، ٨] .

وفي «الصحيحين» ـ واللفظ لمسلم ـ [2] عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ : كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ ، فَأَتَانَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ ثُمَّ قَالَ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ الله مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٥٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب الجنائز ، باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله (١٣٦٢) وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٧) .

سَعِيدَةً » ، قَالَ : فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله ! أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ ؟ فَقَالَ : « مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ». فَقَالَ : « اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ » ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل:٥-٧] .

وفي «الصحيحين» [(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: « إِنَّ الله كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا ، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ » .

وفي لفظٍ : « مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، فَزِنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ ، وَزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ ».

وفي «مسند أحمد» و«سنن الترمذي» [(٢)] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال لي رسول الله ﷺ: « يَا غُلَامُ ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب القدر ، باب ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ رقم (٦٦١٢) ، ومسلم في كتاب القدر ، باب قُدِّر على ابن آدم حظُّه من الزنا وغيره رقم (٢٦٥٧).

(٢) أخرجه الترمذيُّ في كتاب صفة القيامة والرقاق والورع ، باب ٥٩ رقم (٢٥١٦) وقال : « حديث حسن صحيح » ، وأحمد في «المسند» (١/ ٢٩٣، ٣٠٣) .

وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧٩٥٧).

أي : مما كتبه الله سبحانه وتعالى وقدره وقضاه.

وروى الترمذيُّ وأحمد وابن حبان وغيرهم[١] عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاص رضي الله عنهما قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ الله عز وجل خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ ؛ فَلِذَلِكَ أَقُولُ : جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ الله ».

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدريِّ رضي الله عنه أَنَّهُ ﷺ قال : « الْهَالِكُ فِي الْفَتْرَةِ وَالْمَعْتُوه وَالْمَوْلُودِ ، قَالَ : يَقُولُ الْهَالِكُ فِي الْفَتْرَةِ : لَمْ يَأْتِنِي كِتَابٌ وَلَا رَسُولٌ» ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه:١٣٤] ، وَيَقُولُ الْمَعْتُوه : لَمْ يَجْعَلْ لِي عَقْلًا أَعْقِلُ بِهِ خَيْرًا وَلَا شَرًّا » قَالَ : « وَيَقُولُ الْمَوْلُودُ: لَمْ أَبْلُغ الْحُلُمَ » قَالَ :«فَتُرْفَعُ لَهُمْ نَارٌ ، فَيُقَالُ: رِدُوهَا ـ أَوْ ادْخُلُوهَا» قَالَ : « فَيَرِدُهَا أَوْ يَدْخُلُهَا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ الله سَعِيدًا لَوْ أَدْرَكَ الْعَمَلَ » ، قَالَ : « وَيُمْسِكُ عَنْهَا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِهِ شَقِيًّا لَوْ أَدْرَكَ الْعَمَلَ » قَالَ : « فَيَقُولُ : إِيَّايَ عَصَيْتُمْ ، فَكَيْفَ بِرُسُلِي بِالْغَيْبِ أَتَتْكُمْ »[٢] .

---

(١) أخرجه الترمذيُّ في كتاب الإيمان ، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٢) وقال : «حديث حسن » ، وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٢/ ١٧٦، ١٩٧) ، وابن حبان (٦١٦٩) كما في «الإحسان» ، والحاكم (١/ ٣٠، ٣١) ، (٢/ ٤٣٤) ،وابن خزيمة في «صحيحه» (١٣٣٤) ، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١٠٧٨، ١٠٧٩) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٤٣، ٢٤٤) وغيرهم ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٠٧٦) ، و«صحيح الجامع» (١٧٦٤) .

(٢) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٦/ ٢٣٨) ، والبزار (٢١٧٦) ، واللالكائي (١٠٧٦) ، وضعَّف سنده الهيثميُّ في «المجمع» (٧/ ٢١٦) لأجل عطية العوفي ، وعزاه للبزار ، وله شواهد يتقوى بها ؛ لذا صححه الشيخ الألبانيُّ بشواهده في « الصحيحة » (١٤٣٤، ٢٤٦٨) وعزاه للبغوي في «حديث ابن الجعد» (ق٩٤/ ١) .

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرو بْنِ الْعَاص ﷺ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ فَقَالَ: «تَدْرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ؟» فَقُلْنَا : لَا يَا رَسُولَ الله ، إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا . فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى: « هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا » . ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ : « هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ ، وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ ، فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا » ؛ فَقَالَ أَصْحَابُهُ : فَفِيمَ الْعَمَلُ يَا رَسُولَ الله ! إِنْ كَانَ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ ؟ فَقَالَ ﷺ: « سَدِّدُوا وَقَارِبُوا ، فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ » . ثُمَّ قَالَ بِيَدَيْهِ فَنَبَذَهُمَا ، ثُمَّ قَالَ: « فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعِبَادِ ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » .

والحديث رواه الترمذيُّ وأحمد وغيرهما بسندٍ صحيح [(١)].

وقال المباركفوريُّ في «تحفة الأحوذي» : « والظاهر من الإشارة أنهما كتابان حسيان ، وقيل : تمثيل واستحضار للمعنى الدقيق الخفي في مشاهدة السامع حتى كأنه ينظر إليه رأي العين ولا يُستبعد إجراؤه على الحقيقة ؛ فإن الله قادر على كل شيء » [(٢)].

المرتبة الثانية : الكتابة :

ويدخل فيها خمسة تقادير :

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب القدر ، باب ما جاء أن الله كتب كتابًا لأهل الجنة وأهل النار رقم (٢١٤١) وقال : «حديث حسن صحيح غريب» ، وأحمد في «المسند» وهذا لفظه (٢/ ١٦٧) .
وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» ، وصححه الشيخ الألباني ﷺ في «الصحيحة» (٨٤٨) وفي صحيح الجامع برقم (٨٨) .

(٢) «تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي» (٦/ ٢٩٢، ٢٩٣) بتصرف بسيط ، ط دار الكتب العلمية.

التقدير الأول : هو التقدير الأزلي قبل خلق السموات والأرض ؛ فالله رازق قبل أن يخلق المرزوقين ، وعالم قبل أن يخلق الخلق الذي يعلم أحوالهم أجمعين ؛ قال ربنا تبارك وتعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة:٥١] ؛ وقال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٣،٢٢] ؛ وقال سبحانه : ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل:٧٥]

وقال المصطفى ﷺ - كما في «صحيح البخاري»[(١)] عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: « اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ » .قَالُوا قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا ـ مَرَّتَيْنِ ـ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ » ؛ قَالُوا : قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ الله ، قَالُوا : جِئْنَا نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، قَالَ ﷺ : « كَانَ الله وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » ، فَنَادَى مُنَادٍ: ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الْحُصَيْنِ ، فَانْطَلَقْتُ فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ ، فَوَالله لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا.

الشاهد من الحديث قوله: «وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ» وهذا هو التقدير الأزلي .

وروى الإمام مسلم في « صحيحه »[(٢)] من حديث عبد الله بن عمرو بن

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ رقم (٣١٩٠) . وانظر أطرافه هناك .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام رقم (٢٦٥٣) .

العاص أن النبيَّ ﷺ قال : « كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » .

والمراد : هو تحديد وقت الكتابة وليس أصل القدر فهو أزلي .

وفي «الصحيحين» [1] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى ـ عَلَيْهِمَا السَّلَام ـ عِنْدَ رَبِّهِمَا ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، قَالَ مُوسَى : أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ؟ فَقَالَ آدَمُ : أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ الله بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ ، وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ ،وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا، فَبِكَمْ وَجَدْتَ الله كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ مُوسَى : بِأَرْبَعِينَ عَامًا، قَالَ آدَمُ : فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا :﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١] قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ الله عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ » .قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى » .

وفي «سنن» أبي داود والترمذيِّ وأحمد في «مسنده»[2] بسندٍ حسنٍ : قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ لِابْنِهِ : يَا بُنَيَّ ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ ؛ فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ ، قَالَ : رَبِّ ، وَمَاذَا

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب وفاة موسى رقم (٣٤٠٩) وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى ﷺ رقم (٢٦٥٢) واللفظ له .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة ، باب في القدر رقم (٤٧٠٠) ، والترمذي بنحوه كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة :﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (٣٣١٩) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » ، وأحمد في «المسند» (٥/ ٣١٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٤٥) وقال : «إسناده حسن».

أَكْتُبُ؟ قَالَ : اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ » . يَا بُنَيَّ ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي » .

وفي «صحيح مسلم» [١] عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ: اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ الله ﷺ، وَبِأَبِي : أَبِي سُفْيَانَ ، وَبِأَخِي ، مُعَاوِيَةَ ؛ قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « قَدْ سَأَلْتِ الله لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ ـ وفي لفظٍ : « وَآثَارٍ مَوْطُوءَةٍ »ـ وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ » .

قال النوويُّ ـ رحمه الله [٢]: « وهذا الحديث صريح في أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تتغير عما قدَّره الله تعالى وعَلِمَهُ في الأزل ، فيستحيل زيادتها ونقصانها حقيقة عن ذلك » .

وفي «صحيح البخاري» [٣] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، إِنِّي رَجُلٌ شَابٌّ ، وَأَنَا أَخَافُ عَلَى نَفْسِي الْعَنَتَ، وَلَا أَجِدُ مَا أَتَزَوَّجُ بِهِ النِّسَاءَ ، فَسَكَتَ عَنِّي ، ثُمَّ قُلْتُ مِثْلَ ذَلِكَ فَسَكَتَ عَنِّي ، ثُمَّ قُلْتُ مِثْلَ ذَلِكَ فَسَكَتَ عَنِّي ، ثُمَّ قُلْتُ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ ، فَاخْتَصِ عَلَى ذَلِكَ أَوْ ذَرْ» .

وقوله : «فَاخْتَصِ» : من الخصاء ، وهو قطع الأنثيين ؛ ليقطع الرجل بذلك شهوته تجاه النساء ، وقد رَوَى البخاريُّ هذا الحديث في كتاب النكاح في باب ما يكره من التبتل والخصاء .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر (٢٦٦٣) .

(٢) «مسلم بشرح النووي» (٨/ ٤٦٦) ط الحديث .

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب النكاح ، باب ما يكره من التبتل والخصاء رقم (٥٠٧٦) .

قال الحافظ ابن حجر[1] رحمه الله: « والحديث ليس إذنًا بالخصاء ؛ بل فيه إشارة إلى النهي عن ذلك ، كأنه ﷺ قال له : إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله فلا فائدة من الخصاء ».

وروى البخاريُّ[2] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لَا تَسْأَلِ الْمَرْأَةُ طَلَاقَ أُخْتِهَا لِتَسْتَفْرِغَ صَحْفَتَهَا ، وَلْتَنْكِحْ ، فَإِنَّ لَهَا مَا قُدِّرَ لَهَا » .

قال الحافظ ابن حجر : « قال ابن عبد البر - رحمه الله[3] : « هذا الحديث من أحسن أحاديث القدر عند أهل العلم ، لما دلَّ عليه من أن الزوج لو أجابها وطلق من تظن أنها تزاحمها في رزقها ، فإنه لا يحصل لها من ذلك إلا ما كتب الله لها سواء أجابها أو لم يجبها ، وهو كقول الله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة:٥١] . فكل ما كُتب على ابن آدم وجرى به القلم مدركه لا محالة » .

التقدير الثاني : تقدير يوم الميثاق :

قال تعالى :﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢،١٧٣] .

وعن أُبيِّ بن كعب رضي الله عنه قال في هذه الآية: «جمعهم فجعلهم أرواحًا ، ثم صورهم ، فاستنطقهم فتكلموا ، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم

(١) «فتح الباري» (٩/ ١٤٥) ط الحديث .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب القدر ، باب وكان أمر الله قدرًا مقدورًا (٦٦٠١) ، وفي النكاح (٥١٥٢) .

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٥٨١) ط الحديث .

على أنفسهم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ قال : إني أُشهد عليكم السموات السبع ، والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم ـ عليه السلام ـ أن تقولوا يوم القيامة : لم نعلم بهذا . واعلموا أن لا إله غيري ، ولا ربَّ غيري ؛ فلا تشركوا بي شيئًا ، إني سأرسل لكم رسلي يُذكِّرونكم عهدي وميثاقي ، وأنزل عليكم كتبي. قالوا : شهدنا بأنك ربنا وإلهنا ولا ربَّ غيرك ، وأقروا بذلك»[1] .

هذا الميثاق كتب الله ﷻ فيه برحمته وعدله أنه لن يؤاخذ الخلق بإقرارهم في هذا اليوم ، مع أن الخلق جميعًا قد أقروا في هذا اليوم بالوحدانية وأشهدهم على أنفسهم ، فشهدوا وأشهد عليهم السموات والأرض فشهدتا ، ومع ذلك لم يؤاخذهم الله بهذا الإقرار ؛ لأنهم حينما نزلوا إلى الأرض اجتالتهم الشياطين ، فأنستهم هذا الميثاق ، فوعد الله سبحانه وتعالى ألا يعذب منهم أحدًا إلا بعد أن يقيم عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب .

وروى «البخاريُّ ومسلم»[2] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : «يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا : لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ : أَنْ لَا تُشْرِكَ وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ ، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ» .

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في «زوائد المسند» (٥/ ١٣٥) ، وابن جرير (٩/ ١١٥) رقم (١٥٣٧٤) ، وابن منده في «الرد على الجهمية» (٣٠) ، والحاكم (٢/ ٣٢٣) وقال : «صحيح الإسناد» ، ووافقه الذهبي . وعبد بن حميد وابن مردويه ؛ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٦٠) وحسنه الشيخ الألباني في «المشكاة» (١/ ٤٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته (٣٣٣٤) وانظر طرفيه هناك ، ومسلم ـ واللفظ له ـ كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا (٢٨٠٥) .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله (١) : « قوله : « وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ » فيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأعراف:١٧٢] » .

وقد سبق (٢) حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ : جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللهِ » .

وروى أحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم (٣) عن عبد الله بن قتادة السلميِّ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَ آدَمَ ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ ، وَقَالَ : هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي ، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي » قَالَ : فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ ، فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ ؟ قَالَ : « عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ » .

التقدير الثالث : التقدير العمري :

عند خلق النطف في الأرحام ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج: ٥] .

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤٤٨) ط الحديث .

(٢) سبق تخريجه في مرتبة العلم .

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٦) ، وابن حبان (٣٣٨) ، واللالكائي (١٠٨١) ، والحاكم (١/ ٣١) وصححه ووافقه الذهبيُّ ، والفريابي في «القدر» (٢٥، ٢٦) ، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٣٠) ، (٧/ ٤١٧) ، وأعله البخاريُّ وابن السكن ؛ كما في «الإصابة» (٦/ ٣١٨) ، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (١٤٥٠) ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٤٨) .

وراجع كلامًا عظيمًا حول هذه المسألة في «الصحيحة» (برقم: ٥٠) لشيخنا الألباني ــ رحمه الله تعالى .

وقال سبحانه : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم:٣٢]، وقال الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر:١١] .

وقال النبيُّ ﷺ كما في «الصحيحين» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَالَ: « إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : بِكَتْبِ رِزْقِهِ ، وَأَجَلِهِ ، وَعَمَلِهِ ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ! إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا »[1] .

والقيد ـ كما ذكرت في حديث سهل : « فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ »[2] .

وفي «الصحيحين»[3] من حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ عز وجل

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة رقم (٣٢٠٨) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ، وكتابة رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٤٣) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب القدر ، باب (١) رقم (٦٥٩٥) ، وانظر : (٣١٨) ، ومسلم في كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي ، في بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٤٦) .

وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا ، يَقُولُ : يَا رَبِّ نُطْفَةٌ ، يَا رَبِّ عَلَقَةٌ ، يَا رَبِّ مُضْغَةٌ ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ قَالَ : أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ فَمَا الرِّزْقُ وَالأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ».

وفي «صحيح مسلم»[1] عن عامر بن واثلة أنَّهُ سمع عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ ﷺ قال : الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ ، فَأَتَى رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ ، يُقَالُ لَهُ : حُذَيْفَةُ بْنُ أَسِيدٍ الْغِفَارِيُّ ، فَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ : وَكَيْفَ يَشْقَى رَجُلٌ بِغَيْرِ عَمَلٍ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : أَتَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً ، بَعَثَ الله إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا ، وَخَلَقَ سَمْعَهَا ، وَبَصَرَهَا ، وَجِلْدَهَا ، وَلَحْمَهَا ، وَعِظَامَهَا ، ثُمَّ قَالَ : يَا رَبِّ ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ، ثُمَّ يَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَجَلُهُ ؟ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ، ثُمَّ يَقُولُ : يَا رَبِّ ، رِزْقُهُ ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ » .

التقدير الرابع : التقدير الحولي :

ويكون في ليلة القدر ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [الدخان : ٣-٥].

قال مجاهد : «ليلة القدر : ليلة الحكم» .

وقال ابن عباس ﷺ : « يُكتب في أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت ، وحياة ، ورزق ، ومطر ، حتى الحجاج ، يقال : يحج فلان وفلان » .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٤٥) .

وقال مقاتل : « يقدر الله تعالى في ليلة القدر أمر السنة في أرضه وفي عباده إلى السنة القابلة » .

وذكر عن سعيد بن جبير في هذه الآية قوله : « إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى »[1] .

وعن ابن عمر ومجاهد وأبي مالك : « في ليلة القدر يُفْصَل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة ، وما يكون فيها من الآجال ، والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها »[2] .

التقدير الخامس : التقدير اليومي :

وهو سوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت لها فيما سبق ؛ قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن:٢٩].

روى البخاريُّ تعليقًا[3] موقوفًا على أبي الدرداء رضي الله عنه - ومنهم من رفعه[4] ،

---

(١) انظر : هذه الأقوال في «شفاء العليل» (ص:٥٩) ، ط دار الحديث .

(٢) انظر : «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٤٠) ط ـ دار الحديث ، و«معارج القبول» (٢/ ٧٩٧) ، ط المكتبة التجارية ونزار مصطفى الباز .

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب التفسير باب سورة الرحمن ، انظر : الفتح (٨/ ٧٦٢) ، وقال الحافظ في «الفتح» : ووصله المصنف في «التاريخ» ، وابن حبان وابن ماجه وابن أبي عاصم والطبراني عن أبي الدرداء مرفوعًا ، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (١١٠٢) من طريق أم الدرداء عن أبي الدرداء موقوفًا ، وللمرفوع شاهد عن ابن عمر ، أخرجه البزار وآخر عن عبد الله بن منيب ، أخرجه الحسن ابن سفيان والبزار (٣/ ٧٣) (٢٢٦٦) ، وابن جرير في «تفسيره» (٢٣٠١٢) والطبراني في «الأوسط» (٦٦١٩) . ا هـ . انظر : صحيح سنن ابن ماجه (١٦٧) ، و«ظلال الجنة» (٣٩).

(٤) أخرجه ابن ماجه في «المقدمة» ، باب فيما أنكرت الجهمية رقم (٢٠٢) وقال البوصيري في «الزوائد»: «إسناده حسن» ، وابن حبان في «صحيحه» في كتاب التفسير ، باب سورة الرحمن رقم (١٧٦٣ موارد) وفي «الإحسان»(٦٨٩) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٠١) ، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٤٩) ، والطبراني في «الأوسط» (٣١٤٠) ، و«مسند الشاميين» (٢٢٠٢) ، والبيهقي في «الشعب» (١٠١١) وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٥٢، ٢٥٣) كلهم مرفوعًا ، وله شاهد مرفوع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، والبزار ؛ كما في «كشف الأستار» (٣/ ٧٤) (٢٢٦٨).

لكن الموقوف أصح ؛ قال الله ﷻ : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ قال : « مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا ، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا ، وَيَرْفَعَ قَوْمًا ، وَيَخْفِضَ آخَرِينَ » .

وقال الأعمش عن مجاهد ، عن أبيه ، عن عبيد بن عمير ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ قال: «من شأنه أن يجيب داعيًا ، أو يعطي سائلًا ، أو يفك عانيًا ، أو يشفي سقيمًا ».

وقال مجاهد : « هو كل يوم يجيب داعيًا ، ويكشف كربًا ، ويجيب مضطرًا ، ويغفر ذنبًا » .

وقال قتادة : «لا يستغني عنه أهل السموات والأرض ، يُحيي حيًا ، ويميت ميتًا ، ويربي صغيرًا ، ويفك أسيرًا ، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم ومنتهى شكواهم» [(١)] .

وقال الحسين بن فضيل : « هو سَوْق المقادير إلى المواقيت» .

وقال أبو سليمان الداراني في هذه الآية : «كل يوم له إلى العبيد برٌّ جديد » .

وذكر البغوي ــ رحمه الله تعالى ــ قول المفسرين : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ فقال : « من شأنه أن يحيي ويميت ، ويخلق ويرزق ، ويُعز قومًا ويذل قومًا ، ويشفي مريضًا ، ويفك عانيًا ، ويفرج مكروبًا ، ويجيب داعيًا ، ويعطي سائلًا، ويغفر ذنبًا إلى ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء» [(٢)] .

وجملة القول في ذلك : أن التقدير اليومي هو سَوْقُ المقدور على العبد وإنفاذه فيه في الوقت الذي سبق أن يناله فيه ، لا يتقدمه ولا يتأخره ، في

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٧٥) ط دار الحديث ، و«معارج القبول» (٢/ ٧٩٨) وما بعده، ط نزار مصطفى .

(٢) انظر : «تفسير الخازن والبغوي» (٦/ ٨٠، ٨١) ، ط دار الكتب العلمية ، وانظر كثيرًا من الآثار السابقة في «معارج القبول» (٢/ ٧٩٨ ، ٧٩٩) وما بعده ، ط نزار الباز .

الوقت الذي شاء الله تعالى وفي المكان الذي شاء ، لا يتقدم ولا يتأخر .

وهكذا فالتقدير اليومي تفصيل من التقدير الحولي ، والتقدير الحولي تفصيلٌ من التقدير العمري أو الأجلي ، والتقدير العمري تفصيل من التقدير الذي كتب في يوم الميثاق ، وهذا التقديرُ هو تفصيل من التقدير الأزلي الذي كتبه الله ﷻ يوم خلق القلم .

هذا بالنسبة للأقدار في الدنيا ، ومنتهى المقادير في الآخرة إلى علم الله تبارك وتعالى ، وهكذا انتهت الأوائل إلى أوليته ، وانتهت الأواخر إلى آخريته ؛ قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم:٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد:٣] .

أسأل الله أن يرزقنا الإيمان بالقدر خيره وشره ، وأن يرزقنا الرضا والتسليم والاستسلام ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

المرتبة الثالثة : مرتبة الإرادة والمشيئة .

إن الله ـ جلَّ وعلا ـ عَلِمَ وأرادَ وشاء ، فما شاء الله تعالى أن يكون فهو كائن بإرادته ومشيئته . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام:٣٥] ، وقال تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [هود:١١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة:١٣].

والآيات في المشيئة والإرادة كثيرة جدًّا .

فالسببُ في عدمِ وجودِ الشيء هو عدمُ مشيئتِهِ وإرادته لذلك ، لا لعجزه عن فعل ذلك ، ولا لعدم قدرته على فعل ذلك تنزه تبارك وتعالى عن ذلك.

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ

إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤] ، وقال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:٢٦] .

فهذه المرتبة من مراتب الإيمان بالقدر تبين أن كل ما يجري في الكون بمشيئة الله وإرادته ؛ فما من شيء في الكون يقع إلا بمشيئة الله وإرادته .. لا تسقط ورقة من شجرة على وجه الأرض ، ولا تضع أنثى على وجه الأرض ذكرًا أو أنثى إلا بمشيئة الله وإرادته ، ولا تسود دولة ولا تزول دولة ولا يسود حاكم ولا يزول حاكم إلا بإرادة الله ومشيئته .

هذه القاعدة البيانية تؤكد قاعدة إيمانية عقدية ألا وهي : الإيمان بمرتبة الإرادة والمشيئة كمرتبة ثالثة من مراتب الإيمان بالقدر ؛ فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [المائدة:٤٨] .

وقال الله تعالى لنبينا ﷺ : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: ٢٣،٢٤] ، وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٦] ،وقال تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام:١٢٥] اللهم اشرح صدورنا للإسلام.

والآيات في هذا الباب كثيرة ، ولله الحمد .

ولقد بوب الإمام البخاريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب التوحيد بابًا من أفقه أبواب هذا الكتاب ؛ فقال : «باب في المشيئة والإرادة» .

انظر إلى فقه الترجمة !! وعلماؤنا يقولون : «فِقْهُ البخاريّ في تراجمه» ، فالترجمة وحدها عند الإمام تأخذ منها فقهًا كثيرًا قبل أن ترجع إلى تفصيل الباب .

فهو يثبت بهذه الترجمة مشيئة وإرادة الله تبارك وتعالى ، ويروي في هذا الباب حديثًا عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه ـ والحديث رواه مسلم أيضًا ـ أن النبيَّ ﷺ كَانَ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ يقول ﷺ : « اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا ، وَيَقْضِي الله عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ »[1] .

لكن الشفاعة لن تيسر ولن تعسر إلا بمشيئة الله ـ تبارك وتعالى .

وروى «مسلمٌ» عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاص رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ » .ثم قال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ ! مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ ! صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ »[2] .

الشاهد قوله ﷺ : « كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ » .

فالقلوب بيد الله سبحانه وتعالى ؛ ولذلك ما سُمِّي القلب قلبًا إلا لكثرة تقلبه ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨] ، اللهم إنا نعوذ بك من السلب بعد العطاء ، اللهم كما شرحت صدورنا للإسلام وهديتنا للإيمان وزينته في قلوبنا ، فلا تحرمنا منه حتى نلقاك ، يا أرحم الراحمين .

فالقلوب تتقلب؛يمسي العبد على حال ويصبح على حال ؛ قال ﷺ كما في «صحيح مسلم»[3] من حديث حذيفة رضي الله عنه : « تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب في المشيئة والإرادة رقم (٧٤٧٦) ، وله أطراف انظرها رقم (١٤٣٢) ، ومسلم في كتاب البر والصلة ، باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام رقم (٢٦٢٧) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء (٢٦٥٤) .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة من القلوب وعرض الفتن على القلوب (١٤٤) .

كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ،وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ : عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا ، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» .

اللهم ارزقنا هذه القلوب التقية النقية البيضاء التي لا تضرها الفتن ما دامت السموات والأرض برحمتك يا أرحم الراحمين .

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ،يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا ، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[1] .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ ، ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ ، ارْزُقْنِي إِنْ شِئْتَ ، وِلْيَعْزِمْ مَسْأَلَتَهُ ، إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، لَا مُكْرِهَ لَهُ »[2] .

ففيه إثبات لمشيئة الله تعالى فهو الغفور الرحيم الرزاق إذا شاء ، وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لا مكره له .

والحديث فيه الحث كما هو واضح على العزم في المسألة والجزم فيها دون ضعف أو تعليق على المشيئة ، وإنما نهى عن التعليق على المشيئة ؛ لأنه لا يتحقق استعماله إلا في حق من يتوجه عليه الإكراه ، والله سبحانه وتعالى لا مكره له ؛ كما قال النبيُّ ﷺ[3] .

وعن ابن عباس ﷺ ؛ كما في «مسند» أحمد و«مصنف» ابن أبي شيبة

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (١١٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب التوحيد ، باب في المشيئة والإرادة رقم (٧٤٧٧) ، وانظر طرفه رقم (٦٣٣٩) .

(٣) انظر : «شرح النووي على مسلم» و«فتح الباري لابن حجر» .

والنسائي والطبراني وغيرهم بسندٍ صححه الألبانيُّ رحمه الله أن رجلًا جاء إلى النبيِّ ﷺ قَالَ : يَا رَسُولَ الله، مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ . قال : « أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا ؟! بَلْ قُلْ : مَا شَاءَ الله وَحْدَهُ» [(١)].

وفي لفظٍ : « أَجَعَلْتَنِي وَالله عَدْلًا ؟! بَلْ مَا شَاءَ الله وَحْدَهُ » .

والحديث دالٌّ على مشيئة الله تبارك وتعالى ، وأن الله عز وجل له المشيئة المطلقة ، وأن للعباد مشيئة خاضعة لمشيئة الله ، ولو كانت مشيئة النبيِّ ﷺ؛ فمشيئة النبيِّ ﷺ تابعة لمشيئة الله عز وجل وليست مستقلة أو منفردة عنها .

وقد نهى النبيُّ ﷺ الرجل أن يقرن مشيئة الله بمشيئة الرسول ﷺ، حيث عطفها بالواو التي هي لمطلق الجمع من غير ترتيب ولا تعقيب ، فنهى النبيُّ ﷺ عن ذلك ؛ لأن النبيَّ ﷺ كغيره من البشر ، والكل خاضع لمشيئة الله تبارك وتعالى ، ومشيئة البشر تابعة لرب العزة ـ جل جلاله .

وفي «الصحيحين» [(٢)] من حديث معاوية رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَالله يُعْطِي وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ الله لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله » .

اللهم فقهنا في ديننا وارزقنا الإخلاص في القول والعمل .

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٢١٤) ، والنسائي في «السنن الكبرى» كتاب عمل اليوم والليلة ، باب النهي أن يقال : ما شاء الله وشاء فلان رقم (١٠٨٢٥/ ١) ، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» ، باب كيف الاستثناء في المخاطبة رقم (٦٦٧) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦٧٤٢) ، وقال الشيخ أحمد شاكر في «المسند» :«إسناده صحيح» ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٣٩، ١٠٩٣) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين رقم (٧١) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب الزكاة ، باب النهي عن المسألة رقم (١٠٣٧) ، وفي كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ» رقم (١٠٣٧) .

الأمر فيه نعمتان :

النعمة الأولى : هي إرادة الله الخير لك .

والنعمة الثانية : هي أن يفقهك في الدين ؛ لذا قال أحد أهل العلم : « أي النعمتين أشكرك؟ على أن أردت بي الخير ، أو على أن فقهتني في الدين!! » .

والحديث إثبات لمرتبة الإرادة والمشيئة ، وأن الأمور كلها تجري بإرادة الله ومشيئته تبارك وتعالى ، وانظر البخاري ؛ فهناك المزيد من الأحاديث .

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق :

وهذه المرتبة زلَّ فيها كثير من الفرق كالمعتزلة والقدرية الجبرية ، وأنا لا أحب أن أقف مع تفصيل أقوال الفرق في هذه المسألة حتى لا أشوش على أحد من المسلمين ، وإنما يعنيني أن أؤصل المنهج الحق فحسب .

ومرتبة الخلق هي : أن الله تعالى خالق كل شيء ، ومن ذلك أفعال العباد ، فلا يقع في هذا الكون شيءٌ إلا وهو خالقه .

والأدلة على هذه المرتبة من القرآن والسنة وأقوال سلف الأمة كثيرة :

قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ عندما حطَّم الأصنام وخاطب قومه : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] . إثبات لمرتبة الخلق ، فالله تبارك وتعالى هو خالق كل شيء ، ومن هذا أفعال العباد .

وقال ﷺ ـ كما في حديث حذيفة رضي الله عنه الذي رواه البخاريُّ في كتابه خلق أفعال العباد : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص٧٣) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٥٧، ٣٥٨) ، وصححه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٣١) ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٣٧ ، ٥٧٠، ٨٢٥) كلهم من حديث حذيفة مرفوعًا ، وانظر : «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٦٣٧) .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[الزمر:٦٢] ، وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[غافر:٦٢] .

وهذه نصوص واضحة على مرتبة الخلق :

قال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾[الرعد:١٦] ، وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾[الزمر:٦٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾[الحجرات:٧] .

« فهو سبحانه الذي جعل الإيمان محبوبًا ، أو أحب الأشياء إليكم ، وهو الذي حسنه بتوفيقه وقربه منكم ، وهو الذي جعل ما يضاد الإيمان من الكفر والفسوق والعصيان مكروهًا عندكم ، وذلك بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر وعدم إرادة فعله ، فالفاعل في كل ذلك : هو الله تبارك وتعالى » ، كما قال صاحب «فتح البيان في مقاصد القرآن» لصديق حسن خان ـ رحمه الله تعالى ـ وابن السعدي في «تفسيره» ؛ وكما قال ابن القيم في كتابه القيم «شفاء العليل»[(١)] .

وهناك آيات أخرى كثيرة جدًّا في القرآن تدل على أن الله تعالى هو الهادي المضل ، والمؤيد لعباده المؤمنين والهازم لأعدائهم ، وهو المضحك والمبكي ، وهو المميت والمحيي ، وكل ذلك دليل على أن الله تبارك وتعالى هو خالق كل شيء .

وقد أورد الحافظ ابن كثير [(٢)] هذا الدعاء في تفسيره لآية الحجرات

---

(١) انظر : «القضاء والقدر» للمحمود (٧٩) .

(٢) انظر : ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢١٢) .

السابقة : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ ﴾ قال : لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ قَالَ ﷺ: «اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي» ، فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ ، وَلَا هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ ، اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ - أي يوم الفقر - وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ، اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا ، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهَ الْحَقِّ » .

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في «مسنده» ، والحاكم في «المستدرك» ، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» [١] وغيرهم ، وصححه الألباني رحمه الله.

فإنك ترى في هذا الحديث الإقرار الواضح بأن الله تعالى هو الفاعل لكل هذه الأمور التي طلبها البشير النذير ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٢٤) ، والنسائي في «السنن الكبرى» كتاب عمل اليوم والليلة، باب الاستنصار عند اللقاء رقم (١٠٤٤٥/ ٦) ، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٠٦، ٥٠٧) وصححه وأقره الذهبي ، والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (٦٩٩) ، والطبراني في «الكبير» (٥/ ٤٧) ، وأبو نعيم في «الحلية» (١٢٧٨٠) ، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٢١، ١٢٢) وقال: «ورجال أحمد رجال الصحيح» ، وصححه الألباني في «فقه السيرة» (ص ٢٦٤) .

وأيضًا تدبر هذا الدعاء النبوي عن زيد بن أرقم ﷺ الذي كان يقول : لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ ، كَانَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ ، وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا ». والحديث رواه الإمام مسلم [1] في باب الذكر والدعاء .

والشاهد : هو قول النبيِّ ﷺ : « اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا » . فالفاعل لهذا الذي يطلب منه رسول الله ﷺ هو الله سبحانه وتعالى ، قال سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨] . أي : فالخلق لله ، والإنسان قادر على سلوك أيهما شاء ومخير فيه .

وذكر ابن الجوزي في «زاد المسير» [2] قول ابن زيد في معنى الآية : « جعل ذلك فيها ـ أي : في النفس ـ بتوفيقه إياها للتقوى ، وخذلانه إياها للفجور ».

وعن ورَّاد مولى المغيرة بن شعبة قال : كتب معاوية إلى المغيرة : اكتب إلي ما سمعته من رسول الله ﷺ يقوله خلف الصلاة ، فأملى عليَّ المغيرة قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ خَلْفَ الصَّلَاةِ : « لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ » [3] .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء ، باب التعوذ من شر ما عمل ، ومن شر ما لم يعمل رقم (٢٧٢٢).

(٢) «زاد المسير» لابن الجوزي (٨/ ٢٧١) ، ط دار الكتب العلمية .

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب الأذان ، باب الذكر بعد الصلاة رقم (٨٤٤) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته رقم (٥٩٣) .

الشاهد: هو قول النبيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ».

فالمانع والمعطي هو الله، وهذا يدل على أن الخالق هو الله سبحانه، وقوله: «وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»، أي: لا ينفع ذا الغنى منك غناه، أو لا ينجيه حظه منك؛ بل ينفعه عمله الصالح.

ومن الأدلة الجميلة: ما رواه البخاريُّ ومسلم [(١)] عن البراء بن عازب ﷺ قال: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ يَنْقِلُ التُّرَابَ مَعَنَا، وَهُوَ يَقُولُ:

وَاللهِ لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا صُمْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

وفي لفظ البخاريِّ [(٢)]: «وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا».

ويقول تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

والحديث دليل على أن الله ﷻ هو خالق العباد وخالق أفعال العباد، ومنها الهداية والصلاة والصدقة؛ إن تيسر شيء فبتيسيره، وإن تعسر شيء فبتقديره ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من كل أعمالهم.

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب القدر، باب ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ رقم (٦٦٢٠)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق رقم (١٨٠٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب رقم (٤١٠٤).

أكتفي بهذا القدر . وأُفَصِّلُ ـ بإذن الله ﷻ ـ في أقوال أهل السنة والجماعة في هذه المرتبة ؛ لأبين المنهج الحق دون أن أخوض في أقوال أهل الباطل من فرق الضلال .

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يملأ قلوبنا بالإيمان به وبقضائه وقدره ؛ إنه على كل شيء قدير .

*****

مذاهب الناس في القضاء والقدر

إن الناس قد انقسموا فريقين في قضية الإيمان بالقدر :

الفريق الأول : هو فريق أهل الحق والهدى الذين آمنوا بالقدر خيره وشره ، وآمنوا بأن الله تبارك وتعالى عَلِمَ ما كان وما هو كائن وما سيكون ، ثم كتب في اللوح المحفوظ ما أراد وشاء ؛ فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ثم خلق الله تبارك وتعالى الخلق ، وخلق كلَّ شيءٍ بما في ذلك خلقه للعباد ولأفعالهم ، هذا معتقد أهل الحق .

والفريق الثاني : فريق أهل الضلال ـ أعاذنا الله وإياكم من أهل الضلال والخذلان ـ الذين خالفوا ما كان عليه النبيّ ﷺ وأصحابه في هذا الباب الكبير ، منهم من نفى القدر وهؤلاء من المجوسية والمشركية ، وهم نفاة القدر في هذه الأمة والمشركون في القدر .

وكذلك الإبليسية الذين هم على معتقد إبليس الذي احتج بالقدر في معصية الله تبارك وتعالى .

فهؤلاء : منهم من نفى القدر ، وزعم أن الله تعالى لا يعلم الأشياء قبل أن تقع ؛ بل يعلمها إن وقعت ، وهؤلاء هم القدرية النفاة وعلى رأس هؤلاء معبد الجهني ؛ فهو أول من أصَّل هذا المعتقد الباطل الفاسد : أن الله لا يعلم الأشياء قبل أن تقع ؛ بل يعلمها بعد وقوعها وحدوثها ، تعالى الله عما يقول المشركون الظالمون علوًّا كبيرًا .

روى مسلم في «صحيحه»[1] قال: حَدَّثَنِي أَبُو خَيْثَمَةَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى ، وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر ، وإغلاظ القول في حقه رقم (٨) .

حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ كَهْمَسٍ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ : كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ - أي بنفي القدر - بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ - أي : يحيى بن يعمر - أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَقُلْنَا لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ. قَالَ : فَوُفِّقَ لَنَا - وهذا من الإيمان بالقدر - عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي ، أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ ، فَقُلْتُ : أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ - ينادي على ابن عمر رضي الله عنهما - إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ - يعني يبحثون عن غوامض العلم وخوافيه ودقائق مسائله - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ - يعني لا يعلمه الله إلا بعد وقوعه - فقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - انظر إلى فقه الصحابة ومعتقد الصحابة وهو المعتقد الحق في هذا الباب - قَالَ : فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي ، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ الله مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، ثم قال : حدثني أبي عمر بن الخطاب رضي الله عنه وساق الحديث الطويل وفيه سؤال جبريل للنبيِّ الجليل ﷺ : « مَا الْإِيمَانُ؟ » قَالَ: « أَنْ تُؤْمِنَ بِالله ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » .

فهذا أول فريق من فرق الضلال الذين زعموا نفي القدر وأن الأمر أنف ، فنفى هذا الفريق الضال علم الكبير المتعال بالأشياء قبل وقوعها وحدوثها ، وقالوا بأنه يعلم بالموجودات والمخلوقات لكن بعد إيجادها ، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا .

وزعم هؤلاء المبطلون كذبًا وزورًا : أن الله تعالى لا يعلم من يطيعه ممن

يعصيه ، ولا يعلم من يدخل الجنة منهم ومن يدخل النار !!

فهذه الفرقة الضالة لم تكتف بنفي مرتبة العلم فحسب ، بل نفت كذلك مرتبة الكتابة ، وزعمت أن الله تعالى لم يكتب مقادير الخلائق عنده ، وقد بينا فساد ذلك بالأدلة من القرآن والسنة .

والحديث العمدة في هذا الباب : ما رواه مسلم [١] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

وهذا زمن الكتابة وليس زمن التقدير ؛ فالتقدير أزلي ـ كما بينت ـ ولم يظهر هذا المعتقد الفاسد إلا في آخر عهد الصحابة ؛ فقال به معبد الجهني ، ثم تقلَّد عن معبد هذا المذهب الباطل رؤوس المعتزلة وأئمتهم ؛ كواصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد .

أما واصل بن عطاء [٢] ؛ فقال فيه أبو الفتح الأزدي : ذاهب لا يحتج به رجل سوء كافر. وقال الذهبي : كان من أجلاء المعتزلة ، ولد سنة ثمانين بالمدينة ، وكان يتوقف في عدالة الصحابة ، وفي عدالة أهل الجمل على وجه التحديد ، وهو يقول : إحدى الطائفتين فسقت ، ثم يقول : لو شهدت عندي عائشة وعلي وطلحة على باقة بقل ـ على حزمة بقل ـ فشهادتهم مردودة ، فهذا القزم يتطاول على عائشة أم المؤمنين ويقول: شهادتها مردودة عندي !! ومن أنت ليكون عندك عند ؟!! هلك هذا في العام الحادي والثلاثين بعد المائة .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام رقم (٢٦٥٣) .

(٢) انظر ترجمته في : «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٤٦٤) ، و«لسان الميزان» (٦/ ٢٨٣) ، و«ميزان الاعتدال» (٤/ ٣٢٩) ، و«الضعفاء والمتروكين» لابن الجوزي (٣/ ١٨١) وغيرها .

وأما عمرو بن عبيد[1] ؛ فهو من رؤوس الضلال وهو ابن ثوبان ، ويقال : ابن كيسان التيمي أبو عثمان البصري من أبناء فارس .

قال ابن كثير : «هو شيخ القدرية والمعتزلة» .

قال الإمام أحمد : « ليس بأهل أن يحدث عنه » .

قال علي بن المديني ـ إمام الأمة في الجرح والتعديل : « ليس بشيء ليس بشيء » .

وقال يحيى بن معين ـ من أئمة الجرح والتعديل : « كان عمرو بن عبيد رجل سوء » وقال : «ليس بشيء».

قال يحيى بن القطان: «كان ابن مهدي لا يحدث عنه» ـ يعني عمرو بن عبيد .

وقال الفلاس: «متروك صاحب بدعة».

قال أبو حاتم : «متروك الحديث».

قال النسائي : «ليس بثقة ، ولا يكتب حديث».

قال يونس بن عبيد و أيوب : «كان عمرو بن عبيد يكذب في الحديث» .

قال حماد بن سلمة: قال لي حميد : «لا تأخذ عنه ؛ فإنه كان يكذب في الحديث . قال : وكذا قال أيوب وعوف بن عون» .

وقال أيوب : ما كنت أُعَدِّلُهُ عقلاً .

وقال مطر الوراق : والله لا أصدقه في شيء .

قال ابن المبارك : إنما تركوا حديثه ؛ لأنه كان يدعو إلى القدر .

وقد ضعفه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل ، وأثنى عليه آخرون في عبادته

---

(١) انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٠٤) ، و«ميزان الاعتدال» (٣/ ٢٧٣) ، و«تهذيب التهذيب» (٨/ ٥٨) ، و«الجرح والتعديل» (٦/ ٢٤٦) رقم (١٣٥٦) ، و«البداية والنهاية» (١٠/ ٨٥) .

وزهده وتقشفه .

قال الحسن: سيد شباب القراء ما لم يحدث ، لتقشفه وورعه وزهده ، كان يشتم الصحابة ـ والعياذ بالله ـ وكان يكذب في الحديث .

قال : روى له بعض طلاب العلم حديثًا عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: « إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ ... » إلى آخر الحديث[1] فلما سمعه ، قال هذا الخبيث ـ عمرو بن عبيد : لو سمعت الأعمش يرويه لكذبته ، ولو سمعته من زيد بن وهب ، لما أحببته ، ولو سمعته من ابن مسعود لما قبلته ، ولو سمعته من رسول الله ، لرددته ، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت له : ما على هذا أخذت علينا الميثاق !!! نعوذ بالله من الضلال والخذلان ، وهذا لا شك من أقبح الكفر والعياذ بالله .

ولما سُئِل عبد الله بن المبارك عن عمرو بن عبيد قال[2] :

أيها الطالب علمًا ايت حماد بن زيد
فخذ العلم بحلم ثم قيده بقيد
وذر البدعة من آثار عمرو بن عبيد

وهي بدعة القول في القدر ، والعياذ بالله ، ثم توارثت القدرية هذا المذهب الفاسد بعد هؤلاء ـ يعني واصلًا وعمرًا ـ وتواصوا به ، فمنهم من نفى علم الله تبارك وتعالى كالأولين ، ومنهم من نفى علم الله بالجزئيات دون الكليات ، قالوا : إن الله يعلم الكليات فحسب ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) انظر: «البداية والنهاية» (١٠/ ٨٦) .

ثم افترقوا في أفعال الله كما افترقوا في علمه .

* فقالت فرقة في أفعال العباد : ليست مقدورة لله ، ولا مخلوقة لله لا الخير ولا الشر .

* وفرقة ثانية قالت : الخير فقط من أفعال العباد مخلوق لله ومقدور له ، وأما الشر فليس مخلوقًا لله ولا مقدورًا له ، فأثبتوا نصف القدر وأنكروا النصف الآخر ، وأثبتوا خالقين : خالقًا للخير ، وخالقا للشر ، وهم في الحقيقة مجوس هذه الأمة الذين أثبتوا للعالم إلهين : للخير إله ، وللشر إله آخر !!

* وفرقة أخرى من فرق الضلال هم الجبرية الغلاة الجفاة الذين زعموا أن العبد مجبور على أفعاله مقهورٌ عليها كالريشة تحركها الرياح ، يزعمون بأن الله تعالى ظالم ؛ لأنه هو الذي خلق العباد وجبرهم على فعل ما لا يرضى ، ثم حاسبهم على ذلك وعذبهم عليه ، فسلبوا العبد قدرته واختياره ، وأخرجوا عن كل أفعال الله تعالى حكمته البالغة ، وجحدوا حجته الدامغة ، وأثبتوا عليه تعالى الحجة لعباده ، ونسبوه تعالى إلى الظلم ، وطعنوا في عدله وشرعه ؛ فلا قيام عنده لسوق الجهاد ، ولا لإقامة الحدود ، ولا للثواب ولا للعقاب ؛ بل ولا معنى عندهم لإرسال الرسل ، ولا إنزال الكتب ؛ لأن الله هو الذي خلق الخلق، وهو الذي يجبرهم على فعل ما يريد ، ثم يعذبهم بعد ذلك على معاصيهم وذنوبهم ، فأقاموا عذر إبليس اللعين ، وعذر فرعون وهامان وقارون ، وسائر الأمم العصاة من الممقوتين المقبوحين، والمغضوب عليهم والضالين.

قالوا : إنه عاقبهم ومقتهم على طاعتهم إياه ؛ لأنهم إن كانوا خالفوا شرعه فقد أطاعوا كونيته وإلهيته ، وسأتكلم عن الإرادة الكونية والإرادة الشرعية إن شاء الله .

قالوا : لأنهم إن كانوا خالفوا فقد أطاعوا إرادته ومشيئته[(١)] .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله كثيرًا من عباراتهم الخبيثة الخطيرة التي لا يستطيع المؤمن أن يحكيها ، فقد جاءت جماعة إلى منزل رجل من هؤلاء فقالوا له : من أين أتيت ؟ قال : كنت أصلح بين قوم متخاصمين فقيل له : وأصلحت بينهم ؟ قال : أصلحت بينهم إن لم يفسد الله بعد ذلك !! تعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا .

انظر إلى الإجرام ، فقالوا له : بؤسًا لك ، أتحسن الثناء على نفسك وتسيء الثناء على ربك[(٢)] ؟!!

قال ابن القيم[(٣)] رحمه الله : «سمعت شيخ الإسلام رحمه الله يقول : عاتبت بعض شيوخ هؤلاء ، فقال لي هذا الشيخ الضال : المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب ، والكون كلُّه مراده ، فأيُّ شيءٍ أبغض منه » ؛ فهو يحب الخنزير ويحب فرعون ويحب إبليس!!!

يقول ابن تيمية: فقلت له : فإذا كان المحبوب ـ جلَّ جلاله ـ قد أبغض بعض مَنْ في الكون ، وعاداهم ، ولعنهم ، فأحببتهم أنت وواليتهم ، أكنت وليًّا للمحبوب أم عدوًّا له ؟!

قال ابن القيم : فكأنما أُلْقِمَ حجرًا .

قال ابن القيم[(٤)] : وسمعت شيخ الإسلام يقول : «القدرية مذمومون في السنة»وعلى لسان السلف ، وهم القدرية المجوسية والمعارضون به للشرع

---

(١) انظر: «معارج القبول» (٢/ ٨٠٣، ٨٠٤) بتصرف يسير .

(٢) انظر: المصدر السابق (٢/ ٨٠٦) .

(٣) انظر: «شفاء العليل» (ص ٦) ، و«طريق الهجرتين» (١٥٥، ٤٥٣)، و«الفتاوى» (١٠/ ٢١١)، وانظر : «معارج القبول» (٢/ ٨٠٦) .

(٤) «طريق الهجرتين»(١٥٦-١٦٠) ط ابن القيم .

القدرية المشركية أو المشركون الذين قالوا : لو شاء ربُّنا ما أشركنا وبعد ذلك الإبليسية ، وشيخهم إبليس ، هؤلاء الذين احتجوا بالقدر على الكفر والذنوب والمعاصي ؛ فهو أول من احتج على الله بالقدر ؛ فقال : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف:١٦] ولم يعترف بالذنب ويبؤ به كما اعترف به آدم ؛ فمن أقر بالذنب ـ وباء به ـ ونزه ربه فقد أشبه أباه آدم ، ومن أشبه أباه فما ظلم ، ومن برأ نفسه بالقدر أشبه إبليس ».

ثم ساق ابن القيم كلامًا طويلاً في فرق القدرية وضلالهم ، إلى أن قال رحمه الله : «فانظر كيف انقسمت هذه المواريث على هذه السهام ، وورث كل قوم أئمتهم وأسلافهم ، إما في جميع تركتهم ، وإما في كثير منها ، وإما في جزء منها ، وهدى الله بفضله ورثة أنبيائه ورسله لميراث نبيهم وأصحابه رضي الله عنهم ، فلم يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض ، بل آمنوا بقضاء الله وقدره ومشيئته العامة النافذة ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه مقلب القلوب ومصرفها كيف أراد ، وأنه هو الذي جعل المؤمن مؤمنًا والمصلي مصليًا والمتقي متقيًا ، وجعل أئمة الهدى يهدون لطاعته ، فأطاعوه ولو شاء لخذلهم فعصوه ، وأنه تعالى حال بين الكفار وقلوبهم ؛ فإنه تعالى يحول بين المرء وقلبه فكفروا به ، ولو شاء لوفقهم فآمنوا به وأطاعوه ، وأنه من يهدي الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأنه لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعًا إيمانًا يثابون عليه ويقبل منهم ويرضى به عنهم ، وأنه لو شاء ما اقتتلوا ، ولكن الله يفعل ما يريد ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون»[(١)] .

هذا هو الحق الذي كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم ؛ ولذا حذر النبيُّ ﷺ من قول أئمة الضلال في هذا الباب ، ونهى عن

---

(١) انظر : «معارج القبول» (٢/ ٨٠٧) بتصرف يسير ، و«مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٠٩) (٣/ ١١١).

التخاصم والتنازع في القدر وعن الاحتجاج بالقدر .

فقال النبيُّ ﷺ: « أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي ثَلَاثًا : حَيْفَ الْأَئِمَّةِ - يعني: ظلم الأئمة - وَإِيمَانًا بِالنُّجُومِ ، وَتَكْذِيبًا بِالْقَدَرِ » [(١)].

وروى أبو يعلى في «مسنده» وابن عدي [(٢)] عن أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : «أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي خَصْلَتَيْنِ : تَكْذِيبًا بِالْقَدَرِ ، وَتَصْدِيقًا بِالنُّجُومِ» .

وحذر النبيُّ ﷺ أمته من هذا الضلال في الحديث الذي رواه الطبراني في «معجمه الأوسط» ، والحاكم في «المستدرك» والبزار في «مسنده» والعقيلي في «الضعفاء» وحسَّنه الألبانيُّ عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : «أُخِّرَ الكَلَامُ فِي الْقَدَرِ لِشِرَارِ أُمَّتِي » [(٣)].

وقال النبيُّ ﷺ: « إِنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَزَالُ مُقَارِبًا حَتَّى يَتَكَلَّمُوا فِي الْوِلْدَانِ وَالْقَدَرِ » [(٤)].

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٤٨٢) وابن عساكر (١٦/ ٣٠٨/ ١)، وصححه لشواهده الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١١٢٧) ، و«صحيح الجامع» (٢١٤) .

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤١٢١) ، وقال الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٣): « وفيه يزيد الرقاشي وهو ضعيف ووثقه ابن عدي » . ورواه كذلك ابن عدي في الكامل (٤/ ١٣٥٠) وهو شاهدٌ للحديث المتقدم، وله شاهدٌ آخر أخرجه أحمد (٥/ ٩٠) لكن سنده شديد الضعف ، وانظر: «الصحيحة» (١١٢٧) ، و«صحيح الجامع» (٢١٥).

(٣) أخرجه البزار ؛ كما في «كشف الأستار» (٣/ ٣٥) (٢١٧٨) ، والطبراني في «الأوسط» (٦/ ٩٦) (٥٩٠٩) ، وقال الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٢) : « ورجال البزار في أحد الإسنادين رجال الصحيح غير عمر بن أبي خليفة وهو ثقة» ، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٧٣) ، وقال : « صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه » وقال الذهبي : « عنبسة ثقة ، لكن لم يرويا له » ، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٩٠٢) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٥١، ٣٥٠) ، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ١٥٦، ٣٦٥) ، واللالكائي (١١١٧) ، وحسَّنه الشيخ الألباني في « الصحيحة» (١١٢٤) ، و«صحيح الجامع» (٢٢٦) .

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٦٢) (١٢٧٦٤) وفي «الأوسط» (٤٠٨٦) ، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٢) ، وقال : « رواه البزار والطبراني في «الكبير والأوسط» ورجال البزار رجال الصحيح » ، والحاكم في «المستدرك في كتاب الإيمان» (١/ ٣٣) ، وقال :=

وروى الإمام أحمد في «مسنده» بسندٍ حسنه الألباني وضعفه الشيخ شاكر من حديث عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ، وَمَجُوسُ أُمَّتِي الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَا قَدَرَ، إِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ»[1]. أي: فلا تشهدوا جنائزهم.

وله طريق أخرى في «سنن أبي داود» بسندٍ حسنه الشيخ الألباني رحمه الله من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، إِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ»[2].

وروى أحمد في «مسنده» وابن أبي عاصم في «السنة»[3] وغيرهما عن أبي

- «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا نعلم له علة، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وابن حبان في «صحيحه» (١٨٢٤ موارد) وإسناده صحيح، وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٦٧٥)، و«صحيح الجامع» (٢٠٠٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٨٦، ١٢٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٣٩، ٣٤٠) عن ابن عمر أو أبيه، والآجري في «الشريعة» (٤٢١)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ٢٦٠) وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٦٢٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في القدر رقم (٤٦٩٢)، وأحمد (٥/ ٤٠٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٢٩)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٢٠٣) من حديث حذيفة، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩٢٢٣) من حديث سهل بن سعد، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٧)، وقال: «وفيه يحيى بن سابق وهو ضعيف»، وقال الشيخ أحمد شاكر في «المسند»: «ضعيف»، وحسن إسناده الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» رقم (٥١٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في القدر رقم (٤٦٩١)، والحاكم في «المستدرك»، في كتاب الإيمان (١/ ٨٥)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين: إن صح سماع أبي حازم من ابن عمر، لم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، والطبراني في «الأوسط» (٢٤٩٤)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٥): «وفيه زكريا بن منظور وثقه أحمد بن صالح وغيره وضعفه جماعة»، وحسن إسناده الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٤٤٤٢) وفي «المشكاة» (١٠٧) و«ظلال الجنة» (٣٣٨، ٣٣٩)، وصححه لغيره في «شرح الطحاوية» (٣٠٤).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٢١)، واللالكائي (١١١٠) ـ مرسلًا واللفظ له ـ والبزار كما في «كشف الأستار» (٣/ ٦٣) (٢١٨٢)، والطبراني كما في «المجمع» (٧/ ٢٠٣)، وابن بطة في «الإبانة» (١٥٢٦) من حديث أبي الدرداء، وله شاهد عن أبي أمامة سيأتي، والحديث حسنه الشيخ الألباني في «ظلال الجنة» (١/ ١٣٠، ١٣١).

الدرداء ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «أَرْبَعَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: عَاقٌّ، وَمُدْمِنٌ، وَكَاهِنٌ، وَمُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ».

وعن أبي أمامة ﷺ أنه ﷺ قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يَقْبَلُ الله مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا، وَلَا عَدْلًا: عَاقٌّ، وَمَنَّانٌ، وَمُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ»[1].

إلى آخر الأحاديث التي حذر فيها النبيُّ ﷺ من هؤلاء؛ مجوس هذه الأمة.

وفي «سنن الترمذيّ» عَن عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ سُلَيْمٍ قَالَ: قَدِمْتُ مَكَّةَ فَلَقِيتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، إِنَّ أَهْلَ الْبَصْرَةِ يَقُولُونَ: فِي الْقَدَرِ، قَالَ: يَا بُنَيَّ، أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَاقْرَأْ الزُّخْرُفَ، قَالَ: فَقَرَأْتُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤]. فَقَالَ: أَتَدْرِي مَا أُمُّ الْكِتَابِ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ كِتَابٌ كَتَبَهُ الله قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ، وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْأَرْضَ، فِيهِ إِنَّ فِرْعَوْنَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَفِيهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١]. قَالَ عَطَاءٌ: فَلَقِيتُ الْوَلِيدَ بْنَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ صَاحِبَ رَسُولِ الله ﷺ فَسَأَلْتُهُ: مَا كَانَ وَصِيَّةُ أَبِيكَ عِنْدَ الْمَوْتِ؟ قَالَ: دَعَانِي أَبِي فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، اتَّقِ الله ـ تدبر وصايا الصحابة لأبنائهم عند الموت ـ وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَتَّقِيَ الله حَتَّى تُؤْمِنَ بِالله، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، فَإِنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ الله الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ». قال الترمذيُّ:

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٣٢٣)، والطبراني في «الكبير» (٧٥٤٧، ٧٩٣٨) وقال: أربعة بدلًا من ثلاثة، والطيالسي (١١٣١) وابن بطة في «الإبانة» (١٥٢٨)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٠٦): «رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما بشر بن نمير وهو متروك، وفي الآخر عمر بن يزيد ضعيف» وحسنه الشيخ الألباني في «ظلال الجنة» (١/ ١٣١) و«صحيح الجامع» (٣٠٦٥) و«الصحيحة» (١٧٨٥).

«حديث غريب من هذا الوجه»[١] ، وصححه الشيخ الألباني في « صحيح سنن الترمذي » .

وقد نعى الأئمة على كفر أئمة الضلال الذين نفوا قدرة الكبير المتعال ، وممن نعى على كفرهم : الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد،ومنهم من توقف في تكفيرهم .

قال القرطبيُّ : «وقد انقرض هذا المذهب ولا نعرف أحدًا ينسب إليه من المتأخرين» .

وأريد الآن أن أؤكد معتقد النبيِّ ﷺ وما كان عليه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وأبين في بعض المناظرات المختصرة أن حجة أهل السنة أقوى بكثير من شبهات أهل الباطل في هذا الباب الكبير .

ففي «صحيح مسلم»[٢] عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ رحمه الله قال : قَالَ لِي عِمْرَانُ ابْنُ الْحُصَيْنِ رضي الله عنه ـ وهو صحابي جليل ، وأبو الأسود الدؤلي من التابعين ، انظر إلى معتقد الصحابة وفهمهم وأسلوبهم في إقامة الحجة وتبيينهم للحق في هذا الباب ـ قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ : أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ ـ الصحابي يحزر عقل التابعي ، كما يسأل الشيخ الطالب في مسألة يريد أن يحزر عقله وأن يتعرف على معتقده ومنهجه في مسألة .

فعمران يقول : أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ مَا سَبَقَ ، أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ

---

(١) أخرجه الترمذيُّ في كتاب القدر ، باب ١٧ رقم (٢١٥٥) وانظر (٣٣١٩) ، وأبو داود في كتاب السنة ، باب في القدر رقم (٤٧٠٠) ، وأحمد في «مسنده» (٥/ ٣١٧) ، واللفظ للترمذي ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٣) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٥٠) .

وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقُلْتُ : بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ . قَالَ: فَقَالَ : أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا؟ قَالَ : فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا ، وَقُلْتُ : كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُ الله وَمِلْكُ يَدِهِ ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ـ جواب جميل بديع ـ فَقَالَ لِي : يَرْحَمُكَ الله ، إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَحْزِرَ عَقْلَكَ ، إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَا : يَا رَسُولَ الله ! أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ ، أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «لَا ، بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ الله ﷻ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ » [الشمس:٧، ٨] .

وفي «سنن أبي داود»[(١)] : عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ : أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ ـ رِضْوَانُ الله عَلَيْهِ ـ فَقُلْتُ لَهُ : وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ الله أَنْ يُذْهِبَهُ مِنْ قَلْبِي . فقال أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ : «لَوْ أَنَّ الله عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ ، عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ الله ، مَا قَبِلَهُ الله مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ » .

قال ابنُ الديلميِّ : ثُمَّ أَتَيْتُ عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ .

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة ، باب في القدر رقم (٤٦٩٩) ، وابن ماجه في المقدمة ، باب في القدر رقم (٧٧) ، وأحمد في «المسند» (٥/ ١٨٢) ، وابن حبان (٧٢٧) ، وعبد بن حميد (٢٤٧) ، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٣٢) وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٤٤) .

هذا قول الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ معتقد واضح لا لبس فيه ولا غموض، وهو ما جاء به النبيُّ ﷺ.

قال الحافظ ابن حجر[1] رحمه الله: «وهذا فصل الخطاب مع الجبرية الذين أنكروا أن تكون الأعمال سببًا في دخول الجنة من كل وجه، والقدرية الذين زعموا أن الجنة عوض العمل وأنها ثمنه وأن دخولها بمحض الأعمال، والحديث يبطل دعوى الطائفتين، والله أعلم».

وقال شيخ الإسلام[2] رحمه الله بعد أن ذكر الحديث: «فهذا من بيان عدل الرب سبحانه وتعالى وإحسانه، وتقصير الخلق عن واجب حقه، حتى الملائكة والأنبياء وغيرهم، وأنه لو عذبهم لم يكن ظالمًا لهم، فكيف بمن دونهم».

وقال ابن أبي العز الحنفي[3] رحمه الله: «هذا الحديث مما يحتج به الجبرية، وأما القدرية فلا يتأتَّى على أصولهم الفاسدة؛ ولهذا قابلوه: إما بالتكذيب، وإما بالتأويل !! وأسعد الناس به أهل السنة الذين قابلوه بالتصديق».

وتدبروا معي هذه المناظرات الرقيقة التي لم يستطع منطق المعتزلة وعقولهم التي قدموها على النقل الصحيح، لم تستطع أن تقف أمام بعض حجج عوام أهل السنة.

فلقد جاء أعرابيٌّ إلى عمرو بن عبيد رأس الضلال، وقال الأعرابيُّ: إن ناقتي سُرِقت فادع الله أن يردَّها عليَّ. فقال عمرو بنُ عبيد: اللهم إن ناقة هذا العبد الفقير سُرِقت ولم تُرِدْ سرقتها اللهم ردَّها عليه؛ فقال الأعرابيُّ

(١) «فتح الباري» (١١/ ٢٩٦).

(٢) «الرد على البكري» (٢/ ٤٦٥)، و«مجموع الفتاوى» (١/ ٢١٧)، (١٨/ ١٤٣، ١٤٤).

(٣) «شرح الطحاوية» (٤٥٠).

الفقيه : الآن ذهبت ناقتي ويئست منها ؛ فقال عمرو بن عبيد : كيف ؟ فقال الأعرابيُّ : لأنه إن أراد أن لا تُسرق فسُرِقت فلا آمن من أن يريد رجوعها فترجع !! [(١)] .

وبهذه الكلمات الحاسمة على قِلَّتِها يُقيم هذا الأعرابي بفطرته النقية، وعقيدته السوية الحجةَ على رأسِ القدرية !!

*****

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (٢٤٩) المكتب الإسلامي ، بمعناه، و«الإبانة» لابن بطة (٢/ ٢٨٠)، ط دار الراية .

تفنيد الشبهات[١]

ونبدأ بإذن الله تعالى في تفنيد أخطر شبهة ، وهي شبهة قديمة حديثة ، ألا وهي : شبهة الجبرية الجفاة الغلاة ، الذين يزعمون أن العباد مقهورون مقصورون مسيرون ، فلا قدرة لهم على شيء ، ولا إرادة لهم في فعل شيء ولا اختيار .

وزعم هؤلاء الجفاة الغلاة أن تكليف الله للخلق والعباد حيث أمرهم بالطاعات ، ونهاهم عن المعاصي ؛ كتكليف المشلول بالمشي، وكتكليف الأعمى بالكتابة ، وكتكليف الحيوان البهيم العاجز بالطيران في أرجاء الأرض .

وزعموا : أن تعذيب الله لخلقه وعباده تعذيبٌ على فعله هو سبحانه لا على أفعالهم ، وهذا ظلم منه !! جلَّ جلاله وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا .

وزعموا ذلك بدعوى أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الشر؛ فالشر مخلوق له ومفعول له ، فهو خلقه وفعله ومراده ، واستدلوا على هذا المذهب الباطل القديم الحديث بآيات من القرآن لم يحسنوا فهمها بعقولهم السقيمة .

ومع ذلك فشبهة الجبرية هي أخطر الشبهات في باب القدر ؛ لأنها قديمة وحديثة ، فهذا ما يردده كثير من الناس : أن الإنسان مسير ليس مخيرًا ، وأنه مقهور مجبور ، فَلِمَ يعذبه الله تعالى على فعل ، لا اختيار ولا مشيئة ولا إرادة له في فعله ؟!

وقبل أن أُفَنِّدَ هذه الشبهة أتضرع إلى الله ﷻ أن يرزقنا الصواب ، ونحمد الله الذي هدانا للإيمان به وبقدره خيره وشره، ونسأله أن يثبتنا على هذا المعتقد الذي كان عليه المصطفى ﷺ وأصحابه .

---

(١) انظرها في «شفاء العليل» بتفصيل موسع .

وقبل تفنيد الشبهة أود أن أؤصل أصلين في غاية الأهمية قبل مناقشة أدلة الجبرية في هذا الباب :

الأصل الأول :

الألفاظ التي استعملها الجبرية ـ من أتباع جهم بن صفوان وغيره ـ لا أصل لها في القرآن والسنة ؛ فلفظة : «الجبر» لا أصل لها في كلام الله ، ولا في كلام النبيِّ ﷺ ؛ ولفظة : الإنسان «مسير» أيضًا لا أصل لها في القرآن ، ولا في سنة النبيِّ ﷺ ، والواجب على هؤلاء الذين يزعمون أنهم يتحدثون بالعلم وبالدليل ، ويبحثون عن غوامض العلم وخوافيه ، ويقولون كلامًا مفخمًا مضخمًا، الواجب على هؤلاء ؛ بل وعلى الجميع في مثل هذه الأبواب الكبيرة الخطيرة من أبواب الدين أن يتقيد بما ثبت من ألفاظ في كتاب الله وكلام المصطفى ﷺ [1] .

روى الخلال في كتاب «السنة» [2] بإسناده عن بقي بن مخلد قال : سألت الأوزاعي والزبيدي عن الجبر ؛ فقال الزبيدي : «أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر ويقهر ، لكن يقضي ويقدر ، ويخلق ويجبل عبده على ما أحبه» .

انظر إلى ألفاظ السلف ، فقوله:«لكن يقضي ويقدر ، ويخلق ويجبل عبده على ما أحبه» ؛ كلها ألفاظ مشروعة .

وقال الأوزاعي : ما أعرف للجبر أصلاً من القرآن والسنة ، فأهاب أن أقول ذلك، ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل ـ جبل الله الإنسان على شيء أي فطره ـ فكله يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله ﷺ .

---

(١) انظر : «القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه» للدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود (ص٢٠٠) ، ط دار الوطن .

(٢) «السنة» للخلال (٣/ ٥٥٥) ، ط الراية .

وإنها أنكر السلف بأن الإنسان مجبر على فعله ؛ لأن لفظ «الجبر» مجمل ، فقد يراد بالإجبار الإكراه ؛ كقولك مثلاً : أجبر الوالد ابنته على النكاح أي : قهرها وأرغمها على ذلك دون رغبة منها ولا اختيار ، وكقولك ـ مثلاً : أجبر القاضي فلانًا على الخروج من ماله ، أو على الخروج من بلده أو بيته ، فمعنى الإجبار هنا : الإكراه والقسر والقهر .

فيكون قول الجبرية بالجبر معناه : أن الله تبارك وتعالى أجبر وأكره العباد على فعل شيء ، ثم يحاسبهم بعد ذلك على فعل هذا الشيء ، هذا ظلم ينزه البشر من أهل الفضل والعقل والإنصاف من الوقوع فيه ، فكيف بخالق البشر الذي من أسمائه : العدل ، والحكيم، واللطيف ، والقدوس ، والعليم ، والخبير ـ جلَّ جلاله ؟

صفاته كلها كمال ، وأسماؤه كلها حسنى ، إذًا لما كان لفظ «الجبر» لفظًا مطلقًا مجملا ، منع السلف ـ رضوان الله عليهم ـ من إطلاقه نفيًا أو إثباتًا .

ولقد ذكر شيخ الإسلام عن أبي بكر الخلال في كتاب «السنة» أن المرُّوذي قال للإمام أحمد : يا أبا عبد الله ! إن رجلاً يقول : إن الله أجبر العباد ؛ فقال له رجل آخر : لا ، إن الله لم يجبر العباد أي : على المعاصي ، إنه يريد أن يثبت القدر وما عليه أهل السنة ولكنه استخدم لفظة «الجبر» ؛ فلما سئل الإمام أحمد عن ذلك قال : لا يقول هكذا . وأنكر على الرجلين معًا .

أنكر على الذي قال : إن الله أجبر العباد ، وأنكر على الذي قال : لا ، إن الله لم يجبر العباد ـ أي على المعاصي . وقال : بل قُلْ : إن الله ـ جلَّ وعلا ـ يضلُّ من يشاء ، ويهدي من يشاء [١] .

---

(١) «السنة» للخلال (٣/ ٥٥٢) ، و«مجموع الفتاوى» (٨/ ١٠٣) .

إذًا هذه اللفظة لا أصل لها في القرآن ولا في سُنَّة النبيِّ ﷺ ؛ ولذلك لم يستعمل السلف ـ رضوان الله عليهم ـ هذه اللفظة لا نفيًا ولا إثباتًا .

الأصل الثاني :

إن استدلال الجبرية بآيات القرآن الكريم ، وأحاديث النبيِّ ﷺ، ليؤكد لنا تأكيدًا جازمًا أن سوء الفهم عن الله ورسوله ﷺ أصل كل بدعة وفتنة وضلال .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى[1] : « وهل أوقع القدرية ، والمرجئة، والخوارج ، والمعتزلة ، والجهمية ، والرافضة ، وسائر طوائف أهل البدع ، هل أوقعهم فيما وقعوا فيه إلا سوء الفهم عن الله ورسوله ؟ » .

فقد يحتج جاهل بدليل من القرآن ولكنه لم يفهم الدليل ، ولا مرتبة الدليل ، ولم يحقق مناط الدليل ؛ فقد يخرج علينا من يجيز الاستغاثة بالأولياء ، وسؤالهم ، والذبح والنذر لهم من دون الله ، ثم يستدل على هذا التأصيل الباطل بقول الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس:٦٢]!!

فما علاقة هذا الدليل بهذا التأصيل الفاسد ؟!

كذلك ما علاقة تأصيل الجبرية لمذهبهم الفاسد الباطل بآيات الخلق والمشيئة والإرادة ؟!! لا علاقة البتة لهذا التأصيل بهذه الآيات التي استدل بها هؤلاء.

وليست دليلاً على الإطلاق على أن ما يؤصلونه هو الحق ، فقد يستدل أهل الباطل بالأدلة القرآنية والنبوية لكنهم لم يحققوا مناط الدليل ولا مراتبه ، فاستشهدوا بالدليل في غير موضعه ؛ كرجل لا يصلي . فإن قلت له : لماذا تترك الصلاة؟ يقول لك: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]!!

فما علاقة هذا الدليل بهذا الباطل ؟ لا علاقة له البتة !!

وبعد هذين الأصلين المهمين نناقش أدلة الجبرية :

---

(١) «الروح» لابن القيم (٦٣) ، ط دار الكتب العلمية .

مناقشة أدلة الجبرية :

فلقد استدل الجبرية على أن العباد مجبورون مقهورون على أفعالهم ، وأنه لا إرادة لهم ، ولا مشيئة ، وأن الله تبارك وتعالى هو الذي أكرههم على فعل المعاصي ، ويحاسبهم عليها ـ تعالى الله عن ذلك !

أما الأدلة التي استدلوا بها فهي كثيرة ؛ لأنهم استدلوا بالآيات العامة التي تدل على أن الله تعالى هو خالق كل شيء ، وهذا حق ، فالحق تبارك وتعالى هو خالق كل شيء قال جلَّ وعلا : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ [الأنعام:١٠٢] ، وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر:٦٢] ، وقال سبحانه : ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد:١٦] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر:٣] ، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [غافر:٦٢] إلى آخر الآيات.

قالوا : إن هذه الآيات تدل على أن الله خالق كل شيء ، وأنه لا خالق إلا هو ، وهذا كلُّه حق ، وأفعال العباد شيء والله خالقها وحده ـ انظر إلى التأصيل الفاسد ـ ومن ثم : فلا قدرة ولا إرادة للعباد في أفعالهم ، فهم مجبورون وليسوا مخيرين !!

من أين استدل الجبرية على هذه النتيجة الفاسدة من هذه الآيات ؟

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر:٦٢] ، الله الذي خلق العباد ، وخلق أفعال العباد ، هذا حق ، لكن من أين استدل الجبرية من هذه الآيات على أن العباد مجبورون مقهورون لا اختيار لهم ولا إرادة ؟

ما الدليل في هذه الآيات على أن الله قهر وأكره وأجبر العباد على فعل المعاصي والذنوب ، ثم يحاسبهم عليها كما قالت الجبرية؟ قالوا : الله يحاسب على فعله هو ، لا على أفعالهم ؛ لأنه أجبرهم وأكرههم على ذلك ، وهذا ظلم ـ تعالى الله عما يقول الجبريون علوًّا كبيرًا !!

ثم استدلوا ـ أيضًا ـ بآيات المشيئة ، قالوا : إن الله سبحانه وتعالى هو صاحب المشيئة وحده ولا مشيئة للعباد ولا اختيار ، واستدلوا بآيات عامة في إثبات المشيئة ـ وهي حق ـ قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص:٦٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان:٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام:٣٩] ، وقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر:٣١] .

قالوا : فإن الإنسان بهذه الآيات مسلوب الإرادة والمشيئة ، والله هو الذي يشاء ويريد ، ويهدي ويضل ، فهو الخالق لأعمال العباد ، وهذا كله من أعمال العباد ، ومن ثَمَّ ؛ فالعباد مجبورون ولا إرادة لهم ولا مشيئة ولا خلق لهم ، واستدلوا أيضًا بقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة:١٣] ، وبقوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام:١٢٥] ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ

وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ [البقرة:٦، ٧] ، وبقوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:٢٣] ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة:٨٨] والختم هو: الطبع. ومعناه: الاستيثاق من الشيء حتى لا يخرج منه داخل فيه ، ولا يدخل إليه خارج عنه .

واستدلوا أيضًا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال:١٧] ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٧٨] .

واستدلوا بعد هذه الأدلة القرآنية بالعقل ، فقالوا : إن الله علم وأراد أزلاً وجود أفعال العباد وتعلقت قدرته بوجودها فيما لا يزال ، فما وقع من أفعال العباد فهو بقضاء الله وقدره ، والعباد مجبورون عليها (١) .

يعني : لا يستحق الله اسم القدير إلا إذا وجد أو خلق المخلوقين، وفعلوا الأفعال التي قدرها أزلاً ؛ ليستحق بذلك اسم القدير ! وقد قُلْنَا : بأن الله خالق قبل أن يخلق المخلوقين ، وعالم قبل أن يعلم أحوالهم ، ورازق قبل أن يرزق المرزوقين .

ولتفنيد هذه الأدلة ، أقول ـ وأسأل الله التوفيق :

أما الآيات التي استدل بها الجبرية على أن الله تبارك وتعالى خالق كل شيء ؛ فدلالة هذه الآيات حق كما ذكرت ، ولكن من أين يفهم من هذه الآيات أن الله

---

(١) نقلا عن «القضاء والقدر» للمحمود (٣٣١) .

تبارك وتعالى قد أكره وأجبر العباد على فعل المعاصي ، ثم يحاسبهم عليها ؟

ليس لدى الجبرية إطلاقًا دليل صحيح صريح ينفي كون العباد فاعلين لأفعالهم ؛ بل غاية أدلتهم أنها تثبت أن الله تبارك وتعالى خالق كل شيء ، وهذا حق لا مراء فيه .

لكن ؛ لا يمكن لعاقل أن يفهم من هذه الأدلة أن الله أجبر وأكره وقهر العباد على فعل المعاصي ثم يحاسبهم عليها ، ثم آيات المشيئة لله وحده ، وهي حق بلا ريب ، لكن نفس الآيات ـ وغير هذه الآيات كثير جدًّا في القرآن ـ تثبت أن للعباد مشيئة ؛ فلماذا احتجوا بهذه الآيات وغضوا الطرف عن هذه الآيات ؟!

ولذلك ؛ فإن الأدلة التي استدل بها المعتزلة على مذهبهم ، تنقض الأدلة التي استدل بها الجبرية على مذهبهم ؛ لأن المعتزلة بنوا مذهبهم على إثبات الفعل والمشيئة للعبد .

أما الجبرية فقد بنوا مذهبهم على نفي الفعل والمشيئة للعبد .

قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف:٢٩] فهذه الآية فيها إثبات لمشيئة العباد ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ [المدثر:٣٦، ٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس٧-١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد:١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [الإسراء:٩٤] ، وقال تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ﴾ [البقرة:٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾

[النساء:٣٩] ، وقال تعالى : ﴿ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:٧١] .

وهذه الآيات ـ وغيرها كثير ـ تدلُّ وتنصُّ على أنهم هم الذين يؤمنون ويكفرون ويلبسون الحق بالباطل ويفعلون الكفر.

وقال تعالى : ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف:١٤] ، وقال تعالى : ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة:٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم:٣٦-٤٠] .

فلو لم يكن الجزاء على أعمال العباد أصلاً ، لكان تعذيب الله للعباد على فعل لم يفعلوه ظلمًا ، والله تبارك وتعالى منزه عن العيب والنقص والظلم ، فله كلُّ كمالٍ وجلال ـ قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف:٢٣] ، وقال عن يونس عليه السلام : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧] ، وقال عن موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى ﴾ [القصص:١٦] ، وقال يعقوب عليه السلام لأولاده : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٨] .

فهذه الآيات دالة على اعتراف الأنبياء بكونهم فاعلين لأفعالهم .

ومن الأدلة التي استدل بها المعتزلة ـ وهم يردون على الجبرية ـ قول الله تعالى : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل:٨٨] .

ووجه استدلالهم : أن الله بين في هذه الآية أن أفعاله كلها متقنة والإتقان يتضمن الإحكام والحسن جميعًا .

وهناك من أفعال العباد ما يشتمل على النقص: كالكفر والتهود والتنصر والتمجس ، وليس شيء من ذلك من الإتقان في شيء ؛ فلا يجوز أن يكون الله تعالى هو الذي جبرهم على فعله ؛ لأن هذا من النقص .

واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾ [ص:٢٧] قالوا : فنفى أن يكون في خلقه باطل ، والكفر والقبائح من الباطل ، فيجب ألا تكون من جهة الله تبارك وتعالى ؛ بل من جهتنا ومتعلقة بنا .

واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] . قالوا : بأن اللام هنا لام الغرض أي : كي يعبدوه ، وهذا يدل على أن الله لا يريد من العباد إلا العبادة والطاعة ، ويدل أيضًا على أن هذه الأفعال : الكفر والإعراض عن العبادة والطاعة متعلقة بالعباد ، وإلا فليس للكلام الذي ذكره الرب تبارك وتعالى أي معنى في قوله :﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .

إذًا الآيات التي تدل على أن المشيئة لله حق ، لكن لا يستفاد منها أن الله أكره العباد وجبرهم على فعل الذنوب والمعاصي ؛ بل أثبت الله في القرآن أيضًا المشيئة والإرادة لعباده كما وُضِّحَ بالأدلة آنفًا .

أما قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام:١٢٥] ؛ فمعناها : أن من أراد الله له الهداية يشرح صدره للإسلام . أي: ييسره له وينشطه ويسهله لذلك ، وهذه علامات على الخير؛ كما قال ابن عباس : «يوسع الله قلبه للتوحيد والإيمان به» [1] .

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧٩٠٠) ، وعبد بن حميد في «تفسيره» ؛ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٢٠) للسيوطي . وذكره الحافظ ابن كثير في «التفسير» .

وهو في ابن أبي حاتم من طريق : حفص بن عمر العدني عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قوله .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام:١٢٥] أي : شديد الضيق عن معرفة الله ومحبته كأنما يتصاعد في السماء .

قال ابن القيم [(١)] : «وإن ذلك عدلٌ في عقوبته لمن لم يقدره حق قدره ، وجحد كمال ربوبيته ، وكفر بنعمته ، وآثر عبادة الشيطان على عبادته ، فسد عليه أبواب توفيقه وهدايته ، وفتح عليه أبواب غيه وضلاله ، فضاق صدره ، وقسا قلبه ، وتعطلت من عبودية ربها جوارحه ، وامتلأت بالظلمة جوانحه حيث أعرض عن الإيمان ، واستبدل به الكفر والفسوق والعصيان» .

فمعنى الآية لا يدل على الجبر ، وإنما يدل على أن الله تعالى يُضَيِّق صدر من لم يؤمن به ولم يستجب إلى داعيه ، وليس هذا دليل على الجبر والإكراه على الإطلاق لا عقلًا ولا نقلًا .

أما الآيات التي ذكرت الختم والطبع على القلوب وعلى الأسماع، والغشاوة على الأبصار فقد استدل بها الجبرية أيضًا على مذهبهم الفاسد الباطل .

ولا دليل أيضًا للجبرية فيها ؛ لأنه لا يمكن أن يحمل معناها على أن الله منعهم من الإيمان وحال بينهم وبين الإيمان ، ثم يأمرهم بعد ذلك به ، إنما معناها أن الله تبارك وتعالى قال ذلك عقوبة لهم ، وجزاء لهم على إعراضهم وكفرهم بالله ورسله ـ ولذلك تدبر معي القرآن ؛ قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [البقرة:٦] .

أعرضوا عن النذارة ، أعرضوا عن منهج الله الذي جاء به رسل الله ، فكان العقاب من جنس العمل ؛ فعوقبوا بأن سدَّ الله ﷻ عليهم باب توفيقه وهدايته ، وفتح عليهم أبواب غيه وضلاله .

---

(١) «شفاء العليل» (١٠٨) ، ط الفكر ـ بيروت .

فالآية الأولى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ فالله سبحانه وتعالى كما يعاقب بالعذاب يعاقب بالضلال عن الهدى أو عن الحق عقوبة دائمة مستمرة لحكمة يعلمها سبحانه ، كما سأبين ، وقد تكون العقوبة مؤقتة ولا دليل في الآية إطلاقًا على أن الله جبر العباد على فعل المعاصي والذنوب ثم يحاسبهم عليها.

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال:١٧] فإنها خطاب للنبيِّ ﷺ لما وقع في يوم بدر حيث أنزل الله ملائكته فقتلوا أعداء الله ، فلم ينفرد المسلمون بقتلهم ؛ بل قتلتهم الملائكة ، وكذلك لما أخذ الرسول ﷺ قبضة من التراب ورمى بها في وجوه المشركين ، فما من المشركين أحد إلا وقد أصابه التراب في عينيه ومنخريه وفمه ؛ فقال الله تعالى لنبيه ﷺ ممتنًا عليه : ﴿ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ فأثبت الله سبحانه للرسول ﷺ الفعل فعل الرمية والإلقاء ، ولكن إيصال ما رمى به النبيُّ ﷺ إلى وجوه المشركين من مسافة بعيدة إلى وجوههم جميعًا ، فلم يكن من فعل النبيِّ ﷺ ، ولكنه من فعل الرب العلي ، وأن هذه الآية من أعظم الأدلة على نقض قول الجبرية ؛ فهم لا يثبتون أفعالًا للعباد على الإطلاق ، وهذه الآية وغيرها تثبت فعل النبيِّ ﷺ .

أما قول الله ﷻ: ﴿ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:٧٨] .

أي : الحسنة والسيئة ؛ فالمقصود بها عند جمهور المفسرين: النعم والمصائب، والآية ردٌّ على المنافقين المتثاقلين عن الجهاد ، وذلك أنهم لما كانت تصيبهم الحسنة ؛ كالرزق ، والثمار ، والزهور ، والزروع ، والأولاد يقولون : هذه من عند الله ، فإذا أصابتهم سيئة من سخطٍ ، وجدبٍ ، وموتٍ ، وغلاءِ أسعار ، ونقصٍ في الثمرات ، والزروع ، يقولون للنبيِّ ﷺ : هذه من عندك ؛ كما قال الله تعالى عن قوم

فرعون : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾[الأعراف:١٣١] فرد الله تبارك وتعالى عليهم وقال : ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يعني : ما طار إليهم من القضاء والقدر من عند الله لا من عند غيره.

إذًا فالمراد بالحسنة والسيئة في الآية التي استدل بها الجبرية على مذهبهم الباطل : النعم والمصائب . وهذا بإجماع مفسري سلف الأمة ـ رحمهم الله ـ وليس المراد مجرد ما يفعله الإنسان باختياره باعتباره من الحسنات والسيئات ؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وابن القيم رحمه الله في «شفاء العليل»[1] في رده النفيس على هؤلاء . قال : قال الله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ولم يقل : كلٌّ من الله ، بل قال : كلٌّ من عند الله ، لما جمع بين الحسنات والسيئات ، والحسنة مضافة إلى الله من كل وجه ، والسيئة إنما تضاف إليه قضاءً وقدرًا ، وخلقًا ، وأنه خالقها كما هو خالق الحسنة ؛ فلهذا قال : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ .

وهو سبحانه إنما خلقها لحكمة ، فلا تضاف إليه من جهة كونها سيئة ؛ بل من جهة ما تضمنته من الحكمة ، والعدل، والحمد ، وتضاف إلى النفس من حيث كونها سيئة ، ولما ذكر الحسنة مفردة عن السيئة قال : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النساء:٧٩] .

ولم يقل: من عند الله ، فالخير منه سبحانه ، وأنه موجب أسمائه وصفاته ، والشر الذي هو بالنسبة إلى العبد شر من عنده سبحانه ؛ فإنه مخلوق له عدلًا وحكمة منه ، والشرُّ موجودٌ بيننا في الكون ؛ فالأمور الوجودية ليست شرًّا بالذات ؛ بل بالعرض ، أو بالنسبة والإضافة ؛ فمثلاً : الظلم يصدر عن

(١) بتصرف من «شفاء العليل» (ص٣٦٠) وما بعدها ، و«الحسنة والسيئة» لابن تيمية (٢٠) ، ط المدني ـ القاهرة .

القوة الغضبية في الإنسان .

وهذه الصفة تتطلب الغلبة والقهر ، فإذا استخدم الإنسان هذه القوة في موضعها فلا تعد شرًّا ، وإذا استخدمها في غير موضعها يقال عنها : هذا هو الشر والظلم ؛ فإذا وضع الإنسان قوة الاستيلاء والغلبة والقهر ضد عدو صائل ، فلا يقال على استخدامه لهذه القوة : ظلم ، ولو استعمل قوة الغضب هذه في إيذاء الضعفاء وسلب حقوقهم يقال : عدل بهذه القوة إلى غير موضعها ، فوضع القهر والغلبة موضع العدل والنصفة أي : الإنصاف ، ووضع الغلظة موضع الرحمة ، فلم يكن الشر موجودًا في هذه القوة ولا في ترتب آثارها عليها من حيث هي ، وإنما في إجراء هذه القوة في غير مجراها .

مثال آخر : نهر يجري في مجراه فينفع العباد والبلاد بأمر الله الذي أجراه ، فإذا انحرف هذا النهر عن مجراه فأغرق وأهلك ؛ فهل يقال في جريان النهر في مجراه الأصلي شرٌّ أم في انحرافه عن مجراه الطبيعي الشر ؟!

فما دام النهر يجري في مجراه فهو الخير ؛ فإن انحرف عن مجراه وطريقه إلى أرض يضرها ويخرب دورها كان الشر في العدول به عما أعد له ، وهكذا الإرادة والغضب ، أُعين بها العبد ليتوصل بهما إلى حصول ما ينفعه وقهر ما يؤذيه ويهلكه فإذا استعملا في ذلك ، فهو كمالها ، فهو خير .

وإذا انصرفا ، أي : الإرادة والغضب عن ذلك ، واستعمل العبد هذه القوة في غير محلها ، وهذه في غير محلها ، صار ذلك شرًّا إضافيًّا نسبيًّا ، وليس شرًّا في ذات القوة أو في ذات الإرادة .

وكذلك النار في إحراقها كمال ، فإذا أحرقت ما ينبغي إحراقه فهو خير ، وإن صادفت - أي النار - ما لا ينبغي إحراقه فأفسدته ، فهو إضافيٌّ نسبيٌّ بالنسبة للشيء الذي حُرِق وما كان له أن يحرق .

كذلك القتل ؛ فالقتل : هو استعمال الآلة القاطعة في تفريق اتصال البدن ؛ فقوة الإنسان على استعمال الآلة خير ، وكون الآلة قابلة للتأثير خير ، وكون المحل قابلاً لذلك أيضًا خير ، وإنما الشر النسبيُّ إضافيٌّ وهو وضع هذا التأثير في غير موضعه ، والعدول به عن المحل اللائق به لغيره ، وهذا بالنسبة إلى الفاعل ، أما بالنسبة إلى المقتول فهو شرٌّ إضافيٌّ أيضًا ، وهو ما حصل له من التألم وما فاته من الحياة ، وقد يكون ذلك خيرًا من جهة أخرى إن قتل شهيدًا !!

كذلك الوطء ؛ وهو: جماع الرجل لامرأته ؛ فإن قوة الفاعل وقبول المحل كمال وليس شرًّا ، ولكن الشر في العدول به عن المحل الذي يليق به إلى محل لا يَحْسُن ولا يليق ، وهكذا حركة اللسان وحركات الجوارح كلها جارية على هذا المجرى ، فظهر أن دخول الشر في الأمور الوجودية إنما هو بالنسبة والإضافة ، لا أنها من حيث وجودها وذواتها شر .

وكذلك السجود ليس شرًّا من حيث ذاته ووجوده ، فإذا أضيف إلى غير الله كان شرًّا بهذه النسبة والإضافة ، ولكنه هو في ذاته ليس شرًّا.

كذلك التعظيم من حيث هو تعظيم لا يمدح ولا يذم إلا باعتبار متعلقه أو إضافته أو نسبته ، فإذا كان تعظيمًا لله صار خيرًا وإذا كان تعظيمًا للأصنام أو لغير الله صار شرًّا [(١)]، وأعتقد أن المسألة أصبحت واضحة بالنسبة للخير والشر .

وهنا سَيَرُدُّ الجبرية ويقولون : فأي خير في خلق إبليس ؟! ووجوده شرٌّ محضٌ حقيقيٌّ ؟!

والجوابُ : بأن الشرَّ المحض إن جعله الله تبارك وتعالى في الوجود صار شرًّا نسبيًّا إضافيًّا ؛ فأيُّ خير إذًا لخلق الله ﷻ لإبليس ؟ وأيُّ خير في إبقائه إلى

(١) «شفاء العليل» (١٨٢) ، ط الفكر بتصرف .

آخر الدهر؟ بل وأيُّ خير في إخراج الأبوين من الجنة؟!! هكذا يجيب الجبرية ، وأي خير في إيلام الأطفال بالمرض؟ والمجانين بالجنون ؟ وأيُّ خير في الأسقام والأوجاع ؟ وأيُّ خير في خلق الله للنار إلى آخره ؟!

والجوابُ : بأن الله حكيم لا يخلق عبثًا ولا يفعل بدون حكمة أو مصلحة أو غاية ؛ بل كل أفعاله لحكمة ، ولمصلحة ، ولغاية ، أعلمَ الله ﷻ بعض خلقه شيئًا من حكمته ، وأخفى الكثير ، لكن لو خفيت عنا حكمة لخَلْقٍ خَلَقَهُ الله أو لِفِعْلٍ فعله الله ، ليس ذلك دليلاً البتة على أن الله خلق هذا بدون حكمة أو لغير منفعة أو مصلحة ؟!

فتعطيل الحكمة والغاية المطلوبة بالفعل ، إما أن يكون لعدم علم الفاعل بها أو بتفاصيلها ، وهذا محال في حقِّ مَنْ هو بكلِّ شيءٍ عليم ، وإما لعجزه عن تحصيلها ، وهذا ممتنع في حقِّ مَنْ هو على كل شيءٍ قدير ، وإما لعدم إرادته ومشيئته الإحسان إلى غيره وإيصال النفع إليه، وهذا مستحيل في حق أرحم الراحمين ؛ وإما لمانع يمنع من إرادتها وقصدها ، وهذا مستحيل في حق ما لم يمنعه مانع عن فعل ما يريد ، وإما لاستلزامها نقصًا ومنافاتها كمالاً، وهذا باطل ، بل هو قَلْبٌ للحقائق ، وعكس للفطرة ، ومناقضة لقضايا العقول ؛ فإن من يفعل لحكمة وغاية مطلوبة يُحْمَدُ عليها أَكْمَلُ مما يفعل لا لشيء البتة ، كما أن من يخلق أكمل ممن لا يخلق ، ومن يعلم أكمل ممن لا يعلم ، ومن يتكلم أكمل ممن لم يتكلم ، ومن يقدر ويريد أكمل ممن لا يتصف بالقدرة ولا بالإرادة .

وهذا مركوز في الفطر ، مستقر في العقول ؛ فنفي حكمته بمنزلة نفي هذه الأوصاف عنه سبحانه ، وذلك يستلزم وصفه بأضدادها وهي أنقص النقائص[1] .

---

(١) «شفاء العليل» (٢٠٤) ، ط الفكر .

وجمهور الأمة يثبت حكمته سبحانه والغايات المحمودة في أفعاله، فليس مع النفاة ـ أي : الذين ينفون الحكمة عن أفعال الله سبحانه ـ سمع ولا عقل ولا إجماع ؛ بل السمع والعقل والإجماع والفطرة تشهد ببطلان قولهم .

وجماع ذلك : أن كمال الرب تبارك وتعالى ، وجلاله ، وحكمته ، وعدله ، ورحمته ، وقدرته ، وإحسانه ، وحمده ، ومجده ، وحقائق أسمائه الحسنى تمنع كون أفعاله صادرة منه لا لحكمة ولا لغاية مطلوبة ، وجميع أسمائه الحسنى تنفي ذلك وتشهد ببطلانه .

وكيف يتوهَّمُ ذو فطرة صحيحة خلاف ذلك ، وهذا الوجود كله شاهدٌ بحكمته وعنايته ، كيف يتوهم ذو فطرة سليمة صحيحة خلاف ذلك ؟ كيف يتوهم بأن الله يفعل بغير حكمة ، وبغير منفعة ، وبغير مصلحة ، وما في مخلوقاته من الحكم والمصالح والمنافع المطلوبة والعواقب الحميدة أعظم من أن يحيط به وصف أو يحصره عقل؟!

ويكفي الإنسان فكره في نفسه ، وخلقه ، وأعضائه ، ومنافعها ، وقواه، وصفاته ، فإنه لو استنفد عمره كله لم يحط علمًا بجميع ما تضمنه خلقه من الحكم والمنافع على التفصيل . والعالم كله ؛ علويه وسفليه بهذه المثابة ، ولكن لشدة ظهور الحكمة ووضوحها وجد الجاحد السبيل إلى إنكارها !!!

وهذا شأن النفوس الجاهلة الظالمة ؛ التي أنكرت وجود الصانع مع فرط ظهور آياته ودلائل ربوبيته ، بحيث استوعبت كل موجود ، ومع هذا سمحت النفوس الجاهلة الظالمة بالمكابرة في إنكاره ، وهكذا في أدلة علوه سبحانه فوق خلقه مع شدة ظهورها وكثرتها سمحت نفوس الجهمية بإنكارها ، وهكذا سواها ؛ كصدق أنبيائه ورسله على رأسهم خاتمهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ فإن أدلة صدق الأنبياء ، وأدلة صدق

النبيِّ ﷺ في الوضوح للعقول كالشمس في دلالتها على النهار ، ومع هذا لم يأنف الجاحدون والمكابرون من الإنكار ، وهكذا في أدلة ثبوت صفات الكمال لمعطي الكمال هي من أظهر الأشياء وأوضحها ، وقد أنكرها من أنكرها .

ولا يستنكر هذا ؛ فإنك تجد الرجل منغمسًا في النعم ، وقد أحاطت به من كل جانب وهو يشتكي حاله ويتسخط مما هو فيه ، وربما أنكر النعمة ، فضلال النفوس وغيها لا حدَّ له تنتهى إليه .

فسبحان الله ! كيف يستجيز أحد أن يظن برب العالمين وأحكم الحاكمين أن يعذب كثيرًا من خلقه أشد العذاب لغير غاية ولا حكمة ولا سبب ، وإنما محض مشيئة مجردة عن الحكمة والسبب ، فلا سبب هناك ولا حكمة ولا غاية ، وهل هذا إلا من أسوأ الظن برب العالمين ؟ وكيف يستجيز أن يظن بربه أنه أمر ونهى ، وأباح وحرم ، وأحبَّ وكره ، وشرع الشرائع ، وأمر بالحدود ، لا لحكمةٍ ولا لمصلحة يقصدها ؟ فأيُّ حكمة تكون في هذه الشريعة ؟!

وكيف يكون المبعوث بها رحمة مهداة للعالمين لو كان الأمر كما يقول الجبرية النفاة الغلاة ؟ وهل يكون الأمر والنهي إلا عقوبة وعبثًا؟! تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

ولو ذهبنا نذكر ما يطلع عليه أمثالنا من حكمة الله في خلقه وأمره ، لزاد ذلك عن عشرة آلاف موضع ، مع قصور أذهاننا ، ونقص عقولنا ومعارفنا ، وتلاشيها وتلاشي علوم الخلائق جميعهم في علم الله ؛ كتلاشي ضوء السراج في عين الشمس ، وهذا تقريب ، وإلا فالأمر فوق كل ذلك .

بعد هذه المقدمة نجيب ـ والكلام لابن القيم ـ [1] لماذا خلق الله إبليس ؟

---

(١) انظر : «شفاء العليل» (ص٥١١) وما بعدها بتصرف يسير إلى (ص٥٢٠) ، ط دار الحديث.

وما هو الخير ؟ وأين الحكمة في خلق الله ﷻ له ؟!

والجواب؛ كما قال ابن القيم : في ذلك من الحكم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله ؛ فمنها أن يكمل الله ﷻ لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية ، بمجاهدة الشيطان وحزبه، ومخالفته ،ومراغمته ، وإغاظته ، وإغاظة أوليائه ، والاستعاذة به سبحانه من الشيطان ، والإلجاء إليه سبحانه أن يعيذهم من شرِّه وكيده فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لا يمكن أن يحصل لهم بدون خلق الله له .

ومنها ـ أي من الحكم ـ خوف الملائكة المقربين والمؤمنين من ذنوبهم بعد ما شاهدوا من حال إبليس . وكيف طرد من رحمة الله تعالى لذنبه ؟ فكيف يأمن الملائكة المقربون بعد ذلك ؟ وكيف يأمن المؤمنون الصادقون بعد ذلك ؟ إن كان قد طرد إبليس من رحمته بذنب ! كيف يعجب بعد ذلك عالمٌ بعلمه أو عاملٌ بعمله ؟

فستظل هذه العبودية ملازمة للملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين والمؤمنين الصادقين لخوفهم من رب العالمين ؛ لأنه طرد إبليس من رحمته بذنب وقع فيه ، فالملائكة المقربون إذا ما أمر الله إسرافيل بالنفخ في الصور ؛ ووضع الميزان! قالوا : «سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»[1] .

مع أنهم لم يخالفوا الله في أمر ؛ كما قال الله ﷻ في شأنهم :﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦] .

---

(١) كما عند الحاكم في «مستدركه» (٤/ ٥٨٦) بسندٍ فيه نظر من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « يوضع الميزان يوم القيامة ، فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعت ، فتقول الملائكة: يارب لمن يزن هذا ؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي ، فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك» ، ورواه الآجريُّ في «الشريعة» (٣٨٢) موقوفًا على سلمان ، وإسناده صحيح وله حكم الرفع . انظر: «الصحيحة» (٩٤١) .

قال النبيُّ ﷺ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لله»[1].

فهذا جبريل رآه النبيُّ ﷺ كالحلس البالي من شدة خوفه من الكبير المتعال وهو أمين وحي السماء .. وهكذا؛ فالملائكة المقربون لما رأوا وشاهدوا ما كان مع إبليس ازدادوا خوفًا ووجلاً، فكيف تستخرج العبودية إلا بمثل هذا الابتلاء والتمحيص؟ والأنبياء والمرسلون وهم أعرف الناس بالله ازدادوا خوفًا ووجلاً من رب العالمين، والمؤمنون الصادقون لا يغتر واحد منهم بعلمه ولا بعمله؛ بل يظل دائما على خوف ووجل؛ لأنه لا يأمن مكر الله!

قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[الأعراف:٩٩].

والنبي ﷺ يقول ـ كما في «صحيح البخاري»[2]: لما مات عثمان بن مظعون ﷺ وهو أول من لُقِّبَ بالسلف الصالح ـ رضوان الله عليه ـ وهو ممن شهد بدرًا، ولما مات قَبَّلَهُ النبيُّ ﷺ وبكى حتى سالت دموع النبيِّ ﷺ على خد عثمان ﷺ[3] لما مات ـ أي: عثمان بن مظعون ـ قالت امرأة من

---

(١) أخرجه الترمذي في «كتاب الزهد»، باب في قول النبيِّ ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا» رقم (٢٣١٢)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء رقم (٤١٩٠)، وأحمد في «المسند» (٥/ ١٧٣)، وصححه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥١٠) وسكت عنه الذهبي.

قلت: في إسناده إبراهيم بن مهاجر؛ قال يحيى بن سعيد: «لم يكن بالقوي»، وقال أحمد: «لا بأس به»، وقال ابن عدي: «يكتب حديثه في الضعفاء» كما في «الميزان». وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٧٢٢) و (٨٥٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب الجنائز باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه رقم (١٢٤٣)، وانظر أطرافه هناك.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز، باب في تقبيل الميت رقم (٣١٦٣)، والترمذي في كتاب الجنائز، باب تقبيل الميت رقم (٩٨٩)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه في كتاب الجنائز، باب تقبيل الميت رقم (١٤٥٦) من حديث عائشة. ولفظه: «رأيت رسول الله ﷺ يقبل عثمان ابن مظعون وهو ميت، حتى رأيت الدموع تسيل».

الأنصار وهي: أم العلاء : رَحِمَكَ الله أَبا السَّائِبِ ، شَهَادَتِي عَلَيْكَ فَلَقَدْ أَكْرَمَكَ الله . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ الله أَكْرَمَهُ؟» . قُلْتُ : لَا أَدْرِي ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله ، فَمَنْ؟ ـ يعني من هذا الذي سيكرمه الله إن لم يكن عثمان بن مظعون ـ فقال النبيُّ ﷺ : « أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ، وَالله إِنِّي رَسُولُ الله ، وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ » .

وجاء رجل إلى عائشة رضي الله عنها فقال : يا أم المؤمنين ، ما تقولين في قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:٣٢] ؟ فقالت عائشة : «أما السابق بالخيرات فقوم سبقوا وشهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة ، وأما المقتصد فقوم صاروا على أثره ، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك »[١] .

رواه الطيالسي والحاكم بسندٍ ضعيف.

وسألت عائشة رسول الله ﷺ في قوله سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون:٦٠] قالت عائشة : يا رسول الله ، أَهُوَ الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ؟ قال : « لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ »[٢] .

إذًا فخوف الملائكة وخوف المؤمنون بعد معاقبة الله لإبليس على ذنبه أعلى

(١) أخرجه الطيالسي (١٤٨٩) ، والطبراني في «الأوسط» رقم (٦٠٩٤) ، والحاكم (٢/ ٤٢٦، ٤٢٧) وزاد نسبته السيوطي في «الدر المنثور» إلى عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٦، ٩٧) ، وقال : «وفيه الصلت بن دينار وهو متروك» .

(٢) أخرجه الترمذيُّ في كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة «المؤمنون» رقم (٣١٧٥) ، وابن ماجه في كتاب الزهد ، باب التوقي على العمل رقم (٤١٩٨) ، وأحمد في «المسند» (٦/ ١٥٩ ، ٢٠٥) ، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٩٣، ٣٩٤) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ، وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (١٦٢) .

وأجل من خوفهم قبل أن يروا أخذ الله ، ومعاقبته لإبليس على ذنبه، كما هو الشاهد حينما يرى العبيد الملك يهين عبدًا منهم إهانة بالغة تبلغ منه كل مبلغ ، لا شك أن خوفهم بعد ذلك على خطئهم سيكون أشد قبل رؤيتهم لإهانة هذا الملك لهذا العبد على ذنبه وخطئه .

ومنها :أي من حكم خلق الله لإبليس: أنه تبارك وتعالى جعله عبرة لمن خالف أمره وتكبر على طاعته وأصر على معصيته ، كما جعل ذنب أبي البشر آدم عليه السلام عبرة لمن ارتكب نهيه أو عصى أمره ثم تاب وندم ورجع إلى ربه ، فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب، وجعل إبليس عبرة لمن أصر، وأقام على الذنب ، وجعل آدم عبرة لمن تاب ورجع إلى ربه ، فلله في هذا من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة .

ومنها :أي من هذه الحكم أيضًا : أن الله تبارك وتعالى قد جعل إبليس محكًّا امتحن به خلقه ، ليتبين به خبيثهم وطيبهم .

وقد يقول قائلٌ : ذكرت قبل ذلك مراتب القدر . وقلْتَ : إن المرتبة الأولى هي : مرتبة العلم ، وأن الله يعلم ما هو كائن وما سيكون ؛ فكيف تقول : أن الله جعل إبليس محكًّا؟

والجواب :أن الله قد خلق إبليس ليجعله محكًّا ليعلم به الخبيث من الطيب ؟

واعلم أن الله سبحانه وتعالى لا يبتلي خلقه وعباده ليعلم الخبيث من الطيب ! فالله علم الخبيث والطيب أزلاً قبل أن يخلق الخبثاء والطيبين ، لكنه الممتحن ، ليميز الخبيث من الطيب من الناس في الدنيا .. ليمحص الصف ، وليجازي العباد وفق أعمالهم لا بمقتضى علمه فيهم ؛ قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[آل عمران:١٧٩] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ

حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٢] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢١٤] ، وقال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٢ ، ٣] .

ومنها : أي من الحكم : أن يُظهر الله ﷻ كمال قدرته لخلقه؛ فالله ﷻ خلق جبريل وجعله رسولًا للأنبياء ؛ فهو أمين وحي السماء الذي به حياة الأرواح ، وخلق ميكائيل ، وجعله على الأرزاق والأمطار التي بها حياة الأبدان ، وخلق إسرافيل ، ووكله بالصور الذي ينفخ فيه بأمر الله ، لتحيا الأبدان مرة أخرى ، ففيه حياة الأبدان بعد إماتة الله لها يوم القيامة ، وخلق سائر الملائكة ، وخلق إبليس والشياطين ؛ وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه ، فإنه خالق الأضداد كالسماء والأرض ، والضياء والظلام ، والجنة والنار، والماء والنار ، والحر والبرد ، والطيب والخبيث ، والضد إنما يظهر حسنه بضده ؛ فلولا القبيح لم نعرف فضيلة الجميل ، ولولا الفقر لم نعرف قدر الغنى .

وأضرب مثالاً آخر : خلق الله ﷻ آدم من غير أب ومن غير أم ، وخلق حواء من أب دون أم ، وخلق عيسى من أم دون أب ، وخلق سائر البشر من أب وأم ؛ لنعلم أن الله على كل شيء قدير ، إن شاء أن يخلق بغير أب وبغير أم خلق ، وإن شاء أن يخلق من أب دون أم خلق ، وإن شاء من أم دون أب خلق ، وإن شاء أن يخلق من أب وأم خلق ؛ فالله سبحانه وتعالى يخلق الأضداد ليظهر كمال قدرته ومشيئته تبارك وتعالى .

ومنها : أنه سبحانه وتعالى يحب أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه، ولا ريب أن أولياءه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده وامتحانهم به من أنواع شكره ما لم يكن يحصل لهم بدونه ؛ فكم بين شكر آدم وهو في الجنة قبل أن يخرج منها ، وبين شكره بعد أن ابتلي بعدوه ثم اجتباه ربه وتاب عليه وقبله .

سبحان من خلق الخلق بحكمته وعدله ؛ فما من شيء في الكون صغر أو كبر علمناه أو جهلناه ، رأيناه أم غاب عنا ، إلا وهو مخلوق لله بعدل وحكمة .

ومنها : أن المحبة ، والإنابة ، والتوكل ، والصبر ، والرضا إلى غير ذلك من هذه المعاني هي أحبُّ العبودية إلى الله سبحانه وتعالى ، وهذه العبودية لا تتحقق إلا بالجهاد ، وبذل النفس لله ، وتقديم محبته سبحانه على كل ما سواه ؛ فالجهاد بكل ما تحمله الكلمة من معنى هو ذروة سنام العبودية ، وأحبها إلى الرب سبحانه ، فكان في خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التي لا يحصي حِكَمها وفوائدها وما فيها من المصالح إلا الله .

لو لم يخلق الله ﷻ إبليس ؛ فكيف تحقق مرتبة العبودية بجهادك لنفسك ولهواك وللشيطان ؟!

ومنها : أن من أسماء الله : الحكيم ، والحكمة من صفاته سبحانه وتعالى ، وحكمته تستلزم وضع كل شيء في موضعه [1] الذي يليق به ، فاقتضت حكمته خلق المتضادات ، وتخصيص كل واحد منها بما لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص .

---

(١) يقول ابن القيم رحمه الله في «المدارج»: «الحكمة : هي فعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي ، وأركانها : العلم والحلم والأناة ، وآفاتها وأضدادها ومعاول هدمها : الجهل والطيش والعجلة». هذا تعريف الحكمة بين البشر . فما ظنك بحكمة رب البشر ما ظنك بحكمة من أودع الحكمة الحكماء !! «مدارج السالكين» (٢/ ٤٨٠) ، ط دار الفكر العربي .

يعني : من حكمته تبارك وتعالى أن يودع البشر صفات لم يودعها ربنا تبارك وتعالى في الخنزير أو في البهائم ؛ فالحكمة تقتضي أن يضع كل شيء موضعه ، وأن يضع لكلِّ شيء صفاته وأحكامه التي لا تليق إلا به هو ، لا تليق في الوقت ذاته بغيره ؛ فهو محمود على عدله ومنعه وخفضه .

ومنها : أن حمده سبحانه تام كامل من جميع الوجوه ، فهو محمود على عدله ومنعه وخفضه وانتقامه وإهانته ، كما هو محمود على فضله وعطائه ورفعه وإكرامه ، فلله الحمد التام الكامل على هذا وهذا ، وهو يحمد نفسه على ذلك كله ، ويحمده عليه ملائكته ورسله وأولياؤه ، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم ، وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه فله في خلقه وإيجاده الحكمة التامة ، كَمَا لَهُ عليه الحمد التام [(١)] ؛ فتبارك الله ربُّ العالمين ، وأحكم الحاكمين ، ذو الحكمة البالغة ، والنعمة السابغة، الذي وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته !!

وما ذكرنا من هذه الحكم قطرة من بحر ، وإلا فعقول البشر أعجز وأضعف وأقصر من أن تحيط بكمال الله وحكمته في خلقه لكلِّ شيء [(٢)] ، فإن كان الله تبارك وتعالى قد خلق إبليس لهذه الحكم التي وقفنا على بعضها ، فلا شك أن خلق الله لغير إبليس ـ وهو رأس الشر ـ لحكم كثيرة من باب أولى وأولى ، فالله تبارك وتعالى لم يُطْلع خلقه إلا على بعض الحكم ، وهكذا .

فالاحتجاج من الجبرية بالقدر احتجاج باطل مردود ، لا ينبغي أن يحتج به الكفار ولا العصاة.. لا ينبغي أن يحتج بالقدر الكفار على كفرهم وشركهم ، ولا

---

(١) انظر : «شفاء العليل» (ص٥١٤) .

(٢) «شفاء العليل».(٢٣٩) ، ط الفكر .

العصاة على معاصيهم وذنوبهم ؛ لأن الله تبارك وتعالى قد أبطل حججهم ، يقول سبحانه وهو يردُّ على المشركين الذين احتجوا بالقدر على شركهم : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام:١٤٨، ١٤٩] ؛ فهذا جواب من رب العزَّة صريح لمن يحتج بالقدر على الشرك أو حتى على المعاصي ولله الحجة البالغة ، وجوابه سبحانه للمحتجين بالقدر واضح كل الوضوح ؛ لأنه مبنيٌّ على أمرين عظيمين جليلين :

الأول : أن الله ﷻ أذاق الكافرين بأسه ، وأنزل بهم عقابه ، ولو لم يكونوا مختارين لِـمَا ارتكبوه من الكفر والجرائم والمعاصي لَمَا عذبهم الله ؛ لأن الله عَدْلٌ ولا يظلم أحدًا .

فالظلم هو : وضع الشيء في غير موضعه ، وهذا نقص في حق فاعله ، ويقال له : ظالم ، فهل ينسب النقص إلى رب العباد ؟! فالله مُنَزَّهٌ عن كلِّ نقص وعيب جلَّ وتبارك وتعالى وتنزَّه وتقدس. هذا هو الأمر الأول .

فالذي يحتج بالقدر على الكفر وعلى المعصية واحد من اثنين :

إما أن يكون مؤمنًا بالله تبارك وتعالى ، وإما أن يكون منكرًا لوجود الله أصلاً أو كافرًا ؛ فإن كان مؤمنًا بالله تبارك وتعالى مؤمنًا بأسمائه الحسنى وصفاته العلا لزمه أن يعتقد اعتقادًا جازمًا أن الله عدل ومنزه عن الظلم . هذا هو المؤمن ؛ لأن الظلم نقص لا يليق به ، والله سبحانه وتعالى لا يعتريه نقص بحال ، ولا شك أن عقاب المكره على الفعل ظلم، فلو أكرهتني على فعل شيء ثم عاقبتني على فعل نفس الشيء ، فهذا ظلم ، والله تبارك وتعالى منزه عن الظلم .

أما الصنف الثاني : أن يكون كافرًا منكرًا لله تبارك وتعالى ، وهذا لا ينبغي له أن يجادل في القدر أو أن يماحك بالقدر ؛ بل يجب عليه أصلاً أن يناقش الأصل الأول وهو الإيمان من عدمه ، فالإيمان بالقدر ركنٌ من أركان الإيمان بالله سبحانه وتعالى . هذا هو الأمر الأول .

الأمر الثاني : وهو أمر مهمٌ جدًا أن المحتج بالقدر على الشرك والمعاصي مُتَقَوِّلٌ على الله بغير علم ؛ إذ كيف يصح للكافر أو العاصي أن يحتج بأن الله كتب عليه الكفر أو المعصية قبل صدور ذلك منه قبل كفره ومعصيته ، وَقَدَرُ الله غيب لا يعلمه إلا الله ، مع أن هذا العبد الكافر أو العاصي مخاطب قبل كفره بالإيمان ، وقبل معصيته بعدم الوقوع في المعصية ، أو بعبارة أخرى أقرب : كيف يصح لرجل أن يقول : كتب عليَّ ربي أن أسرق فأنا ذاهب لتنفيذ قدره ؟ فهل اطلع على اللوح المحفوظ فقرأ ما فيه حتى يعلم ما كتب الله عليه في وقت كان فيه مخاطبًا بالامتناع عن السرقة ؟!

فهو قبل أن يسرق مخاطب من الله بعدم السرقة ، ثم هو مخاطب من الله تبارك وتعالى بعد السرقة بالتوبة ، وبمثل هذه الحجة يقول ربنا تبارك وتعالى ردًا على المتذرعين بالقدر في الوقوع في المعاصي : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَـٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [الأعراف:٢٨] ، ثم يقول سبحانه : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ هذا تَقَوُّلٌ على الله بغير علم .

فالقول الفصل في هذه المسألة: أن الله ﷻ أمر المكلفين ونهاهم ، وحدَّ لهم حدودًا ، ومقتضى العبودية أن يمتثلوا الأمر ، وأن يجتنبوا النهي ، وأن يقفوا عند الحدِّ . هذا ما كلفهم وتعبدهم به ربهم جلَّ وعلا ، ولم يكلفهم سبحانه وتعالى أن يعلموا الغيب والمشيئة وما قضاه الله وقدره ، ليكيِّفوا أنفسهم وظروفهم على قَدَرِهِ ومشيئته ؛ بل ما عليهم إلا أن يطيعوا وهم في غاية الحب لله ،

والرضا عن الله ، وهو سبحانه وتعالى يعينهم ، ويهديهم ، ويشرح صدورهم ، وهذا حسبهم ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩] ؛ فاعلم بأنك مطالب قبل الفعل وبعد الفعل بطاعة الله وعدم معصيته ، فإن أطعت الله فعليك شكره ؛ إذ هداك ووفقك ، وإن عصيت الله ، فالواجب عليك أن تتوب وأن ترجع إليه وأنت في غاية الحب لله والرضا عن الله والبغض ـ في الوقت ذاته ـ للمعصية والذنب ، وأنت على يقين مطلق في عدل الله وحكمته ؛ فالله تبارك وتعالى يحب الإيمان والطاعات ويكره الكفر والمعاصي ؛ فواجب عليك أن تدور في هذا الفلك أن تحب ما أحبه الله ورسوله وأن تبغض ما أبغضه الله ورسوله ؛ فالله يحب الإيمان ولا يرضى الكفر لعباده ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ ﴾ [الزمر:٧] .

*****

الاحتجاج بالقدر على ترك العمل

إنَّ شبهة الاحتجاج بالقدر على ترك العمل شبهة قديمة حديثة ؛ فهؤلاء الذين ضلُّوا في هذا الباب يحتجون بالقدر قبل العمل وبعد العمل ؛ فهم يحتجون بالقدر قبل وقوعه على ترك الأعمال بدعوى : أن الإيمان بالقدر لا يحتاج معه العبد إلى العمل والأخذ بالأسباب ؛ لأن ما قدره الله تبارك وتعالى له سيأتيه لا محالة ، حتى وإن لم يفعل الإنسان شيئًا ويأخذ بالأسباب ، ويحتجون بالقدر على ما يرتكبونه من الآثام والمعاصي والذنوب ، كالزنا ، وشرب الخمر ، والكفر ، وغير ذلك بدعوى أن كل ما خلقه الله تبارك وتعالى فقد أراده ورضيه وأحبه الله ﷻ .. بهذه الدعوى يحب الكفر ، ويحب الزنا ، ويحب شرب الخمر !! إلى آخر ذلك . تعالى الله عما يقول هؤلاء الضُّلَّال علوًّا كبيرا .

ولا شك أن هذه العقيدة الفاسدة الباطلة المنحرفة قد أضلت عقولاً كثيرة ، وعطلت الطاقات والإمكانات في الأمة ، وشكلت هذه العقيدة المنحرفة شللاً وتعطيلاً لكثير من القدرات والإمكانات في المجتمع الإسلامي لهؤلاء الذين تركوا العمل ، بدعوى أن الإيمان بالقدر لا يحتاج العبد معه إلى أيِّ عمل ، أو إلى أيِّ أخذ بالأسباب !

لقد أثبتوا بهذه العقيدة الفاسدة ـ كما ذكرت ـ أن الله تعالى قد أحب الكفر ، والشرك ، والقتل ، والزنا ، والسرقة ، وعقوق الوالدين ، وغير ذلك من المعاصي والذنوب بدعوى : أن كل شيء خلقه الله يرضاه ويحبه ، وهذا فهم باطل ـ كما سأبين ـ إن شاء الله تعالى .

وقد بيَّنت أن من آثار هذه العقيدة المنحرفة أن أصحابها تركوا الأعمال الصالحة التي توصلهم إلى الجنة وتنجيهم من النار ، وارتكبوا الكثير من

الموبقات بدعوى أن القدر آت آت ، وأن كل ما قدره الله للعبد سيصيبه ، إذًا لماذا العمل ؟ ولماذا التعب ؟ ولماذا النصب ؟!

رضي كثير من هؤلاء أن يفهموا من باب القدر ما يوافق عقولهم الضالة في الوقت الذي أنكر فيه هؤلاء ما يحتج به عليهم في هذا الباب من خلال قولهم هم ؛ فهم يحتجون بالقدر إن وقع أحدهم في الظلم وفي الذنب ، يقول : هذا قدر الله ! فإن وقع عليه ظلم من غيره يرفض أن يقال له : هذا قدر الله ! ويحتج بالظلم لذاته إذا زنى ، أو سرق ، أو شرب الخمر ، أو ظلم ، يقول : هذا قدر ، وإن ظُلم وأُخذ ماله يرفض البتة أن يقال : هذا قدر !!!

هذا الفهم الباطل بُني على فهم سقيم ، وضربٍ لكتاب الله تبارك وتعالى ببعضه البعض ، وضربٍ لأحاديث النبيِّ ﷺ ببعضها البعض. إذًا هذا التأصيل الفاسد لابد وأن تترتب عليه هذه النتائج الفاسدة .

وتعرَّض شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا الفريق الضال في هذا الباب ، وبيَّن انحراف معتقدهم الفاسد في « كتاب القدر » في المجلد الثامن من « مجموع الفتاوى » ؛ حيث قال : « هؤلاء رَأَوْا أن الله خالق المخلوقات كلها ؛ فهو خالق أفعال العباد ومريد الكائنات ، ولم يميزوا بعد ذلك بين إيمان وكفر ، ولا عرفان ولا نكران ، ولا حق ولا باطل ، ولا مهتد ولا ضال ، ولا راشد ولا غوي ، ولا نبي ولا متنبئ ، ولا ولي لله ولا عدو ، ولا مُرْضٍ لله ولا مسخوط ، ولا محبوب لله ولا ممقوت ، ولا بين العدل والظلم ، ولا بين البر والعقوق ، ولا بين أعمال أهل الجنة وأعمال أهل النار ، ولا بين الأبرار والفجار ، حيث شهدوا ما تجتمع فيه الكائنات من القضاء السابق والمشيئة النافذة والقدرة الشاملة ، والخلق العام ، فشهدوا المشترك بين المخلوقات ، وعموا عن الفارق بينهما »[1] .

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٩، ٦٠) .

فهؤلاء كالأعور إذ رأى جانبًا من جانبي الحقيقة وعمي عن الجانب الآخر !!!

وقال أيضًا شيخ الإسلام رحمه الله : « فمن أثبت القدر واحتج به على إبطال الأمر والنهي فهو شرٌّ ممن أثبت الأمر والنهي ولم يثبت القدر ، وهذا متفق عليه بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل ، بل بين جميع الخلق ، فإن من احتج بالقدر وشهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات ، ولم يفرق بين المأمور والمحظور ، والمؤمنين والكفار ، وبين أهل الطاعة وأهل المعصية ، لم يؤمن بأحد من الرسل ، ولا بشيء من الكتب ، وكان عنده آدم وإبليس سواء ، ونوح وقومه سواء ، وموسى وفرعون سواء ، والسابقون الأولون والكفار سواء» [(١)] .

وقال أيضًا رحمه الله : « من يقرُّ بتقدم علم الله وكتابه ، ولكن يزعم أن ذلك يغني عن الأمر والنهي والعمل ، وأنه لا يحتاج إلى العمل ؛ بل من قضى له بالسعادة دخل الجنة بلا عمل أصلاً ، ومن قضى له بالشقاوة دخل النار بلا عمل أصلاً . قال : فهؤلاء أكفر من هؤلاء – يعني : من المكذبين بالقدر – وأضلُّ سبيلًا ، ومضمون قول هؤلاء : تعطيل الأمر والنهي ، والحلال والحرام ، والوعد والوعيد ، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى » [(٢)] .

وقال أيضًا : « هؤلاء القوم إذا أصروا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى ؛ فإن اليهود والنصارى يؤمنون بالأمر وبالنهي ، والوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، لكنهم حرفوا وبدلوا وآمنوا ببعض وكفروا ببعض » [(٣)] .

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٠٠) .
(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٨٨) .
(٣) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٦٢) .

فلا يجوز لأحد أبدًا أن يحتج بالقدر على إبطال الأمر والنهي بدعوى أنَّ ما سيقدره الله سيكون .. هذا حق ، لكن من أيِّ جانب فَهِم هذا الذي يزعم الإيمان بالقدر أنه يحل له أن يبطل الدين كله ، فلا أمر ولا نهي ، ولا وعد ولا وعيد .. من أين له هذا الفهم ؟! هذا يدل على أن سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة ، نعوذ بالله من الخذلان ؛ حتى قال بعضهم :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنونٌ منك أن تسعى لرزق ويُرْزق في غيابته الجنين

تدبر معي هذا التأصيل المهم لأهل السنة من المحققين من علماء السلف ، لقد غاب عن هؤلاء الذين احتجوا بالقدر على نفي الأمر والنهي ، والوعد والوعيد : أن الله تبارك وتعالى كما قدر المسببات قدَّر الأسباب ؛ فالسبب من القدر ، وكما قدر النتائج فقد قدر لهذه النتائج مقدمات لا يمكن أبدًا أن تتحقق هذه النتائج بدونها .

فما من شيء في الدنيا إلا بسبب ، والله تعالى خالق الأسباب والمسببات .

وجيء برجل لعمر بن الخطاب ليقيم عليه الحد ؛ لارتكابه كبيرة من الكبائر ، فلما أقام عمر رضي الله عنه عليه الحد احتج هذا الغبيُّ بالقدر ؛ فقال : هذا أمر قدره الله تعالى عليَّ ، فأنا ما ارتكبت هذا الذنب إلا بقدر ، فرد عليه الفاهم لمراد الله ورسوله ـ عمر ـ وقال : وأنا أقيم عليك الحد بقدر !!

هذا هو الفهم الصحيح ؛ فلا ينبغي أن تحتج بالقدر على تعطيل الأمر والنهي ، وتعطيل الوعد والوعيد ، ولقد غاب عن هؤلاء أن الله قد خلق الأسباب والمسببات ؛ فالأسباب قدر ، والمسببات قدر ، والنتائج قدر ، والمقدمات لهذه النتائج قدر ، فكلٌّ بقدر .

نصر الأمة مثلاً : من زعم أن الله تعالى قدَّر هذه النتيجة ، ألا وهي : نصر الأمة بدون سبب ، أي : بدون امتثال الأمة للأمر والنهي ، وبدون تحقيق الأمة لشروط النصر ا من زعم ذلك ؛ فقد أعظم الافتراء على ربِّ الأرض والسماء ؛ فإن الله تعالى خلق الكون ، وأودع الكون أسبابًا .. هذه الأسباب والسنن لا تحابي أحدًا من الخلق بحال ؛ فمن أخذ بالأسباب أعطته هذه الأسباب نتائجها ، ومن بَذَل المقدمات أعطته هذه المقدمات نتائجها ، والله تبارك وتعالى هو خالق الأسباب والمسببات ، وهو خالق المقدمات والنتائج .

فإذا قدر الله ﷻ أن يرزق فلانًا من الناس ، فقد قدر الله تعالى في الوقت ذاته لهذا الرزق أسبابًا ؛ فمَنْ ادَّعى بعد ذلك أنه لا حاجة له إلى طلب الرزق ، وأن ما قدَّر الله ﷻ له من رزق سيأتيه سَعَى أو لَمْ يَسْعَ ، هذا لم يفقه قدر الله في عباده ، ولم يفهم مراد الله ولا مراد رسوله ﷺ ، وهل هناك عاقل على وجه الأرض إذا عطش وتألم من العطش وأحضر له الماء ووضع بين يديه يقول : العطش بقدر ، ولن أشرب ما دام الله قدَّر عليَّ العطش ؟! هل يقول هذا عاقل دون أن يمد يده لكأس الماء ليأخذ بالسبب ؟!

إذًا لابد أن نعلم أن الله قدر المسبب والسبب ، وقدَّر النتائج والمقدمات ، فإذا قدر الله سبحانه أن يرزق فلانًا ولدًا فإنه سبحانه وتعالى يقدِّر له في الوقت ذاته أن يتزوج ، وأن يعاشر امرأته ، ويقدر له سبحانه وتعالى الولد ؛ فالأسباب أيضًا من قدر الله .. قدَّر في الأزل أن فلانًا سيصاب بمصيبة ، وقدر له في الأزل أنه سيدعو دعاء يقبله الله منه ، فيرفع بهذا الدعاء هذا البلاء ، وكلاهما قَدَر ؛ فلو فهمنا هذا الفهم زالت إشكالات كثيرة .

نسأل الله أن يرزقنا فهمَ النبيِّ ﷺ وفهم أصحابه ؛ إنه على كل شيء قدير .

وهكذا ؛ فمن ادَّعى أن المسببات تقع من غير أسباب !! فلم يعرف قدر

الله تعالى، ولم يفقه دين الله ﷻ، وهو كمَنْ يزعم بأن الولد يأتي من غير سبب، وأن الزرع يحصل من غير ماء ولا تراب ولا بذر، وأن الشبع يحدث بغير طعام، وأن الرِّيَّ يحدث من غير تناول شراب !!

فإن قال قائل: إن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم ـ من غير سبب ـ وخلق عيسى من أم دون أب بغير سبب؛ فهذا أيضًا قدر الله سبحانه وتعالى؛ ليبين للخلق كمال قدرته وتمام مشيئته في أنه لو أراد، كان ما أراد، ولو بدون سبب حتى لا نضرب النصوص بعضها ببعض.

فالله قادر، وهذه هي الإرادة الكونية؛ فما أراده الله كان وما لم يُرِدْ لم يكن، فالله سبحانه وتعالى يظهر كمال قدرته؛ بل وطلاقة قدرته، وتمام مشيئته سبحانه، خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من أب دون أم، وخلق عيسى من أم دون أب، وخلق سائر الخلق من أب وأم؛ ليعلم الخلق جميعًا أنه على كل شيء قدير، إن شاء أن يخلق من غير أب خلق، وإن شاء أن يخلق من غير أم خلق، وإن شاء أن يخلق، من أم وأب خلق، فله تمام المشيئة وتمام القدرة، إنه على كل شيء قدير. : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

ونصوص القرآن والسنة كثيرة في هذا الباب .. تدبر معي قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة:١٠].

فلو لم يكن الأخذ بالأسباب مأمورًا به من قِبَل خَالِقِ الأسباب والمسببات؛ ما كان لهذه الآيات في كتاب الله معنى على الإطلاق، والله سبحانه وتعالى يأمر بأمر لا معنى له، وجَلَّ وتبارك أن يخلق خلقًا بلا حكمة، وجَلَّ وتبارك أن يأمر بلا مصلحة؛ قال سبحانه: ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك:١٥]؛

وقال سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال:٦٠] ، وقال سبحانه : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة:١٩٧] ، وقال سبحانه : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠] ، وقال سبحانه : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا ﴾ [الأعراف:١٢٨] .. آيات كثيرة يأمر الله سبحانه وتعالى فيها باتخاذ الأسباب الشرعية التي تؤدي إلى رضوانه ومرضاته وجنته ؛ بل وإلى السعادة في الدنيا والآخرة .

فالأخذ بالأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر ، فالأسباب من قدر الله ﷻ .

روى الترمذيُّ وابن ماجه وأحمد وغيرهم بسندٍ ضعيف[1] من حديث أَبِي خِزَامَةَ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ : أَرَأَيْتَ أَدْوِيَةً نَتَدَاوَى بِهَا وَرُقًى نَسْتَرْقِي بِهَا ، وَتُقًى نَتَّقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ الله شَيْئًا ؟ قَالَ : « هِيَ مِنْ قَدَرِ الله » .

وأصح منه ما في «الصحيحين»[2] عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه خَرَجَ إِلَى الشَّامِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ لَقِيَهُ أَهْلُ الْأَجْنَادِ : أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَقَالَ عُمَرُ : ادْعُ لِي الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، فَدَعَوْتُهُمْ ، فَاسْتَشَارَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ فَاخْتَلَفُوا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ وَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب القدر ، باب ما جاء لا تَرُدُّ الرقى ولا الدواء من قدر الله شيئًا (٢١٤٨) ، وابن ماجه في كتاب الطب ، باب ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء (٣٤٣٧) ، وأحمد (٣/ ٤٢١) ، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ٣٤٩) وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الترمذي وابن ماجه» .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب الطب ، باب ما يذكر في الطاعون (٥٧٢٩) وانظر طرفيه هناك ، ومسلم في كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٢٢١٩) .

رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَلَا نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ ، فَقَالَ : ارْتَفِعُوا عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : ادْعُ لِي الْأَنْصَارَ ، فَدَعَوْتُهُمْ لَهُ ، فَاسْتَشَارَهُمْ فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ ، فَقَالَ : ارْتَفِعُوا عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَاهُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ ، فَدَعَوْتُهُمْ ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْهِ رَجُلَانِ فَقَالُوا : نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلَا تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ ، فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ : إِنِّي مُصْبِحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ : أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ـ وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُ خِلَافَهُ : نَعَمْ ، نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَتْ لَكَ إِبِلٌ ، فَهَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ ، إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ ، قَالَ : فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ عَوْفٍ وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ ، فَقَالَ : إِنَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا عِلْمًا ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ » قَالَ : فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ثُمَّ انْصَرَفَ .

ففي الحديث يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ » أي : نفر من هذه الأرض التي حلَّ بها الوباء ونذهب إلى غيرها أخذًا بالأسباب ، وهي بقدر الله ـ تبارك وتعالى .

والمؤمن يعتقد اعتقادًا جازمًا أنه لا عدوى ، وأن أمر المرض والشفاء كله من عند الله ، وأنه لا عدوى مؤثرة بذاتها ، ومع ذلك يفر من المجذوم فراره من الأسد ؛ كما أخبر النبيُّ ﷺ ؛ ففي البخاريِّ ومسلم [1] من حديث أبي

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الطب ، باب لا صفر ، وهو داء يأخذ البطن (٥٧١٧) وانظر: (٥٧٠٧) ، ومسلم في كتاب السلام ، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « لَا عَدْوَى ، وَلَا صَفَرَ ، وَلَا هَامَةَ » ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : يَا رَسُولَ الله ، فَمَا بَالُ الْإِبِلِ تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ فَيَجِيءُ الْبَعِيرُ الْأَجْرَبُ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيُجْرِبُهَا كُلَّهَا ؟ قَالَ : « فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّلَ؟ » .

فهذا في الاعتقاد .. أما في باب العمل ؛ فقد قال ﷺ : « وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ » (١) .

وقال ﷺ : «لَا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ » (٢).

وإنبات الثمر مقدر بإذن الله ، ومع ذلك لابد من رعاية الزرع والاهتمام به ، وفعل ما يصلحه حتى يثمر إن شاء الله أخذًا بالسبب.

ففي «صحيح مسلم» (٣) من حديث مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بِقَوْمٍ عَلَى رُؤُوسِ النَّخْلِ؛ فَقَالَ : «مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ ؟» فَقَالُوا : يُلَقِّحُونَهُ يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَيَلْقَحُ ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا» قَالَ : فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ ؛ فَأُخْبِرَ رَسُولُ الله ﷺ بِذَلِكَ ؛ فَقَالَ : « إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ ، فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا ، فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ الله شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ ، فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى الله عز وجل » .

وَحَيَاةُ النبيِّ ﷺ وحياة أصحابه إنما هي ترجمة عملية لهذا الفهم الرائق الراقي الصحيح في باب القدر ، في وجوب الأخذ بالأسباب ، ووجوب

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الطب ، باب لا عدوى (٥٧٧٤) ، ومسلم في كتاب السلام ، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر (٢٢٢١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب الطب ، باب الجذام (٥٧٠٧) .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي (٢٣٦١) ، ورواه عن رافع بن خديج (٢٣٦٢) ، وأنس (٢٣٦٣) .

الدخول في العمل .

ومن أجمل ما قاله سهل بن عبد الله التستري ـ رحمه الله تعالى ـ وأرجو أن تتدبروا هذا الكلمات : « من طعن في الأسباب فقد طعن في السُّنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان »[1] ، فالتوكل حالُ النبيِّ ﷺ ، والدخول في الأسباب سُنَّة النبيِّ ﷺ ، فمن عمل على حاله فلا يتركن سُنَّتَهُ.[2]
يعني : من أراد أن يتوكل على الله ؛ فيجب أن يكون على سنة سيد المتوكلين في الدخول في الأسباب ؛ فالأخذ بالأسباب سنةُ النبيِّ ﷺ .

فمَنْ أعظم توكلاً على الله من النبيِّ ﷺ ؟! لا أحد ، ومع ذلك قاتل يوم أحد بدرعيه ، ومع ذلك ما سافر سفرًا إلا حمل الزاد معه ، وركب على الراحلة ، وأخذ بكل أسباب الحيطة يوم الهجرة ؛ فالمُتجه إلى المدينة إن كان في مكة لابد أن يتجه شمالاً ، لكن النبيَّ ﷺ اتجه جنوبًا ؛ لأن الباحثين عنه وعن صاحبه سيتجهون شمالاً ، فاتجه هو جنوبًا ؛ أخذًا بأسباب الحيطة ، واختبأ في الغار ، وأعد الزاد ، وأعد الراحلتين ، واستأجر الدليل المشرك .. إلى آخر هذه الأسباب ؛ فلم يترك النبيُّ ﷺ سببًا من الأسباب وهو سيد المتوكلين على الله ﷻ .

فالتوكل على الله تعالى لا ينافيه أن تأخذ بالأسباب ؛ بل إن الدخول في الأسباب من كمال التوكل ، وإنه لا يُوجب البتة أن نترك العمل ؛ بل يوجب على المسلم أن يجتهد وأن يجد ، وأن يأخذ بالأسباب لتحقيق ما يطمع إليه مادامت الأعمال مقدرة ، وقد جفَّ القلم منها منذ الأزل.

ولَمَّا سألوا رسول الله ﷺ : ففيم العمل إذن ؟ فقال رسول الله ﷺ :«اعْمَلُوا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٩٥) ، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ١٠٣) .

(٢) انظر : «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ١١٣) ، ط دار الحديث .

فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» وقرأ قول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل:٥ - ٧] (١) ، قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠] .

ولا شك أن الجزاء من جنس العمل ، دل على هذه القاعدة كثيرٌ من آيات القرآن ، وكثيرٌ من أحاديث النبيِّ ﷺ .

ولقد قال أحد الصحابة لما سمع أحاديثَ النبيِّ ﷺ في القدر : « والله ما كنت بأشد اجتهادًا مني في العمل بعد الآن» (٢) .

يعني : أنا الآن سأجتهد في العمل ، فقد فهم هذا الصحابيُّ مراد الله ومراد النبيِّ ﷺ ، وعَلِمَ أن الإيمان بالقدر لا يمنحهُ أجازةً مفتوحة ليترك العمل ، وإنما يوجب عليه أن يأخذ بالأسباب وأن يدخل في العمل ، وأن يحرص على الجدِّ والاجتهاد وتحصيل ما ينفعه في الدنيا والآخرة في الوقت الذي لا يتعلق فيه قلبه بالأسباب ؛ لأن الأسباب وحدها لا تضر ولا تنفع ، ولا ترزق ولا تمنع إلا بأمر مسبب الأسباب تبارك وتعالى .

ويحسن بنا في هذا المقام أن نُعَرِّفَ التوكل ؛ فما هو التوكل؟

التوكل هو: صدقُ اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « الالتفاتُ إلى الأسباب شركٌ في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباب نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٤٧) من حديث عليٍّ بن أبي طالب .

(٢) «أعلام السنة المنشورة» للحكمي (٦٢، ٦٣) ط الهدي النبوي ، و«أصول الإيمان» لمحمد بن عبد الوهاب (٨٣) .

وإنما التوكل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع .

وبيان ذلك أن الالتفات إلى السبب هو اعتمادُ القلب عليه ورجاؤه والاستناد إليه ، وليس في المخلوقات ما يستحق هذا ؛ لأنه ليس مستقلًّا ، ولابد له من شركاء وأضداد ، ومع هذا كله فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يُسَخَّرْ »[1].

فمثلًا : رجلٌ موظف ويرى أن فلانًا الذي وظفه وهو صاحب الشركة هو سبب رزقه ؛ إن التفت هذا الموظف بقلبه إلى هذا السبب ، واعتقد اعتقادًا جازمًا أنه لولا هذا السبب ما رُزِقَ فقد أشرك بالله ؛ فالالتفات إلى السبب شرك في التوحيد ، ومعناه : اعتمادُ القلب عليه ورجاء القلب لهذا دون الالتفات إلى مسبب السبب ، فهذا السبب ـ صاحب الشركة ـ أعني: إن لم يُسَخِّر ربُّنا ـ تبارك وتعالى ـ قلبه لك ما سُخِّرَ ، فكيف تعلقُ قلبك بِمَنْ لا يملك قلبه ؟! كيف تُلْفِتُ قلبكَ إلى من لا يملك قلبه ؟

نعم : اعلم بأنَّ الله يحول بين المرء وقلبه ؛ فقد يتحول القلب من الحب إلى البغض ومن البغض إلى الحب في لحظات لا يعلمها إلا ربُّ الأرض والسموات قال تعالى : ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤] . وقال: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ:٥٤].

ولذلك قال النبيُّ ﷺ : « إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»[2] .

اللهم ثبت قلوبنا على دينك وطاعتك حتى نلقاك يا رب الأرض والسماء .

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٦٩) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء رقم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

والله لو لم يُسَخِّر الله لك القلوبَ بالحُبِّ ما أَحَبَّتْكَ ، ولو لم يُسَخِّر الله إليك الأبدان بالميلِ ما مالت ، وكذلك إن لم يسخِّرِ اللهُ الأسبابَ ما سُخِّرت !!
إن كان ذلك كذلك فلا تعلق قلبك بالأسباب في الدنيا ؛ فلا يوجد مخلوق في الأرض يستحق أن يصرف الإنسان قلبه إليه بصدق الاعتماد عليه ، ما دامت الأسباب كلها لا تضر ولا تنفع ، ولا ترزق ولا تمنع إن لم يسخرها مسبب الأسباب الذي على العرش استوى .

فالمؤمن بالقدر من أسعد الخلق ؛ لأن عنده عقيدة جازمة لا لبس فيها، ولا تَعْصِفُ بها ريح الشكوك أبدًا ، بأن الله سبحانه قدَّر الأسباب والمسببات ، ويعلم يقينًا أن الضار النافع هو الله ، وأن الرازق المانع هو الله ، وأن القابض الباسط هو الله ، وأن المعز المذل هو الله ، وأن الذي يملك هذا الشخص الذي أخافهُ وأخشاهُ هو مُسببُ الأسباب القادر على أن يُحوِّلَ قلبَه وجوارحه .

أما من تلاعب بالقدر شقي به في الدنيا قبل الآخرة ؛ لأنه يضرب آيات الله بعضها ببعض ، ويضرب أحاديث النبيِّ ﷺ بعضها ببعض، فسيظل في ضنكٍ وشقاء ، وحسرة وتردد ، فضلاً عن خسرانه في الآخرة !!

نسأل الله ﷻ أن يثبتنا على الإيمان الذي يُرضيه ، حتى نلقاه إنه وليُّ ذلك ومولاه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [1]: « فكلُّ سببٍ له شريكٌ وله ضدٌّ ؛ فإن لم يعاونه شريكُه ولم يُصَرفْ عنه ضدهُ لم يحصلْ سببه ؛ فالمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما انضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك ، ثم الزرع لا ينمو حتى تُصرف عنه الآفات المفسدة له ، والطعام والشراب لا يغذي إلا بما جُعِلَ في البدن من الأعضاء والقوى ، ومجموع ذلك لا يفيد إن لم تُصرفِ المفسدات » .

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٦٧) .

فالمطر لو نزل على أرض صلدة لا يُنبت ؛ لأنه لابد للسبب من شريك كالهواء والتراب والبذرة ، ثم الزرع لا ينمو حتى تصرف عنه كل ذلك الأضداد وهي الآفاتُ التي تفسده .

إذًا لابد له من شريك ، ولابد له من أن ينتفي الضد ؛ فالأرض موجودة ، والتراب والبذرة موجودة ، ولكن هناك مفسدات للنبات ، فلن ينبت ، والطعام والشراب لا يثمر ويغذي إلا بمعاونة الشركاء، وهي أسنان وقواطع تقطعه ، وأنياب تمزقه ، وضروس تطحنه ، ولسان يتحرك ، ولُعابٌ يُسهل ، ومريء يعمل ، وأمعاءٌ دقيقةٌ ، وأمعاء غليظة ، وبنكرياس ، وغير ذلك ، لابد من وجود هؤلاء الشركاء ، حتى يحصل أو يثمر السبب ، ثم لا بد كذلك أن تنتفي الأضداد من المفاسد التي قد تفسد هذا الطعام والشراب من مرض ونحوه .

وهكذا لو كان الاحتجاج بالقدر صحيحًا لأمكن لكل أحد أن يقتل من يشاء ، وأن يأخذ ما يريد ، وأن يظلم من يريد ، فإذا سئل عن كل أفعاله يقول : قدر !!! إذن لفسدَ الكونُ كله ، ولأمكن لكل واحد أن يفعلَ ما شاء محتجًّا بالقدر ؛ كهؤلاء الذين يحتجُّون بالقدر ـ كما ذكرت ـ على فسقهم وظلمهم وانحرافهم وزيفهم ، ثم يثورون إذا ما وقع عليهم هذا الظلم ، ولا يرضون من غيرهم أن يحتجوا على ظلمهم بالقدر كما احتجوا هم لأنفسهم بالقدر !!!

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله رحمة واسعة وطيب ثراه : « العبدُ له في المقدورِ «حالان» : حالٌ قَبل القدر ، وحالٌ بعد القدر ، فعليه قبل المقدور أن يستعين بالله ، وأن يتوكل عليه ، ويدعوه ، فإذا قدر الله المقدورَ بغير فعله ، فعليه أن يصبر عليه أويرضى به ، وإن وقع المقدور بفعله وهو نعمة حمد الله على

ذلك ، وإن كان ذنبًا استغفر الله من ذلك ، وله في المأمور أيضًا «حالان» : حال قبل الفعل وهو العزمُ على الامتثالِ والطاعةِ والاستعانةِ بالله على ذلك »[(١)] .

بمعنى : أن الله تعالى يأمر بالصلاة والزكاة ويأمر بالتقوى وغيرها من الأوامر ؛ فعليك قبل الأمر أن تسأل الله ، وتستعين به على أن يرزقك التقوى ، وعلى أن يعينك على الصلاة والزكاة ، وعلى أن يوفقك للحج ، وأن يوفقك لحضور مجالس العلم ، هذا حالٌ قبل الفعل.

ثم قال : « وحال بعد الفعل وهو الاستغفار من التقصير ، وشكر الله على ما أنعم به من الخير ، قال تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر:٥٥] ؛ فأمر الله ﷻ نبيه أن يصبر على المصائب المقدرة وأن يستغفر من الذنب ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران:١٨٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:٩٠] ؛ فذكر الصبر على المصائب والتقوى بترك المعائب .

وقال النبيُّ ﷺ كما في «صحيح مسلم»[(٢)] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « ... احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِالله وَلَا تَعْجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » .

فأمره إذا أصابته المصائب أن ينظر إلى القدر ، ولا يتحسر على الماضي ؛ بل يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ؛ فالنظر إلى القدر

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٧٦، ٧٧) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب في الأمر بالقوة وترك العجز ، والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله رقم (٢٦٦٤) .

عند المصائب، والاستغفار عند المعائب؛ قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد:٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١] ». اهـ.

فالقدر يُحتجُّ به في المصائب ولا يُحتجُّ به في المعائب.

وقد يستدل بعضهم بحديث احتجاج آدم وموسى ـ على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ـ وهو في «الصحيحين»[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى ـ عَلَيْهِمَا السَّلَام ـ عِنْدَ رَبِّهِمَا فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، قَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ؟ فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ الله بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ، وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا، فَبِكَمْ وَجَدْتَ الله كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَامًا، قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه:١٢١] قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ الله عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً » قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى».

وليس في هذا الحديث إطلاقًا حجة للذين يحتجون بالقدر على القبائح والذنوب والمعاصي، بدعوى أن آدم احتج بالقدر على معصيته، كلا! فآدم عليه السلام وهو نبيٌّ الله تعالى لم يحتج بالقدر على الذنب، وموسى عليه السلام لم يَلُمْ أباه آدم على

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله رقم (٦٦١٤)، ومسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام رقم (٢٦٥٢).

ذنب تاب منه ، وتاب الله عليه منه ، وهداه واجتباه ، وإنما وقع اللوم من موسى على المصيبة التي أخرجت آدم وأولادَهُ من الجنة ، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة ؛ فإن القدرَ يُحْتَجُّ بِهِ عند المصائب لا عند المعائب ؛ كما تقدم .

فعلى العبد أن يستسلم للقدر إذا أصابته مصيبة ؛ كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٦] .

أما المذنبون فليس لهم الاحتجاج بالقدر ، بل الواجب عليهم أن يستغفروا الله بعد الوقوع في الذنب ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر:٥٥] فأرشد إلى الصبر في المصائب والاستغفار من الذنوب والمعائب[(١)] .

قال ابن القيم ـ رحمه الله[(٢)] : «الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ويضر في موضع ، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته كما فعل آدم ، فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته وذكرها ما ينفع به الذاكر والسامع ؛ لأنه لا يدفع بالقدر أمرًا ولا نهيًا، ولا يبطل به شريعة ؛ بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة ، يوضحه أن آدم قال لموسى : « أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَانَ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ » فإذا أذنب الرجل ذنبًا ثم تاب منه توبة وزال أمره حتى كأن لم يكن فأنَّبه مؤنِّبٌ عليه ولامه ، حسن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك ، ويقول : هذا أمر كان قد قدر عليَّ قبل أن أخلق ، فإنه لم

(١) بتصرف يسير من «شرح العقيدة الطحاوية» (ص١٥٤) ، و«منهاج السنة» (٢/ ١٠) ، و«مجموع الفتاوى» (٨/ ١٠٧) وما بعدها ، و«شفاء العليل» (١٨) ط الفكر ، و«القضاء والقدر» للمحمود (٤٢٢).

(٢) «شفاء العليل» (٤٦) ط الحديث .

يدفع بالقدر حقًّا ، ولا ذكره حجة له على باطل ولا محذور في الاحتجاج به ، وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به ففي الحال والمستقبل ، بأن يرتكب فعلاً محرمًا أو يترك واجبًا فيلومه عليه لائم ، فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره ، فيبطل بالاحتجاج به حقًّا ويرتكب باطلًا ، كما احتج به المصرُّون على شركهم وعبادتهم غير الله » .

وهكذا يتضح لنا بجلاء أن سبب ضلال من ضل في باب القدر هو سوء الفهم عن الله ورسوله ، وهو أصلُ كلِّ بدعةٍ وضلالةٍ نشأت في القديم والحديث ؛ فهؤلاء يخلطون بين الإرادة القدرية الكونية وبين الإرادة الدينية الشرعية !!

*****

أنواع الإرادة
في كتاب الله كما يرى علماء السلف

المحققون من علماء السلف يقولون بأن الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة كونية قدرية ، وإرادة دينية شرعية :

أما الإرادة الشرعية ؛ فهي الإرادة المتضمنة للمحبة والرضا ، والإرادة الكونية القدرية هي المشيئة النافذة الشاملة التامة التي تشملُ جميع الموجودات .

أما الإرادة الشرعية الدينية ؛ هي المرادة في قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥] هذه إرادة شرعية دينية قال تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ [المائدة:٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا ﴾ [النساء:٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الأحزاب:٣٣] فهذه الإرادة الشرعية الدينية المتضمنة للمحبة والرضا ؛ فهذا النوع من الإرادة لا يستلزم وقوع المراد إلا إذا تعلق به النوع الثاني من الإرادة ، وهي الإرادة الكونية .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : « هذا النوع من الإرادة لا يستلزم وقوع المراد ، إلا إذا تعلق به النوع الثاني من الإرادة ، وهذه الإرادة ـ أي : الشرعية الدينية ـ تدل دلالة واضحة على أنه سبحانه لا يحب الذنوب والمعاصي ، والضلال والكفر ، ولا يأمر بها ولا يرضاها ، وإن كان شاءها خلقًا وتقديرًا وإيجادًا ، وأنه سبحانه وتعالى يرضى ويحب كل ما يتعلق بهذه الإرادة الدينية الشرعية

ويثيب أصحابها، ويدخلهم الجنة، وينصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وينصر بها العباد من أوليائه المتقين، وحزبه المفلحين، وعباده الصالحين »[(١)].

«أما الإرادة الكونية القدرية؛ وهي الإرادة الشاملة لجميع الموجودات التي يقال فيها: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وكقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود:٣٤]، وكقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وكقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف:٣٩].

فهذه الإرادة إرادة شاملة لا يخرج عنها أحد من الكائنات؛ فكل الحوادث الكونية داخلة في مراد الله ومشيئته هذه، وهذه الإرادة الكونية القدرية يشترك فيها المؤمن والكافر والفاجر، وأهل الجنة وأهل النار، وأولياء الله وأعداؤه، وأهل طاعته الذين يحبهم ويحبونه ويصلي عليهم هو وملائكته، وأهل معصيته الذين يبغضهم ويمقتهم الله ويلعنهم اللاعنون »[(٢)].

فأهل السنة والمحققون من علماء السلف فقهوا دين الله تبارك وتعالى حق الفقه، ولم يضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وعلموا أن أحكام الله ﷻ في خلقه تجري على وفق هاتين الإرادتين؛ فمن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد بهاتين العينين كان بصيرًا، ومن نظر إلى الشرع دون القدر وإلى القدر دون الشرع ضل وأضل.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٨٨)، و«شرح الطحاوية» (ص١١٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٩٨)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (ص١١٦).

نعوذ بالله تعالى من الخذلان ، ونسأله سبحانه وتعالى أن يثبتنا على المعتقد الحق الذي كان عليه المصطفى ﷺ وأصحابه .

وما أجملَ وأحلَى وأجلَّ أن أختم الكلام في هذا الباب بكلمات جميلة رقراقة جدًّا للإمام الطحاوي رحمه الله في عقيدته المشهورة المعروفة الموسومة بالعقيدة الطحاوية ؛ حيث يقول رحمه الله في القدر: « خلق اللهُ الخلقَ بعلمه وَقَدَّرَ لهم أقدارًا وضرب لهم آجالًا ولم يَخْفَ عليه شيءٌ قَبْلَ أن يَخْلُقَهُمْ ، وعَلِمَ ما هُمْ عاملون قَبْلَ أن يَخْلُقَهُمْ، وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته ، وَكُلُّ شيء يجري بتقديرِهِ ومشيئتِهِ ، ومَشيئَتُه تَنْفُذُ لا مشيئة للعباد إلا ما شاء اللهُ لهم ، فما شاء الله كانَ ، وما لم يشأ لم يكن ، يهدي من يشاء ، وَيَعْصِمُ ويُعَافِي فضلاً ، ويضل مَنْ يشاءُ ، ويَخْذِلُ وَيِبْتَلِي عدلاً ، وكلُّهم مُتَقَلِّبُونَ في مشيئته بين فضله وعدله ، وهو متعال عن الأضداد والأنداد ، ولا رادَّ لقضائه ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، ولا غَالبَ لأمره ، آمنا بذلك كله ، وأيقنا أن كلاًّ من عنده »[1] .

« وقد علم الله فيما لم يَزَلْ عَدَدَ من يَدْخُلُ الجَنَّةَ وَعَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، فلا يُزادُ في ذلك العدد ولا يُنْقصُ منه ، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه ، وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، والأعمالُ بالخواتيمِ ، والسعيدُ من سَعِدَ بقضاء الله ، والشقيُّ من شَقَى بقضاء الله .

وأصل القدر : سرُّ الله تعالى في خلقه لم يَطَّلعْ على ذلك ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسل ، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلانِ ، وسلمُ الحرمانِ ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة ؛ فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه ؛ كما قال تعالى : ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ

(١) «العقيدة الطحاوية» بتحقيق الشيخ الألباني (ص٢١) .

﴿ يُسْـَٔلُونَ ﴾[الأنبياء:٢٣] ؛ فمن سأل لم فعل ؟ فقد رَدَّ حُكْمَ الكتاب ، ومن رَدَّ حُكْمَ الكتاب كان من الكافرين .

فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو مُنَوَّرٌ قلبُهُ من أولياء الله تعالى وهي درجة الراسخين في العلم ؛ لأن العلم علمان : علم في الخلق موجود ، وعلم في الخلق مفقودٌ ، فإنكار العلم الموجود كفر ، وادعاء العلم المفقود كفر ، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود وترك العلم المفقود .

ونؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد قُدِّرَ ، فلو اجتمع الخلقُ كُلُّهُمْ على شيء كتبه الله تعالى في أنه كائن ؛ ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه ، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله فيه ؛ ليجعلوه كائنًا لم يقدروا عليه ، جَفَّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه .

وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سَبَقَ عِلْمُهُ في كل كائنٍ من خلقه ، فقدر ذلك تقديرًا محكمًا مبرمًا ، ليس فيه ناقض ، ولا معقب ، ولا مزيل ، ولا مغير ، ولا ناقص ، ولا زائد من خلقه في سمواته وأرضه ؛ وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة والاعتراف بتوحيد الله وربوبيته ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[الفرقان:٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[الأحزاب:٣٨] .

فويل لمن صار في القدر لله خصيمًا ، وأحضر للنظر فيه قلبًا سقيمًا ، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرًّا كتيمًا ، وعاد بما قال فيه أفَّاكًا أثيمًا » (١) .

أسأل الله جلَّ وعلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يرزقنا الإيمان بالقدر خيره وشره ، وأن يرزقنا علمًا نافعًا ، وأن ينفعنا بما عملنا ، وأن يرزقنا الصواب والرشاد ، وأن يجنبنا الخذلان والزيغ والزلل، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

(١) انظر : «متن العقيدة الطحاوية» .



ثمرات
الإيمان بالقدر

ثمرات الإيمان بالقدر

إن عقيدة الإيمان بالقدر التي كان عليها النبيُّ ﷺ وأصحابه مبرأة من التخاذل ، والتكاسل ، والخمولِ ، والإعراضِ عن العمل ، والأخذ بالأسباب ، الذي أصاب فئةً كبيرة من أبناء الأمة ممن أساؤوا فهمَ عقيدةِ القدر .

فسوءُ الفهمِ عن الله ورسوله ﷺ أصلُ كلِّ بدعةٍ وضلالةٍ نشأت في الإسلام ، قديمًا وحديثًا ؛ فَمَنْ تَأمَّلَ في عقيدةِ القدرِ التي جاء بها الإسلامُ ، وعلمها النبيُّ ﷺ لأصحابه ﷺ وجد فيها ثمارًا طيبة كثيرة ، كانت وما زالت سببًا في إصلاح الفردِ والمجتمع الإسلامي ، وقد قطفتُ من هذا البستان اليانع الماتع عشر ثمرات ؛ أسأل الله أن يجعلنا أهلاً لها ، ودونك تلك الثمرات .

الثمرة الأولى
الرضا واليقين

وقد بدأت بهذه الثمرة الجليلة الكبيرة ؛ فهي من وجهة نظري أعظم الثمرات للإيمان بالقدر خيره وشره ؛ قال الله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد:٢٢].

من فهم هذا فهم عقيدة القدر ، وعَلِمَ أنّ كُلَّ شيء في الكونِ بقدر، فما مِنْ ورقَةٍ تَسْقُطُ من شجرةٍ أو نخلةٍ على وجه الأرض إلا بأمر الله وقدره وعلمه ، وما يقع في الكون كله إلا بتقديره سبحانه ؛ كما قال : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩].

وفي «صحيح مسلم»[١] من حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْـنِ الْعَـاصِ رضي الله عنهما : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : «كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الْـخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُـقَ السَّـمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والترمذي وغيرهما[٢] من حديث عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ :كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمًا فَقَالَ : «يا غُلَامُ ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احْفَـظِ الله تَجِـدْهُ تُجَاهَـكَ ، إِذَا سَـأَلْتَ فَاسْأَلِ الله ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَـتْ عَـلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَـدْ كَتَبَـهُ الله لَـكَ ، وَلَـوِ اجْتَمَعُـوا عَـلَى أَنْ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام رقم (٢٦٥٣) وقد سبق تخريجه .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة ، باب (٥٩) حديث رقم (٢٥١٦) ، وقال : «حسن صحيح» ، وأحمد في «المسند» (١/ ٢٩٣) وقد سبق تخريجه .

يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» .

من استقرت هذه المعاني في قلبه امتلأ قلبه بالرضا عن الله ، واليقين بالله تبارك وتعالى ؛ فَصَاحِبُ الإيمان بالقدر يعيش عيشة هنيئة ، ويحيا حياة كريمة طيبة ؛ لأنه يعلم عِلْمَ اليقينِ أنه لن يصيبه إلا ما قدره له رب العالمين ولن يخطئه ما قدره الله له ؛ كما قال ـ عليه الصلاة والسلام : « وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ » .

ولذلك لما سأل الصحابة رسُول الله ﷺ ؛ كما في «صحيح مسلم» [(١)] من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ـ رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْهُمَا : أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ الله ، فَفِيمَ الْعَمَلُ إِذَنْ ، أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ، أَوْ فِيمَا نَسْتَقْبِلُ؟ فَقَالَ : « لَا ؛ بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ » ، قال الرجل: فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قال النبيُّ ﷺ : «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» .

اللهم يسرنا لليسرى برحمتك يا أرحم الراحمين .

وفي «مسند» الإمام أحمد و«سنن» أبي داود والترمذي [(٢)] من حديث عبادة بن الصامت ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ : اكْتُبْ ، قَالَ : مَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٥٤] .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٤٨) وقد سبق .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة ، باب في القدر رقم (٤٧٠٠) ، والترمذي في كتاب تفسير القرآن ، باب سورة « ن » رقم (٣٣١٩) ، وقال : « هذا حديث حسن غريب » ، وأحمد في «مسنده» (٥/ ٣١٧) وقد سبق.

وروى الإمام أحمد في «مسنده»(١) من حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ».

هذه معاني جميلة، لكن لا تشعر بحلاوتها، ولا بجلالها وجمالها، إلا إن جربتها فعلاً، لن تشعر بكمال السعادة وتمام الرضا إلا إذا علمت أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك؛ فكل شيء بتقدير الله.

ومن روائع ما قَالَهُ الحافظ ابن رجب الحنبلي في كتابه الماتع «جامع العلوم والحكم» قال: «فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر، ونفع وضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غيرُ مفيد البتة، عَلِمَ حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع، المعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد الرب سبحانه وتعالى، وإفراده بالطاعة، وحفظ حدوده، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار.

ولهذا ذمَّ الله مَنْ يعبدُ من لا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عباده شيئًا؛ فمن يعلم أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يعطي ولا يمنع غير الله أوجب له ذلك أن يفردَ الله وحده بالخوف والرجاء، والمحبة والسؤال، والتضرع والدعاء، وأن يُقَدِّم طاعةَ الله على طاعة الخلق جميعًا، وأن يتقي سخط الله، ولو كان فيه سخط الخلق جميعًا، وأن يفرد الله وحده بالاستعانة به والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء، خلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٤٤١، ٤٤٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢١٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٧٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤/ ٣٣٢/ ١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٤٧١)، وانظر: (٢٤٣٩).

الدعاء له في حال الشدة، ونسيان الله في حال الرخاء؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر:٣٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف:٤]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام:١٧] »[١].

ورحم الله من قال:

كُنْ عن همومك مُعْرِضا ... ودَعِ الأمور إلى القضا

وانعم بطول سلامة ... تسليك عما قد مضى

فلربما اتَّسع المضيق ... وربما ضاق الفضا

الله يفعلُ ما يريد ... فلا تكن متعرِّضا

وقال غيره:

يا صاحب الهم إنَّ الهمَّ منفرجٌ ... أبشر بخير فإن الفارج الله

وإذا بُليت فثِقْ بالله وارض به ... إن الذي يكشف البلوى هو الله

الله يُحْدِث بعد العسر ميسرة ... لا تجزعن فإن الخالق الله

والله ما لك غير الله مِنْ أحدٍ ... فحسبك الله في كلٍّ لك الله

فإن استقرت هذه العقيدةُ في القلب يَشعرُ الإنسانُ بالرضا واليقين، ووالله

---

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٨٣).

إنَّ أصحابَ هذه العقيدة هم الذين دخلوا جنة الدنيا قبل أن يدخلوا جنةَ الآخرة ؛ فإن من دخل جنة الدنيا دخل جنة الآخرة !!!

وهؤلاء هم أهلُ السعادة والحياة الطيبة .

ومن أجمل ما قرأتُ في هذا ما أورده الحافظُ الحميديُّ وهو تلميذ ابن حزم الظاهري ـ رحمهما الله تعالى ـ في كتابه « جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس » :

أن الوزير أبا عمرو أحمد بن سعيد بن حزم ـ وهو والد الإمام ابن حزم الفقيه الظاهري المعروف ـ كان جالسًا يومًا في مجلس أميره المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر ، وكان هذا الرجل يجعل يومًا للمظالم والشكاوى ، فدخلت عليه امرأةٌ عجوز انحنى ظهرها ؛ لترفع إليه رقعة فيها مظلمة ، وهي تقول ؛ بعد ما دعت الله ﷻ للأمير وقالت كلمات معروفة في مثل هذا المقام : أعز الله الأمير وأيد سلطانه .. إلى آخره ؛ قال : ما حاجتك يا أماه ؟ قالت : ابني في السجن منذ كذا وكذا ، وهو الذي يتولى أمري ويرعى شؤوني .قال : من ولدك ؟ قالت : فلان ابن فلان . فاستشاط الأمير غضبًا وقال : يُصْلَبْ يُصلب يصلب ، وظل يصرخ بهذه الكلمة .. سبحان ربي ! فإن الذي ذَكَّر بصلب هذا الشاب أمه . تدبروا المقادير ، وظل الأمير يصرخ : يُصلب يُصلب ، ثم طلب مرسومًا أميريًّا ليكتب فيه ما أراد ، وكتب ودفع المرسوم إلى وزيره والد الإمام ابن حزم ، فانطلق ليسلمه إلى قائد السجن ، فلما قرأ قائدُ السجن مرسومَ الأميرِ نفذ ما فيه ، فأطلق صراح الشاب وأخرجه من معتقله ومن سجنه !!!

فلما رآه الأمير خارج السجن صرخ واستشاط غضبًا على وزيره ، وقال : ألم أقل يصلب ؟ ألم أقل يصلب ؟

فارتجف الوزير وقائد السجنِ ؛ فقال قائد السجن : أعز الله الأمير، هذا أمرك إليَّ يا مولاي ، ودفع إليه مرسومَه الأميري الذي كتبه بيده ، فقرأ الأمير فوجد أنه بدل أن يكتب : يُصْلَبُ كتب : يُطْلَقُ ، سبحان الله !!!

قد يكون مفتاحك في يدك وأنت تبحث عنه في كل مكان ؛ بل قد تجلس أمام الآلة الحاسبة لتحسب بعض المسائل ، فينغلق عليك عقلك ، فتختل كل المسائل بين يديك ، فتعيد الحسابات من جديد ، وربما مرة بعد مرة .. إن العقل قد انغلق للحظات ؛ فالأمر لا يحتاج إلى فذلكة عقلية إطلاقًا ؛ فقرأ الأميرُ يُطْلَق !!!

قال ـ وكان وقَّافًا: إذن يُطْلَقُ ، ثم يطلق ، ثم يطلق.

فمن أراد الله له أن يطلق ما استطاعت الدنيا له أن يُشْنَقَ !!!

وأنا أقول: لقد سألتُ أحد المستشارين عن أغرب قضية عرضت عليكم ، فقال : والله يا شيخ إن أغرب قضية عُرِضتْ عليَّ لرجلٍ في قرية من القرى، وسُجِنَ هذا الرجل على أنه قاتل ، وقُدِّمت الأدلة التي تبين أنه متهم ، ومن خلال هذه الأدلة المقدمة حَكَمَتْ المحكمةُ عليه بالإعدام ، وصُدِّق على الحكم من المفتي .

قال : وفي يوم نطق الحكم جلستُ على منصة القضاء ، وجلس أخواي عن يميني وعن شمالي ، وامتلأت المحكمة بالناس ، وصمتت الألسنة ، بل وصمتت الأنفاس ، وتعلقت الأذهان بالقاضي ، وأرهفت الآذان لسماع هذا الحكم .

يقول : وقرأت الديباجة قبل الحكم كاملة لأختم هذه الديباجة بقولٍ : وَقَدْ حَكَمَت المحكمةُ على المتهم بالإعدام ، يقول : وبعد قراءة الديباجة ، وكلها مقدمة للإعدام ومع ذلك أقول : وقد حكمت المحكمة ببراءة المتهم . يقول : فارتعد جسدي ، وانتفضتُ ، وقمتُ مسرعًا من على المنصة ، ودخلت إلى

المكتب الداخلي وأنا لا أدري ماذا قلتُ !!! قالوا له : يا فلان ، إذن لابد أن نبحث هذه القضية من جديد. يقسم لي بالله ما مضي أسبوعان إلا وقد وفقهم الله ـ جلَّ وعلا ـ للوصول إلى القاتل الحقيقي الذي اعترف تفصيلًا بجريمته ، وبرأ الله الرجل الأول قبل أن تبرئه ساحة المحكمة !!!

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله وهو يتحدث عن الرضا واليقين: « ومعنى هذا أن حصول اليقين للقلب بالقضاء السابق والتقدير الماضي يعين العبد على أن ترضى نفسه بما أصابه ، فمن استطاع أن يعمل في اليقين بالقضاء والقدر على الرضا بالمقدور فليفعل ، فإن لم يستطع الرضا ، فإن في الصبر على القضاء والمكروه خيرًا كثيرًا .

فهاتان درجتان للمؤمن بالقضاء والقدر في المصائب :

الأولى : ـ وسأكتفي بها ـ أن يرضى بذلك ـ أي بالقضاء خيره وشره ـ وهذه درجة عالية رفيعة جدًّا ؛ قال الله ﷻ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١] .

قال علقمة : « هي المصيبة تصيبُ الرجل فيعلم أنها من عند الله ، فَيُسَلِّم ويرضى » .

وخرَّج الترمذي [١] من حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « وَإِنَّ الله إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ » . اهـ .

وها هو رسول الله ﷺ ، وهو أحب الخلق إلى الله ، ابتلي ابتلاءً تنوء بحمله الجبال الرواسي ؛ فماذا فُعِلَ به ؟

---

(١) أخرجه الترمذيُّ في كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء رقم (٢٣٩٦) ، وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجه في كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء رقم (٤٠٣١) ، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٤٦) .

وُضِعَ التراب على رأسه !! هل وضع التراب على رأسك ؟!

وُضِعت النجاسة على ظهره وهو ساجد !! هل وُضعت النجاسة على ظهرك وأنت ساجد ؟!

خُنِقَ حتى كادت أنفاسه أن تخرج !! هل خُنِقَتْ أنفاسك وأنت تُبَلِّغ دعوة الله بالحكمة البالغة والموعظة الحسنة ؟!

طرد من بيته وبلده !! هل طردت من بيتك وبلدك ؟!

اتُّهِمَ في عِرضِهِ وشرفه ، وفي عائشة التي أحبها من كل قلبه !!!

إنه الابتلاء ، إنها الفتن ؛ قال تعالى :﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٢ ، ٣] ، وقال تعالى :﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٢] ، وقال سبحانه :﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤].

أقول : ومع ذلك ابتلى الله نبيه وهو أَحَبُّ الخلق إليه ؛ فإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم ، لا لأن الله ﷻ يريد بهذا الابتلاء أن يُعَرِّضَ أحبابَه وأولياءَه للضنكِ والشقاء ! كَلَّا ، وإنما ليرفع بهذا الابتلاء درجاتهم ، وليمحص الله بهذا الابتلاء صَفَّهُم ؛ فلا يثبت على الطريق إلا الصفوةُ من الأولياء ؛ الذين يحملون دينَ الله ودعوة الله يريدون بها وجه الله ، وحتى يطرد من الصف التجار ؛ الذين يتاجرون بالدعوة ، ويتاجرون بالعقيدة ، فإن حَصَّلوا المكاسب المادية الزائلة من مال، وشهرة ، وجاه ، ومنصب ، وزعامة ، وصدارة ، وقيادة ،

وزيادة ، فهم على الطريق مع السائرين ، وإن مُنِعُوا من هذا أو من بعض هذا انحرفوا !!!

وقال جلَّ وعلا : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج :١١] .

اللهم ارزقنا الصدق في الأقوال والأعمال والأحوال . برحمتك يا كبير يا متعال.

وفي الحديث المتقدم أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ »(١) .

فلتخرج من تحت سمائه ولتعبد ربًّا سواه إن اتهمت الله في قضائه، فالله ـ جلَّ وعلا ـ عدل ، لا يُتهم في قضائه أبدًا ، إن كان آحاد المؤمنين لا يُتَّهم في قضائه ، إن قضى في هذا بخير أو على هذا بشر ، لا يتهم في عدله ، ولا يتهم في إنصافه ، فكيف يتهم أحكم الحاكمين جلَّ جلاله ؟

قال ابن رجب(٢) : ومما يدعو المؤمن إلى الرضا بالقضاء تحقيق إيمانه بمعنى قول النبيِّ ﷺ : « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ ، لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ شَيْئًا إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ ، كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ» (٣).

وفي رواية «صحيح مسلم» (٤) أيضًا من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه أنه ﷺ

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) «جامع العلوم والحكم» تحت الحديث رقم (١٩) بتصرف .

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ١١٧، ١٨٤) ، وأبو يعلى في «مسنده» رقم (٤٢١٧، ٤٢١٨) ، وابن حبان (٧٢٨) من حديث أنس بن مالك بلفظ : « عجبًا للمؤمن ، ما يقضي » ، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٤٨) .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الزهد ، باب المؤمن أمره كلُّه خير رقم (٢٩٩٩) .

قال : « عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » .

قال أبو الدرداء [1] : «إن الله إذا قضى قضاءً أحب أن يُرضى به» .

أيها المتسخط ! أيها الحاقد الحاسد على غيرك ، كل هذا بقضاء الله وقدره ، فإن الله ـ جل وعلا ـ إذا قضى قضاءً أحب أن يرضي به !! .

وقال ابن مسعود ﷺ [2] : « إن الله ـ بقسطه وعدله ـ جعل الروح والفرح في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسُّخط » فالمتسخط كثير الشكوى ، لا يرضى ولا يسلم ، والراضي بقضاء الله وقدره لا يتمنى غير ما هو عليه من شدة ورخاء .

قال عمر بن عبد العزيز : « أصبحتُ وما لي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر » لأنه إن كان القضاءُ خيرًا شكر ، وإن كان القضاء شرًّا صبر ، وكلاهما خير ، فمن وصل إلى هذه الدرجة كان عيشه كله نعيمًا وسرورًا .

وقال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧] .

قال أبو معاوية الأسود [3] : «الحياة الطيبة هي الرضا والقناعة» .

وقال عبد الواحد بن زيد [4] : « الرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العابدين » .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٤٧) ، وعبد الأعلى بن مسهر في «نسخته» (٢٠) ، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٧/ ١٦٩) و (٦٥/ ٢٩٦) .

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» (٥٣٥) ، وابن أبي الدنيا في «اليقين» (١٠٣) ، وابن عساكر في تاريخه (٣٣/ ١٧٥) موقوفًا ، وروي مرفوعًا عند الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢١٥) (١٠٥١٤) ، وأبي نعيم في «الحلية» (٤/ ١٢١) ، والشهاب في «مسنده» (١١١٦) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٢٤) : «وفيه خالد بن يزيد العمري واتهم بالوضع » .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٤٢، ٧١) .

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٥٦) ، وابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (١٣) .

أقولُ: والله الذي لا إله غيره لو أعطاك اللهُ مالَ قارون ولم تشعر بالرضا، ما كان لهذا المال قيمة، وقد وقع ذلك بالفعل من قارون !!! ولو أعطاك الله ﷻ نزرًا يسيرًا، ورزقك مع هذا اليسير: الرضا، فأنت من أغنى الخلق في أرض الله !

ثم قال الحافظ ابن رجب: « وأهل الرضا تارة يلاحظون حكمة المُبْتلي ».

يعني: إن وقع في أهل الرضا البلاء؛ فهم يعايشون اسمَ الحكيم ويلاحظون حكمة المبتلي سبحانه، ويعلمون يقينًا أن الله ما ابتلاهم إلا لحكمة يعلمها وإن جهلوها هم !!!

قال: « وأهلُ الرضا تارة يلاحظون حِكْمةَ المبتلي، وخيرتَه لعبده في البلاء، وأنه غير مُتَّهمٍ في قضائه، وتارة يلاحظون ثواب الرضا بالقضاء، فينسيهم هذا الثوابُ ألم المقضِيِّ به ».

فالراضي يفكر في الثواب، فإذا مات له ولد فيصبر ويرضى، وهو يفكر في أجر من صبر على هذا البلاء، فتارة يلاحظ ثواب الرضا بالقضاء، فينسيه هذا الثوابُ ألم المقضي به.

قال الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله تعالى: « وتارةً يلاحظون عظمة المبتلي وجلالَه وكمالَه، فيستغرقون في مشاهدَة ذلك حتى لا يشعرون بالألم، وهذا لا يصل إليه إلا خواصُّ أهل المعرفة والمحبة، حتى ربما تَلَذَّذُوا بما أصابهم، لملاحظتهم صدوره عن حبيبهم سبحانه »[1] فسبحان من أذاق هؤلاء حلاوة أنسه، ولذة قربه !!

لا يفكرُ في الثوابِ ولا في القضاءِ، لكنه يفكرُ في ربه، ويعيش مع ربه سبحانه،

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢٥٠، ٢٥١) بتصرف ط الحديث.

مع جلال الله وعظمته وكمالِه ، فيشعر باللذة في البلاء ، وإن كان هذا البلاء عذابًا ، يشعر فيه بلذةٍ ؛ لِعلْمِه أنه صدر عن الله سبحانه وتعالى ، أولم يقل بلالٌ مستعذبًا للعذاب: أَحَدٌ أَحَدٌ ، استعذب العذابَ في سبيل الله ، فهذه درجة يقول ابن رجب : يصل إليها خواصُّ أهل المعرفة والمحبة .

قال بعضهم : «أوجدهم في عذابه عذوبة» .

وقال أحدهم [1] :

عذابه فيك عذبُ وَبُعْده فيك قربُ

وأنت عندي كروحي بل أنت منها أَحَبُّ

حسبي من الحبِّ أنّي لِمَا تحبُّ أُحبُّ ا . هـ المراد.

وقال ﷺ : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » [2] .

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ قال ـ كما في «الصحيحين» [3] : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا » .

نسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا بالرضا واليقين ؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

*****

---

(١) انظر: «صيد الخاطر» (٩٥) ، و«لطائف المعارف» (١٩٨) ، و«جامع العلوم والحكم» حديث (١٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان رقم (١٥) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين رقم (٤٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ .

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان رقم (١٦) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان رقم (٤٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ .

الثمرة الثانية

الاستغناء بالخالق عن الخلق

ما أحلاها من ثمرة ، وما أجملها من فائدة ، وما أروعها للمسلم إن استقرت في قلبه عقيدة الإيمان بالقدر ؛ أن يستغني بالخالق عن الخلق .

علمتَ كما أصَّلْتُ لك أنَّ كل شيء بيد الله ، فقلوبُ العباد بيد الله ، لا تحوَّل لك بالحب والبغض إلا بتقديره سبحانه !!!

والله لو استقرت هذه في قلبك لن تنافق مخلوقًا ، ولن تخشى أحدًا على وجه الأرض ؛ فهذا الذي ترجوه وتخافه: قلبُهُ بيدِ من عصيت ! وهو الله سبحانه وتعالى ؛ فالذي يُصرِّفُ لك القلوبَ بالحُب والبغضِ، والعطاء والمنع هو الله ، إن صرفَ الله إليك قلبًا بحب فهذا تقديره ، وإن صرف الله إليك قلبًا ببغض فهذا تقديره ، وإن حول الله إليك قلبًا بعطاء فهذا تقديره ، وإن حوَّل الله قلبًا إليك بمنع فهذا تقديره ، إن كان ذلك كذلك ؛ فلم تعلِّق قلبك بالبشر ، وقلوبُ كلِّ البشر بيد رب البشر وخالقِ الخلق سبحانه وتعالى ، الذي يقدِرُ وحدَهُ على أن يُصَرِّفَ لك القلوبَ بالبغضِ والحبِ والعطاء والمنعِ ؟!!

فلو اجتمع أهل الأرضِ بالثناء عليك لن يقربوك من الله إن كنت بعيدًا عن الله ، ولو اجتمع أهل الأرض بذمك والبغض لك ما أبعدوك عن الله إن كنت قريبًا من الله ؛ فلِمَ تُعَلِّق قلبك بالخلق ؟!! اللهم ارزقنا الإخلاص ، واغننا بفضلك عمَّن سواك .

فمن عرف القضاء والقدر استغنى بالخالق عن الخلق .

تدبر ماذا قال النبيُّ ﷺ ؛ كما في الحديث الصحيح الذي رواه الترمذيُّ ، وابن ماجه ، وأبو نعيم ، وغيرهم وصححه شيخنا الألباني في «صحيح

الجامع»[1] من حديث عائشة ﵂ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ الله ، وَكَلَهُ الله إِلَى النَّاسِ ، وَمَنْ أَسْخَطَ النَّاسَ بِرِضَا الله ، كَفَاهُ الله مُؤْنَةَ النَّاسِ » .

من أرضى الناسَ بسخط الله ، وكَلَهُ الله إلى الناس ، فاتهموه وسخطوا عليه وأبغضوه ، أما السعيد ؛ فهو الذي لا يعنيه قط إلا رضا الله ، ولا يعنيه البشر إطلاقًا ، ولا يلتفتُ إلى الخلق ؛ لأنه على يقين أن رزقَهُ بيد الخالق ، لا بيد الخلق ، وأن قلوبَ الخلقِ لا تُقبلُ إليه بالحبِّ والبغضِ إلا بتقدير الخالق.

فهذا لا يعلقُ قلبه بالمخلوقين ، لا بثنائهم ، ولا ببغضهم ، ولا بذمهم ، ولا بحمدهم ؛ بل يعلق قلبه بربهم جل جلاله ، فلا يعنيه إلا أن يقول : قال الله .. قال رسوله ، بما يرضي الله سبحانه ، لا بما يُحَصِّلُ به رضا الناس ، وشاء الله أن يرينا في دنيا الناس هذه الحقائق ، فمن يتكلم لإرضاء السلطان ، أو للثبات على كرسيه الزائل ، أو للحفاظ على منصبه الفاني ، انظروا إلى العاقبة ، وَكُلُّنَا يعرف هذا الصنف !!!

ومن قال لله ، لا يخشى في الله لومة لائم ، بالحكمة البالغة ، والموعظة الحسنة ، أسعده الله في الدنيا والآخرة ، فليس معنى أنه لا يخشى في الله لومة لائم أن يسيء ويتهم الناس بالباطل ، ويكفر فلانًا ، ويفسق فلانا !!

كَلَّا . كَلَّا ، فبعض الشباب يظن أن الذي يسيء إلى الخلق ويتهمهم هو

---

(١) أخرجه الترمذيُّ في كتاب الزهد ، رقم (٢٤١٤) وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٦٢) ، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١١٨) ، وابن حبان في «صحيحه» (١٥٤١ موارد) ، والحديث روي موقوفًا ومرفوعًا ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠١٠) ، و«الصحيحة» (٢٣١١) . والحديث له شاهدٌ عن ابن عباس ؛ أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٢٦٨) ، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢٤) وقال : « رجاله رجال الصحيح ، غير يحيى بن سليمان الحفري ، وقد وثقه الذهبي .. » .

الذي يصدع بالحق !! كلا ؛ فرسول الله ﷺ صدع بالحق ، بحكمة ، وبرحمة ، وبتواضع، وبأدب ؛ فهذا قلبه معلق بالله تبارك وتعالى يبلغ دين الله بحق ، وحكمة ، وتواضع ، ورحمة ، وأدب ، لا يعنيه أن يسخط الناس ما دام يُرضِي ربَّ الناس ؛ لأن النبيَّ ﷺ يقول : « وَمَنْ أَرْضَى الله بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ الله مُؤْنَةَ النَّاسِ» .

والنبيُّ ﷺ يقول : «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله بِهِ ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي الله بِهِ» [١] .

يعني : إن أردت بعملك وقولك السُّمْعَة ، أظهر الله طويتك إلى الناس إن لم تتب إليه !!

قد يُخفي الإنسانُ عملَهُ ، ويُغَلِّقُ على نفسه الأبواب ، ويرخي الستور ، يبارز رَبَّه بالمعصية ، ويصر على ذلك من غير توبةٍ ، فيجدُ معصيته هذه التي لم يَطَّلِع عليها إلا ربه مكشوفة للخلق ، ألا فليعلم أنَّ : « مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله بِهِ ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى الله بِهِ » [٢].

نسأل الله أن يرزقنا الخشية منه في السر والعلانية ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

فمن ثمرات الإيمان بالقدر : الاستغناءُ بالخالق عن الخلق ؛ لأن كل شيء يصيبك من خير وشر إنما هو من تقدير الله ، والمخلوقُ ما هو إلا واسطة لتوصيل قدر الله فيك خيرًا كان أو شرًا ، يعني : إذا أصابني أحد الناس بسوء ، فهذا تقدير الله ، وهو واسطة لوصول هذا المقدور .

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الرقاق ، باب الرياء والسمعة رقم (٦٤٩٩) ، ومسلم في كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله رقم (٢٩٨٧) من حديث جندب العلقي . وأخرجه مسلم في كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله رقم (٢٩٨٦) من حديث عبد الله بن عباس ، وقد سبق تخريجه .

(٢) هذا لفظ ابن عباس عند مسلم كما سبق .

وإن جاءني أحد الناس وقدم إليَّ خيرًا ؛ فهذا تقدير الله ، وما هو إلا واسطة لتوصيل هذا المقدور ؛ فإذا علمتم ذلك يقينًا فلا ينبغي أن نستغني بالمخلوقِ عن الخالق ، وإنما يجب أن نستغني بالخالقِ عن الخلق أجمعين !!!

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم الإيمانَ بالقضاء والقدر خيره وشره حُلْوه ومُرِّه ، وأن يغنينا به عن خلقه وبفضله عمن سواه ؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

*****

الثمرة الثالثة
صدقُ الاستعانة بالله عز وجل

فمن آمن بالقدر وعَلمَ أنَّ كُلَّ شيءٍ بقدر الله تبارك وتعالى ، تَخَلَّصَ من حوله وطوله وَقُوَّتِه وعقله ، ولجأ إلى حول وطول الله ومدد الله وقوته ، فصدقَ في الاستعانة بالله سبحانه وتعالى ؛ فكثير منا يَكذب وهو يطلب الاستعانة بالله في قوله كُلَّ يوم : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة:٥] .

فالصدق في طلب الاستعانة من الله عز وجل ثمرةٌ لن تتذوق طعمها ولا حلاوتها إلا إذا حققت الإيمان بالقدر، وَعَلِمْتَ يقيناً أن كل شيء بتقدير الله، وأن كل شيء في الكون بأمر الله ؛ فأنت تتخلص من حولك وطولك ومددك وقوتك وعقلك وغناك وأسباب الدنيا ، وتصدق في طلب العون من الله تبارك وتعالى وحده .

قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما : « إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله »[1] .

ولا يحقق صدق الاستعانة إلا من حقق الإيمان بالقدر ؛ لأن صدق الاستعانة ثمرة من ثمرات الإيمان بالقدر ؛ فما يصيب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه كله مقدور عليه ، ولا يصيب العبد إلا ما كتب الله عز وجل له من ذلك في الكتاب السابق .

قال تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾[التوبة:٥١] ، وقال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن

---

(١) أخرجه الترمذيُّ في كتاب صفة القيامة ، باب ٥٩ رقم (٢٥١٦) ، وقال : «حسن صحيح» ، وأحمد في «المسند» (١/ ٢٩٣) ، وقد سبق تخريجه .

﴿نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد:٢٢].

فمن عَلِمَ ذلك يقينًا ـ وهذا هو الإيمان بالقدر ـ سأل الله ﷻ العون في أن يصبر على ما قدَّره وأن يوفقه في شكر ما يسره له.

قال الحافظ ابنُ رجب في كتابه الماتع «جامع العلوم والحكم»(١):

«وأما الاستعانة بالله ﷻ دون غيره من الخلق، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال في جلب مصالحه ودفع مضاره» يعني: أنت لا تقدر على أن تجلب لنفسك مصلحة إلا بتقدير الحق سبحانه، ولا تملك أن تدفع عن نفسك مضرة إلا بتقدير الحق سبحانه.

قال ابن رجب: «العبد عاجز عن جلب ما ينفعه وعن دفع ما يضره ولا مُعين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله ﷻ».

فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله الله فهو المخذول، وهذا هو تحقيق معنى لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإن المعنى: لا تحوَّل للعبد من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة، وهي كنز من كنوز الجنة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها؛ في الدنيا، وعند الموت، وبعده من أهوال البرزخ، ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على كل ذلك إلا الله ﷻ؛ فمن حقق الاستعانة به في ذلك كله أعانَهُ سبحانه وتعالى.

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله وَلَا تَعْجَزْ»(٢).

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢٤٨) ط الحديث.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله رقم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ووصية النبيِّ ﷺ لمعاذ رضي الله عنه قال : « يَا مُعَاذُ ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ » . فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ ، وَأَنَا أُحِبُّكَ ، قَالَ: « لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ »[1] .

قال ابن القيم في كتابه القيم: «طريق الهجرتين وباب السعادتين»[2] كلامًا يحتاج المسلم إلى أن يقرأه مرات بعد مرات ، يقول : « اعلم أن كلَّ حيٍّ ـ سوى الله ـ فهو فقير إلى جَلْبِ ما ينفعه ودفع ما يضره ، والمنفعةُ للحيِّ من جِنس النعيم ، واللذة والمضرة من جنس الألم والعذاب ، فلا بد من أمرين :

أحدهما: هو المقصود المطلوب المحبوب الذي ينتفع به ويتلذذ به .

والثاني : هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود ،والمانع لحصول المكروه ، والدافع له بعد وقوعه » ـ فالأول أن أحقق ما أريد ، الثاني : ألا يكون هناك مانع يحول بيني وبين ما أريد.

قال ابن القيم : فها هنا أربعة أشياء :

الأول : أمر محبوب مطلوب الوجود .

والثاني: أمر مكروه مطلوب العدم .

فهذا الذي قال الله فيه :﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤] . فأيُّ سعادة تجني وقد أعرض الله عنك ؟ وأيُّ بؤس أنت فيه وقد

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب الاستغفار رقم (١٥٢٢) ، والنسائي في كتاب السهو ، باب نوع آخر من الدعاء رقم (١٣٠٢) ، وأحمد في «المسند» (٥/ ٢٤٤ ، ٢٤٥) ، وابن خزيمة في «صحيحه» رقم (٧٥١) ، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٢٣٤٥ موارد) ، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٢٧٣) ، وقال : « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» برقم (٧٩٦٩) .

(٢) انظر : «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص٥٣) وما بعدها بتصرف ، ط دار الحديث .

أقبل الله عليك ؟!!

والثالث : الوسيلة إلى حصول المحبوب .

والرابع : الوسيلة إلى دفع المكروه .

فهذه الأربعة ضرورية للعبد » .

أسأل الله أن يرزقنا صدق الاستعانة به .

*****

الثمرة الرابعة

صدق اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب

المؤمن بالقدر لا يُضَيِّعُ الأخذ بالأسباب ، لكنَّ الفارقَ بين المؤمن بالقدر وغيره ، أن المؤمن بالقدر يأخذُ بالأسباب ، ويعلق قلبه بمسبب الأسباب لا بالأسباب ، هذا هو المراد بصدق اعتماد القلب على الله .

قال شيخ الإسلام[1] رحمه الله : « ما من شيء في الدنيا والآخرة إلا بسبب ، والله خالق الأسباب والمسببات في الدنيا والآخرة » .

حتى دخولك الجنة بسبب ، ودخولك النار بسبب ، وتفوقك بسبب ، وسقوطك في أي عمل بسبب ، وهذه سننُ الله في الكون ؛ فإن لله سننًا ربانية في الكون لا تتبدل ، ولا تتغير ، ولا تحابي تلك السنن أحدًا من الخلق بحال ، مهما ادَّعى لنفسه من مُقَوِّماتِ المُحاباة ؛ قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة:٢٥١] .

فالمشركُ أخذ بالأسباب فأعطته نتائجها ، والمسلم كذلك عليه أن يأخذ بالأسباب ، لكنَّ الفارقَ بينه وبين المشرك ؛ أنَّ المسلمَ يأخذ بالسبب ويعلقُ قلبه بمسبب السبب تبارك وتعالى ، وهذه هي حقيقة التوكل .

فالتوكل على الله من أعظم ثمرات الإيمان بالقدر .

انظر إلى النبي ﷺ يوم الهجرة ، هل ترك سببًا لم يأخذ به ؟ لا ؛ بل أخذ بكل الأسباب ، أسبابِ الحيطة والحذر ؛ فالذي يتجهُ إلى المدينة يجب عليه أن يتجه شمالاً لو كان في مكة ، لكن النبيَّ ﷺ اتجه جنوبًا ؛ لأن المطاردين سيتجهون ناحية الشمال ؛ ليبحثوا بين الصخور وبين حبَّاتِ الرمال عن النبيِّ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٧٠) .

ﷺ وصاحبه ، ولن تهدأ حركة البحث في الأيام الأولى ، فيمكث النبيُّ ﷺ في الغار ثلاثة أيام !! ويبحث عن رجلٍ خِرِّيتٍ عالم بالطرق حتى ولو كان مشركًا ، إنه عبد الله بن أريقط ، وأبو بكر الصديق يُعِدُّ الراحلتين ، وعبد الله بن أبي بكر ـ رضوان الله عليهما ـ ينقل إليهما أخبار قريش ، وأسماء تحضر الطعام ، وعامِرُ بن فهيرة يأتي بالأغنام لتمحوا آثار الأغنام آثارَ الأقدام ، وهكذا لم يدع النبيُّ ﷺ سببًا إلا أخذ به ، وهذه هي حقيقةُ التوكل ، وفجأة انقطعت كل هذه الأسباب !

يا الله ! بين غَمْضَةِ عَيْنٍ وانتباهتها تَعَطَّلَتْ كل هذه الأسباب ، وحاصر المشركون الغار من كل ناحية ، والصدِّيق يقول : يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا !! فتعطلت كل الأسباب ؛ فكانت مباشرةً عظمةُ ومعيةُ مسبِّبِ الأسباب ؛ فقال المصطفى الذي يؤمن بمسبب السبب لا بالسبب ؛ كما في «الصحيحين» : « يَا أَبَا بَكْر، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا »[(1)] .

قال تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] .

هذا هو الإيمان بمسبب السبب ؛ فلقد انقطعت كل الأسباب التي أخذ بها النبيُّ ﷺ بمجرد وصول المشركين إلى الغار . وهنا تدخلت إليه ـ وعلى الفور ـ عناية مسبب الأسباب وحفظه ، والمعية هنا هي المعية الثانية من أنواع المعية .

فالمعية نوعان :

---

(1) أخرجه البخاريُّ في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم رقم (٣٦٥٣)، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه رقم (٢٣٨١) .

معية عامة :وهي معية العلم والإحاطة والشمول .

ومعية خاصة :وهي معية الحفظ والنصر والتأييد والمدد ؛ كما قال : « إِنَّ الله مَعَنَا » أي: معنا بحفظه وبرعايته وعنايته ، ومن كان الله معه فممن يخاف ؟! لا أحد .

وأتذكَّر هاجر عليها السلام في صحراء مترامية ، لا بيت فيها ولا شجرة ، ولا إنس ولا أُنس ، ولا سبب من أسباب الحياة إطلاقًا ، اللهم إلا ما وضعه إبراهيمُ عندها ورضيعها جرابًا فيه تمر ، وسقاءً فيه ماء ! فلقد تركها في وادٍ لا ترى فيه شيئًا على الإطلاق ـ من أسباب الحياة .. لا ترى إلا جبل الصفا والمروة ، وهما أقرب جبلين سودت حجارتَهما حرارةُ الشمس !! لا ترى إلا رمالاً انعكست عليها أشعة الشمس ؛ فكادت الأشعة المنعكسة فقط أن تسرق الأبصار !! فتقول له : « أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنسٌ وَلَا شَيْءٌ ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ، فَقَالَتْ لَهُ : آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا » [١].

ما أجلَّها من كلمات .. وما أروعها من عبارة .. وما أعظمه من توكل .. وما أحلاها من ثقة: «إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا» وفي رواية صحيحةٍ [٢] قالت: « رَضِيتُ بِالله » .

فكان ما كان ، نزل جبريل وفَجَّرَ عين زمزم ، ونادى على هاجر ، وقال لها : «إِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ الله يَبْنِيهِ هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ ، لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ» .

وفي رواية أخرى عند الطبري [٣] بسندٍ حسَّنه الحافظ ابن حجر من حديث

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب «يزفون» : النسلان في المشي رقم (٣٣٦٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٣٦٥) .

(٣) أخرجه الطبريُّ في «التفسير» (١/ ٥٩٥) عند قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾ [البقرة:١٢٧] ، وانظر : «فتح الباري» (٦/ ٤٠٢) ط المعرفة .

عليٍّ ﷺ: أن جبريل قال لهاجر وهي على المروة في الشوط الأخير: « مَنْ أَنْتِ؟ قَالَتْ: أَنَا أُمُّ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ ». نسبت نفسها إلى معرفة؛ لأن إبراهيم يعرفه أهل السماء - فقال جبريل، وهذا هو الشاهد من حديثي قال: « وَإِلَى مَنْ وَكَلَكُمَا؟ قَالَتْ: إِلَى الله؛ فَقَالَ جِبْرِيلُ: وَكَلَكُمَا إِلَى كَافٍ ».

قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[الزمر:٣٦].

وهذه أم موسى يقول الله تعالى لها: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾[القصص:٧].

وأودُّ أن أقف هنيهة عند هذا الأمر الرباني لأم موسى: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ يعني: صار سببُ الإهلاك سببَ أمنٍ بأمر مسبب السبب - جلَّ وعلا؛ فالبحر إن ألقيت فيه ابنك الرضيع غرق وهلك، ولكن الله يأمر أم موسى أن تلقيه في البحر لينجيه مسبب الأسباب، فيجعل سبب الإهلاك سبب نجاة حتى لا يتعلق قلبك بالأسباب؛ هل تقذف بابنك في البحر؟! سيغرق ويموت، أما هذه فيقول لها الله: اقذفيه في اليم، ليعلم أصحاب القلوب القلقة أن الله إن قدر شيئًا فعله، وإن أراد شيئًا فإنما يقول له: كن، فيكون.

وتلقي أمُّ موسى رضيعها ويتهادى التابوت في الماء ثم يتوقف بأمر الله أمام قصر فرعون !!

كم ذبح فرعون من أطفال ليصل إلى هذا الغلام المبارك ؟! ولكن الملك وعد أمه أن يردَّ موسى إليها وأن ترضعه هي فقال سبحانه: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾. يحرم الله المراضع على موسى، فقال تعالى: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ ﴾[القصص:١٢].

حتى جيء بأم موسى إلى قصر فرعون، ونجَّى الله موسى من فرعون

بستر رقيق ، ألا وهو ستر المحبة ؛ فقذف الله حُبَّ موسى في قلب امرأة فرعون ؛ فحين نظرت إليه قالت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ [القصص:٩] .

ونجَّى الله موسى ، بل ويأمر فرعون أم موسى أن ترضعه وتشبعه أمام عينيه وبين يديه ؛ فأمُّ موسى بالأمس القريب كانت تخشى على موسى من فرعون وملئه ، وهي الآن ترضع موسى في قصر فرعون بأمره !!

فمن أعظم ثمرات الإيمان بالقدر :

صدق اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب ؛ فالأسباب وحدها لا تضر ، ولا تنفع ، ولا ترزق ، ولا تمنع ، إلا بأمر مسبب الأسباب ـ جلَّ جلاله .

*****

الثمرة الخامسة

دوام الذل والانكسار والافتقار إلى الله ﷻ

كيف يُحصِّل المؤمن بالقدر هذه الثمرة ؟!

المؤمن بالقدر يشاهد القدر في فعل الحسنات وعمل الصالحات، يعني : إن أعانه الله ﷻ على طاعة ما ، لا يغتر بها ؛ لأن الذي قدر له وأعانه على هذه الطاعة هو الله ـ جلَّ وعلا ـ ولا يرى لنفسه فضلاً ، ولا يمتن على الله بعمل !!

قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧] .

والنبيُّ ﷺ يقول كما في «الصحيحين»(١): « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ » .

ونحن نشأنا في بيوت توحِّد الله فوحَّدنا الله ، ولله الفضل والمنة ؛ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢١] .

ولو وضعنا أنوفنا في الطين لنشكر رب العالمين على أن وفقنا للإيمان واتباع سيد المرسلين ، والله مَا وَفَّيْنا الله حقه حتى نلقاه ، من أجل ذلك ؛ قال النبيُّ ﷺ : « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ »(٢).

فما هو العمل الذي يكافئ هذه النعمة ؟!!

ولو وُفِّقتَ للطاعة وَأُعنت على الطاعة وألهمك الله شكرها فكيف تشكر

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين رقم (١٣٨٥) ، وانظر رقم (١٣٥٨) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة .

(٢) سيأتي تخريجه .

الله على الثالثة وهي نعمة الشكر !!

ورحم الله من قال :

لك الحمد يا ربي على كل نعمة   ومن أفضل النعماء قولي : لك الحمد

فمن عَرَفَ الله أحبَّه ، ومن عَرَفَ رسولَ الله أَحبَّهُ ؛ قال تعالى :﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥] .

ومن اللطائف الجميلة التي وقفت عليها في بعض كتب أهل العلم : لما أمر الله إبراهيم أن يذبح إسماعيل ، وقام إبراهيم لينفذ أمر مولاه، وأصبح القلب بكليته مستسلمًا محبًّا راضيًا بقدر الله وأمره ، وكان الفداء !!! فتدبر معي هذه الكلمات:

أرأيتم قلبًا أبويًّا   يتقبل أمرًا يأباه

أرأيتم ابنًا يتلقى   أمرًا بالذبح ويرضاه

ويجيب الابن بلا فزع   افعل ما تؤمر أبتاه

لن أعصي لإلهي أمرًا   من يعصي يومًا مولاه

واستلَّ الوالدُ سكينًا   واستسلم ابنٌ لرداه

ألقاه برفقٍ لجبين   كي لا تتلقى عيناه

وتهزُّ الكون ضراعات   ودعاء يقبله الله

تتضرع للرب الأعلى   أرض وسماء ومياه

ويجيب الحق ورحمته   سبقت في فضل عطاياه

صدقت الرؤيا لا تحزن   يا إبراهيم فديناه

فالمطلوب أن يسجد قلبك لله !! اللهم املأ قلوبنا بحبك ، وامنن علينا بفضلك ، وجودك ، وكرمك ، وعطائك ، ورضاك ، والشوق

لك ، والأنس بك ، اللهم إنا نسألك أن تذيقنا لذة الذكر لك ، وأنس اللقاء بك يا أرحم الراحمين .

فمن أعظم ثمرات الإيمان بالقدر : أن المؤمنَ بالقدر دائمُ الذل والافتقار إلى الله تبارك وتعالى ؛ لأنه يشاهد فضل الله في كلِّ طاعة فتدفعه هذه المشاهدةُ للقدرَ إلى مداومة التضرع إلى الله ، وطلب العفو منه ، وعدم الالتفات إلى عمله ، واعتقاده الجازم بأن فوزه في الدنيا والآخرة إنما هو بمحض فضل الله ورحمته لا بعمله !!

روى البخاريُّ ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال : «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» . قالوا : حتى أنت يا رسول الله ؟ قال : « حَتَّى أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ »[1] .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعزنا بالذل إليه ، وأن يغنينا بالافتقار بين يديه ، وأن يحفظنا من شرور أنفسنا ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل رقم (٦٤٦٧) ، ومسلم في كتاب صفات المنافقين ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى رقم (٢٨١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها .
وأخرجه البخاريُّ في كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣) ، ومسلم في كتاب صفات المنافقين باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى رقم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
وأخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى رقم (٢٨١٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

الثمرة السادسة

الصبر على الشدائد والمصائب

لاشك أن المؤمن بالقدر يعلم يقينًا أنه ما من شدة ومصيبة تقع في الكون إلا بإذن الله وأمره وتقديره ؛ قال تعالى :﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد:٢٢].

فالمؤمن الذي يشاهد القدر ينظر إلى المصيبة ، أو إلى الشدة ، أو إلى الألم ، أو إلى الضر ، أو إلى الأذى ، سواء كان هذا الضر أو الأذى في نفسه أو أهله وماله أو في أمته ، ينظر إليه على أنه تقدير الله سبحانه ، وعلى أن الدنيا كلها دار ابتلاء ، وبوتقة اختبار ، ولا يمكن أبدًا أن ينجو إنسان يعيش في هذه الدنيا من المصائب والبلايا ؛ فالدنيا دار ابتلاء ، دار اختبار، ومن استخبر النقل الصحيح والعقل السليم لعلم أن الدنيا هي دار المصائب والشرور ، وليس فيها لذة على الحقيقة إلا وهي مشوبة بالكدر !!

فلا توجد لذة في الدنيا خالصة أبدًا ، وإلا فما الفارق بينها وبين الجنة إن كانت لذات الدنيا خالصة من الشوائب والكدر ؛ فلا فرق بين لذة الدنيا ولذة النعيم في الآخرة ، لكن شاء الله ﷻ أن يكون كل نعيم في الدنيا مشوبًا بالكدر ، مشوبًا بالنقص ؛ ليكون نعيم الآخرة هو النعيم الكامل .

كما قال ﷺ في بشارة جبريل عليه السلام لخديجة حينما جاءت، والحديث في «الصحيحين»(١) حينما جاءت تحمل إناءً أو إدامًا ؛ فقال جبريل للرسول ﷺ :

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب مناقب الأنصار ، باب تزويج النبيِّ ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها رقم (٣٨٢٠) ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها رقم (٢٤٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه البخاريُّ في كتاب مناقب الأنصار ، باب تزويج

«هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي ، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ ـ أي : من لؤلؤة مجوفة ـ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ» .

فلا صخب في الجنة ولا نصب ـ أي: تعب ـ فالدنيا دار المصائب ودار الابتلاءات ، والشرور ؛ فما تظن في الدنيا أنه شراب فهو سراب، يعني : ما تنظر إليه من بعد على أنه ماء إن أقبلت إليه وجدته سرابًا !!

وعمارة الدنيا وإن حسنت صورتها فمآلها إلى الخراب ، والعجب كلُّ العجب ممن يضع يده في سلَّة الأفاعي ويعجب إنْ لُدغ !! وأعجب منه مَنْ يطلب من المطبوع على الضرِّ النفعَ ! وأعجب من كلِّ ذلك الذي يريد أن يستخرج الماء العذب الزلال من النار المتأججة!!

فالدنيا ـ أيها الأخوة ـ دار ابتلاء ؛ كما قال القائل الحكيم :

على ذا مضى الناس اجتماع وفرقة ... وميت ومولود وبشر وأحزان

وقال أبو فراس بن حمدان :

المرء رهن مصائب لا تنقضي ... حتى يواري جسمه في رمسه

فمؤجل يلقى الردى في غيره ... ومعجل يلقى الردى في نفسه[1]

ومن أعظم الأدوية التي تذهب ألم البلاء وألم المصائب في الدنيا :

أن يؤمن الإنسان الذي وقعت به المصيبة بالقدر ، فيعلم يقينًا أن هذا بتقدير الله تبارك وتعالى ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ؛ ولو اجتمعت الدنيا كلها على أن تمنع عنه هذا الأذى أو البلاء

= النبيِّ ﷺ خديجة وفضلها ﵂ رقم (٣٨١٩) ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة أم المؤمنين ـ رضي الله تعالى عنها ـ رقم (٢٤٣٣) من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﵁.

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (١١/ ٢٧٨) ، و«المنتظم» لابن الجوزي (٧/ ٦٩) ، و«لباب الآداب» للثعالبي (١٩٧) .

ما استطاعت ، ما دام رب الأرض والسماء قد قدر عليه هذا ؛ كما قال النبيُّ ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما : « وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ »[1] .

إذًا المؤمن في حال المصيبة يستحضر في ذهنه وفي قلبه ما علمه من معاني القدر ؛ أن هذه المصيبة قد وقعت بأمر الله وقدره وتقديره ، فحينئذ يرضى ويُسَلِّم ، هذا هو المؤمن .

لكن غير المؤمن يفزع ويجزع ، ويقول : لو .. ولو .. ويكثر من اللولوة والتسويف والتعجب والتمني !

فأول مرحلة من مراحل التعامل مع المصائب للمؤمن بالقدر : أن يرضى ويسلم ، ثم يسلِّي نفسه بالصبر الجميل ، فالصبر على المصيبة أَجْرُهُ عظيم ؛ قال الله ﷻ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٥،١٥٦] .

انظر إلى الفضل : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٧] . هذا فضل الصبر على المصيبة والبلاء ، فصاحب الإيمان بالقدر يرضى ويسلِّم بالمصائب والشدائد والبلايا ، ثم يسلِّي نفسه ويتسلح ويتذرع بالصبر الجميل ، وصاحب الإيمان بالقدر يجاهد في دفع المصيبة إن كانت من المصائب التي يقدر على دفعها ، كمرض مثلاً ، فهو يبذل الأسباب ويبحث عن الدواء ، أو كهدمٍ يزيل الهدم ويعيدُ البناءَ ، إلى آخر ذلك .

---

(١) سبق تخريجه .

قال عمر ﷺ: « نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله »[1].

نفرُّ من قدر الله في البلاء إلى قدر الله في العافية .

ثم إذا كانت المصيبة مما لا يستطيع المؤمن أن يدفعها ؛ لأنها وقعت وانتهى الأمر كالموت مثلاً ، في هذه الحالة فهو كما ذكرت يرضى ويسلِّم ويستسلم ويؤمن بقدر الله تبارك وتعالى ، ويردِّدُ ما عَلَّمَه له النبي ﷺ .

كما في «صحيح مسلم» : « إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي ، وَاخْلُفْنِي خَيْرًا مِنْهَا »[2].

إن قال ذلك بصدق ، سيخلفه الله ﷻ خيرًا منها ، كما أخلف اللهُ أُمَّ سَلَمَةَ برسول الله ﷺ .

إذًا الإيمان بالقدر من أعظم الأدوية التي تعين المؤمن على الشدائد والمصائب والبلايا ؛ فهذه ثمرة من أعظم ثمرات الإيمان بالقدر .

*****

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الطب ، باب ما يذكر في الطاعون برقم (٥٧٢٩) ، وانظر طرفيه هناك ، ومسلم في كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها رقم (٢٢١٩) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز ، باب ما يقال عند المصيبة رقمْ (٩١٨) ، وأحمد في «المسند» (٦/ ٣٠٩) من حديث أم سلمة ﵂ .

الثمرة السابعة

دوام الخوف والحذر

وأرجو أن تقفوا مليًّا مع هذه الثمرة العجيبة .

فالمؤمنُ بالقدر دائم الخوف والحذر ؛ لأنه لا يعلم ما قَدَّر اللهﷻ له ، لا يعلم الخاتمة ، ولا يعلم المصير ، ومن ثم فهو دائم الحذر من الخاتمة ، دائم الحذر من مكر الله ، وهذا الخوف لا يجعله يسوف ويؤجل العمل ؛ بل يدفعه دفعًا إلى العمل ، وإلى الطاعة حتى يلقى اللهﷻ وهو على الطاعة .

قال اللهﷻ : ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩] ؛ وقال اللهﷻ : ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل:٤٥] .

إذًا المؤمن بالقدر دائم الخوف والحذر من مكر الله سبحانه وتعالى ؛ فكم من سعيد بجاهه وماله انقلب عليه حالُه ؛ قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٤٠] . اللهم ثبتنا على الحق حتى نلقاك .

قال ابن القيم رحمه الله (١) : «فكم من سعيدٍ بجاهه وماله انقلب عليه حاله ورجع من حسن الجاه والنعيم إلى سوء المآل ، فأصبح يقلب كفيه ، ويضرب باليمين على الشمال ، فبينما بَدْرُ أحواله مستنيرًا في ليالي التمام ، إذ أصابه الكسوف فدخل في الظلام ، فبدّل بالأُنس وحشة ، وبالحضور غيبة ، وبالإقبال إعراضًا ، وبالقرب إبعادًا » .

كان حاله على أكمل حال من نعيم وصحة وجاه إلى آخره ؛ إذ أصابه

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٥، ٥١٦) ط دار الكتاب العربي بتصرف .

الكسوف فدخل في الظلام .. انتقل من الغنى إلى الفقر ، ومن الصحة إلى المرض ، ومن اليسر إلى العسر ، ومن الإقبال إلى الإعراض ؛ فنعوذ بالله من السلب بعد العطاء ، ومن الكدر بعد الصفاء ، ومن الظلام بعد الضياء .

سبحان من بيده القلوب يقلبها كيف شاء ، وسبحان من بيده الأمور يدبرها كيف يشاء !!

وفي « صحيح مسلم »[(١)] من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ » . ثم قال ﷺ: « اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ » .

وفي « سنن » الترمذيِّ[(٢)] بسندٍ حسن من حديث أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ كان يكثر في دعائه يقول : « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » .

وفي رواية أم سلمة: فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ ؛ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا ؟ قَالَ: « نَعَمْ ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ » .

وما سُمِّي القلب قلبًا إلا لكثرة تقلبه !

نسأل الله أن يثبت قلوبنا على الحق حتى نلقاه ؛ فقد يصبح القلب على حال ويمسي على حال ؛ فالفتن تحوِّل القلوب ، وتعصف بالقلوب ؛ كما قال

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء رقم (٢٦٥٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب القدر ، باب ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن رقم (٢١٤٠)، وأحمد في «المسند» (٣/ ١١٢) ، وصححه الألباني ﷺ في «صحيح الجامع» (٧٩٨٧) ، وأخرجه الترمذي في كتاب الدعوات (٣٥٢٢) ، وأحمد في «المسند» (٦/ ٣١٥) من حديث أم سلمة ﷺ .

حبيب القلوب محمد ﷺ.

والحديث في «صحيح مسلم» [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ:

«سَتَكُونُ فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ أَحَدُهُمْ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا».

والمؤمن بالقدر يخاف الخاتمة، ولا يعرف بأي شيء سيختم له، وهذا الخوف هو الذي مزّق قلوب الصادقين والصديقين، الذي يعلمون أن العبرة بالخواتيم، وأن الخواتيم ميراث السوابق.

ففي «الصحيحين» [(٢)] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وفيه أنه ﷺ قال:

«فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا».

وفي لفظِ سهل بن سعد الساعدي في «الصحيحين» [(٣)]:

قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ».

فقوله ﷺ: «فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ» عبارة نبوية دقيقة تزيل كل لبس وإشكال، لكن رب الناس يعلم منه غير ما يظهر وما يبدي؛ فهو رجل مراءٍ، والرياء مردودٌ.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن رقم (١١٨).

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب القدر، باب في القدر رقم (٦٥٩٤)، ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله، وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٤٣)، وأبو داود في كتاب السنة، باب في القدر رقم (٤٧٠٨).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب القدر، باب العمل بالخواتيم رقم (٦٦٠٧)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله، وشقاوته وسعادته رقم (١١٢)، واللفظ لمسلم.

قال الله ﷻ في الحديث القدسي [(١)]: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». حتى لو كان العمل في أعين الناس عظيمًا.

وفي لفظِ ابن ماجه بسندٍ صحيح: «فَأَنَا مِنْهُ - أي: من هذا العمل - بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ» [(٢)].

نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص في الأقوال والأعمال والأحوال، وأن يجنبنا الرياء والنفاق؛ إنه على كلِّ شيء قدير.

ولذلك لما نام سفيان الثوري - وهو إمام الزهد والعلم والحديث - على فراش الموت بكى بكاءً شديدًا، فقال له رجل: يا أبا عبد الله، أتخشى ذنوبك؟!

فقال سفيان الثوري - رحمه الله تعالى - وقد رفع شيئًا من الأرض - يعني: عودًا صغيرًا: والله لذنوبي أهون عندي من هذا، ولكني أخاف أن أُسْلَبَ الإيمان قبل الموت، فلما دخل عليه حماد بن سلمة ؒ قال له حماد: أبشر يا أبا عبد الله، إنك مُقْبِلٌ على من كنت ترجوه، فبكى سفيان وقال لحماد: أسألك بالله يا حماد! أتظن أن مثلي ينجو من النار، أتظن أن مثلي ينجو من النار؟!!..

هؤلاء هم المؤمنون، وكيف لا؟! وقد خاف سيدُ المؤمنين وإمامُ النبيين وحبيبُ رب العالمين قال: «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً» [(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله رقم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة رقم (٤٢٠٢)، وقال البوصيريُّ في «الزوائد»: «إسناده صحيح رجاله ثقات» وقد سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع رقم (٧٣٠١)، وأحمد في «المسند» (٦/ ٦١، ١٢٢) من حديث عائشة ؓ.

بل والله لقد خافت الملائكة التي لا تفتر عن ذكره وتسبيحه ؛ بل لقد خاف الرعد منه سبحانه ، أولم تقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد:١٣] .

اللهم املأ قلوبنا بالخوف منك ، وبالخشية لك وحدك .

وفي الحديث الذي رواه أحمد [(١)] بسندٍ حسن من حديث أبي ذر رضي الله عنه : أنه ﷺ قال : «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ ، أَطَّتِ السَّمَاءُ ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ ؛ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ ، تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ » .

وفي «الصحيحين» [(٢)] من حديث أنس رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط كان مما قال : « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» قَالَ : فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ ، قَالَ : غَطَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ.

أي : لهم بكاء بصوت مكتوم ، وهذا هو الفرق بيننا وبين أصحاب نبينا ﷺ ؛ لأنهم امتلأت قلوبهم بحب الله والخشية منه .

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٧٣) ، والترمذي في كتاب الزهد ، باب في قول النبيِّ ﷺ : « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً » رقم (٢٣١٢) ، وقال : « هذا حديث حسن غريب » ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الحزن والبكاء رقم (٤١٩٠) ، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥١٠) ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وسكت عنه الذهبي .

قلت : فيه إبراهيم بن مهاجر ؛ مختلف فيه . وقد سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب التفسير ، باب ﴿ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ رقم (٤٦٢١) ومسلم في كتاب الفضائل ، باب توقيره ﷺ ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه رقم (٢٣٥٩) .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود والنسائي (١) من حديث عبد الله بن الشخير ﷺ أنه قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَلِصَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ» يعني: مِنَ الْبُكَاءِ أي: صوت الماء الذي يغلي.

فالمؤمن بالقدر يخشى الله ﷻ، ويخشى مكر الله، ويخشى الخاتمة؛ لأنه لا يعلم ما الذي قُدِّرَ له، وهو الذي يعلم قول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾، ويعلم قول الله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾.

ويعلم الأحاديث الكثيرة التي رددناها مرارًا ونحن نتحدث عن القدر، فكل شيء قد قُدِّرَ وفرغ الله تعالى منه يوم خلق القلم «وقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ؛ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» وقد تقدم.

وكما في «صحيح مسلم» (٢): «كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».

فالمؤمن بالقدر على وجلٍ وخوفٍ وحذر يدفعه دائمًا إلى العمل حتى يلقى الله ﷻ وهو على طاعة.

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى: «لقد أجرى الله الكريم عادته بكرمه، أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه» (٣).

فالخواتيم ميراث السوابق؛ فإن كانت السابقة حسنة، كانت الخاتمة حسنة.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب البكاء في الصلاة رقم (٩٠٤)، والنسائي في كتاب السهو، باب البكاء في الصلاة رقم (١٢١٣)، والترمذي في «الشمائل»، باب ما جاء في بكاء الرسول ﷺ رقم (٣٠٥)، وأحمد في «المسند» (٤/ ٢٥، ٢٦)، وقال الشيخ شعيب في تحقيقه للمسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى ﷺ رقم (٢٦٥٣).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١/ ٥١٤) [سورة آل عمران، آية: ١٠٢].

ولما نام الشافعيُّ على فراش الموت قالوا : كيف حالك يا أبا عبدالله ؟ كيف أصبحت ؟

فقال الشافعيُّ الإمام : أصبحت من الدنيا راحلاً ، وللإخوان مفارقًا ، ولعملي ملاقيًا ، ولكأس المنية شاربًا ، وعلى الله واردًا ، ولا أدري أتصير روحي إلى الجنة فأهنيها ، أم إلى النار فأعزيها ، ثم قال :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي   جعلت الرجا مني لعفوك سُلَّمَا
تعاظمني ذنبي فلما قرنته   بعفوك ربي كان عفُوك أعظما
وما زِلتَ ذا عفوٍ عَنْ الذنبِ لم تزل   تجودُ وتعفو مِنَّةً وتكرما[1]

فهذه ثمرة من أعظم ثمرات الإيمان بالله والإيمان بقدر الله ـ جلَّ وعلا ـ أسأل الله أن يرزقنا خاتمة السعادة وألا يحرمنا الزيادة ؛ إنه على كلِّ شيء قدير .

*****

(١) «السير للذهبي» (١٠/ ٧٢) .

الثمرة الثامنة

الثبات على الحق

المؤمن بالقدر الذي يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن كل شيء يحدث له إنما هو مكتوب ومقدور عليه، فهذا رجل يواجه الشدائد والمصاعب والظَلَمَة وأهل الباطل بقلب ثابت ، وبجنان لا يهتز ، ولا يخشى من أحد ؛ لأنه يعلم يقينًا أن رزقه ليس بيد أحد ، وأن ضره ونفعه ليس بيد أحد ؟!!

والمؤمن بالقدر يعلم أن رزقه قَدَرٌ، وأن أجله قَدَرٌ ، وأن الضار النافع هو الله ، وأن القابض الباسط هو الله ، وأن المعز المذل هو الله ، وأن الخافض الرافع هو الله ، وأن أهل الأرض لو اجتمعوا على أن يضروه ما استطاعوا ، إلا إن كان الله قد قدر عليه هذا الضر ، ولو اجتمع أهل الأرض على أن ينفعوه لن يستطيعوا ، إلا إذا كان الله قد قدر له هذا النفع .

إذًا فهو ثابت على المنهج ، ثابت على المبدأ ، ثابت على الحق ، لا يخشى الشدائد والصعاب ، ولا يخشى الظَلَمَة على وجه الأرض ، وإنما يسير بخطًا ثابتة ، يبلغ دين الله ، ويبين منهج الله ، وهو يعلم علم اليقين أنه لا يقدر أحد على ضره أو نفعه إلا بأمر الله رب العالمين .

هذا الإيمان هو الذي حوَّل سحرةَ فرعون من فجرة أشقياء ، إلى بررة أولياء ؛ فقد كانوا يقولون : ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٤٤] ثم سطر الله بعد ذلك قولتهم الخالدة لفرعون: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه:٧٢] !

هذا الإيمانُ هو الذي حَوَّلَ أصحاب النبيِّ ﷺ من رعاة للإبل والغنم، إلى سادةٍ وقادةٍ لجميع الدول والأمم ، كان أحدهم يقحم نفسه في الشدائد ؛ بل

في قلب المعركة يبحث عن الشهادة .

كان أبو دجانة يترس على النبيِّ ﷺ في أُحد ، ويجعل ظهره حائطَ صدٍّ منيعٍ ، تتساقط عليه السهام والرماح ، وهو يعلم يقينًا أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه .

وهذا طلحة بن عبيد الله ، يقاتل بين يدي رسول الله ﷺ حتى قُطِعَتْ يدُهُ وشُلَّتْ يمينه [(١)]، وهذا أبو طلحة الأنصاري يدافع عن النبيِّ ﷺ يوم أحد ويقول له : « نحري دون نحرك يا رسول الله » [(٢)].

هذا الإيمان هو الذي جعل حنظلة غسيل الملائكة يقوم من بين أحضان عروسه ودفء فراشه ؛ ليلقي بنفسه في ساحة الوغى ، وميدان البطولة والشرف ، في الصفوف الأولى مع رسول الله ﷺ، وهو يبحث عن الشهادة في سبيل الله [(٣)].

هذا الإيمان هو الذي جعل العلماء الصادقين يبلغون دين الله بقلب ثابت وكلمات واضحة صادقة ، بحكمة بالغة ، وموعظة حسنة ، لا يخشون في الله لومة لائم ؛ بل لا يخشون إلا الله الذي يرزقهم وحده ، والذي يملك ضرهم ونفعهم وحده ، ومن ثم فهم يبلغون دين الله بقلب ثابت، وبجنان لا يضطرب ولا يختل ؛ فهم لا يرغبون ولا يرهبون إلا الله ؛ فهذه ثمرة من أعظم ثمرات الإيمان بالقدر .

---

(١) البخاريُّ ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب ذكر طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه (٣٧٢٤).

(٢) البخاريُّ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب مناقب أبي طلحة رضي الله عنه (٣٨١١) ، ومسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة النساء مع الرجال (١٨١١) .

(٣) الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢٠٤، ٢٠٥) ، وهو في «الصحيحة» (٣٢٦) .

وأعجب للإمام أحمد ـ إمام أهل السنة رحمه الله ـ الذي تعرض للبلاء والسجن فصبر صبرًا مذهلاً، وذهب إليه أهلُ العلم وطالبوه أن يفتي بأن القرآن مخلوق قال: ومتى يعلم الناسُ الحقَّ؟ وصبر على الأذى فصار إمامًا، ووالله ما عُرِفَتْ إمامته بهذه الصورة إلا بعد هذه المحنة والفتنة.

ومن أعجب ما قرأت: أن جُنْدَ الحَجَّاج سَمِعُوا يومًا غلامًا صغيرًا يسيء إلى الحجاج، فقبضوا عليه، وأحضروه بين يدي الحجاج، وهو يجلس في مجلسه في أبهة وفخفخة بين يدي وزراء ووجوه أهل العراق؛ فلما دخل الغلامُ ودفعه الجندُ دفعًا، وقف بين يدي الحجاج وراح ينظر إلى مجلس الحجاج منبهرًا، ثم قرأ الغلام قول الله تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء:١٢٨، ١٢٩]، فكان الحجاج متكئًا فجلس، وهؤلاء مع ظلمهم كانوا يُجِلُّون القرآن، وكانوا إن ذُكِّروا بالقرآن تَذَكَّروا، بل وكانوا يحكمون بشريعة القرآن، فلما سَمِعَ الحجاجُ قولَ الله: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ استوى ثم نظر إلى الغلام وقال: يا غلام! إني أرى لك عقلاً وذهنًا، أحفظت القرآن؟!! فقال الغلام: وهل خِفْتُ على القرآن من الضياع حتى أحفظه أنا؟! ففهم الحجاج أنه أخطأ السؤال، فقال له: أفجمعت القرآن؟ فقال الغلام: وهل كان القرآن مُفَرّقًا لأجمعه أنا؟ ففهم الحجاج أنه أخطأ السؤال، فقال: أفاستظهرت القرآن؟ قال: معاذ الله أن أجعل القرآن وراء ظهري. فقال الحجاج: قاتلك الله! ماذا أقول؟ قال الغلام: إن أردت أن تسأل عن هذا فقل: هل أوعيت القرآن في صدرك؟ فقال الحجاج: هل أوعيت القرآن في صدرك؟ قال الغلام: كله والحمد لله. قال الحجاج: اقرأ عليَّ شيئًا منه،

فجلس الغلام وقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر] . ثم التفت إلى الحجاج وقال : كانوا يدخلون في دين الله أفواجًا على عهد رسول الله ﷺ ، أما في عهدك فإنهم يخرجون أفواجًا يا حجاج. (قال: ويحك ، الويل لك ، ألا تعرف من تخاطب ؟ قال : أخاطب الحجاج بن يوسف ؛ فقال الحجاج لجلسائه : ما تقولون في هذا الغلام ؟ قالوا : اقتله ، فلقد خلع الطاعة وفارق الجماعة !! فقال الغلام للحجاج : يا حجاج ، جُلَسَاءُ فرعونَ خيرٌ من جلسائك . قال : وكيف ؟ قال : لأن جلساء فرعون حين سألهم عن موسى وهارون قالوا له : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ [الأعراف:١١١] ، لكن جلساءك يقولون : اقتله ، وبذلك أكون قد أقمت عليك الحجة أمام الله) [(١)].

فقال الحجاج : ما تقول في أمير المؤمنين ؟ فقال الغلام : رضي الله عن أبي الحسن . قال : لا أقصد عليًّا رضي الله عنه ، إنما أقصد عبد الملك بن مروان . قال : عليه من الله ما يستحقه . قال : ويحك ! ولم ؟ قال : لأنه أخطأ خطيئة كبيرة . قال : وما هي ؟ قال : أن ولاك أنت على المسلمين لتستحل دماءهم وأموالهم ؛ فالتفت الحجاج إلى هذا الغلام الثابت وقال له : والله لقد عفوت عنك ، وأمرت لك بمائة ألف درهم ؛ لِحُسْنِ توكلك على الله ﷻ ؛ فقال الغلام : العفو بيد الله لا بيدك ، والفضل لله لا لك ، ولا جمع الله بيني وبينك !! ثم خرج .

وكم من مواقف لكثير من أهل الفضل وأهل الحق ، ممن يعلمون يقينًا أن دينهم أغلى من الدنيا ، فهم يبلغون الدين بحكمة بالغة ، وموعظة حسنة ،

---
(١) ما بين القوسين في «تاريخ دمشق» (١٢/ ١٧٩) .

وكلمة رقيقة رقراقة ، ويعرفون متى يقولون؟ وكيف يقولون؟ ويعرفون الوقت المناسب ، ولا يداهنون أحدًا ، ولا يفرطون في دينهم من أجل دنيا زائلة ، أو من أجل كرسي زائل ، إنما هم يتحركون بخطوات ثابتة ، وبمنهج واضح ، ولم لا ؟! وهم لا يقولون إلا : قال الله ، وقال رسول الله ﷺ ؛ ولعلمهم يقينًا أن الأجل مُقَدَّرٌ وأن الرزق مُقَدَّرٌ ، وأن أهل الأرض لا يملكون لهم خيرًا ولا نفعًا إلا بأمر من يدبر الكون كله ـ جلَّ وعلا .

*****

الثمرة التاسعة

الإيمان بالقدر دواء لكثير من أمراض القلوب

من يؤمن بالقدر يحمل قلبًا نظيفًا طاهرًا من الغل والحقد والحسد والغش والضغينة لإخوانه ؛ لأنه إن نظر إلى أخٍ من إخوانه ووجده في نعمة فهو يعلم يقينًا أن الذي أنعم عليه بهذا هو الله ؛ فهو يحبُّ لأخيه النعمة ويضرع إلى الله سبحانه وتعالى الذي رزق أخاه أن يرزقه بما رزق أخاه ؛ فهذه كلها أمراض للقلب لا تداوى إلا بالإيمان بالله سبحانه وتعالى .

قال ابن سيرين[١] ـ تدبروا هذه الكلمات الجميلة : « ما حسدت أحدًا على شيء من أمور الدنيا ؛ لأنه إن كان ـ أي هذا الرجل ـ من أهل الجنة ، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا وهو مصيره إلى الجنة ، وإن كان ـ هذا الرجل ـ من أهل النار فكيف أحسده على شيء من أمور الدنيا ، وهو يصير إلى النار؟! » .

فالحسد يحرق صاحبه ، والمحسود قد يُصابُ بالعين إن كانت العين خبيثة ؛ لأن النبي ﷺ يقول : « إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ »[٢]

وفي صحيح مسلم[٣] من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الْعَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ ، سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ » .

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٣/ ٢١٥ ، ٢١٦) ، وابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ١٢٦) ، وابن سعد في «الطبقات» (٧/ ١٩٦) مختصرًا .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب الطب ، باب العين حق رقم (٥٧٤٠) ، ومسلم في كتاب السلام ، باب الطب والمرض والرقى رقم (٢١٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
وأخرجه مسلم في كتاب السلام ، باب الطب والمرض والرقى رقم (٢١٨٨/ ٤٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه مسلم كتاب السلام ، باب الطب والمرض والرقى (٢١٨٨) .

وفي رواية : « إِنَّ الْعَيْنَ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ ، وَالْجَمَلَ الْقِدْرَ » [(١)].

اللهم اكفنا شرَّ الحاسدين والحاقدين ؛ فالحاسد والحاقد يحرق نفسه في الدنيا والآخرة !!

وأقول: إذا أنعم الله تبارك وتعالى على أخيك بنعمة فلك في هذه النعمة حالتان :

الأولى : أن تكره تلك النعمة وأن تحب زوالها ، وهذا هو الحسد المحرم

الثانية : ألا تكره وجودها وألا تحب زوالها ، لكنك تشتهي لنفسك هذه النعمة ، وهذه هي الغبطة ، ولا شيء فيها ولا حرج ، فالنفسُ جُبِلَتْ على حُبِّ الخير ، فهذا أمر جبليٌّ وفطريٌّ ، والحسد عدوُّ النعم ، وبريدٌ لملء القلب بالتسخط على قضاء الله وقدره .

ففي الحديث الذي رواه أحمد والترمذيُّ والبزار والبيهقي [(٢)] بسندٍ مختلف فيه من حديث الزبير بن العوام ﷺ قال ﷺ : « دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ : الْحَسَدُ ، وَالْبَغْضَاءُ» .

وفي «الصحيحين» [(٣)] أنه ﷺ قال : « لَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٩٠)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٩/ ٢٤٤)، والقضاعي في «مسنده» (١٠٥٧، ١٠٥٩) ، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٢٤٩) .

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ١٦٥، ١٦٧) ، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٩٧) ، والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ٥٦ رقم (٢٥١٠) ، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٣٢)، والبزار في «مسنده» (٢٢٣٢) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٣٠): « إسناده جيد » ، وقد ضعفه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٣/ ٢٣٨) ثم حسنه في «صحيح الجامع» (٣٣٦١) وحسنه لغيره في «صحيح الترغيب» (٢٦٩٥) وضعف إسناده الشيخ أحمد شاكر والشيخ شعيب في «المسند» .

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب الأدب ، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر رقم (٦٠٦٥) ، ومسلم في كتاب البر والصلة ، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر رقم (٢٥٥٩) من حديث أنس ابن مالك ﷺ .

وأخرجه البخاريُّ في كتاب الأدب ، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر رقم (٦٠٦٤) =

تَدَابَرُوا ، وَلَا تَقَاطَعُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا » .

«لَا تَبَاغَضُوا» أي : لا يبغض بعضكم بعضًا على أمور الدنيا ، لكن لو كان الأمر للدين ولله : فهذا ولاء لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين ، وبراء من الشرك والمشركين .

والنبيُّ ﷺ يقول : «مَنْ أَحَبَّ للهِ ، وَأَبْغَضَ للهِ ، وَأَعْطَى للهِ ، وَمَنَعَ للهِ ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ » (١).

قوله :« وَلَا تَقَاطَعُوا » يعني : لا تجعلوا القطيعة فيما بينكم ، فقطيعة الرحم من الكبائر. «وَلَا تَحَاسَدُوا» أي: لا يحسد أحدكم أخاه على ما فيه من فضل ونعمة ، «وَلَا تَدَابَرُوا» أي : لا يعرض أحدكم عن أخيه كُلَّمَا لقيه . «وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا» .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠] ، ولذلك أنا أقولُ دومًا : إذا وجدت إيمانًا بلا أُخوَّة فاعلم بأنه إيمان ناقص ، وإذا وجدت أخوة بلا إيمان فاعلم بأنها ليست أخوة ، وإنما هو التقاء مصالح وتبادل منافع ؛ إذا انتهت المصالح وزالت المنافع زالت الأخوة !!

نسأل الله أن يرزقنا الحبَّ فيه ، وأن يجعلنا من المؤمنين المتآخين المتحابين ؛ إنه على كلِّ شيء قدير .

أما الحديثُ المشهور في هذا الباب والذي يردِّده كثيرٌ من إخواننا من الدعاة ، والحديث رواه أبو داود (٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ

= ومسلم في كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ، ونحوها رقم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه رقم (٤٦٨١) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، وصححه الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٣٨٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ، باب في الحسد رقم (٤٩٠٣) ، وعبد بن حميد في «المنتخب» =

يقول : « فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ ».

فهذا حديثٌ ضعيف ؛ لأن في سنده عيسى بن أبي عيسى وهو ضعيف ، وفي سنده أيضًا رجل مجهول ؛ فالحديث غير ثابت عن النبيِّ ﷺ .

فالحسد والحقد والضغينة والغل وكثير من أمراض القلب لا تذهب إلا بالإيمان بالقدر ؛ فإن آمنت وتذوقت حلاوة الإيمان بالقدر ذهبت عنك هذه الأمراض ؛ ففرق كبير جدًّا بين نقل الكلمات وبين تذوق الكلمات والعيش بهذه الكلمات .

يعني : لا تظن أنك بهذه الكلمات أصبحت مؤمنًا بالقدر؛ بل لابد أن تحوِّل هذه المعاني في حياتك إلى واقع ؛ لتشعرَ بلذَّةِ الإيمان بهذه الثمرات ، لابد أن تجاهد نفسك ، وأن تستعين بربك ، وأن تؤمن بالقدر ، وأن تُقنعَ قلبكَ وعقلك أن الذي أعطى فلانًا هو الله ، وأعطاه بحكمة ولحكمة ؛ فإن آمنت بأن المعطي هو الله رضيت وسلمت، ورجوت الله الذي أنعم على أخيك أن ينعم عليك .

فالإيمان بالقدر من أعظم الأدوية لكثير من أمراض القلوب من الحقد ، والحسد ، والغل ، والضغائن ، والبغضاء ، والعداوة ، والتدابر.. إلى آخر ذلك .

وعلاجُ الحسد يكون ـ كما قال الإمام المقدسيُّ رحمه الله [(١)] : «بالرضا بالقضاء والقدر ، وتارة بالزهد في الدنيا ، وتارة بما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة ، فيتسلى المؤمن بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس

= من «المسند» (١٥٣،١٥٤) من حديث أبي هريرة . وفي إسناده جدُّ إبراهيم بن أبي أسيد وهو مجهول . ورواه البخاريُّ في «التاريخ» رقم (٨٧٦) ، وأخرجه ابن ماجه في كتاب «الزهد» ، باب الحسد رقم (٤٢١٠) ، من حديث أنس ، وفيه عيسى بن أبي عيسى وهو ضعيف . وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف «سنن أبي داود وابن ماجه» و«ضعيف الجامع» (٢١٩٧) .

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (١٣٩، ١٧٠) .

أصلاً ولا ينطق ، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته » يعني : إذا لم يحول الذي في نفسه إلى كلمات حاقدة حاسدة ، أو إلى أفعال حاقدة حاسدة لا يضره ما تحدثه به النفس أحيانًا ، فالنفس قد جبلت على مثل هذا .

أما الذي يصل به الحقد والحسد إلى أن يحقد ويحسد عالمًا من العلماء على علمه ، فهذا أمر لا تقع فيه إلا النفوس الخبيثة ! فالنفس مجبولة على أنها تحسد في أمر من أمور الدنيا ، لكن أن تصل النفس الخبيثة إلى الحسد للعلم أو للنبوة ؛ فهذا لا يقع فيه إلا النفوس الشريرة الكافرة والخبيثة ؛ كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف:٣١، ٣٢] ، وقال تعالى . ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء:٥٤] .

فاليهود حسدوا النبيَّ ﷺ على ما آتاه الله من نعمة النبوة بعدما علموا أنه من العرب وليس من جنسهم ؛ فهذه طبائع اليهود وطبائع المشركين والعياذ بالله !!

قال المقدِسيُّ [(١)] : « فأما من يحسد نبيًّا على نبوته ، أو عالمًا على علمه ، فيؤثر ألا يرزق ذلك أو يزول عنه ، فهذا لا عذر له ، ولا تجبل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة » .

يعني : إذا تمنى رجل زوال العلم من عالم ، فهذا لا تُجبَلُ النفوس السوية على مثله ؛ بل لا تتطاول إلى هذا الشر إلا النفوس الكافرة أو الشريرة ، فأما إن أحب أن يسبق أقرانه من الدعاة فإنه لا يأثم بذلك ، فإنه لم يؤثر زوال ما

(١) المصدر السابق .

عندهم من علم ؛ بل أحب الارتفاع عنهم ؛ ليزيد حظه عند ربه ، وليس عند الناس ، وهذه مسألة أيضًا دقيقة جدًّا ، فإن كان يزيد من أجل الثناء ، ومن أجل الوجاهة ، والجاه ، والرياسة ، والشهرة ؛ فهذا هو الرياء الذي لا يقبله الله ﷻ.

اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل .

فالحسدُ من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل .

فاعلم أيها الحبيب أن كل شيء بقدر الله، وأن كل رزق بتقدير الله ، وأن كل نعمة بفضل الله ﷻ وتقديره ؛ فلا تحقد ولا تحسد ، وسَلِ الله ﷻ الذي أنعم على إخوانك أن ينعم عليك من فضله ، والله ذو الفضل العظيم .
واعلم بأن الله يعطي ويمنع لحكمة ؛ إنه عزيز حكيم ، ولا يظلم ربك أحدًا .

فإن من العباد من لا ينفعه إلا الغنى ، ولو أفقره الله لأفسده ذلك .

ومن العباد من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغناه الله لأفسده ذلك .

ومن العباد من لا يصلحه إلا الصحة ، ولو أسقمه الله لأفسده ذلك .

ومن العباد من لا يصلحه إلا المرض ، ولو صح لأفسده ذلك .

فلا يوجد شيء في الكون بدون حكمة وبغير حكمة ؛ فالله هو الحكيم الخبير ؛ سواء علمنا الحكمة أم جهلناها ؛ فالله ـ جلَّ وعلا ـ يقدِّر بحكمةٍ وعلمٍ .

*****

الثمرة العاشرة

الصدق والوضوح

المؤمن بالقدر صادق مع ربه ، ومع نفسه ومع الناس ، وواضح لا يعرف المداهنة ، ولا يعرف النفاق ، ولا يعرف اللف ولا الدوران ؛ فالإنسان بطبعه اجتماعي لا يعرف أن يعيش وحده ، بل جُبِلَ على أن يعيش مع الناس ، إمَّا أن ينهج مع الناس في التعامل قولاً وعملاً منهجًا واضحًا صادقًا ، وإما أن يَعيش ملتويًا منافقًا مرائيًا مداهنًا ، لا يجيد إلا اللف والخداع والكذب والدوران ؛ هذان صنفان موجودان بين الناس: صنف صادق واضح ، وصنف مخادع مضلل ؛ فالفريق الأول هو الذي يؤمن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن كل شيء بتقدير الله ﷻ؛ لذا ، فهو يعاملُ الناس ، بمنتهى الصدق والوضوح ، لا يداهن أحدًا ، ولا ينافق أحدًا ؛ لأنه يعلم أن أمره بيد الله .

وصنفٌ آخر لم يحقق الإيمانَ بالقدرِ يخشى هذا ، بل يظن أن رزقَهُ بيد واحد من البشر لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا يقدر أصلاً على أن يرزق نفسه فضلاً عن غيره ، فهذا الصنف لا يجيد إلا التملُّق والمداهنة والنفاق ؛ لأنه لم يذق ثمرةَ الإيمان بالقدر ، ولم يعلم أن رزقه وأجله، وسعادته ، وشقاوته ، وأمره كلَّه قد قُدِّرَ وهو في بطن أمه ، وربما سمع ذلك ، لكنه لم يحقق ذلك قولاً واعتقادًا وعملاً .

فمن أعظم ثمرات الإيمان بالقدر : الصدق والوضوح والاستقامة على دين الله تبارك وتعالى ، وعلى منهج رسول الله ﷺ؛ فإيمانه بالقدر يورثه ذلك ،

ولا يحسن أن يعيش إلا بهذا ، فتراه إن كذب مرة يحتقر نفسه ، وتراه إن خدعَ أخًا من إخوانه مرة لا يحسن أن ينام ؛ لأنه دائم المحاسبة ، وهذا هو المؤمن.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الإيمان بالقدر ، وأن يذيقنا حلاوة مغفرته وبردَ عفوه ، وأن يرزقنا الإخلاصَ والصدق في الأقوال والأعمال والأحوال ، وألا يجعل حظَّنا من ديننا قولنا ، وأن يحسن نيَّاتنا وأعمالنا ، وأن يختم لنا بخاتمة السعادة ، وألا يحرمنا الزيادة ، إنه وليُّ ذلك ومولاه .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

*****



كتاب الإحسان

« أنْ تَعْبُدَ اللّه كأنكَ تراهُ ، فَإِنْ لمْ تكُنْ تراهُ فَإِنهُ يرَاكَ »

الإحسان
وقفات مع معاني الإحسان

تحدثنا في الأبواب المتقدمة عن أركان الإسلام والإيمان ، وحديثنا بإذن الله تعالى في هذا الباب عن « الإحسان » ؛ فتعالوا بنا لنبدأ التطواف في بستان ماتع ، وارف الظلال ، عبير الشذى والأزهار .

وأقول : لن أتمكن البتة من قطف كل زهرات هذا البستان ؛ فمن اليسير جدًّا أن نقطف زهرة واحدة من وسط صحراء مقفرة ؛ لأنها بلا ريب ستلفت نظرك ، لكن من العسير جدًّا أن نقطف زهرة وسط حديقة غناء تضمُّ كلَّ أنواع الزهور ، وتحوي كل أنواع العبير والرياحين .

فبستان الإحسان بستانٌ أرى فيه الحكمة العربية القديمة التي تقول : « مَنْ أَخْصَبَ تَخَيَّر » ، وأراها ستنقلب علينا فستكون : « من أخصب تحيَّر » ؛ فالأزهار كثيرةٌ ، والدروس متعددةٌ ، ودرجات الإحسان متنوعةٌ ، ومقامات الإحسان كثيرةٌ واسعةٌ ، بِسِعَةِ الدين كما سأبيِّن الآن .

فتعال بنا ـ أيها الحبيب ـ وأسأل الله تعالى أن يجعلنا من المحسنين ــ لنبدأ التطواف في بستان «الإحسان» ، وأشهد الله أنني أتحدث عن الإحسان لا من منطلق الشعور بالأهلية ، وإنما من منطلق الشعور بالمسئولية ، وهذا ما تؤصِّله وتقرِّره القاعدة الأصولية : « مَنْ عَدِمَ الماءَ تيمَّم بالتراب » .

فوالله ما شممنا رائحة القوم ؛ بل نتلَمس الخُطا ، أسأل الله أن يحشرنا وإياكم جميعًا مع المحسنين : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة:١٣] .

وسأقف وقفةً شاملةً دون تفصيل ؛ فهذه وقفات مجملة لنتعرف أولًا عن الإحسان لغة ، ولنعرف الإحسان شرعًا واصطلاحًا ، ولنقف مع بعض

آيات القرآن الكريم وأحاديث النبيِّ ﷺ ، ولنقف مع بعض كلمات السلف الصالح في الإحسان .

لنمتع القلوب بالوقوف مع أمثلة عملية تطبيقية للنبيِّ ﷺ في الإحسان ، ثم بعد ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ أُفَصِّل القول في الإحسان .

فالإحسان ؛ كما عرَّفه النبيُّ ﷺ هو : « أَنْ تَعْبُدَ الله كأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » ؛ فمن ثَمَّ ينقسم الحديثُ إلى مِحْورين أساسيين : المحور الأول في العبادة : وسأطيل النَّفَس جدًّا في العبادة ؛ فهي الغاية التي من أجلها خلق الله الخَلْقَ ، وهي الأصل الأول من الإحسان : « أَنْ تَعْبُدَ الله كأَنَّكَ تَرَاهُ » .

فسأتحدث عن العبادة : معناها لغةً واصطلاحًا ، وسأتحدث عن أقسام الناس في العبادة ، وعَنْ مَنْ نعبد ، وعن كيفية العبادة ، وعن سبب العبادة .

ثُمَّ بعد ذلك أتكلَّم عن الإحسان في العبادة ذاتها ، ثم بعد ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ سأتكلَّم عن الشطر الثاني ، أو المحور الثاني من أصول الإحسان ؛ ألا وهو : « فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » سأتحدث فيه عن المراقبة ، والخشية ، والإنابة ، والخوف ، والمحبة .... إلى آخر مقامات الإحسان . وسيستغرق هذا الحديث العظيم من أبواب الدين شيئًا كثيرًا ـ كما ذكرت .

أسأل الله أن يجعل حظَّنا موفورًا ، ورزقنا مباركًا ، وأن يرزقنا وإياكم الإخلاص والإحسان ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

أولًا : الإحسانُ لغةً[1]: ضدُّ الإساءة؛ فالمحاسن في الأعمال ضدُّ المساوئ في الأعمال ، والمحاسن في الأقوال ضدُّ المساوئ في الأقوال ، وقول الله تعالى :

---

(١) « لسان العرب » لابن منظور (٣/ ١٧٩) .

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾[الرعد:٢٢] .

أي : يدفعون بالكلام الحسن ما ورد عليهم من سيء لغيرهم ، فإذا آذاهم أحدٌ قابلوه بالجميل صبرًا واحتمالًا وصفحًا وعفوًا ؛ كما قال تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[فصلت:٣٤] (١).

وكما قال النبيُّ ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذيُّ وأحمد بسندٍ صحيحٍ بمجموع طرقه (٢): « يَا مُعَاذُ ! اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتُ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » .

فأهل الإيمان يدرؤون بالحسنة الأقوال والأعمال والأحوال السيئة ؛ فالأحوال ؛ كالتوكل ، والرجاء ، والإنابة ، والخوف ، والخشية .. هذا في مقام الحسنة ، وفي مقامات السيئات : الشرك ، والنفاق ، والرياء ، والعُجب ، والبُغض ، والحقد ، والحسد ، والغل... إلى آخره.

وهذه كلُّها مقامات وأحوال بين الحسن والسيئ .

وحسَّنت الشيء تحسينًا ، أي : زينته ، وجمَّلته ، وأحسنت إليه ، وأحسنت به .

وروى الأزهريُّ (٣): عن أبي الهيثم أنه قال في قوله تعالى ـ في قصة يوسف : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾[يوسف:١٠٠] ؛ قال : «أي : قد أحسن إليَّ » .

ويختلف معنى الإحسان اصطلاحًا بمختلف السياق الذي يردُ فيه لفظُ الإحسان ؛ فإذا اقترن الإحسانُ بالإيمان والإسلام كان المرادُ به الإشارةَ إلى المراقبة ، وحسن الطاعة ، وهذا هو الذي فسَّره النبيُّ ﷺ في جوابه على جبريل :

---

(١) « تفسير ابن كثير » (الرعد / ٢٢) (٨/ ١٣٦ ط أولاد الشيخ).

(٢) تقدم ؛ وراجع : جامع العلوم والحكم (الحديث الثامن عشر) ، والصحيحة (١٣٧٣) .

(٣) كما في « اللسان » لابن منظور (٨٧٧ مادة حسن) .

«الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » .

أما إن ورد الإحسان مطلقًا دون أن يكون مقترنًا بالإسلام والإيمان ؛ فإن المراد به هو فعل ما هو حسن . والحسن وصفٌ مشتقٌّ من الحسن الذي يراد به اصطلاحًا ؛ كما يقول الجرجانيُّ[1]: « ما يكون متعلق المدح في العاجل ، والثواب في الآجل» .

وذهب التهانويُّ وغيره[2]: إلى أن لفظ الحسن يطلق ويُراد به اصطلاحًا واحدًا من أمور ثلاثة : الأول : كون الشيء ملائمًا للطبع ، وضده المقبح بمعنى كونه منافرًا ؛ فإذا لائم الشيء طبعك فهو شيء حسن .

المعنى الثاني : كون الشيء صفة كمال،وضدُّه القبح وكونه صفة نقصان ، وذلك ؛ كالعلم ، والجهل . فالعلم شيء حسن ، والجهل ضدُّه : شيء قبيح .

الأمر الثالث : كون الشيء يتعلق به المدح ، وضده القبح . بمعنى : كونه يتعلق به الذم .

قال المناويُّ : الإحسان : «إسلامٌ ظاهرٌ يقيمه إيمانٌ باطن ، يكمله إحسانٌ شهوديٌ » . بمعنى أن تشاهد الله حال تعبدك له ـ تبارك وتعالى ـ في كل وقت وحين ؛ فالإحسان يستغرق الدين كله .

قال الراغب الأصفهانيُّ[3] : الإحسان فعل ما ينبغي فعله من المعروف ، وهو على وجهين : أحدهما ، الإنعام على الغير (إن أنعمت عليه ؛ فهذا إحسان منك إليه) ، والثاني : الإحسان في فعله (أن تحسن في فعلك أنت) ؛

---

(١) «التعريفات » للجرجاني (٤٠) .

(٢) « التعريفات » (١١٧) ، و« التوقيف على مهمات التعريف » للمناوي (٢٧٩) ط دار الفكر .

(٣) « المفردات في غريب القرآن » (١١٩) للراغب الأصفهاني ت ٥٠٢ هـ ، و«فيض القدير» (١/ ١٢٤) للمناوي .

وذلك إذا علم علمًا محمودًا، وعمل عملًا حسنًا، ومنه قول عليٍّ رضي الله عنه: «إن الناس أبناء مايحسنون»[(١)].

أي: منسوبون إلى ما يعملونه، وما يعلمونه من الأقوال والأفعال الحسنة.

ويأتي الإحسان على درجات متعددة، وكلها تنضوي تحت المفهوم الشامل السابق، وأعلاها - أعلى هذه الدرجات - ما كان في جانب الله تعالى، وهو الذي فَسَّرَهُ النبيُّ ﷺ بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كأَنَّكَ تَرَاهُ».

وتأتي بعد ذلك مراتب أخرى للإحسان؛ سواءٌ في القصد أو في الفعل.

والإحسان في النية يعدُّ أمرًا مهمًّا؛ إذ لا بد أن تنقى النية تنقية سليمة من الشوائب والكدر؛ من الرياء، والنفاق، والغدر، وحب الجاه، والصيت.. إلى آخر ذلك.

أما الإحسان في الفعل - أي في المعاملة مع الخلق - فيكون في ما زاد عن الواجب شرعًا.

ويدخل في الإحسان جميع الأقوال والأفعال مع سائر أصناف الخلائق إلا ما حرَّم الشرع الإحسان إليه.

هذه مسألة مهمة لها ضوابط، وتندرج تحت قضية الولاء والبراء، والموالاة والمعاداة.

ومن أدنى وأقلِّ مراتب الإحسان؛ ما ورد في «الصَّحِيحَيْنِ»[(٢)] من

(١) أورده ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٦٠٨) بغير سند.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب «أحاديث الأنبياء» (٣٤٦٧)، وكتاب «بدء الخلق»، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه.. (٣٣٢١)، ومسلم، كتاب «السلام»، باب فضل سَقْي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٥).

حديث أبي هريرة رضي الله عنه: « أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا [(١)] رَأَتْ كَلْبًا يَلْهَثُ مِنَ العَطَشِ ـ أي: يأكل الثرى من شدة العطش ـ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا ـ خُفَّهَا ، وهو الذي يُلبس في القدم ـ فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ ، فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ » . إنه الإحسان إلى الحيوان !

فالإحسان إلى الكلب والحيوان وسائر المخلوقات أدنى مراتب الإحسان.

ومع ذلك غفر الله ﷻ بهذه المرتبة لبغيٍّ !! فإذا كان الله تبارك وتعالى يغفر ـ برحمته وإحسانه ـ الذنوب والخطايا للبغايا ؛ فكيف يكون إحسان الله مع من وحَّدَ ربَّ البرايا ؟ !

فإلى حقيقةِ الإحسانِ ترجعُ فروعُ وأصولُ وآداب المعاشرة كلُّها في المعاملة والصحبة ، والعفو عن الحقوق ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[آل عمران :١٣٤] .

قال ابنُ القيم رحمه الله [(٢)]: "الإحسان على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : الإحسان في القصد ـ أي: في النية ـ بتهذيبه (أي : بتهذيب الإحسان) علمًا ، وإبرامه عزمًا ، وتصفيته حالًا .

الدرجة الثانية : الإحسان في الأحوال ، وهو أن تراعيها غيرة ، وتسترها تظرفًا ، وتصحِّحها تحقيقًا . والمراد بمراعاة الأحوال : حفظها ، وصونها ، غيرة عليها أن تحول ، فإنها تمرُّ مرَّ السحاب . وتكون المراعاة أيضًا بدوام الوفاء ، وتجنب الجفاء .

الدرجة الثالثة : الإحسان في الوقت . وهو أن لا تزايل المشاهدة أبدًا ، وألا تخلط بهمتك أحدًا ، وتجعل هجرتك إلى الحق سرمدًا ».

---

(١) البغي : هي المرأة الزانية .

(٢) «المدارج» (٢/ ٤٧٩) ط دار الكتب العلمية بتصرف .

والمعنى : أن تتعلَّق همَّتُك بالحق وحْدَهُ ، وألا تتعلق بأحدٍ غيره سبحانه وتعالى .

والإحسان في صورته العليا صفةُ رب العالمين ؛ فالله ﷻ موصوفٌ بالإحسان ؛ لأن الإساءة ـ وهي ضدُّ الإحسان ـ تنتج عن الإساءة ، والعجز ، والقصور .. وما إلى ذلك من أوصافٍ مستحيلةٍ على الله تعالى .. والله تحدث عن خلقه ، وعن صُنْعِه للكون ؛ فقال : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل : ٨٨] ، وقال الله ﷻ : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك :٣] ، ثم قال الله : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة :٧]

وقوله: أَحْسَنَ من الإحسان .

والله ـ سبحانه وتعالى عندما خلق آدم ، وخلق الخلق من البشر، وأناط بهم رسالة الحياة ، كلَّفهم لكي يكونوا ربانيين ، وأن يحسنوا العمل ، وأن يبلغوا به درجه الكمال ، وإذا غلبتهم طباعهم الضعيفة ولم يصلوا إلى هذا الشأن من الربانية أمرهم أن يكرروا المحاولات ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت :٦٩] .

والإحسان في كل شيءٍ ؛ حتى مع الحيوان ـ كما تقدم ـ؛ وكما في : «صحيح مسلم» [١] من حديث شداد بن أوس قال : ثنتان حفظتهما من رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ الله تَعَالَى كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ » .

ولذلك مرَّ النبيُّ ﷺ على رَجُلٍ وَاضِعٍ رِجْلَهُ عَلَى صَفْحَةِ شَاةٍ ؛ عَلى عُنُقِها ،

---

(١) أخرجه مسلمٌ ، كتاب «الصيد والذبائح» ، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (١٩٥٥) .

وَهُوَ يُحِدُّ الشَّفْرَةَ ـ أي: السكين ليذبحها ، وقد طرحها أرضًا ـ وَهي تلحظُ إِلَيهِ بِبَصَرِهَا ، إنه منظر مؤلم ؛ فلما رأى النبيُّ ﷺ هذا المشهد ، قال: « أَفَلاَ قَبْلَ هَذَا ؟ » أي : هلاَّ كنت حدَدْت شفرتك قبل أن تطرحها أرضًا ، وتراها بهذه الصورة تنظر إليك ، بالله عليك ؛ تدبَّر قولَ النبيِّ ﷺ : « أَفَلاَ قَبْلَ هَذَا ؟ أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَتَيْنِ ، هَلاَّ حَدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضْجِعَهَا ؟ »[(١)].

انظر إلى إحسان المصطفى ﷺ ؛ فما أحلمه وأرقَّهُ وأرأفَهُ!

إذًا الإحسان يكون في كلِّ شيء ، والإحسان يقتضي من المسلم أن يتقن عمله الذي كُلِّفَ به ، وأن يعلم علم اليقين أن الله ﷻ ناظرٌ إليه في عمله أيًّا كان هذا العمل ، سواء كان العمل لله تبارك وتعالى فهو يتقنه ، وإن كان العمل للدنيا فهو يتقنه أيضًا ؛ لأنه إن صحت نيته فعمله للدنيا من العبادة ؛ كما قال النبيُّ ﷺ : « وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ »[(٢)].

والبُضْعُ في اللغة هو : الجِماع أو الفَرْج نفسه ؛ ففي جماع الرجل امرأته صدقة إن صحَّت النية ؛ فكلُّ عملٍ من أعمالك إن كان للدنيا ـ ما دام العمل حلالًا شرعًا ـ إن صحَّت نيتك فيه ؛ فهو طاعة وعبادة لله ﷻ بشرط ألا يَحُولَ هذا العملُ الدنيويُّ بينك وبين حقٍّ من حقوق الرَّبِّ العليِّ ؛ كأن يجلس مثلًا رجلٌ في محِلِّه ، فإن سمع الأذان يُؤذِّن ظلَّ في عمله لا يخرج للصلاة !

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤ / ٢٣١ ، ٢٣٣) ، وقال الحاكم : «صحيح على شرط البخاري» ، وفي الموضع الثاني قال : «على شرط الشيخين» ، والطبراني في «الكبير» (١١٧٤٨) ، و«الأوسط» (٣٧٢٨) ، قال في المجمع (٤ / ٣٣) : «ورجاله رجال الصحيح» ، وصحَّحه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٢٤) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب «الزكاة» ، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كلِّ نوع من المعروف (١٠٠٦) .

بدعوى أنه ما زال في العمل ، وعمله عبادة ! هكذا يقول ، وهذا باطل وضلال مبين !! فإذا كان عملك في الدنيا لا يحول بينك وبين حقٍّ من حقوق الله تعالى ، وصحَّتْ نيتك ؛ فأنت في عبادة ، وفي طاعة لله ـ تبارك وتعالى ـ فالعبادة تسع الحياةَ كلَّها ، كما سأفصِّل ـ إن شاء الله تعالى ـ فالإحسان شجرةٌ ظليلةٌ ، والحسنات ثمرات هذه الشجرة في الدنيا قبل الآخرة ، فأيُّ عملٍ تحسنه ، وتصحح فيه النية ؛ فهو عبادة لله ربِّ البرية .

فتصحيح النية والقصد من الإحسان ـ كما ذكرت ـ بل هي الدرجة الثانية بعد الإحسان مع الله.

فالحسنات شجرة تنبثق من هذه الشجرة الزكية ـ ألا و هي شجره الإحسان ـ فأنت تحصِّل أيها المحسن ثمرات الإحسان لأيِّ عملٍ في الدنيا قبل الآخرة .

قال الراغب [1]: « الحسنة يعبر بها عن كلِّ ما يَسُرُّ من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله » ؛ فلا يقتصر المعنى على الثواب فقط !.. قال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء :٧٨] .

والحسنةُ ؛ كما قال جمهور المفسرين [2] : «﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ ؛ أي : خصب ورزق وسعة ونصر» ، أما الإحسان؛ فإنه يُقَال على وجهين ـ كما تقدم ـ أحدهما : الإنعام إلى الغير ، والثاني : الإحسان في الفعل أو العمل ، كما رُوي عن عليٍّ : « الناس أبناء ما يحسنون » [3] أي : منسوبون إلى ما يعملونه ويعلمونه من الأقوال والأفعال الحسنة .

---

(١) كما في «المفردات» (٣٢٣) ، و«تاج العروس» (٨٠٠٨) .

(٢) انظر: « تفسير ابن كثير» عند آية النساء (٧٨) .

(٣) سبق .

والعلاقة بين الحسنة والإحسان واضحة ؛ لأن مَنْ يُحْسن إلى نفسه بإخلاص التوحيد والعبادة ،أو إلى غيره بالقول أو الفعل ؛ فإنَّ ذلك يثمر له الحسنى . فالعلاقة بين الحسنة والإحسان علاقة وطيدة واضحة مرتبطة ؛ قال تعالى :﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦] .

والحسنى هي : الجنة ، والزيادة هي : النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى .

فمن معاني الحسنى ـ التي هي ثمرةٌ من ثمرات الإحسان ـ التوحيد ، وثمرة التوحيد: الجنة ؛ قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

قال عكرمة : « هل جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة »[١] .

وقال ابن زيد : « هل جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن الله إليه في الآخرة »[٢] ؛ فالمراد بالإحسان في هذه الآية هو قول : لا إله إلا الله.

ومن معانيها أيضًا : النصرة والغنيمة ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾[آل عمران :١٢٠] .

فالمراد بالحسنة في هذه الآية : نصر ، وخصب ، وتأييد ، وغنيمة[٣] .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[البقرة :١٩٥] .

فقد فسر عددٌ من أهل العلم الإحسان فيها بالجهاد في سبيل الله[٤] ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ أي: بالإعراض عن الجهاد في سبيل الله ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فثمرة هذا الإحسان ـ بالجهاد ـ النصر والغنيمة . وهي

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٧ / ١٨٢) (عند آية الرحمن٦٠) ، وراجع : «تفسير الطبري» (٣٣١٣٦) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٦٩) (آل عمران / ١٢٠) .

(٤) «تفسير الطبري» (٢ / ٢١٠ ـ ٢١٢) ، وابن كثير (٢/ ٢٢٣) ط الفاروق.

الحسنة التي ذكرها الله تعالى في قوله : ﴿ إن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ وهكذا بدأت تتضح هذه المرادفات والارتباطات الجميلة .

ومن معاني الحسنة أيضًا : المطر والخصب ، وهي ثمرة من ثمرات الإحسان ؛ قال الله ﷻ في قصة قارون :﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].

ومن معانيها العافية ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [الرعد:٦] .

فالحسنة هنا المراد بها العافية ، والسيئة المراد بها الانتقام والبلاء .

ومن معانيها أيضًا : المعروف ؛ كما في قوله تعالى :﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت : ٣٤] .

ومن معانيها : الفضل والعفو ؛ كما في قوله تعالى :﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

فكظم الغيظ إحسان ، وأعظم منه وأعلى منه العفو عند المقدرة .

ومن معانيها ـ أيضًا : فعل الخيرات ؛ كما في قوله تعالى :﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

وهذه الحسنة هي ثمرةُ الإحسان في قول الله تعالى :﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾

[الذاريات :١٥، ١٦]

ومن هنا يتضح الارتباط الكامل بين الحسنة والإحسان ؛ فالإحسان ـ كما ذكرت ـ شجرة ظليلة ، وثمرات هذه الشجرة هي : الحسنات في الدنيا قبل الآخرة ، ومن ثَمَّ أمر الله تبارك وتعالى بالإحسان في آيات كثيرة جدًّا في القرآن الكريم ، وقرنه بالعدل ؛ فقال تبارك وتعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ

وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

والعدل مقامٌ رفيع، ومع ذلك؛ فإن الإحسان أعلى وأرفعُ مقامًا منه؛ والعدل معناه: أن يأخذ الإنسان ما له، ويعطي ما عليه.. والإحسان الذي هو أعلى وأجلُّ من العدل هو أن يأخذ الإنسانُ أقلَّ مما له، وأن يعطي أكثر مما عليه؛ فالإحسان بذلك زائد على العدل، وإذا كان تحري العدل من الواجبات؛ فإن تحرِّي الإحسان ندبٌ وتطوُّع. وهذه مرتبة أعلى، وكلاهما مأمورٌ به؛ كما ذكرت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

فالعدالة لا بد منها لضبط الأمور، وإنصاف بعضهم من بعض، والإحسان مقام أعلى من العدل، ولذلك لما سأل عمر بن عبد العزيز محمد بن كعب القُرَظيَّ - رحمهما الله تعالى - قائلًا له: يا محمد، صِفْ لي العدل؟ قال: بخ! سألتَ عَنْ أمرٍ جسيم، وهنا يأمره قائلًا: كُنْ لصغير الناس أبًا، ولكبيرهم ابنًا، وللمثل منهم أخًا، وللنساء كذلك، وعاقِب الناسَ عَلى قدْر ذنوبهم، ولا تَضْرِبنَّ في غَضبِك سَوْطًا واحدًا فتكونَ من العادين»[1].

أما الفضل؛ فله سيرةٌ أخرى؛ لعلَّ أقربها ما جاء عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال له: «أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَكْرَمِ أَخْلاَقِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ: أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ»[2].. وذاك هو الإحسان، ومن

---

(١) أخرجه ابنُ أبي حاتم؛ كما في «الدر المنثور» (النحل/ ٩٠).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٥٦٣)، قال الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٨٩): «وفيه الحارث، وهو ضعيف»، ورواه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٣٨) والطبراني في «الكبير» (١٦٨١٧)، وقال الهيثميُّ (٨/ ١٨٩): «وفيه زبان بن فائد، وهو ضعيف» وله شواهد ذكرها الهيثميُّ، لكنها شديدة الضعف؛ إلا طريقًا عند أحمد (٤/ ١٤٨، ١٥٨، ١٥٩) وعزاه أيضًا للطبراني (١٤١٥٨)؛ ثم قال (٨/ ١٨٨): «وأحد إسنادي أحمد رجاله ثقات» ولفظه: «يا عقبة ابن=

تأمل القرآن الكريم الجليل وأحاديث النبيِّ ﷺ العظيمة يتضح له بجلاء أن الإحسان يُشَكِّلُ ـ مع العدل ـ ويبين جوهر العلاقة بين الإنسان وأخيه ، وأن دائرة هذا الإحسان تتسع إلى النفس والأسرة ؛ بل وكل شيء ؛ فالإحسان إلى النفس ، وهي الدائرة الأولى من دوائر الإحسان : تتضمن إخلاص العبادة ، وكمال الطاعة ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : ٧] .

أما الدائرة الثانية من دوائر الإحسان : فتمثل الإحسان إلى الوالدين ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

أما الدائرة الثالثة : وهي : الإحسان إلى القرابة من الرحم ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة : ٨٣] .

أما الدائرة الرابعة : وهي أوسع من الدوائر السابقة ؛ فإنها تتضمن وتشتمل على المجتمع الإسلامي كلِّه .

إذًا هناك إحسان إلى النفس ، وإحسان إلى الرحم ، وإحسان إلى المسلمين جميعًا .

والإحسان هنا يَنْصَبُّ في الأصل على الجانب الضعيف في المجتمع الإسلامي من الفقراء والمساكين واليتامى ، ثم إلى كلِّ مسلم بعد ذلك ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ

ـ عامر ، صِلْ من قطعك ، وأعطِ مَنْ حرمك ، واعف عمن ظلمك » ، وقال الشيخ شعيب في تعليقه على « المسند » (١٧٤٥٢) : « إسناده حسن » . وضعَّف شيخنا الألبانيُّ الحديث في «السلسلة الضعيفة» (٢٨٥٦) كما في «ضعيف الجامع» (١١٣١).

﴿ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النساء: ٣٦]. سبحان الله !! فالإحسان حتى مع ملك اليمين، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

أما الدائرة الخامسة: من دوائر الإحسان؛ ألا وهي: الدائرة الأوسع في العلاقات، فتشمل الإحسان إلى المخالفين في العقيدة.

حتى من خالف في مسألة مهمة جدًّا إن أُقيمت عليه الحجة، وبلَّغت هذا المخالف الحق، ولم يَحُل بينك وبين تبليغه دين الله حائل؛ حينئذٍ إذا أَصَرَّ على كفره، فأنت تُحسن إليه بالعفو عنه، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

لكن بهذه الشروط والضوابط التي أقولها؛ لأن بعض أهل الضلال ربما يستدلُّ بهذا الدليل في غير موضعه، فيأمر بالإحسان على الإطلاق لأهل الكفر، مستدلًا بالآية المذكورة! فنقول: هذا دليل حق، لكنه استدل بالدليل في غير مناطه، فأنت تُحسن إلى المخالفين في العقيدة إن أقمت الحُجة عليهم، وبلَّغت المخالف دين الله، ولم يَحُل بينك وبين تبليغه دين الله حائل، فالجيوش جيِّشت في الإسلام لقتال مَنْ صَدَّ عن إبلاغ الناس دين الله وسماع الحق، ولقد قال النبيُّ ﷺ في خيبر لعليٍّ ﷺ حينما أعطاه الراية: «لأُعْطِيَنَّ هَذِه الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ الله وَرَسُولُهُ» ولمَّا أَخَذَ عَلِيٌّ الرايةَ، قَالَ: عَلَى مَاذَا أُقَاتِلُهُمْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله..».

فهذه هي الغاية: «حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، فَلَئِنْ يَهْدِي الله بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[1]

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب «المغازي»، باب غزوة خيبر (٤٢١٠) وانظر أطرافه في رقم (٢٩٤٢)، ومسلم، كتاب «فضائل الصحابة»، باب من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٤-٢٤٠٦).

ففي هذه الحالة إن أقمت على هذا المخالف الحجة ، وبلغته الحق ، وفهم المراد ، ومع ذلك قال : لا أسلم ؛ حينئذٍ نقول : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ لكن ما هي الضوابط الأخرى ؟ الضابط الثاني : هو أن يدفع الجزية إن كان قادرًا . .

لأن عمر بن الخطاب ﷺ قد أسقط الجزية عن غير القادر ؛ فالإسلام دين عظيم ؛ فلا بد من النظر إلى هذه الضوابط ، إذًا قال الله تعالى ـ في هذه الدائرة الأوسع :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة : ١٣] .

أما الميادين التي تتطلب الإحسان بمعناه العام ، فقد فصَّله القرآن الكريم تفصيلًا ، وفصَّلته السنة المطهرة أيضًا ؛ ففي ميادين الصبر على المصائب ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [هود : ١١٥] .

وفي ميدان أداء الحق لأهله ، قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة : ١٧٨] .

وقال الله تعالى في أداء الحق للمرأة المطلقة : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

وفي ميدان الحروب والجهاد في مجالات النفس ، ومجالات المعارك ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وفي ميدان مجاهدة النفس لكظم الغيظ ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى

ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

وفي ميدان التحاور مع أهل الكتاب، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

وفي ميدان الخلافات والخصومات ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

وفي ميدان معاملة الفقراء واليتامى ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء : ٣٤] .

وفي ميدان العلاقات الاجتماعية بين الناس ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ ﴾ [النساء : ٨٦] .

وفي مجال العلاقات الاقتصادية ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

ولقد تمَّ الربط في هذه الآية بين الإنفاق والمظهر الاقتصادي للإحسان ، وبين التهلكة وخراب المجتمع ، وسبب ذلك ؛ كما يقول بعض أهل العلم : إن المجتمعات التي تقوم على الاستغلال والاحتكار تفرز الطبقية ، وتبذر بذور الصراع الاجتماعي في الداخل ، وتؤدي إلى الصراعات العالمية في الخارج ، وينتج عن ذلك شقاء الفريقين جميعًا : المستَغِلِّين والمستَغَلُّون ! فالطبقة الأولى : تقع فريسة للغربة والعزلة من ناحية ، وفقدان المحبة وشيوع النفاق من ناحية أخرى ؛ كما أنه يتولد لديها شعور بالخوف ، وعدم الأمانة من ناحية ثالثة .

أما طبقة المستَغَلِّين والمستضعفين ؛ فهي تقع فريسة للأخطار : أهمها كُره الطبقات العليا المحتكرة ، والحقد عليها من ناحية ، ثم الإحساس بالغبن والإحباط من ناحية ثانية ، وأخيرًا : فإنها تميل إلى الجريمة ، وإلى الاستعداد للعنف من ناحية ثالثة .

وهكذا ـ أيها الأحبة ـ نرى الإحسان يشمل الفرد ، ويشمل المجتمع ، ويشمل الدولة ؛ بل ويشمل الحياة بأسرها ؛ فلن تقوم للأمة قائمة ، ولن تقوم للأبناء قائمة على تربية راشدة ، إلا بالإحسان في كل شيء ... أن نربي أنفسنا ، وأن نربي أولادنا على الإحسان .. على الإحسان مع الله تعالى ابتداءً ، وعلى الإحسان مع النفس ، والإحسان مع المسلمين ، وعلى الإحسان مع غير المسلمين ـ مع هذه الضوابط ؛ بل وعلى الإحسان مع الحيوانات والطيور ! كيف تُرَبِّي ولدك على الإحسان لعصفور يمسكه ؟ ولقطةٍ يلعبُ بها ويمسكها ؟

بهذا التفصيل الجميل الرقيق الرقراق ؛ كنتُ وأنا في الجيش أقولُ كلمةً في طابور الصباح كلَّ يوم ؛ ففي يوم ذكرت ـ وأنا في الطابور ـ وجود الرتب الضخمة التي تصل إلى درجة لواء ، كأعلى رتبة ، حينما ارتقى المنصة لإلقاء كلمة الطابور في الصباح ضابطٌ برتبة ملازم أول ـ مثلًا ـ ثم يستلم الطابور منه رائد ، ثم يستلم الطابور منه رتبة مقدَّم ـ بالفتح ـ لأن المقدِّم هو الله تعالى ، ثم يستلم الطابور عقيد ، ثم عميد ، ثم يأتي اللواء . سبحان الله ! والله إذا خرج اللواء من مكتبه ، ورأى الطابورُ ـ بما فيه من رتب ـ سيَّارةَ لواءٍ تقتربُ من أرض الطابور ، تسمع صمتًا ، فلو أُلقيت إبرةٌ في أرض الطابور لسُمعت ـ وأنتم تعلمون هذا ـ لا تسمع صوتًا! وترى سكونًا عجيبًا ؛ فإذا ما وقف في

أرض الطابور ، واستلم الطابور ، وألقى تعليماته وأوامره ، وركب سيارته مرة أخرى ، وركب بعضُ الرتب معه ، ترى الهرج ، والمرج ، والحركة !! وهنا أقول : انظر إلى الفارق الكبير ، وإلى درجة المراقبة هنا ، وإلى درجة الإحسان هنا حين ترى مشهد المصلين في حرم الله ــ مثلًا ــ يقف الإمام في القبلة ، تصوَّر هذا الإمام ، وهو واقفٌ في القبلة ، يلتفت إلى الصف الأول ، ويقول : استقيموا ، اعتدلوا ، هل إذا استقبل الإمام القبلة ، وجعل ظهره للمصلين ، هل يحدث من أحدهم أيُّ هرج أو مرج ؟ !! لا ، والله إنها المراقبة لمن لا تخفى عليه خافية .

ففرق كبير جدًّا بين أن تراقب القانون الوضعي الأعمى ! وأن تراقب الربَّ العليَّ الأعلى ، إنه مقام الإحسان ؛ فهذا أساسٌ في إقامة الأمة ، وهذا هو الذي نجح فيه المصطفى ﷺ في أن يربي الأمة وأصحابه تربية صالحة على الإحسان ؛ كان أحدهم يراقب الله عز وجل في الخلوة ، ويأتي استحياء ــ وخجلهُ بين خجلهِ ــ بين يدي المصطفى ﷺ ! وها أنا ذا أذكِّرُ ببعض الأحاديث على عَجَلٍ في مقام الإحسان : فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : أقبل رجلٌ إلى نبيِّ الله ﷺ، فقَالَ : أُبَايِعُكَ عَلَى الهجْرةِ والجِهَادِ ، أَبْتَغِي الأَجْرَ مِنَ الله ، قَالَ : « فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟ » قَالَ : نَعَمْ . بَلْ كِلَاهُمَا .. قَالَ : « فَتَبْتَغِي الأَجْرَ مِنَ الله؟ ».. قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا» . إنه الإحسان إلى الوالدين ، اللهم ارزقنا الإحسان إلى الوالدين . والحديث رواه البخاريُّ ومسلم [1].

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الجهاد والسير» ، باب الجهاد بإذن الأبوين (٣٠٠٤) ومسلم ، كتاب «البر والصلة والآداب »، باب بر الوالدين ، وأنهما أحق به (٢٥٤٩) (٦) واللفظ له .

وفي البخاريِّ ـ تعليقًا ـ ووصَلَهُ النسائيُّ بسند صحيح [1] عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا أَسْلَمَ العَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، يُكَفِّرُ الله عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا ـ أي: فعلها ـ وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ القِصَاصُ: الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، والسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ الله عَنْهَا» اللهم تجاوز عنا يا رب

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» [2] عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ثَلاثَةٌ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ فَآمَنَ بِهِ وصَدَّقَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ (يعطيه الله أجره مرتين: مرةً على إيمانه بنبيه، ومرة على إيمانه بالنبيِّ الخاتم ﷺ) وعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ الله تَعَالَى وَحَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَغَذَّاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا، ثُمَّ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَان».

وفي «صحيح مسلم» [3] من حديث شداد بن أوس ﷺ قال: ثِنْتَان حَفِظْتُهُمَا عَنْ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الله كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَة، وَإِذَا ذَبَحْتُم فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ».

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» [4] عن عائشة ﷺ قالت: جَاءَتْنِي امْرَأَةٌ، وَمَعَهَا ابْنَتَانِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ـ تعليقًا ـ كتاب «الإيمان»، باب حسن إسلام المرء (٤١) والنسائي، كتاب «الإيمان»، باب حسن إسلام المرء (٨/ ١٠٦) وصحح سنده الألباني في «الصحيحة» (٢٤٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب تعليم الرجل أمته وأهله (٩٧) ومسلم كتاب «الإيمان»، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (١٥٤).

(٣) تقدَّم، وهو في مسلم (برقم ١٩٥٥).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب «الزكاة»، باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة (١٤١٨) ومسلم، كتاب «البر والصلة» (٢٦٢٩).

لَهَا تَسْأَلُنِي ـ الصَّدَقَةَ ـ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئاً غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا ، فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا ، وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا شَيْئاً ، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ وَابْنَتَاهَا ، تقول عائشة : فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا ، فَحَدَّثْتُهُ حَدِيثَهَا ـ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ ».

والإحسان إلى البنت يكون بتربيتها على الفضيلة ؛ فالذي يترك ابنته تخرج بالاسترتش ليس هذا من الإحسان ! وَتَرْكُ البنت تخرج إلى الجامعة بشعر ، وصَدْرٍ عَارٍ ، وبرفانٍ عاصف ! ليس من الإحسان . وَتَرْكُ البنت تختلط مع الشباب باختلاطٍ ماجن ! أو تسافر بغير محرم ! أو ليخلو بها ابن عمها ، أو ابن خالها ، أو ابن عمتها ، أو ابن خالتها ، أو خطيبها ليس هذا من الإحسان ؛ فمن ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن أي : رباهُنَّ على الفضيلة .. على الكتاب والسنة ، حينئذٍ كُنَّ لَهُ سترًا من النار ؛ كما أخبر النبيُّ المختار ﷺ .

وفي روايةٍ لمسلمٍ والترمذي ـ واللفظ للترمذي [١] ـ من حديث أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ [٢] ـ أي : بنتين صغيرتين ـ دَخَلْتُ أَنَا وَهُوَ الْجَنَّةَ كَهَاتَيْنِ » وَأَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ بِأُصْبُعَيْهِ ـ بِالسَّبَابَةِ والوُسْطَى .

ومستحيل أن تصل إلى هذه المكانة ، إلَّا إن ربيت بناتك على القرآن والسنة ، والعفة والشرف ، والمروءة والحياء . أسأل الله أن يستر نساءنا وبناتنا .

وفي «سنن ابن ماجه» بسندٍ صحيح [٣] من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ الله ﷺ : يَا رَسُولَ الله ، كَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ إِذَا أَحْسَنْتُ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب فضل الإحسان إلى البنات (٢٦٣١) والترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات (١٩١٤) .

(٢) في رواية : « حتَّى تبلُغا » .

(٣) أخرجه أحمد (١ / ٤٠٢) وابن ماجه ، كتاب «الزهد» ، باب الثناء الحسن (٤٢٢٣) وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٣٢٧) .

وَإِذَا أَسَأْتُ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِذَا سَمِعْتَ جِيرَانَكَ يَقُولُونَ : أنْ قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ : قَدْ أَسَأْتَ فَقَدْ أَسَأْتَ ».

وأنا ألمح في هذا الجواب بصيرةً نبويةً ، ودواءً أراد النبيُّ ﷺ أن يصرفه لداء رآه في هذا الرجل ، وإن كنا جميعًا في حاجة لهذا الدواء ، فقد تعدَّدت أجوبة النبيِّ ﷺ على الصحابة في السؤال الواحد ؛ فكان يفتي كل أحد بما يرى أنه يصلحه ، وأنه في حاجة إليه وقت سؤاله .

وعن ابن مسعود ﷺ كما في «الصَّحِيحَيْنِ»[1] قال : قال أناسٌ لرسول الله ﷺ يا رسول الله : أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ؟ قَالَ : « مَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الإِسْلامِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ » .

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الإِبِلِ ، فَجَاءَتْ نَوْبَتِي - دَوْرِي - فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ - أي : ردَّها في وقت الروحة - فَأَدْرَكْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ ، فَأَدْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ ، إِلاَّ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ». والحديث في «صحيح مسلم»[2] .

وإقبال القلب - وهذا هو الأصل - أن تكون خاشعًا ، حاضر القلب ، أن تجمع القلب بكليته على الله ، والوجه : ألا تلتفت ؛ لأن العبد إذا وقف في صلاته نصب الله وجهه إليه ؛ فإن العبد إذا أعرض أعرض الله عنه ؛ إن أعرض البصر فمن باب أولى أن يكون القلب معرضًا ؛ لأنه إن أقبل القلب

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم» (٦٩٢١) ومسلم ، كتاب «الإيمان» ، باب هل يؤخذ بأعمال الجاهلية (١٢٠) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب «الطهارة» ، باب الذكر المستحب عقب الوضوء (٢٣٤) .

أقبل البصر ، وأقبل الوجه ، وأقبلت الجوارح ؛ فالقلب هو الملك ، فإن أعرض القلب عن الله أعرضت الجوارح ؛ فترى كثيرًا من المسلمين وهم في الصلاة ، لا تدري أهُمْ في صلاةٍ أم في غير صلاة ؟! من كثرة إعراضه ؛ فإذا التفت العبد في الصلاة ، يقول الله ﷻ إلى أفضل مني ؟!! نسأل الله تعالى أن يرزقنا خشوع الظاهر والباطن .

وفي «صحيح البخاري» [١] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال : « لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ الجَنَّةَ إِلاَّ أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ ؛ لِيَزْدَادَ شُكْرًا ، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلاَّ أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ ؛ لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً » فالعبد حتى وإن دخل الجنة يُذَكِّرُهُ الله بذلك وهو في الجنة ؟ ليشكر الله سبحانه !!

وفي «صحيح مسلم» [٢] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قَالَ سَمِعْتُ رسول الله ﷺ قَبْلَ موته بِثَلاَثَة أَيَّامٍ يَقُولُ : « لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِالله ﷻ» وهذا البابُ عظيمٌ في الإحسان .

وعن أنس رضي الله عنه - كما في «سنن الترمذي» وصححه شيخنا الألباني [٣] قال : لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ أَتَاهُ المُهَاجِرُونَ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبْذَلَ مِنْ كَثِيرٍ وَلاَ أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ (وهم الأنصار) لَقَدْ كَفَوْنَا المُؤْنَةَ وَأَشْرَكُونَا فِي المَهْنَإِ (المهنأ : هو كل هنيء من الطعام والشراب) ، حَتَّى لقد خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ (انظر إلى نظرة

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الرقاق» ، باب صفة الجنة والنار (٦٥٦٩) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب «صفة القيامة والجنة والنار» ، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٤/ ٢٨٧) (٨٢) .

(٣) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب صفة القيامة (باب : ٤٤) (حديث ٢٤٨٧) وصحَّحه الألباني في «المشكاة» (٣٠٢٦) و«صحيح الترمذي» (٢٦١٧) .

المهاجرين للأجر) ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ألاَ ، مَا دَعَوْتُمُ الله لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ ».

يعني : فأنتم تشاركونهم في الأجر ، لكن بهذا الشرط : « مَا دَعَوْتُمُ الله لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ »

وعن عثمان رضي الله عنه قال ؛ كما في «صحيح مسلم» [(1)] : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « مَا مِنِ امْرِيءٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةٌ مَكْتُوبَةٌ ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا ، وَخُشُوعَهَا ، وَرُكُوعَهَا ، إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ ، مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً ، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ ».هل تريد نعيمًا كهذا ؟! أسأل الله أن يُجَنِّبنا الكبائر والصغائر ، فما لم يوجد كبائر ؛ فإن الصغائر التي ترتكب بين الصلاة والصلاة تكفرها الصلاة ، لكن بهذه الشروط :

أولاً : أن تحسن الوضوء ؛ لقوله : « فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا » وهذا من باب الإحسان في العبادة .

ثانيًا : « وَخُشُوعَهَا» وهذه صعبة وكبيرة إلا على الخاشعين ، اللهم ارزقنا الخشوع يا أرحم الراحمين ؛ قال ﷺ: « فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا ، وَخُشُوعَهَا ، وَرُكُوعَهَا ، إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ ، مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً ، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ ». بعد ذلك تستطيع أن تلقى الله عز وجل وتقف بين يديه ـ سبحانه ـ أما أن تقف بين يديه ، وأنت مشغول القلب والفؤاد ، لا تدري كم صلَّيتَ ؟ ولم تَدْر هل قرأت التشهد وأنت في حال القيام ؟ أو قرأت الفاتحة في حال الجلوس ؟! فتلك ـ والله ـ ليست بصلاةٍ تحمل معاني الإحسان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !!

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ كما في«الصَّحِيحَيْنِ » [(2)] قال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «الطهارة» ، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه (٢٢٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الأدب» باب البر والصلة (٥٩٧١) ، ومسلم ، كتاب «البر والصلة والآداب» ، باب بر الوالدين وأنهما أحق به (٢٥٤٨) .

الله ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي ؟ قَالَ : « أُمُّكَ » قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : « ثُمَّ أُمُّكَ » قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : « ثُمَّ أُمُّكَ » قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : « ثُمَّ أَبُوكَ ».

وفي «سنن الترمذي» و«ابن ماجه» و«أحمد» في «مسنده» [١] بسندٍ حسن من حديث أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ قال : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، كُنْ وَرِعًا ، تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ ، وَكُنْ قَنِعًا (أي : قنوعًا) تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، تَكُنْ مُؤْمِنًا ، وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ ، تَكُنْ مُسْلِمًا ، وَأَقِلَّ الضَّحِكَ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ ».

والأحاديث في هذا الباب كثيرة ؛ فأكتفي منها بهذا القدر ، وأكتفي بمثالٍ واحدٍ تطبيقيٍّ من حياة رسول الله ﷺ على الإحسان ، وإن كانت الأدلة تزاحمني.

وبالجملة : أقولُ : إن حياة النبيِّ ﷺ كلَّها إحسان ؛ فبيُتم النبيِّ الذي قدَّره الربُّ العليُّ أحسن الله ﷻ بيتمه إلى كلِّ يتيم ؛ فكان يُتمُ النبيِّ ﷺ تشريفًا لكلِّ يتيم ، ومن ذلك إحسانه في الدعوة ، وإحسانه في المعاملة ، وإحسانه في العطاء ، وإحسانه في الحب والبغض ، وإحسانه في الخُلُق.. إلى آخر حياته ؛ قِفْ مع هذا المثل ، وأنا اخترتُ هذا المثالَ لجماله ورقته ، وإلا فالأمثلة في الإحسان مشهورة محفوظة .

ففي «صحيح مسلم» [٢] من حديث المقداد رضي الله عنه قال : أَقْبَلْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب «الزهد» ، باب الورع والتقوى (٤٢١٧) ، وأخرجه أحمد (٢/ ٣١٠) ، والترمذي ، باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس (٢٣٠٥) من وجهٍ آخر عن أبي هريرة ، وللحديث شواهد حسَّنه بها الألباني في «الصحيحة» (٩٣٠) و«صحيح» ابن ماجه (٢/ ٤١٢) وجوَّده الشيخ الأرناؤوط في تعليقه على «المسند» (٨٠٩٥) .

وللفائدة : انظر «علل الدار قطني» (١٣٣٩) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب «الأشربة» ، باب إكرام الضيف ، وفضل إيثاره (٢٠٥٥) .

لِي ، وَقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الْجَهْدِ ـ أي : من الجوع والمشقَّة ـ فَجَعَلْنَا نَعْرِضُ أَنْفُسَنَا عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَقْبَلُنَا ـ يعني : ضيوفًا ـ ومن الأدب مع أصحاب النبيِّ ﷺ أن نحمل هذا القول على أن الذين عرضوا أنفسهم عليهم كانوا من فقراء الصحابة كذلك ، وإلا فهم كلُّهم رمز الكرم ، ومثال العطاء ـ فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ ، فَانْطَلَقَ بِنَا ـ إِلَى أَهْلِهِ ، فَإِذَا ثَلاَثَةُ أَعْنُزٍ ـ في بيت النبيِّ ﷺ ـ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « احْتَلِبُوا هَذَا اللَّبَنَ بَيْنَنَا » قَالَ : فَكُنَّا نَحْتَلِبُ فَيَشْرَبُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنَّا نَصِيبَهُ ، وَنَرْفَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَصِيبَهُ ، قَالَ : فَيَجِيءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا لاَ يُوقِظُ نَائِمًا وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ ـ قَالَ ـ ثُمَّ يَأْتِي الْمَسْجِدَ ، فَيُصَلِّي ، ثُمَّ يَأْتِي شَرَابَهُ فَيَشْرَبُ ، فَأَتَانِي الشَّيْطَانُ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، وَقَدْ شَرِبْتُ نَصِيبِي فَقَالَ ـ لنفسه : مُحَمَّدٌ يَأْتِي الأَنْصَارَ فَيُتْحِفُونَهُ ـ يعني: يقدموا له الغالي كلَّه ـ وَيُصِيبُ عِنْدَهُمْ ، مَا بِهِ حَاجَةٌ إِلَى هَذِهِ الْجُرْعَةِ (أي : ليس محتاجًا إلى هذا الشراب) ... فَأَتَيْتُهَا فَشَرِبْتُهَا ـ شَرِبَ نَصِيبَ النبيِّ ﷺ ـ يقول : فَلَمَّا أَنْ وَغَلَتْ فِي بَطْنِي وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَيْهَا سَبِيلٌ ، قَالَ : نَدَّمَنِي الشَّيْطَانُ ! فَقَالَ : وَيْحَكَ ! مَا صَنَعْتَ ؟ أَشَرِبْتَ شَرَابَ مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ فَيَجِيءُ فَلاَ يَجِدُهُ فَيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلِكُ فَتَذْهَبُ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ ؟ ـ قال المقداد : وَعَلَيَّ شَمْلَةٌ ـ مثل غطاء الرأس ـ إِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى قَدَمَيَّ خَرَجَ رَأْسِي ، وَإِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى رَأْسِي خَرَجَ قَدَمَايَ ، وَجَعَلَ لاَ يَجِيئُنِي النَّوْمُ ، وَأَمَّا صَاحِبَايَ فَنَامَا ، وَلَمْ يَصْنَعَا مَا صَنَعْتُ ، قَالَ : فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ ـ انتبه إلى هذا الإحسان النبوي ـ فَسَلَّمَ كَمَا كَانَ يُسَلِّمُ ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ ، فَصَلَّى ، ثُمَّ أَتَى شَرَابَهُ فَكَشَفَ عَنْهُ ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا ـ أي: لم يجد نصيبه في الإناء ـ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ـ والمقداد يراقب الموقف ، فلم ينم بَعْدُ ﷺ ـ والله مشهد عجيب !! فَقُلْتُ : الآنَ يَدْعُو عَلَيَّ فَأَهْلِكُ ـ فرفع النبيُّ ﷺ يَدَهُ ـ فَقَالَ : « اللَّهُمَّ ! أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي ،

وَأَسْقِ مَنْ أَسْقَانِي » ـ هذا دعاء بالخير للمقداد ليس دعاء بالهلاك ! أمر عجيب ، والمقداد يسمع ـ فَعَمَدْتُ إِلَى الشَّمْلَةِ فَشَدَدْتُهَا عَلَيَّ ، وَأَخَذْتُ الشَّفْرَةَ ـ السكينة ـ فَانْطَلَقْتُ إِلَى الأَعْنُزِ ، أَيُّهَا أَسْمَنُ ، فَأَذْبَحُهَا لِرَسُولِ الله ﷺ ، فَإِذَا هِيَ حَافِلَةٌ ـ يعني : ممتلئة باللَّبن في وقت لا يأتي فيه اللبن في أضرعها ، فقد نفذ ما في ضرعها ، واحتلبها الصحابة في هذا الوقت ـ يقولُ : فَإِذَا هِيَ حَافِلَةٌ ، وَإِذَا هُنَّ حُفَّلٌ كُلُّهُنَّ ، قَالَ : فَعَمَدْتُ إِلَى إِنَاءٍ لآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا كَانُوا يَطْمَعُونَ أَنْ يَحْتَلِبُوا فِيهِ ـ إناء ضخم لم يطمع أن يُحْلَب فيه لبن ـ قَالَ : فَحَلَبْتُ فِيهِ حَتَّى عَلَتْهُ رَغْوَةٌ ، فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ؛ فَقَالَ ﷺ : « أَشَرِبْتُمْ شَرَابَكُمُ اللَّيْلَةَ؟» قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، اشْرَبْ ، فَشَرِبَ (بأدب وخلق) ، ثُمَّ نَاوَلَنِي ـ أي: رد القدح أو الإناء إلى المقداد ـ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، اشْرَبْ ، فَشَرِبَ ، ثُمَّ نَاوَلَنِي ـ الإناء ـ فَلَمَّا عَرَفْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ رَوِيَ ، وَأَصَبْتُ دَعْوَتَهُ ضَحِكْتُ حَتَّى أُلْقِيتُ إِلَى الأَرْضِ (من شدة الضحك ؛ فلقد أصبح المقداد في أمان ، فظلَّ يضحكُ ضحكًا شديدًا أمام النبيِّ ﷺ حتى وقع على الأرض من شدة الضحك !! أمر عجيب) ، فلما ضحك المقداد ، قال ـ له ـ النَّبِيُّ ﷺ : « إِحْدَى سَوْءَاتِكَ يَا مِقْدَادُ » ـ يعني : إنك فعلت سَوْءَةً من الفعلات ، فهذه ليست أول مرة ـ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، كَانَ مِنْ أَمْرِي كَذَا وَكَذَا وَفَعَلْتُ كَذَا ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَا هَذِهِ إِلاَّ رَحْمَةٌ مِنَ الله » ـ أيُّ إحسان هذا ؟ ـ « أَفَلاَ كُنْتَ آذَنْتَنِي ، فَنُوقِظَ صَاحِبَيْنَا فَيُصِيبَانِ مِنْهَا » ـ أي : أفلا أعلمتني بالأمر ، وأن الله أكرمنا بهذا الخير حتى يصيب منه صاحبانا ؟ فترى ماذا يقول له المقداد ؟ ـ قَالَ : فَقُلْتُ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ! مَا أُبَالِي إِذَا أَصَبْتَهَا وَأَصَبْتُهَا مَعَكَ ، مَنْ أَصَابَهَا مِنَ النَّاسِ .أي : لا يضرني ألا يشرب أحدٌ ، ما دمتُ أنا وأنت قد شربنا !!

أيُّها الأحبةُ : تلك الكلمات الشمولية في معاني الإحسان ، وفي آيات الإحسان ، وفي أحاديث الإحسان ، لا أقول على سبيل الاستقصاء ـ كما ذكرتُ قبل ذلك ـ وإنما من باب اقتطاف بعض الثمرات في هذا البستان الوارف الظلال ، الماتع الشذى والأزهار ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم الإحسان .

وسوف أُفصِّلُ القولَ ـ بَعْدُ ـ في الإحسان ؛ فأشرع في الحديث عن العبادة التي هي الأصل الأول من أصول الإحسان في قول النبيِّ ﷺ : « أَنْ تَعْبُدَ الله كأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » .

*****

ما هي العبادة ؟ ولماذا خلقت ؟

قوله ﷺ : « الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ الله كأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » ؛ فإحسانُ العبادة هو : الإخلاص ، والخشوع ، ومراقبة المعبود ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وهذا هو المقام الأول من مقامات الإحسان حَالَ العبادة ، كأنك ترى المعبود ﷻ ، وهو : أن يغلب عليك أثناء العبادة أنك تشاهد الحقَّ ـ تبارك وتعالى ـ بقلبك ، حتى وكأنك تراه .

فقوله : « كأَنَّكَ تَرَاهُ » : أي : كأنك تراه بعينيك .

أما المقام الثاني للإحسان ؛ فهو أن تستحضر أثناء العبادة أن الحقَّ سبحانه وتعالى مُطَّلِعٌ عليك ، يسمع ويرى عملك .

وقوله : « فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » .

قال الإمام النوويُّ ؛ كما في «فتح الباري» للحافظ ابن حجر [1]: « فتقدير الحديث : فإن لم تكن تراه ـ سبحانه وتعالى ـ فاستمرَّ على إحسان العبادة ، فإنه يراك ، على إخلاصك ، ومراقبتك وخشوعك ، وخضوعك في العبادة » .

فما هي العبادة ؟

والجواب : لأهمية الكلام على هذا السؤال أوَصِّلُه بمقدمةٍ مهمةٍ جدًّا بين يدي الجواب ، وأستهلُّ هذه المقدمة بهذه الكلمات :

فأقول : إن من أقبح الجهل أن يجهل الإنسانُ خالقه سبحانه وتعالى ، وسرَّ وجوده ، والغاية التي من أجلها خُلق ؛ وهو الإنسان الذي آتاه الله ﷻ العقل

---

(١) الفتح (١/ ١٢٠) (تحت حديث رقم ٥٠) ط دار الفكر .

والإرادة ، وميَّزه على سائر المخلوقات في الكون فأكبر عارٍ عليه أن يعيش غافلًا عن الله ؛ فيأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام ، لا يفكر في خالق ، ولا يبحث عن غاية ، ولا عن وظيفة من أجلها خُلِق ، ولها ابتُعِث ، ولا يبحث عن طبيعة دَوْرِه في هذه الأرض ، حتى يأتيه الأجل والموت ، دون أن يستعد لهذا اليوم ، فيجني ثمرة الغفلة ، والجهل ، والانحراف ، في عمره الطويل أو القصير ، وحينئذٍ يندم يوم لا ينفعه الندم ، وهو بين يدي الله تبارك وتعالى ، يرى نفسه أخسَّ من البهائم والحيوانات ؛ فإن البهائم والحيوانات كلها عرفت ربها ، وسجدَتْ له .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج:١٨]

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ [الأعراف :١٧٩] ـ تدبَّر القول بعد ذلك : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف :١٧٩]

هذا الصنف الخبيث الذي يقول قائله : « جئتُ ، لا أعلم من أين ؟ ولكني أتيت ، ولقد أبصرتُ قُدَّامى طريقًا فمشيت ، وسأمضي في طريقي ، شئتُ هذا أم أبيت ، كيف جئتُ ؟ كيف أبصرتُ طريقي ؟ لست أدري » !!

لا يعرفُ خالقه ، ولا يعرف غايةَ وسرَّ وجوده في هذه الأرض ؛ كما قال

الله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد:١٢] ؛ فأيُّ جهلٍ أبشع وأفظع من أن يجهل الإنسانُ ـ الذي يتعالى بفعله ، ويتعالى بإبداعاته المادية ؟!

أيُّ جهلٍ أعظم من أن يجهل هذا الإنسانُ المتعالي ربَّهُ وخالِقَهُ الذي خلقه ، وبعثه ، وأوجده ـ سبحانه وتعالى؟ !!

لهذا كان لزامًا على كلِّ إنسانٍ عاقلٍ أن يبادر ليسأل نفسه هذا السؤال : لماذا خلقتُ ؟ . وما هي الغاية من خلقي ؟ وحتمًا قبل طَرْح هذا السؤال ، لا بد وأن تطرح على نفسك سؤالين مهمين آخرين :

السؤال الأول : مِنْ أين ؟ يعني : مَنْ أنا ؟ ومَنْ أوجدني ؟ ومَنْ خَلقني ؟

والسؤال الثاني : إلى أين؟ وما هو المصير؟ وإلى أين أسير؟

لا بد وأن تطرح على نفسك هذين السؤالين الكبيرين لتتعرف على الغاية التي من أجلها خُلِقْتَ ؟ إذا عرفت مَنْ خالقك ، والغايةَ التي من أجلها خلقك ، حينئذٍ ستعرفُ مَنْ أنت ، وستعرفُ مصيرك ومسيرك ؛ فلا بد من الإجابة على هذه الأسئلة : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا خلقتُ ؟ هذه هي الأسئلة الثلاثة التي صاحبت الإنسان في كل فترات حياته ، وفي كل مكانٍ وُجِد فيه ، وهي تتطلب من أي إنسان الجواب الشافي لها في كلِّ مرحلة من مراحل العمر ، وفي كلِّ مكان على وجه البسيطة من يوم أنْ خَلَقَ الله ﷻ آدم عليه السلام .

ولابد ـ كما ذكرتُ ـ من طرح هذه المقدمة قبل أن أشرع في الحديث عن العبادة تأصيلًا لغويًا واصطلاحيًّا .

أقول : أما السؤال الأول : مَنْ أنا ؟ ومن أين أنا ؟

فهو عُقْدَةُ العُقَدِ عند الماديين الملحدين في كلِّ زمان ومكان أن يطرحوا على أنفسهم هذا السؤال : مَنِ الذي خلقني ؟ ومن الذي أوجدني ؟ فهؤلاء الذين لا يؤمنون إلا بما تقع عليه الحواس ، أي : إلا بما تراه الأعين ؛ فهو يؤمن بهذا المصباح ؛ لأنه يراه بعينه منيرًا مضيئًا ، لكنه في الوقت ذاته يغضُّ الطرف عن تيارٍ كهربائيٍّ لا يراه بعينه ، هو سرُّ إضاءة هذا المصباح ؛ فهو ماديٌّ أعمى ، لا يؤمن إلا بما تراه عينه ، حتى ولو كذَّبه عقله ؛ لكنه لا يؤمن إلا بما تحسُّه الأيدي ، وبما تراه العيون !!

هؤلاء يتخذون منطق العقل في رؤوسهم ـ زعموا ـ دليلًا على وصولهم إلى الحق والحقيقة ، ويُصِرُّون في عمًى عجيبٍ على أن هذا الكون بما فيه ومَنْ فيه وُجِدَ وحْدَه ! وكلُّ ما في هذا الكون من إحكام وترتيب إنما هو صنع المصادفة العمياء !!

أما الذين يستجيبون لنداء الفطرة في كلِّ زمان ومكان ، فهؤلاء يقرون بأن لهذا الكون إلهًا ، وربًّا حكيمًا عظيمًا ﷻ تتجه قلوبهم إليه سبحانه وتعالى بالتعظيم ، والرجاء ، والخشية ، والتفويض ، والتوكل ، والإنابة ، والعبادة بصفة عامة .. يشعرون بخالق هذا الكون ، ويتَّجِهُون إليه سبحانه وتعالى ، بفطرتهم السليمة النقية ، التي لمْ تعكرها الماديات ، والشبهات ، والشهوات ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠] .

لكن هذا الصوت ـ أعني : صوت الفطرة ـ قد يَخْفِتُ في قلب وعقل إنسان ، أو قد يكبت هذا الصوتَ صاحبُه عمدًا ـ نعم عمدًا ! ـ عن كِبْرٍ ؛ فالمشركون ما أنكروا هذه الحقيقة .. ما أنكروا أنَّ الله ﷻ هو الخالق ؛ بل

كفروا به سبحانه كِبْرًا وعنادًا ؛ كما قال ربُّنا سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات :٣٥] ؛ وقال تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل :١٤] .

فهؤلاء يقرون بهذه الحقيقة لكنهم قد يرفضونها كِبْرًا وعنادًا !!

وركِّزوا معي جيدًا ، فهذا كلامٌ مهمٌ للغاية ـ فالفطرة قد تَخْفِقُ في قلب وعقل إنسان عن قصد وعمد ؛ فإذا نزلت بهذا الإنسان ـ نفسه ـ أزمة ، أو أحداث مريرة ، أو مشكلة ، واهتز أمام هذه الأزمة ، وأمام هذه الشدة ، وخاب أملُ هذا الإنسان في كل مَنْ حوله ، تراه ينطلق مرة أخرى مستجيبًا لهذا الصوت الذي يعلو في أعماقه ، ألا وهو صوت الفطرة ، فيتجه مرة أخرى ـ رغم أنفه ـ لله ـ جَلَّ وَعَلاَ .

تدبَّر معي هذا الحوار الجميل ؛ فلقد سأل رجلٌ ـ جعفر الصادق ﷺ عن الله فقال له جعفر الصادق [(١)]:

« ألم تركب البحر ـ يعني : ألم تركب باخرة أو مركبًا أو سفينة ؟

قال : بلى ، فقال جعفر : فهل حدثت لك مرة أن هاجت بكم الريح عاصفة ؟ قال : نعم ، قال جعفر : وانقطع أَمَلُكَ من المَلاّحين ووسائل النجاة ؟ قال : نعم ، قال : فهل خَطَرَ في بالك ، وانقدح في نفسك أن هناك من يستطيع أن

---

(١) وقد بينتُ قبل ذلك أننا لا ننكر ما لآل بيت النبيِّ ﷺ من مناقب بدعوى أن الروافض قد رفعوهم إلى مرتبة الألوهية ؛ فنحن لا نسقط ما لهم من مناقب بهذه الدعوى ؛ بل نثبت لهم ما ثبت بالحق بدليله ، وقد بينت ذلك وأنا أردُّ على الشيعة ، وقلْتُ : إنهم يتمسحون في الإمام العالم العلم جعفر الصادق ، وهو بريءٌ من كلِّ ما يؤصلونه مخالفًا لقرآن الله ، وكلام رسول الله ﷺ ؛ فهؤلاء ـ أعني آل بيْتِ رسول الله ﷺ ـ من أعلم الناس ، ومن أكثر الناس اتباعًا لهدي رسول الله ﷺ .

ينجيك إن شاء ؟ قال : نعم ، قال : هذا هو الله »[1] .

نعم .. هذا هو الله سبحانه وتعالى ، وهذه الحقيقة تثبتها آيات كثيرة جدًّا في القرآن ، تدبَّر معي قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ [الزمر :٨] .

وتدبر قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان :٣٢]

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء :٦٧] ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !!

هذه طبيعة الإنسان ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار:٦ـ٨]

فإذا كان منطلق الفطرة يهدي إلى الله تعالى ، والفطرة ليست وجدانًا خالصًا ، وليست عقلًا خالصًا، ولكنها مزيج بين الوجدان ـ أي : بين القلب ـ والعقل ؛ فإن العقل وحده فقط يرى الإيمان بالله ـ تبارك وتعالى ـ ضرورة يستحيل أن يعيش الإنسانُ السويُّ بدونها ؛ فإن العقل بغير تعلُّم ، وبغير اكتساب يؤمن حتمًا بقانون السببية ؛ هذه الورقة الآن في يدي وفي يدك ، تهتزُّ بسبب ، هذا هو قانون السببية ؛ لأنني أحركها ؛ فالعقل يؤمن بهذا القانون إيمانَهُ بكلِّ البداثيات والأوليات التي لا تحتاجُ إلى دليل ؛ فلا ينبغي لعاقل إذا رأى الشمسَ ساطعةً في أفق السماء أن يقول : ما هو الدليل على أن الشمس طالعة ؟!!

---

(١) «روح المعاني» للألوسي (تفسير سورة الإسراء / ٦٧) .

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

بل يجب أن يسأل نفسه : ما هو الدليل على وجود عقله في رأسه ؟! كهذا الذي دخل يومًا على طلابه ، وأراد بهذا القانون أن يثبت الضدَّ ؛ فقال لهم : أيها الطلاب ، هل ترون أستاذكم ؟! قالوا : نعم ، فقال : هل ترون السبورة التي أكتب لكم عليها ؟ قالوا : نعم ، فقال : هل ترون الكرسيَّ الذي أجلس عليه ؟ قالوا : نعم ... إلى أن قال لهم : هل ترون الله ؟! قالوا : لا ، قال : إذًا هو غير موجود !!

هؤلاء هم الماديون الأغبياء الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوس المرئي ؛ فقيَّض الله تلميذًا صغيرًا من تلامذته ، فاستأذن أستاذه ، ووقف إلى جواره ، واتجه التلميذ إلى زملائه ، وقال : أيها الطلاب ، هل ترون عقل الأستاذ ؟ قالوا : لا ، قال : إذًا هو غير موجود .. مجنون ابن مجنون !!

فالعقل بدون تعلُّم ، وبدون اكتساب يؤمن بقانون السببية إيمانه بالأمور الأولية الابتدائية التي لا تحتاجُ إلى دليلٍ على وجودها ؛ فلا يقبل أبدًا العقل السويُّ فِعْلًا بغير فاعل ، ولا يقبل صَنْعَةً بغير صانع !! هذا مستحيل .

وهذا القانون هو الذي عبَّر عنه الأعرابيُّ الأول ببساطة شديدة ؛ حيث لم يتخرج في جامعة من الجامعات ، ولا في كلية من الكليات ، وإن شئت فَقُلْ : ما تخرَّج إلا من جامعة الفطرة ؛ حينما سُئِل عن الله ﷻ فقال ـ بعقله الذي آمن بقانون السببية البدائي :

« البعرة تدلُّ على البعير ، والأثر يدلُّ على المسير ؛ سماء ذات أبراج ، وأرضٌ ذات فجاج ، وبحارٌ ذات أمواج ، أفلا يدلُّ كلُّ ذلك على اللطيف الخبير »[1] .

---

(١) راجع «تفسير ابن كثير» (البقرة / ٢٢) .

هذا هو القانون ببساطةٍ شديدة ، وهو الذي عبَّر عنه إمام أهل السنة أحمد ابن حنبل ـ طَيَّب الله ثراه ـ حينما أمسك البيضة يومًا ، وقال [١]: « هذا حصنٌ حصينٌ أملس ، ليس له باب ، وليس له منفذ ، ظاهره كالفضة البيضاء ، وباطنه كالذهب الإبريز ، وبينما هو كذلك ، إذ انصدع منه حيوان سميع بصير ، ذو شكلٍ حسن ، وصوتٍ مليح » .

هذا هو القانون الذي عبَّر عنه الإمام الشافعيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ حينما أمسك يومًا ورقة التوت ؛ فقال [٢]: « هذه ورقة التوت تأكلها الغزالة فتعطينًا مسكًا ، وتأكلها الشاة فتعطينا لبنًا ، وتأكلها دودة القز فتعطينا حريرًا ، إن الطعام واحدٌ ، ولو كانت الأمور بالمصادفة العمياء لكانت عصارة الطعام للطعام الواحد واحدة ، ولكنها كانت في الشاة لبنًا ، وفي الغزالة مسكًا ، وفي الدودة حريرًا ، إنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

وقال ابنُ المعتز :

فيا عجبًا كيف يُعْصَى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كلِّ شيءٍ له آية ... تدلُّ على أنه الواحد

هذا هو القانون ببساطة شديدة ؛ يقول عالم الطبيعة المشهور ـ إسحاق نيوتن [٣]: « لا تَشُكُّوا في الخالق ؛ فإنه مما لا يعقل أن تكون المصادفات

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر .

(٣) وأنا لا أستشهد بقول هؤلاء لأثبت الحقَّ الذي نحن عليه ، كلاَّ ؛ فإنه لا يجوز لمسلم البتة أن يستشهد بكلام مخلوق على وجه الأرض على صدق الله ، وصدق رسوله ﷺ أبدًا ، فأنا لا أستشهد بأقوال علماء الطبيعة ، والجيولوجيا ، والفلك ، والرياضيات ، ولا أستشهد بالنظريات العلمية على صدق وصحة كلام رب البرية وكلام سيد البشرية ، إنما أنا أثبت لأصحاب القلوب المريضة ـ وبكل أسف ـ ممن يصدقون ما يأتي من علماء الغرب ـ لا أقول: =

وحدها هي قاعدة هذا الوجود ».

فلا يمكن أبدًا أن تكون الصدفة هي التي خلقت هذا الوجود بهذا الإبداع ، والجمال والجلال !! والله لو نظر عالمٌ من هؤلاء العلماء ـ الذين لا يؤمنون بالله ـ إلى كوز الذرة لوحَّد الله وعَبَدَهُ .. لو نظر أحدهم إلى هذه الحبات اللؤلؤية البيضاء ، كيف رُصَّت على القَوْلحة بهذا الجمال والإتقان والتناسب والإبداع ، والله ـ لو أنصف ـ لوَحَّدَ الله وعَبَدَه وعظَّمه .

مستحيل أن تكون الصدفةُ هي التي ترصُّ الحباتِ بهذا الجمال والتناسق ، والإبداع على القولحة !!

وكلَّما ازداد اطلاع الإنسان على عجائب الكون ومعرفته بما فيه من جمال وإحكام ؛ ولم يقف عند هذه القشور ازداد إيمانه بوجود خالق لا حدَّ لقدرته ولا نهاية ؛ فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم ، وهو صرحُ عظمةِ الله وحده ، ولذلك أنا قلت في قضية الاستنساخ بأن العلماء أمام النظريات العلمية الحديثة ينقسمون إلى فريقين : فريق : يزداد إيمانًا بالله تبارك وتعالى بعد كلِّ كشفٍ علميٍّ . وفريق : يزداد كُفْرًا وعِنَادًا وكِبْرًا !! نعم .. فريق إذا وصل إلى نظرية علمية جديدة يزداد إيمانًا بالله تبارك وتعالى ، وفريق آخر إذا وصل إلى نظرية علمية جديدة يزداد بُعدًا عن الله وكُفرًا به ؛ كما سمعنا من يقول بعد نظرية الاستنساخ : « آن للإنسان أن يعيش وحده بعيدًا عن الله » ، وكما سمعنا من يقول : « آن الأوان لتختار المرأةُ الطفلَ الذي تريد ، وبشكل العين الذي تريد ، بعيدًا عن الزواج !! ».

= تصديقهم بكتاب الله ـ بل أشد من تصديقهم بكلام الله !! نعم ، أنا لا أبالغ ، ولا أغالي ، ولا أجيش العواطف بكلام فارغ أجوف ، كلا ؛ بل هذا صنف موجود يصدِّق كلام علماء الغرب هؤلاء أكثر من تصديقه لربِّ الأرض والسماء !!

إلى آخر هذه الأقوال الخبيثة الخطيرة التي ذكرت كثيرًا منها ، وأنا أتحدث عن قضية الاستنساخ التي بدأت تطفو على السطح من جديد ، لكننا نؤكِّد ونكرر ، أنهم لنْ يتمكَّنوا من أن يخلقوا ذبابة ، والاستنساخ ليس خلقًا يضاهِي خلق الله ﷻ ، وإنما هؤلاء يعملون على خلق الله ، ألا وهو الحيوان المنويُّ والبويضة ؛ فإن أرادوا أن يزعموا الخلق فعلًا فليخلقوا حيوانًا منويًّا واحدًا !!

وصدق ربِّي إذ يقول : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ [الواقعة :٥٨، ٥٩] .

يقول سبنسر : « إن العَالِمَ الذي يرى قطرة الماء ، فيعلم أنها تتركب من عنصري الهيدروجين والأكسجين بنسبة ٢ : ١ (يد ٢ أ) » ــ أعني : نسبًا دقيقة محكمة جدًّا ، بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت مادة أخرى تحمل صفات كيميائية وفيزيقية مختلفة تمامًا عن الماء ، تحول قطرة الماء إلى نار مشتعلة متأججة ؛ فهذه العناصر المكوِّنة لجزيء الماء تحمل في ذاتها صفات الإشعال بكيفية معينة ؛ فعنصر الهيدروجين يحمل القدرة على الاشتعال بين صفاته ، أما عنصر الأكسجين فيساعد على الاشتعال ، ولكنه هو نفسه لا يشتعل؛ وقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير:٦].

فهذه البحار ستتحول إلى نار مشتعلة يوم القيامة ؛ لأن النسب التي هي موجودة بين الأكسجين والهيدروجين اختلَّت فكانت هذه الاشتعالات والنار المتأججة ، فالنسبة موضوعة بدقة متناهية ؛ فيقول هذا العالِم : « إن العالِمَ الذي يرى قطرة الماء ، فيعلم أنها تتركب من الهيدروجين والأكسجين بنسبة خاصة جدًّا ، بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئًا آخر غير الماء بصورة هي أقوى وأعظم من هذا الذي لا يرى في قطرة الماء إلا أنها نقطة

ماء فحسب » .

أليس كذلك ؟!! انظر إلى العالِمِ الذي يدرك الحقائق .. الذي ينظر إلى الماء ، وهو ناظر إلى نسبة الأكسجين والهيدروجين ، ويعلم لو أن نسبة الأكسجين زادت لأصبحت مادة أخرى تسمَّى الماء الثقيل (يد ٢ أ ٢) ونسبة الهيدروجين كما هي ، لنظر إلى هذه الآية فازداد إيمانًا بالله سبحانه وتعالى ، وتراه يختلف إيمانه عن إيمان العبد الذي ينظر إلى قطرة الماء على أنها قطرة ماء! أليس كذلك ؟! بلى ؛ فالأمور تختلف .

ويقول فرانسيس بيكون : « إنَّ القليل من الفلاسفة يميل بعقل الإنسان إلى الإلحاد » .

فالفلسفة طريق الإلحاد ؛ يقول المتفلسف : « أنا أشك إذًا أنا موجود » !! ولو صدق لقال : « أنا أشك إذًا أنا دبوس » ! أين علاقة الشك بالوجود ! وقد بدأ حياته بالشك ابتداءً ، والشك لا يمكن أبدًا أن يوصل إلى حقيقة مطلقة ؛ بل إن عصفت رياح الشكوك بالإيمان في القلوب ضلَّ الخلق ؛ ولذلك ربُّ العزة سبحانه وتعالى يصفُ المؤمنين بأن رياح الشك لا تهبُّ ولا تعصف بقلوبهم أبدًا ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾[الحجرات:١٥] .

أي : لم يتشككوا .. هذا هو المؤمن ، لكن العبد الذي يبدأ بالشك كي يصل للحقيقة ! هذا إضلال لعقول أبنائنا وبناتنا ، وكم من الناس اقتنع بهذه النظريات الفلسفية الباهتة الفارغة التي يُغْني بطلانها عن إبطالها ، لكننا بكلِّ أسف كُنَّا ـ في التعليم الثانوي ـ نُسلِّم العقول والقلوب لهؤلاء على أنهم لا

ينطقون عن الهوى ؛ فإذا جاء القول على لسان عالمٍ غربيٍّ سلَّمنا القلب والعقل على أن هذا العالِمِ لا يخطئ !! ثم جاء بعد ذلك صنفٌ خبيثٌ ممن يُنْسَبُون إلى الإسلام والمسلمين ضُخِّموا ونُفِخَ فيهم ليكونوا شَيئًا مَذْكورًا ، وهم في الحقيقة كالطبل الأجوف يُسْمَع من بعيد ، وباطنه من كلِّ الخيرات خالٍ ، وقالوا كلمات خبيثة ؛ كهذا الذي يُنْسَبُ إلى العلم ، ويُشار إليه بالبنان ، يقول لطلابه في كلية الآداب : « ارفعوا القداسة عن القرآن ، وضعوه كتابًا بين أيديكم ، كأيِّ كتابٍ من الكتب التي تستحق النقد والثناء »!!

فأنا لا أقول ذلك من باب الدعاوى ؛ بل هذه حقائق ــ كما ترى ــ ثم يقول : « للقرآن أن يحدثنا عن إبراهيم ، وعن إسماعيل ؛ فهذه أسطورةٌ لا تستحق التصديق ! » . إلى آخر هذه الأقوال الكفرية !!

أقولُ : فالقليل من الفلسفة يميل بعقل الإنسان إلى الإلحاد وسيصل الإنسان إلى طريق مسدود .

وهناك من الحقائق لا يستطيع بشرٌ أن يصل إليها بعقله المجرد أبدًا ؛ فمثلًا كيف تصل بعقلك إلى الله وإلى صفات كماله وأسماء جلاله ؟ لا تستطيع ؛ فلا بد من الوصول إلى هذه الحقيقة عن طريق الوحي .

قال ابن القيم ــ رحمه الله تعالى[1] :

لا يستقلُّ العقل دون هداية	بالوحي تأصيلًا ولا تفصيلًا
كالطرف دون النور ليس بمدرك	حتَّى يراه بكرة وأصيلًا
فإذا النبوةُ لم ينلك ضياؤها	فالعقل لا يهديك قط سبيلًا

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٣/ ٩٧٩) ط العاصمة .

نور النبوة مِثْلُ نور الشمس للعين البصيرة فاتخذه دليلًا

طرق الهدى محدودة إلا على مَنْ أَمَّ هذا الوحي والتنزيلا

فإذا عدلت عن الطريق تعمُّدًا فاعلم بأنك ما أردت وصولًا

يا طالبًا دَرْك الهدى بالعقل دون النقل لَنْ تَلْقى لذاك دليلًا

ثم يقول فرانسيس : « ولكن التعمق في هذه الأشياء بإنصاف ينتهي بالعقول إلى الإيمان ، ذلك ؛ لأن عقل الإنسان قد يقف عندما يصادفه من أسباب ثانوية مبعثرة ، فهنا ينكر ، فلا يتابع السير إلى ما بعدها ، ولكنه إذا أمعن ، فشهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها ، لا يجد بدًّا من التسليم بالله سبحانه وتعالى » .

هذه شهادةُ هؤلاء الذين رسخوا في علم الطبيعة والفيزياء ، وأنا لا أريد أن أستطرد في أقوالهم .

ورحم الله القائل :

لله في الآفاق آياتٌ لعلَّ أقلَّها هو ما إليه هداك

ولعلَّ ما في النفس من آياته عجبٌ عجاب لو ترى عيناك

الكون مشحونٌ بأسرار إذا ما حاولت تفسيرًا لها أعياك

قل للطبيب تخطفته يدُ الرَّدى يا مداوي الأمراض من أرداك

قل للمريض نجا وعُوفي بَعْدَ مَا عجزت فنون الطب من عافاك

قل للصحيح مات لا من علة مَنْ يا صحيح بالمنايا دهاك

بل سائل الأعمى خطا وسْطَ الزحامِ بلا اصطدام مَنْ يا أعمى يقود خطاك

بل سائل البصير كان يحذر حفرة فهوى بها من ذا الذي أهواك
وسل الجنين يعيش معزولاً بلا راعٍ ومرعى مَنْ ذا الذي يرعاك
وسل الوليد بكى وأجهش بالبكاء لدى الولادة ما الذي أبكاك
وإذ ترى الثعبان ينفثُ سمَّه فسله من يا ثعبان بالسموم حشاك
واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو تحيا وهذا السمُّ يملأ فاك
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت شهدًا وقل للشهد من حلاَّك
بل سل اللبن المصطفى من بين فرث ودم من ذا الذي صفَّاك
وإذا رأيت النبت في الصحراء يربو وحده فاسأله من أرباك
وإذا رأيت النخل مشقوق النوى فاسأله من يا نخل شق نواك
وإذا رأيت البدر يسري ناشرًا أنواره فاسأله من أسراك
وإذا رأيت النار شبَّ لهيبها فاسأل لهيب النار من أوراك
وإذ ترى الجبل الأشم مناطحًا قمم السحاب فسله من أرساك
لله في الآفاق آيات لعلَّ أقلَّها هو ما إليه هداك
ولعل ما في النفس من آياته عجبٌ عجاب لو ترى عيناك
الكون مشحون بأسرارٍ إذا ما حاولت تفسيرًا لها أعياك

هذا جواب على سؤالنا الأول : من أين ؟ ومن أنا ؟

وأخلُص من هذه الكلمات المهمة إلى الحقيقة الكبرى ؛ ألا وهي : أن الإيمان بالله - تبارك وتعالى - ليس غريزة فطرية - فحسب - فطر الله ﷻ الخلْق

عليها ، ثم بعد ذلك اجتالتهم الشياطين فأنستهم هذه الفطرة ، وهذه الحقيقة ـ كما سأبين الآن ـ ولكن الإيمان ضرورة عقلية أيضًا ، وبدون هذا الإيمان سيظلُّ هذا السؤال يحتاج إلى جواب ، وهذا السؤال الخالد في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور:٣٥، ٣٦] .

سيظلُّ هذا السؤال مطروحًا يحتاج إلى جواب من هؤلاء المعاندين المتكبرين : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ والجواب : لا ، لا يقول عاقل بأنه خلق من غير شيء .

والسؤالُ الثاني : فهل خَلَقوا أنفسهم ؟!

والجوابُ : لا ؛ ما زعم عاقلٌ على وجه الأرض على طول التاريخ أنه خلق نفسه ، أو خلق الأرض ،أو خلق السموات ؛ فيبقى السؤال مطروحًا ، ويحتاج إلى جواب من كلِّ عاقل منصفٍ على وجه الأرض.

إنهم يقولون ببساطة شديدة في مصير هذا الإنسان بعد رحلة هذه الحياة الدنيا ، يقولون : إنه الفناء والعدم المطلق ،أي : تطويه الأرض في بطنها ،كما طوت ملايين الحيوانات الأخرى ، وأن تعيد هذا الجسد مرة أخرى إلى عناصره الأولى ، فيعود ترابًا ، ثم تذروه الرياح .. وهكذا ، هذه قصة الحياة عند هؤلاء الماديين الظالمين .

أرحام تدفع وأرض تبلع ، ولا جزاء ، ولا حساب ، ولا نعيم ، ولا عذاب !! يستوي في ذلك عند هؤلاء مَنْ أحسن غاية الإحسان ، ومَنْ أساء غاية الإساءة ! يستوي في ذلك مَنْ عاش عمره للناس على حساب شهواته ! ومَنْ عاش عمره لشهواته على حساب الناس ! يستوي في ذلك من ضحَّى

بحياته في سبيل الحق ، ومَنْ ضحَّى بالحق في سبيل حياته !

يستوي في ذلك مَنِ اعتدى على حياة الآخرين في سبيل الباطل ، ومَنْ عاش من أجل أن يرد وأن يدفع الباطل ! يستوي في ذلك منْ عَبَدَ الله ﷻ وحده لا شريك له ، ومَنْ عَبَدَ مع الله آلهةً أخرى باطلةً مدَّعاة !

يستوي في ذلك الموحِّدون والمشركون .. يستوي في ذلك الظالمون والمظلومون . يستوي في ذلك المقهورون والمعذَّبون !!!

هذا هو اعتقاد هؤلاء الملحدين .

أما المؤمن الذي مَنَّ الله عليه بالإيمان ،وأكرمه بالقرآن ، وبرسالة محمد ﷺ ؛ فإنه لا يتلعثم في الجواب طرفة عين . بل يعرف مصيره ، ويعرف مسيره ، يعرف أين يسير ، ويعرف المصير ، فهو يؤمن بقول الملك القدير : ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى:٧] .

شتان شتان بين ماديٍّ ملحد يسوِّي بين هذين الصنفين ممن ذكرت ، وبين مؤمن يعرف أن الله ﷻ هو العدلُ وهو الحق ؛ فالمؤمنون يعلمون أنهم خُلِقوا لحياة الخلود ودار البقاء ، وهم في هذه الدنيا إنما يستصلحون ، وينقَّون ، ويهذَّبون ، ويعدُّون في هذه الدار إعدادًا ليؤهلهم للعيش في دار البقاء ، ليطيبهم الله تبارك وتعالى ، وليكونوا أهلًا لدار طيبة ، وأهلًا لسلام الملائكة عليهم إذا دخلوا جنَّة ربِّهم ـ جلَّ وعلا ـ وهم يقولون: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر:٧٣] .

إنه لعسيرٌ على العقل السويِّ أَنْ يؤمن بخالقٍ عليمٍ حكيمٍ عظيمٍ ، أحسنَ هذا الكونَ خَلْقًا وصُنْعًا ، وقدَّر فيه كلَّ شيء تقديرًا بحكمة ، ووضع كلَّ شيء في هذا الكون بميزانٍ وحسابٍ ، ثم يؤمن بعد كلِّ ذلك أنَّ سُوقَ الحياة

ستنفضُّ بالموت ، وقد سرق من سرق ، ونهب من نهب ، وكَفَرَ مَنْ كَفَرَ ، وأساء من أساء ، واعتدى من اعتدى ، ثم لا يقف بعد ذلك هؤلاء جميعًا بين يدي الله ـ تبارك وتعالى ـ ليقتصَّ المظلوم من الظالم ، وليثيب الموحد على توحيده ، والعابد على عبادته !! لا يصدِّق عقلٌ سويٌّ مثل هذا أبدًا ؛ وما أروع كلام الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون:١١٥، ١١٦] .

وما أروع قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة:٣٦] . يعني : هملاً لا حساب ، ولا عقاب ، ولا ثواب !! كلاً . ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية:٢١] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص:٢٧، ٢٨] .

هذا محالٌ وظلمٌ ؛ فإن هذا التساوي بين هؤلاء وهؤلاء يستحيل على الله الحق العدل ـ سبحانه وتعالى .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الدخان:٣٨ـ ٤٠] .

لابد لجميع الخلق من وقفة ؛ فلا يمكن أبدًا أن تنتهي الحياة إلى الموت ، أو عند الموت ، وسرقة السارق انتهت ! وظلم الظالم ذهب ! وظلم من ظَلَمَ قد مضى دون أن ينتصر له ! أبدًا ، هذا محال ؛ ومن أجمل وألطف ما قرأت ؛ كما في

الحديث الذي رواه ابن ماجه من حديث جابر ﷺ والبيهقي في «الشعب» عن بريدة ، وصحَّحه شيخنا الألباني ﷺ في «صحيح الجامع»[1] سأَلَ النبيُّ ﷺ أصحابه مِنْ مهاجري الحبشة عن أعجب ما رأوا بأرض الحبشة ، قَالَ : «حَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ؟ » فقال أحدهم : رَأَيْتُ امْرَأَةً عَجُوزًا تَحْمِل جَرَّةَ مَاءٍ عَلَى رَأْسِهَا ، فَجَاءَ شَابٌّ فَدَفَعَهَا فِي ظَهْرِهَا بَيْنَ كَتِفَيْهَا دَفْعَةً ، فَأَوْقَعَهَا عَلَى الأَرْضِ ، فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا ، وَقَدْ انْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا ، فَلَمَّا اسْتَوَتْ المَرْأَةُ عَلَى الأَرْضِ نَظَرَتْ إِلَى هَذَا الشَّابِّ ، وقَالَتْ : سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ ـ أي: يا غادر يا ظالم ـ إِذَا وَضَعَ اللهُ الْكُرْسِيَّ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ، وَتَكَلَّمَتِ الأَيْدِي وَالأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، وَاقْتَصَّ للمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ ، سَوْفَ تَعْلَمُ مَكَانِي وَمَكَانَكَ عِنْدَهُ غَدًا ،اسمع ماذا قال النبيُّ ﷺ ؛ قال : « صَدَقَتْ ، صَدَقَتْ ؛ لاَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لاَ يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ قَوِيِّهِمْ ».

انظر إلى فطرة هذه المرأة العجوز ، وكيف أبرزت مشهدًا من أعظم مشاهد القيامة ؛ ألا وهو : مشهد الحساب ، ومشهد الميزان ،ومشهد الحق ؛ نعم ، إنه مشهد حق ؛ فلابد من القصاص .

ولله درُّ من قال :

أيها المظلوم صبرًا لا تهن ... إن عين الله لا تنام

نم قرير العين واهنأ خاطرًا ... فَعَدْلُ الله دائم بين الأنام

*****

أيها الظالمون : إنا متظلمون ... وإنا إلى الله شاكون

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٠) ، عن جابر ، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٧١٤٢ ط الرشد) عن بريدة ، والحديث صحَّحه شيخنا الألباني في «صحيح الجامع » (٤٥٩٨) ، و «مختصر العلو» (٥٩) ، والحديث قد سبق .

قال الله تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

فلابد من وقفة يقف فيها الجميع بين يدي الله تبارك وتعالى ليجازي كل واحد بعمله؛ كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]؛ وقال سبحانه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء:١٣، ١٤].

فالمؤمن يعرف المسير، ويعرف المصير، ويعرف أن المؤمنين إلى جنة عرضها السموات والأرض، وأن الكافرين إلى نار الجحيم.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنان، وأن يُحرِّمنا وإياكم على النيران؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

إذًا السؤال الثالثُ والأخيرُ والمهمُّ: بعد ما عرف الإنسان خالقه، وبعد ما عرف الإنسان مسيره، ومصيره، يجب عليه أن يسأل نفسه هذا السؤال: لماذا خُلقتُ؟ أو ما هي الغاية التي من أجلها خلقتُ؟

والجوابُ: بعد ما عرف أنه مخلوق لله، ومربوبٌ لله سبحانه وتعالى، فالجواب عند المؤمنين معلوم حاضر، لا يحتاج إلى تفكير؛ فكلُّ صانع يعلم سرَّ صنعته؛ لماذا صنعها على نحوٍ معين؟

فالمؤمن حينما يبحث عن هذا السؤال عند خالقه يرى الجواب واضحًا؛ إن سألتَ: لماذا خُلقتُ؟ سيأتي الجواب مِنْ خالقك الذي يعلم الغاية من خَلْقِك؛ بل الذي خلقك لغاية يعلمها ويريدها سبحانه؛ في قول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

وتدبَّروا معي هذه الآية الجميلة التي قلَّ من فكَّر فيها مِنَّا ؛ قال سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ لماذا؟ ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾[الطلاق:١٢] .

فهذه الآية جعلت معرفة الله سبحانه وتعالى هي الغاية من خلق السموات والأرض ؛ فالغاية أن تعرف الله بأسماء جلاله ، وصفات كماله ، وأن تعرف قَدْره وعظمته ، وأن تعرف أنك ما خُلقت إلاَّ لتوحِّده .. إلا لتعبده .. إلا لتخشاه .. إلا لترجوه .. إلا لتتوكل عليه .. إلا لتُخْلِص العبادة له وحده ، بلا منازع أو شريك ؛ فالإنسان ـ وبكلِّ أسف ـ يسأل عن الغاية التي من أجلها خُلِقَ كلُّ شيء في الكون ،مع أنَّ كلَّ شيء في الكون خُلِقَ من أجلك أنت أيها الإنسان ؛ فأنت تسأل : لماذا خُلقت السموات ؟ لماذا خُلِقَت الأرض ؟ لماذا شقَّ الله البحار ؟ لماذا تجري الأنهار ؟ لماذا خلق الله الأزهار ؟ لماذا كذا وكذا ؟ في الوقت الذي لا يسأل الإنسان عن سبب خلقه هو ! وعن غاية خلقه ! لماذا خُلِقْتُ أنا ؟ إنْ سألتَ : الله ﷻ خلق الماء للأرض ، وخلق الأرض للإنبات ، وللحياة ، وخلق الله ﷻ النبات للحيوان ،وللإنسان ، وخلق الحيوان للإنسان ، وخلق الإنسان له وحده ـ سبحانه ؛ فالإنسان مخلوق مربوبٌ لله ، ليفرد خالقه بالعبادة وحده بلا منازع أو شريك .. فلا يجوز لك البتة أن تصرف العبادة لغير الله .. هذه العبادة هي العهد الذي أخذه الله على الخلق ، وهي الميثاق العظيم الذي أخذه الله على الجميع ؛ قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[يس:٦٠].

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ

هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٢، ١٧٣] .

فلا عجب أن تكون العبادة هي الصيحة الأولى لكل نبيٍّ ، وهي الدعوة الأولى لكل رسول ؛ فما من نبيٍّ ولا رسولٍ بُعث في قومه إلا ودعا قومه أول ما دعاهم إلى عبادة الله وحده: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩، ٦٥، ٨٥].

هذه دعوة آدم ، وإبراهيم ، وموسى ، ونوح ، وعيسى ، ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ قال الله ﷻ : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] ؛ وقال الله ﷻ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] ، وقال الله ﷻ : ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢] ؛ فالعبادة أمَرَ الله بها كلَّ الخلق ، وأَمَرَ بها سيِّد الخلق ﷺ ؛ قال تعالى لنبيه المصطفى ﷺ : ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] .

واليقين هنا :هو الموت ؛ فالتكليف بالعبادة لازم للنبيِّ ﷺ ، ولكلِّ بشرٍ على وجه الأرض حتَّى يلحق بربه تبارك وتعالى ؛ بل وبيَّنَ الله ﷻ أنَّ المسيح عيسى بن مريم عليه السلام الذي عبده النصارى ، وجعلوه إلهًا من دون الله ـ بيَّن عبوديته لله سبحانه وتعالى ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٧٢] .

وعبادة الله هي الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق .

والسؤالُ : فما هي العبادة ؟

والجوابُ :

العبادةُ لغةً : كما قال ابنُ فارس في « مقاييس اللغة »[١] ، وكما قال ابن منظور في «لسان العرب»[٢] : مصدر عبد يعبد عبادة ، أي أطاع ، وهذا المصدر مأخوذٌ من مادة عبد التي تدلُّ على معنيين : الأول لينٌ وذلٌّ ، والآخر شِدَّةٌ وغلظ ، ومن الأصل الأول أُخِذ لفظ عبد وهو المملوك ، والجماعة العبيد ، فجماعة العبد العبيد .

وقال الخليل بن أحمد : وأما عبد يعبد عبادة ، فلا يقال إلا لمن يعبدُ الله تعالى[٣]

وقال الراغب في «مفرداته»[٤] : « العبودية : إظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها ؛ لأنها غاية التذلل ، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى . ثم قال : وجَمْعُ العبدِ الذي هو مسترقٌّ : عبيد ، وقيل : عبدًا ، وجَمْعُ العبدِ الذي هو العابد عِبَادٌ ؛ فالعبيد إذا أضيف إلى الله سبحانه وتعالى فهو لفظٌ أعم وأشمل من العبادِ ، ولهذا قال الله تعالى ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [ق:٢٩] .

فنبَّه أنه لا يظلم مَنْ يختصُّ بعبادته ومَنْ انتسب إلى غيره من الذين تسمَّوا بعبْد الشمس وعبد اللات ونحو ذلك » انتهى كلام الراغب .

---

(١) «مقاييس اللغة» (٤/ ٢٠٦) .

(٢) «لسان العرب» (٣/ ٢٧٥) .

(٣) «مقاييس اللغة» (٤/ ٢٠٥، ٢٠٦) نقلاً عن «نضرة النعيم» (٢٧٤١) .

(٤) «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني (ص٣١٩) كتاب العين .

فالله لا يظلم من ينتسب لعباده ـ أي : لغيره ـ كعبد شمس وعبد اللات وعبد العزى ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ أي : من كان عبدًا لله ، أو من كان منهم عابدًا لغير الله سبحانه وتعالى .

وقال الجوهري في «الصحاح» [١] : « العبد خلاف الحُر » ، وأصل العبودية الخضوع والذل ، والتعبيد : الاستعباد هو أن يتخذ الإنسانُ عبدًا ، وكذلك الاعتباد ، والعبادة: الطاعة ، والتعبد : التنسك » .

وقال ابن منظور في « لسان العرب » [٢] : « أصل العبودية الخضوع والتذلل » ، ويقال : تعبدالله العبد بالطاعة ، أي : استعبده ، أما تعبدت فلانًا ؛ فمعناه : اتخذت فلانًا عبدًا ، مثل عبدته سواء » .

وقال ـ أيضًا ـ في موطن آخر في « اللسان» [٣] : « التعبد : التنسك ، والعبادة : الطاعة ، والتعبد : التذلل ، والتعبيد : التذليل ، طريق معبد ، أي : طريق مذلل » قد وطأته الأقدام يصلح للسير ؛ هذا هو التأصيل اللغوي للعبادة بإيجازٍ شديد .

أما المعنى الشرعيُّ والاصطلاحيُّ ـ فهو لا يخرج كثيرًا عن المعنى اللغويِّ .

فقد قال شيخ الإسلام: « العبادة اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال ، والأفعال الظاهرة والباطنة » [٤] .

---

(١) «الصحاح» للجوهري (٢/ ٥٠٢) .

(٢) «اللسان» (ص٢٧٧٦، ٢٧٧٧) .

(٣) « اللسان » (٢٧٧٨) .

(٤) « مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩) .

وهي اسمٌ يجمع كمال الحب لله ونهايته ، وكمال الذل لله ونهايته ؛ كما قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى في «المدارج» (١): «هي كمالُ الذلِّ لله مع كما الحب لله سبحانه وتعالى» .

وقيل (٢): « عبادة الله أي طاعة الله بفعل المأمور ـ أي : ما أمرنا الله به ـ وترك المحظور أي : ما حذَّرنا الله من الوقوع فيه » .

وقال المناوي (٣): « العبادةُ فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيمًا لله سبحانه وتعالى » .

أما العبودية ؛ فقد عرفها الجُرْجَانِيُّ بقوله (٤): « هي الوفاء بالعهود ، وحفظ الحدود ، والرضا بالموجود ، والصبر على المفقود » .

وذكر أهل التفسير أن العبادة في القرآن على وجهين : أحدهما: التوحيد ؛ كما في قول الله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء:٣٦] .

أي : وحِّدوه . الوجه الثاني : الطاعة ؛ لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس:٦٠] .

وقوله تعالى : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ:٤٠] ، أي : يطيعون .

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى (٥): « أصل العبادة : التذلل والخضوع ، وسُمِّيت وظائفُ الشرع على المكلَّفين عبادات ؛ لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تبارك وتعالى » .

---

(١) « مدارج السالكين» (١/ ٨٥) .
(٢) « فتح المجيد» (٢٦) .
(٣) « التوقيف على مهمات التعاريف» (٢٢٣٤) .
(٤) « التعريفات» (١٥١) .
(٥) كما في « فتح المجيد» (٢٦) .

وقال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى [١]: « التحقيق في قوله ﷺ : «اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ » [٢] التزام عبودية الله سبحانه من الذل والخضوع والإنابة ، وامتثال أمر سيده ، واجتناب نهيه ، ودوام الافتقار إليه ، واللجوء إليه ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، وعياذ العبد به ، ولياذه به ، أن لا يتعلق قلبه بغيره محبة وخوفًا ورجاء ، وفيه : أَنِّي عَبْدٌ من جميع الوجوه ، كبيرًا وصغيرًا ، حيًّا وميتًا ، مطيعًا وعاصيًا ، ومعافى ومبتلى » ، لا يخرج الإنسان بأي حال من الأحوال عن هذه المراحل عن العبودية لله سواء باختياره أو رغمًا عنه ، فالعبودية إما أن تكون عن طاعة واختيار ؛ وهي : عبودية المؤمن لله سبحانه وتعالى ، وإما أن تكون عن قهر واضطرار ؛ كما في قوله ﷻ : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣] .

هذه عبودية القهر والاضطرار ، أما عبودية الاختيار ، فهي للمؤمنين الموحدين الذين يحققون التوحيد لله سبحانه وتعالى .

وكلما ازداد العبدُ عبادةً لله تعالى كلَّما ازدادت مكانته ، وعلا قدره ، وارتفع شأنه عنده سبحانه ، كما سأبين إن شاء الله تعالى .

وفيه أيضًا : « أنك أنت الذي مننت عليَّ بكلِّ ما أنا فيه من نِعَمٍ ، فذلك كلُّه من إنعامك على عبدك » .

قال ابن القيم : « وفيه أيضًا : (أني لا أتصرف فيما خولتني من مالٍ ونفسٍ إلا فيما خوَّلتني وإلا بأمرك ، كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده ، وإني لا أملك

---

(١) « الفوائد » (٥٣، ٥٤) .

(٢) جزء من حديث طويل ؛ أخرجه أحمد (١/ ٣٩١) ، والحاكم (١/ ٥٠٩، ٥١٠) ، عن ابن مسعود مرفوعًا بلفظ : « مَا أَصَابَ أَحَدًا قطُّ همٌّ وَلاَ حَزَنٌ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُك ... الحديث » . صححه العلامة الألباني في « الصحيحة » (١٩٩) .

لنفسي ضرًّا ولا نفعًا ، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا ، فإن صحَّ له شهود ذلك ، فقال : « إِنِّي عَبْدُكَ » حقيقة) .

فإن كثيرًا منا يكذب وهو يقول : «اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ» فهذا هو معنى العبودية لله سبحانه وتعالى في جميع الوجوه ، وعلى كلِّ الأحوال ، وفي كل الأوقات .

ثم قال ابن القيم رحمه الله: « نَاصِيَتِي بِيَدِكَ » أي : أنت المتصرف فيَّ ، تصرفني كيف تشاء ، لستُ أنا المتصرف في نفسي .

وكيف يكون له في نفسه تصرفٌ مَنْ نَفْسُهُ بيد ربه وسيده ، وناصيته بيده ، وقلبه بين أصبعين من أصابعه ، وموته وحياته ، وشقاؤه وسعادته ، وعافيته وبلاؤه كلُّهُ إليه سبحانه ، ليس إلى العبد منه شيء ؛ بل هو في قبضة سيِّده أضعف من عبدٍ مملوك ضعيفٍ حقيرٍ ، ناصيته بيد سلطانٍ قاهرٍ مالكٍ له ، تحت تصرفه وقهره ، بل الأمر فوق ذلك .

ومتى شهد العبد أنَّ ناصيته ونواصي العباد كلَّها بيد الله وحده يصرفهم كيف يشاء ، ولم يَخَفْهُمْ بعد ذلك ، ولم يَرْجُهُمْ ، ولم يُنْزِلهم منزلة المالكين بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين ، المتصرف فيهم سواهم ، والمدبر لهم غيرهم ، فمن شهد نفسه بهذا المشهد ، صار فقره وضرورته إلى ربه وصفًا لازمًا له ، ومتى شهد الناس كذلك لم يفتقر إليهم ، ولم يعلِّق أملَهُ ورجاءه بهم فاستقام توحيده وتوكلُّه وعبوديته لله سبحانه وتعالى . هذا معنى : « اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ » ا.هـ .

فالله مالكُ أمري وأمرك ، فلا تعلق قلبك بغيره سبحانه .

ويقول ابن القيم [1] رحمه الله : «العبادة تجمع أصلين : غاية الحب ، وغاية الذل

(١) « المدارج » (١/ ٨٥) .

والخضوع ، فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له لم تكن عبدًا له ، ومن خضعْتَ له وانقدت له بلا محبة لم تكن له عابدًا حتى تكون محبًّا خاضعًا » ا.هـ .

كتب أبو الدرداء رضي الله عنه إلى مسلمة بن مخلد[1] : « أما بعد ؛ فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله ـ اللهم ارزقنا حبك ـ فإذا أحبه الله حبَّبَهُ إلى خلقه » .

لكنني أؤكد بأن المراد بقول : «حبَّبَهُ إلى خلقه» أي : في قلوب عباده المؤمنين ، وإلا فإن الكافر والمنافق يبغض المؤمن على طول الخط ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم:٩٦] .

فإذا رأيت رجلاً من أهل الإيمان ومن أهل الصلاح ومشهود له بذلك ، ورأيت رجلاً يبغضه ، فربما لا يبغضه إلا لنفاقٍ أو مرضٍ في قلبه ، فلا يقذف الله حبَّ المؤمن إلا في قلوب الصالحين ؛ وكما قال ﷺ : « الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ »[2] .

قال الخطابيُّ ـ نقل ذلك عنه الحافظ ابن حجر ـ في «الفتح»[3] «يحتمل أن يكون إشارة إلى معنى التشاكل في الخير والشر والصلاح والفساد ، وأن الخير من الناس يحنُّ إلى شَكْلِه ، والشرير نظير ذلك ؛ يميل إلى نظيره ، فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جبلت عليها من خير وشر ، فإذا اتفقت تعارفت ، وإذا اختلفت تناكرت » اهـ .

أي: تحنُّ روح المؤمن إلى المؤمنين ، وتحنُّ روح المنافق إلى المنافقين ؛ فلو

---

(١) أخرجه وكيع في «الزهد» (٥٢٤) ، وأحمد في «الزهد»(٧٢٣) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «أحاديث الأنبياء» ، باب الأرواح جنود مجندة (٣٣٣٦) ، ومسلم ، كتاب «البر والصلة » ، باب الأرواح جنود مجندة ، (٢٦٣٨) عن أبي هريرة وعائشة .

(٣) «فتح الباري» (٦/ ٤٢٦) .

دخل المؤمن على مجلس مليء بالناس لوجدت روحه تنجذب إلى روح رجلٍ من المجلس ، وكأنه يعرفه من قبل ، وإذا دخل المنافق لوجدته قد انجذبت روحه إلى روح منافق مثله ؛ وكأنه يعرفه من قبل ؛ فالأرواح جنود مجندة ، فلا يحب المؤمنين إلا مؤمن ، ولا يبغض المؤمنين إلا كافرٌ ، أو منافقٌ ، والعياذ بالله .

نسأل الله أن يرزقنا حبه ، وحبَّ نبيه ﷺ ، وحب المؤمنين الصادقين ، وهذا من الولاء لله ورسوله والمؤمنين ؛ قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ لله ، وَأَبْغَضَ لله ، وَأَعْطَى لله ، وَمَنَعَ لله ؛ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ »[1].

فهل يا تُرى رأيت مؤمنًا ـ قط ـ يبغض مؤمنًا على وَجْهِ الأرض ؟ هل يستطيع مؤمنٌ أن يبغض مؤمنًا ؟ لن تجد ؛ بل ربما يحبه أكثر من حبه لأخيه ابن أمه وأبيه ، إن كان أخوه الأول على عقيدة وعلى دين ، يفوق ما يرى الأخ أخاه ابنَ أمه وأبيه عليه من عقيدة ودين .

فيجب عليك إن كنت مؤمنًا صادق الإيمان أن تحبَّ إخوانك في روسيا أو في أمريكا أو في الهند إن كانوا على عقيدة النبيِّ ﷺ .

يجب عليك أن تحب هؤلاء أكثر من حُبِّك لأخيك ابن أمك وأبيك الذي يعيش معك في بيت واحد إن كان يقلُّ دينًا وورعًا وعلمًا وعملاً عن الأخ الأول الذي لم تنجبه أمك وليس من ظهر أبيك . ألم يقل مصعب بن عمير لأخيه الأنصاري الذي ملك أخاه : اشدد وثاقك عليه ، فإن له أمًّا تملك من المال كذا وكذا ؛ فقال له أخوه : أهذه وصيتك بأخيك ؟! فقال مصعب : « هو أخي

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب «السنة» ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨١) عن أبي أمامة ، وله طريق أخرى يصحُّ الحديث بها ؛ كما في «الصحيحة» (٣٨٠) .

دونك ، هو أخي دونك »[1].لأن أخا مصعب كان على الشرك ، والأنصاري كان على التوحيد .

هذه عقيدة الولاء والبراء ، نسأل الله أن يردَّ الأمة إليها ردًّا جميلاً .

ثم قال أبو الدرداء ـ كما سبق : « وإن العبد إذا عمل بمعصية الله أبغضه الله ، وإذا أبغضه الله بَغَّضَهُ إلى خلقه » نعوذ بالله من الخذلان .

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى[2]:

فعبادة الرحمن غاية حُبِّه ... مع ذلِّ عابده هما قطبان

وعليهما فَلَكُ العبادة دائر ... ما دار حتَّى قامت القطبان

والقطبان : يقصد بهما السموات والأرض .

وقال أيضًا[3]:

حقُّ الإله عبادةٌ بالأمر لا ... بهوى النفوس ، فذاك للشيطان

من غير إشراك به شيئًا ، هما ... سببا النجاة فحبَّذا السببان

لم ينج من غضب الإله وناره ... إلا الذي قامت به الأصلان

والناس بعدُ فمشرك بإلهه ... أو ذو ابتداع أو له الوصفان

وقال ابن القيم[4]:

أمَا والذي حجَّ المحبون بيته ... ولبَّوْا له عندَ المُهَلِّ وأحرموا

وقد كشفوا تلك الرؤوس تواضعًا ... لعِزَّة من تَعْنُو الوجوه وتسلم

---

(١) «نصب الراية» للزيلعي (٣/ ٤٠٨) ، و «البداية والنهاية» (٣/ ٣٠٧) ، و «السيرة» لابن هشام (١/ ١٩١) ط التوفيقية .

(٢) «النونية» (١/ ٩٥ الشرح) ، لمحمد خليل هراس .

(٣) «قرة عيون الموحدين» (٢٢) ، نقلاً عن «نضرة النعيم» (٧/ ٢٧٨٧) .

(٤) «ميمية ابن القيم» (٥) .

يُهِلُّــون بالبيـــداء لبيـــك ربنـــا ... لك الملك والحمد الذي أنت تعلم

دعـــاهم فلبَّـــوْه رضًى ومحبـــة ... فلـمَّا دعـــوه كـــان أقـــرب مـــنهمُ

تـــراهم عـــلى الأنضـــاء شُـــعْثًا رؤوسُـهم ... وغبرًا وهـم فيها أَسَرُّ وأنعـم

أما شيخ الإسلام ابن تيمية ـ طيَّب الله ثراه ـ فنراه وقد نظر إلى العبادة نظرة أوسع وأعمق وأشمل ؛ فهو يبرز إلى جانب المعنى اللغوي للعبادة جانب المحبة ؛ ألا وهو الخضوع والذل ، ويركِّز عليه ، فهذا الركن لا تستقيم العبادة التي أمرنا الله سبحانه وتعالى بها إلا به ؛ ألا وهو ركن المحبة .

ويقول شيخ الإسلام في رسالته الماتعة الجامعة «العبودية»[1] : « الدين يتضمن معنى الخضوع والذل .. يقال : دنته فَدَانَ ، أي ذللته فَذَلَّ ـ انظر إلى التأصيل اللغوي ـ ويقال : يدين الله ويدين لله ، أي : يعبد الله ، ويطيعه ، ويخضع له ، فدين الله: عبادته ، وطاعته والخضوع له » .

ربطٌ عجيبٌ بين لفظة الدين والعبادة ؛ لأن العبادة هي الدين ،وهي الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق ، والجنة والنار ، وأنزل كلَّ الكتب ، وأرسل كلَّ الرسل ؛ لأنها الدين ، ثم قال : « فدين الله عبادته ، وطاعة الله الخضوع له ، «والعبادة أصل معناها الذل أيضًا ، يقال : طريق معبد إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام ؛ لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له سبحانه وتعالى » .

قال [2]: « ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له ، ولو أحبَّ شيئًا ، ولم يخضع له لم يكن عابدًا له » .

---

(١) كما في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٥٢) ، وانظر : «رسالة العبودية» (٦).

(٢) «الفتاوى» (١/ ١٥٣).

انتبه : فهذه المسألة[١] تُوقع في خلط كبير عند بعض الناس ، قال ﷫ ولو أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له ، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه وامرأته ،ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى ؛ بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء ، وأن يكون الله أعظم عند العبد من كل شيء ؛ بل لا يستحق المحبَّة والخضوع التام إلا الله ، وكل ما أحبَّ لغير الله فمحبَّته فاسدة ، وما عظم بغير أمر الله فتعظيمه باطل ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة:٢٤] » ا.هـ .

وهكذا يتبين لنا أن العبادة التي فرضها الله ﷻ على عباده تتكون من أصلين لابد للعبادة منهما :

الأصل الأول : هو الانقياد ، والخضوع ، والإذعان ، والاستسلام لأمر الله تبارك وتعالى ولشرعه أمرًا ونهيًا ، وتحليلاً وتحريمًا ، وهذا يمثل الركن الأول من أركان العبادة ، ألا وهو كمال الذل والخضوع والانقياد والاستسلام لله .

انتبه لهذا التأصل المهم ؛ لأن كثيرًا من المسلمين ـ الآن ـ قد انحرفوا عن مفهوم العبادة ـ كما سنبين ـ مع أن هذا الموضوع هو الدين ، والركن الأول التي لا تقوم العبادة إلا به ، وهو كمال الذل لله سبحانه وتعالى ؛ فليس عبدًا عابدًا لله مَنْ رَفَضَ الانقياد والاستسلام والإذعان والخضوع لشرع الله سبحانه وتعالى ، واستكبر عن اتباع منهج الله ﷻ ، وإن أقَرَّ أن الله هو الخالق ، وإن أقَرَّ أنَّ الله هو الرزَّاق ؛ لأن هذا هو توحيد الربوبية الذي لا يَدْخُلُ

(١) راجع هنا « المدارج » (١/ ٨٥) للعلامة ابن القيم .

صاحبُه به في الإيمان ، بل لو أقرَّ العبد بأن الخلق والرزق والأمر والتدبير والتصريف لله ، ولم يخضع ، ولم يذعن لشرع الله لم ينفعه إقراره بتوحيد الربوبية بين يدي الله سبحانه وتعالى ؛ لأن المشركين جميعًا قد أقروا بتوحيد الربوبية لله ، لكن لم يستسلموا لشرعه ، فأخرجهم الله سبحانه وتعالى بسبب هذا من مُسَمَّى المؤمنين ، وأُدخِلُوا حظيرة الكفر والشرك ـ والعياذ بالله ـ فلو سألت أبا جهل : مَنْ ربك ؟ لقال : الله ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف:٨٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٩] .

فهذا إقرار بالخلق لله ، إنهم يستغيثون بالله في لحظات الضر والهم، ويلجأون إليه سبحانه ! لكن هذا أخرجهم من الإيمان ؛ لأنهم لم يخضعوا ويذعنوا لشرع الله سبحانه وتعالى .

وأساس الخضوع والذل لله ﷻ هو : أن يعلم العبد بوحدانية الله تعالى ، وكل ما في الوجود تحت قهره ، فكلُّهم عبيده وخلقه ، وفي قبضته وسلطانه .

وفي هذا يقول الله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾[الرعد:١٥] .

فأساس الخضوع لله أن يعلم العبد يقينًا أنه مقهورٌ ، محتاجٌ ، فقيرٌ ، ضعيفٌ ، فقير إلى الغنيِّ .. ضعيف يحتاج إلى القويِّ .. مربوبٌ يحتاج إلى ربه وإلى إلهه الذي خلقه ورزقه .

وكلَّما ازداد الإنسان معرفةً بفقر نفسه وقدْر نفسه ازداد معرفة بغنى ربه وقدْر ربه سبحانه وتعالى ، فازداد عبودية لله ﷻ .

والأصل الثاني ـ الذي لا يمكن أبدًا أن يكون العبد عابدًا لله سبحانه وتعالى إلا به : كمال الخضوع والاستسلام مع كمال الحب لله ﷻ ؛ فليس في الوجود كلِّه مَنْ هو أجدر بالحبِّ الصادق الطاهر من الله سبحانه وتعالى ، فمَنْ عرف الله أحبه ، وبقدر درجته في معرفة الله تكون درجته في المحبة ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ أشد الخلق حبًّا لله ؛ لأنه أعرف الخلق بجلال الله ، وقَدْرِ الله ، وعظمة الله .

ولما خُيِّرَ المصطفى ﷺ بين بقائه في الدنيا ولقاء ربه اختار لقاء الله لمعرفته بعظمة الله وجلاله ولحبه له سبحانه وتعالى ؛ قال ﷺ ؛ كما في «الصحيحين»[1] من حديث عائشة : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ الله لِقَاءَهُ» ، قَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ ؛ قَالَ : « لَيْسَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ الله وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ فَأَحَبَّ لِقَاءَ الله ، وَأَحَبَّ الله لِقَاءَهُ ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِسَخَطِ الله وَعَذَابِهِ كَرِهَ لِقَاءَ الله ، وَكَرِهَ الله لِقَاءَهُ » .

وفي «الصحيحين»[2] من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ قبلَ موته ؛ فَقَالَ : « إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ الله بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ » .

فرسولُ الله ﷺ أحبُّ الناس لربِّه ﷻ ؛ لأنه أعرف الناس بالله تبارك وتعالى ؛ فمن عرف الله أحبه من كل قلبه .

نسأل الله أن يملأ قلوبنا بحبه وجلاله وقَدْره ومعرفته ؛ إنه وليُّ ذلك

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الرقاق» ، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٦٥٠٧) ، ومسلم ، كتاب «الذكر والدعاء» ، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٢٦٨٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «مناقب الأنصار» ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٤) ، ومسلم ،كتاب «فضائل الصحابة» ، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٢٣٨٣) .

والقادر عليه .

ومن خلال هذين الركنين أو الأصلين ألا وهما : كمالُ الذلِّ لله مع كمال الحب لله ؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في تعريفه العبادة ، هذا التعريف الشامل الواسع[1] : « العبادة هي اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة » .

ويفصِّل شيخ الإسلام ابن تيمية ، ويقول : « فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان للجار ، واليتيم ، والمسكين ، وابن السبيل ، والمملوك من الآدميين ، والبهائم ، والدعاء ، والذكر ، وقراءة القرآن ، وحب الله ورسوله ، وخشية الله ، والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحُكْمِهِ ، والشكر لنعمته ، والرضا بقضائه ، والتوكُّل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه .. وأمثال ذلك هي من العبادة لله سبحانه وتعالى » ا.هـ .

فالعبادة واسعة شاملة تسع الحياة كلها ؛ كما سنفصل ، وهكذا نجد أن العبادة ـ كما عرَّفها شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ تسع الحياة كلَّها ؛ فهي تشمل الفرائض ، والأركان ؛ من الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ؛ بل وتشمل ما زاد على الفرائض والأركان ، من ألوان التطوع في العبادة ؛ كالذكر ، والتلاوة ، والدعاء ، والتسبيح ، والتهليل ، والتكبير ، والتحميد .

وهي تشمل أيضًا حقوق المعاملة ، وبر العباد ؛ كَبِرِّ الوالدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان إلى اليتامى ، والمساكين والفقراء ، وابن السبيل ، والرحمة

(١) تقدم .

بالضعفاء، والرفق بالحيوان .

وهي تشمل كذلك مكارم الأخلاق، والفضائل الإنسانية كلها؛ من صدق الحديث، والوفاء بالعهد، وللوعد .. وغير ذلك من مكارم الأخلاق .

وتشتمل العبادة أيضًا على هذين الركنين العظيمين ألا وهما : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،وجهاد المنافقين ، والمشركين ؛ بل وتشمل العبادة أمرًا له أهميته ذكره شيخ الإسلام في «العبودية» [(١)]؛ فيقول: « كلُّ ما أمر الله به عبادَةٌ من الأسباب فهو عبادة لله سبحانه وتعالى » .

حتى الأخذ بالأسباب عبادة ، فكلُّ الفرائض والأركان ـ كما سبق ـ وما زاد على ذلك ؛ بل وأكثر من ذلك ما ذكره شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى : أن الدين كلَّه داخلٌ في العبادة ؛ كما فصَّلت آنفًا في قوله : «دنته ، أي: فَدَانَ ، وذللته أي : فَذَلَّ » ؛ فالعبادة كلُّها داخلة في مسمَّى الدين ، والدين كلُّه داخل في مسمَّى العبادة ؛ فعبادة المؤمنين بالأوامر التي أمرهم الله تبارك وتعالى بها ، واجتناب النواهي التي نهاهم الله تعالى عنها ، والوقوف عند الحدود التي حدَّها الله تبارك وتعالى لهم مع كمال الحب ـ منهم ـ في الوقت ذاته ـ لربهم ـ هي العبودية ، وهي العبادة .

تدبَّر معي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١٨٠] . إلى آخر الآية ، ولكن تدبر معي لفظ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني : فُرِضَ عليكم ؛ فهذا أمر بالوصية في الوقت الذي ترى فيه كثيرًا من المسلمين ؛ يستهينون بأمر الوصية ؛ لأن بعض الناس يتصوَّر أن العبادات هي الصيام

---

(١) «العبودية» (١٥) .

والزكاة والصلاة والحج فحسب !

وتدبر معي قول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ ﴾ [البقرة:١٧٨] ، وتدبر قول الله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١٦] ؛ فالقتال عبادة ، والوصية عبادة ، والصيام عبادة ، والقِصَاصُ عبادة .. كلٌّ هذا داخلٌ في مُسمَّى العبادة بنصِّ القرآن ، لكن انظر إلى أحوال الأمة وإلى أحوال المسلمين الآن تجاه هذه الأوامر المذكورة آنفًا من سورة البقرة ؛ فتراهم يأخذون أمرًا ويضيِّعون أمورًا !!

وذلك لأنَّ قضية العبادةِ ، والتوحيد ـ بشموله وكماله ـ قلَّ من يتحدثُ فيها من أهل العلم على مستوى الأمة ، مع أنها الأصل الأول ؛ بل هي أصل الأصول الذي لا ينبغي أبدًا أن نملَّ من طَرْحِهِ وتكرار الحديث عنه ؛ فإن النبيَّ ﷺ ما سأم الحديثَ عن التوحيد طرفة عين ؛ بل علَّم النبيُّ ﷺ أصحابه التوحيد في مكة والمدينة[1].

أيها المسلمون : إن عبادة الله ليست محصورةً في الصلاة ،ولا في الصيام ، ولا في الزكاة ، ولا في الحج ، ولا في العمرة في كلِّ رمضان !! كما يتبادر إلى ذهنِ كثيرٍ من المسلمين إذا دُعوا إلى عبادة الله تبارك وتعالى .

بل يظنُّ كثيرٌ من المتدينين أنهم إذا صلُّوا ،وصاموا ، وحجوا البيت ، أنهم بذلك قد أقاموا الإسلام بحذافيره ،وإن اعتمر أحدهم في رمضان مرةً أو مرتين ظنَّ أنه أدَّى حقوق الله التي عليه من العبادة والعبودية ؛ فتراه يأكل

(١) وبعض أهل العلم يقول : انتقل النبيُّ ﷺ إلى المدينة ليعلمهم النظام الإسلامي وشرائعه ! لا يا أخي .. التوحيد لا ينتقل منه إلى غيره ، بل ينتقل معه إلى غيره ؛ فالتوحيد أصلُ الأصول في كلِّ زمان وفي كل مكان ، وفي كلِّ مرحلةٍ من مراحلِ التربية والإعداد ؛ فقضية العبودية والعبادة هي الأصل الأول لكل نبوَّة والصيحة الأولى لكلِّ رسالة ؛ قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] .

الربا بلا أدنى حرج عنده !! وترى امرأته وبناته متبرجات عاريات ولا حرج عنده في ذلك !!

تراه عاقًّا لوالديه ولا حرج ! إلى آخر هذا الخلل من خلال الفهم الجزئي القاصر لمفهوم العبادة .

فالعبادةُ انقيادٌ لمنهج الله تبارك وتعالى وشرعِه كلِّه ، وهي ـ كذلك ـ أن يخضع العبدُ أمورَه كلَّها لما يحبه الله ويرضاه من الاعتقادات والأقوال والأعمال ، وأن يكيِّف حياته كلَّها وسلوكه ،وفقًا لشرع الله سبحانه وتعالى ، فإذا أمره الله تعالى بأمرٍ امتثل أمره ، أو نهاه عن نهي اجتنب نهيه بكمال الذل مع كمال الحب ، وهو يُردِّد مع السابقين الأولين الخالدين قولتهم الخالدة :

﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[البقرة:٢٨٥] .

فَفَرْقٌ بين المؤمن وغير المؤمن ؛ فالمؤمن خرج من العبودية لنفسه وهواه والمخلوقين إلى عبودية ربِّه وسيده عبوديةً خالصة كاملة ، ليس عبدًا لهواه ، وليس عبدًا للمخلوقين .. خرج من طاعة هواه إلى طاعة مولاه ؛ فليس المؤمن مُطْلَقَ اليدين حرًّا في كلِّ تصرفاته بالمعنى الذي يردده كثيرٌ من الناس ! فأنا لا أتكلم الآن عن الإرادة الكونية ولا الإرادة الشرعية ،وإنما أعني ما يقوله الناس الآن ، إذا قلت لأحدهم : صلِّ ، فتراه يقول لك : أنا حرٌّ يا أخي !! ، فهذا ليس عبدًا عابدًا لله ؛ بل هو عبدٌ لهواه ، ولنفسه ، وللشيطان ، فليس عبدًا لله من ذُكِّر بالله ولا يتذكر ! أو إذا ذُكِّرَ بكلام النبيِّ ﷺ ولم يتأثر ، فهذا عبدٌ للهوى ؛ كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً ﴾[الجاثية:٢٣] .

فهو يعبد الهوى ، ويعبد النفس الأمارة بالسوء ،ويعبد مخلوقًا من المخلوقين ، يحركه كيف يشاء ! فمقتضى الإيمان أن يُسلم المؤمن حياته كلَّها لله سبحانه

وتعالى ؛ ليقودها رسول الله ﷺ إلى بر الأمان بوحي من الله المعصوم .

ما ظنك إذا قلتُ لك : إن الذي سيقودك هو رسول الله ﷺ ؟ .

لذا أقول لك : أغمِض عينيك ، وسِرْ خَلْفَ النبيِّ ﷺ حتى ولو لم تر عينُك ، ولم تسمع أذنك ، ما دمت على دَرْبِ رسول الله ﷺ . فمقتضى الإيمان أن ينقاد العبد لأوامر الله ورسوله ، وأن يخرج من الخضوع لهواه إلى الخضوع لشرع سيده ومولاه ، فإذا عَلِمَ العبد أن الذهب حرام على الرجال ، وجب عليه أن يقول : سمعنا وأطعنا ، وإذا علمت المسلمة أن الحجاب فرض ؛ وَجَبَ عليها أن تمتثل وأن تقول : سمعنا وأطعنا .. والغيبة والنميمة حرام : سمعنا وأطعنا .. والحقد والحسد حرام : سمعنا وأطعنا .. الخنزير حرام : سمعنا وأطعنا .. الربا حرام : سمعنا وأطعنا ... وهكذا المؤمن لا يتفذلك ، أما الذي يتفذلك ويجادل إن دلَّ هذا فإنما يدلُّ على أن قلبه لم يذق طعم الإيمان .. إن قلت : الخنزير حرام ، تراه يقول لك : كان الخنزير في أرض الجزيرة العربية مريضًا هزيلاً ولذا حرمه الشرع ، أما الخنازير اليوم ـ وما أكثرها ـ فهي تُرَبَّى تحت رعاية صحية شاملة فما الدَّاعي لتحريمها ؟!!

وإن قلت : الربا حرام ، يقول لك : الفوائد ليست ربا [1]! وهكذا الخمر عندهم يسمونها : مشروبات روحية !!

إن قلـت : قـال الله قـال رسـوله	همـزوك همـز المنكـر المتغـال
أو قلت : قـال الصحابة والأولـو	تبـع لهـم في القـول والأعـمال
أو قلـت : قـال الشـافعي وأحمـد	وأبـو حنيفـة والإمـام الغـال
صـدُّوا عـن وحـي الإلـه ودينـه	واحتـالوا عـلى حـرام الله بـالإحلال

(١) وهي مهلكةٌ ودمارٌ ـ ورب الكعبة ـ وبلاءٌ يحلُّ بصاحبها في الدنيا قبل الآخرة ؛ كما هو مشاهدٌ في آكلي الربا !!

يــا أمــةً لعبــت بــدين نبيهــا كتلاعــب الصــبيان في الأوحــال

حاشــا رســولُ الله يحكــم بــالهوى تلـــك حكومـــة الضـــلال

فمقتضى الإيمان أن يخرج المؤمن من الخضوع لهواه إلى الخضوع لشرع الله .

قال ـ جَلَّ في علاه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٣٦] ، ولم يقل : لمسلمٍ ، فما أكثر المسلمين ! لكن ما أقل المؤمنين ، أين المؤمنون ؟ والله ، لو وجدت فهي قلة قليلة ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص:٢٤] ، أنا لا أثبط ، ولكنني أبين الحقيقة والحق ،وحتى لا يلتبس الأمرُ على شبابنا في الأدلة القرآنية والنبوية ، إن أراد أن ينزلها على الواقع المر الأليم ، لو وُجد المؤمنون الآن ما تخلَّف عن الأمة نَصْرُ الله تعالى إنما هذا الذي نراه ، بسبب ماذا ؟! فالمسلمون كثير، ولكن أين المؤمنون ؟وربنا سبحانه وتعالى قال في كتابه العظيم : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧] ، ولم يقل : المسلمين !! وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون:٨] ، ولم يقل: للمسلمين ، وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور:٥٥] ؛ فما أكثر المسلمين ، وما أقل المؤمنين !!

يأتيك المسلم ويرفع صوته ويقول : فلسطين! القدس! العراق!! وهو مضيِّعٌ لصلاة الفجر ! فالقضية ليست قضية كلام ؛ فما أيسر التنظير ؟! والله ﷻ يعلم السرَّ وأخفى ، اللهم اجعل سرَّنا وباطننا أحسن من ظاهرنا وعلانيتنا ؛ وارزقنا الإخلاص والصدق في القول والعمل ، وارحم ضعفنا ، واجبر كسرنا ، واغفر ذنبنا ، واستر عيبنا ، و تول أمرنا ، وفك أسرنا ، واختم

بالأعمال الصالحات أعمالنا ؛ أنت وليُّ ذلك والقادر عليه .

فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[الأحزاب:٣٦] .

فالمؤمن إذا قيل له : هذا حُكْمُ الله ، وهذا حكم رسول الله ﷺ يقول : على العين والرأس ، وفي القلب ، لا يجعل لنفسه اختيارًا مع حكم الله ورسوله!!

فهذا دليلٌ ومحكٌّ عمليٌّ على صدق الإيمان.وعلى كلِّ مسلم أن يعرض نفسه على هذه الآية الكريمة ليعلم أين هو من حقيقة الإيمان.

قال ربنا ﷻ: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[الحجرات:١٤] .

وقال النبيُّ ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد [(١)] وغيره بسندٍ صحَّحه شيخنا الألباني من حديث أبي برزة الأسلمي ﷺ :« يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ ، لاَ تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ ، وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَتَبَّعَ الله عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ تَتَبَّعَ الله عَوْرَتَهُ يَفْضَحهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ ».

اللهم استرنا ، وإخواننا وأخواتنا ، بسترك الجميل يا أرحم الراحمين .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٥١] ؛ انتبه إلى لفظة : ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وما تحمل من معانٍ ، ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢١-٤٢٤) ، وأبو داود ، كتاب « الأدب » ، باب في الغيبة (٤٨٨٠) عن أبي برزة الأسلمي ،وله شاهدٌ عن ابن عمر ، أخرجه الترمذي ، كتاب «البر والصلة » ، باب في تعظيم المؤمن (٢٠٣٢) وللحديث شواهد أخرى ، صححه بها العلامة الألباني والشيخ شعيب الأرناؤط ، انظر : «صحيح الجامع» (٧٩٨٤، ٧٩٨٥) ، والتعليق على «المسند» (١٩٧٧٦) .

وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥١، ٥٢].

*****

فمقتضى العبادة إذا قال الربُّ سبحانه وتعالى : أمرتُ ونهيتُ ، أن يقول العبد العابد : سمعتُ وأطعت ، ومقتضى العبادة أن يخرج العبد من عبوديته لنفسه وللمخلوقين إلى عبوديته لله رب العالمين ، وأن يخرج العبد من الخضوع لهواه إلى الخضوع لسيده ومولاه .

وبالجملة : فمقتضى العبادة : أن يكون العبدُ في كل شؤونه الخاصة والعامة في اعتقاداته وأقواله وأعماله خاضعًا لشرع الله سبحانه وتعالى ، وهو في غاية الحب لله ، والرضا عن الله ؛ قال تعالى :﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب:٣٦].

وقال سبحانه :﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥].

فليس بعبدٍ عابدٍ لله من قال : أنا حرٌّ في شؤوني .. ولا حرج في أن أفعل ما أريد ... وتراه يقول : ما علاقة الدين بتبرج امرأتي ؟! أو بتعاملاتي المالية الربوية؟! وما علاقة الدين بأن أخرج مع امرأتي لأصيف على شواطئ عاريةٍ من الحياء والإيمان ؟! وما علاقة الدين بأن أشرب الخمر والمسكرات بعد ذلك ؟! وما علاقة الدين بأن ألبس ما أريد؟! أشتهي أن ألبس الحرير أوأن ألبس الذهب؟! أو أن تلبس امرأتي لباسًا معينًا أودُّ أن تخرج معي فيه ؟!!!

هذا فهم العبادة فهمًا مبتورًا !! فلا يجوز البتة لمسلم ـ أسلم لله عز وجل وأعلن

إيمانه بالله ـ أن يتصرف في أيِّ أمرٍ من أمور حياته الخاصة والعامة إلا في نطاق ما أمر ونهى ربه وخالقه ـ جَلَّ وَعَلاَ .

فليس للعبد أن يقول بعد ذلك : أنا حرٌّ في أن أختار ما أشاء من القوانين والنظم المخالفة لشرع الله سبحانه وتعالى ، أو أن أقول وأفعل ما أشاء!!

يقول أحدهم ـ بالحرف : « إن تطبيق الشريعة الإسلامية ردةٌ حضارية بكلِّ المقاييس!» .

ويقول هالكٌ آخر : « لقد عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين حتى الالتهابات التي في رئاتهم ، والنجاسات التي في أمعائهم !!» .

والله سبحانه يقول : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [يوسف:٤٠] .

فالحكم لله وحده ، لا لمجلس ولا لوزارة ، ولا لنظام ، ولا لهيئة ، ولا لدولة ؛ بل هذا حقٌّ خالصٌ في كلِّ زمنٍ ومكانٍ لله سبحانه وتعالى ولرسوله ﷺ ؛ أما من ادَّعى من الخلق أن له أن يُشَرِّع ما شاء ـ أمرًا ونهيًا ، وتحليلاً وتحريمًا ـ بدون أمرٍ من الله ورسوله ، أو بدون شرعٍ من الله فقد تجاوز حدَّه وحادَّ ربَّهُ !!

قال الله ﷻ : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١] .

وفي الحديث الذي رواه الطبري والترمذي وغيرهما [(١)]، وهو حديث

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب «تفسير القرآن» ، باب ومن سورة التوبة (٣٠٩٥) ، والطبري في « التفسير» لسورة التوبة (٣١) [١٦٦٤٦ـ ١٦٦٤٨] ، وعزاه ابن كثير في تفسيره (لسورة التوبة / ٣١) لأحمد ، وحسَّنه العلامة الألباني في « صحيح الجامع » (٣/ ٥٦) (٢٤٧١) .

حسن ـ من حديث عديٍّ بن حاتم قال : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ ؛ فَقَالَ : « يَا عَدِيُّ ، اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ » وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قَالَ : « أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ ».

وفي رواية : قَالَ عديٌّ : بلى ! ، قَالَ : « فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ » .

وهكذا أيها الأخوة ؛ فإن الإسلام العظيم قد أفسح مجال العبادة ، وأوسع دائرتها ، بحيث شملت العبادة أعمالاً كثيرة ؛ قد تكون قليلةً وهينةً عند الكثيرين ، جعلها الإسلام من أعظم العبادات والقربات لله رب العالمين .

فليست الصلاة ـ كما ذكرتُ ـ والصيام والذكر والدعاء هي العبادة فقط ، أو هي التي توجب لك الأجر عند الله دون غيرها من العبادات ! كَلَّا .. بل إنك تستطيع في اليوم الواحد أن يزيد رصيدك عند الله تعالى من الحسنات بأشياء قد تكون سهلة ميسورة على كلِّ أحد ، ولها ثقل كبير عند الواحد الأحد .

فمن ذلك : ما رواه مسلم [(١)] من حديث ثوبان رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ عن المسلم الذي إذا عادَ أخاه ـ أي إذا ذهب ليزور أخًا من إخوانه وهو مريض : « إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ » قِيلَ : يَا رَسُولَ الله ، وَمَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ : «جَنَاهَا» أي : ثمرها الناضج المهيأ للطعام.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه [(٢)] وغيرهما

---

(١) أخرجه مسلمٌ ، كتاب « البر والصلة والآداب » ، باب فضل عيادة المريض (٢٥٦٨) .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٨١، ٩٧) وأبو داود ، كتاب «الجنائز» ، باب في فضل العيادة على وضوء (٣٠٩٨، ٣٠٩٩) ، وابن ماجه في الجنائز ، باب ما جاء في ثواب من عادَ مريضًا (١٤٤٢) ، والحاكم (١/ ٣٤٩، ٣٥٠) وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٣٦٧) ،وانظر شواهده هناك .

من حديث عليٍّ ﷺ قَالَ : قَالَ النبيُّ ﷺ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدْوَةً - يعني في الصباح - إِلاَّ صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ ، فَإِذَا عَادَهُ عَشِيَّةً إِلاَّ صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ » .

ومن أرق الأحاديث في هذا الباب في فضل زيارة الأخ أخاه المريض : ما رواه مسلمٌ[1] من حديث أبي هريرة ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا ابْنَ آدَمَ ! مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي ، فَيَقُولُ العَبْدُ : يَا رَبِّ ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فَيَقُولُ الله : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ » .

انظر إلى هذا الفضل ، ولكم ضيَّعنا هذا الأجر ؟! فعيادة المريض لا تُكَلِّف شيئًا على الإطلاق .

فالإسلام يوسع دائرة العبادة إن صحت النية ؛ فكلُّ عملٍ يمسح به الإنسان دمعة حزن ، أو يخفف به كربة مكروب ، أو يضمد به جراح منكوب ، أو يسد به رَمَق محروم ، أو يشدُّ به أزر مظلوم ، أو يقيل به عثرة مغلوب ، أو يقضي به دينَ غارم ، أو يأخذ بيد فقير متعفف ذي عيال ، أو يهدي حائرًا ، أو يعلِّم جاهلاً ، أو يأوي غريبًا ، أو يدفع شرًّا عن طريق أو مخلوق ، أو يسوق نفعًا إلى حيوان ... كلُّ هذا من العبادات والقربات إلى رب الأرض والسموات ، إذا صحت النيات ، وطهرت الطويات .

قال النبيُّ ﷺ : « دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ هَزْلاً » .

وفي رواية : « فِي هِرَّةٍ أَوْثَقَتْهَا » .

وفي رواية : « رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَسْقِهَا ، وَلاَ هِيَ أَرْسَلَتْهَا تُرَمْرِمُ » ، وفي

---

(١) أخرجه مسلمٌ ، كتاب « البر والصلة » ، باب فضل عيادة المريض (٢٥٦٩) .

لفظ: « وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ »[(١)].

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» [(٢)]من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: « أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا، فَغُفِرَ لَهَا ».

وفي رواية: « فَنَزَعَتْ مُوقَهَا، فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ ».

لقد دخلت الجنةَ بغيٌّ ـ أي: زانية ـ في كلبٍ يلهث الثرى من العطش !! فنزلت إلى هذا البئر فملأت موقها ـ أي خُفَّهَا ـ وقدَّمت للكلب فشرب، فغفر الله عز وجل لها بذلك الصنيع.

وأنا أقول ـ دومًا: إذا كانت الرحمة بالكلاب تغفر الخطايا للبغايا؛ فكيف تصنع الرحمة بمن وحَّدَ رب البرايا !! .. رَحِمَتْ كلبًا فغفر الله لها... عمل قد يستهين به كثير من الناس، لكِنْ بسببِهِ نالت هذه البغيُّ مغفرةَ الله سبحانه وتعالى.

وعن أبي ذر رضي الله عنه أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: « لَيْسَ مِنْ نَفْسِ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ طَلَعَتْ فيه الشَّمْسُ » قيل: يَا رَسُولَ الله! ومِنْ أَيْنَ لَنَا صَدَقَةٌ نَتَصَدَّقُ بِهَا، فَقَالَ ﷺ: « إِنَّ أَبْوَابَ الخَيْرِ لَكَثِيرَةٌ: التَّسْبِيحُ، والتَّحْمِيدُ، وَالتَّكْبِيرُ، والتَّهْلِيلُ، وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ، وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَتُسْمِعُ الأَصَمَّ ـ يعني بإشارة معينة حتى يفهم ـ وَتَهْدِي الأَعْمَى، وَتَدُلُّ المُسْتَدِلَّ عَلَى حَاجَتِهِ، وَتَسْعَى بِشِدَّةِ سَاقَيْكَ مَعَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب «المساقاة»، باب فضل سقي الماء (٢٣٦٥)، ومسلمٌ، كتاب «البر والصلة والآداب» باب تحريم تعذيب الهرة ونحوها، من الحيوان الذي لا يؤذي (٢٢٤٢، ٢٦١٩) من حديث ابن عمر ومن حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنهم أجمعين.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب «أحاديث الأنبياء»، (٣٤٦٧)، ومسلمٌ، كتاب «السلام» باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٥).

اللَّهْفَانِ المسْتَغِيثِ ، وَتَحْمِلُ بِشِدَّةِ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ ، فَهَذَا كُلُّهُ صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ » .والحديث رواه ابن حبان في «صحيحه» (١) .

وفي «سنن الترمذيِّ» و«الأدب المفرد» للبخاريِّ بسندٍ صححه الألبانيُّ (٢) من حديث أبي ذر ﷺ قَالَ : قَالَ النبيُّ ﷺ : « تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَة » .

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « كُلُّ سُلاَمَي مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ ».

السُّلاَمِي : المفاصل التي هي موجودة في الجسم ؛ فعليك أن تتصدق على كلِّ مفصل من مفاصلك كل يوم صدقة ،وجسم الإنسان يشتمل على ٣٦٠ مفصلاً .

والأمر قد يشقُّ على كثير من الناس ، لكن انظر إلى سيد الناس ﷺ كيف يسَّرَ علينا الأمر ؛ فقال النبيُّ ﷺ :

« كُلُّ سُلاَمَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ قَالَ : يَعْدِلُ بَيْنَ الاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ ، وَبِكُلِّ خَطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ » (٣) .

انظر إلى فضل الله ﷻ علينا .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٣٧٧) فصل : ذكر الخصال التي تقوم لمُقدِم المال مقام الصدقة لباذلها ، وصححه الأرناؤط على شرط مسلم .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب «البر والصلة» ، باب ما جاء في صنائع المعروف (١٩٥٦) ، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٨٩١فضل الله الصمد) ، وابن حبان (٤٧٤) ، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٥٧٢) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب من أخذ بالركاب ونحوه (٢٩٨٩) ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب بيان أن اسم الصدقة تقع على كل نوعٍ من المعروف (١٠٠٩) .

وفي الحديث الذي رواه مسلم [١] من حديثِ جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « لاَ يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا ، وَلاَ يَزْرَعُ زَرْعًا ، فَيَأْكُلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلاَ دَابَّةٌ وَلاَ شَيْءٌ إِلاَّ كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ ».

حتى الزرع الذي زرعته ، إذا نزل الطير وأكل منه وأنت لا تدري عنه شيئًا ، تأتي يوم القيامة ، وتراه في ميزانك .

وفي « الصَّحِيحَيْنِ » [٢] من حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلاَّ كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ ».

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ [٣] من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ ؛ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله ، أَوِ الْقَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ ». فتدبر فضل من يسعى على الأرملة والمسكين ، وأنه لا يقلُّ أجره عن أجر الصائم القائم ؛ إنه فضل الله سبحانه وتعالى .

وفي الحديث الذي رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في « معجمه الكبير » بسندٍ حسَّنه الألبانيُّ رحمه الله في « صحيح الجامع » ، وفي « السلسلة الصحيحة » أيضًا [٤] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى الله أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى الله عز وجل ؛ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « المساقاة » ، باب فضل الغرس والزرع (١٥٥٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الحرث والمزارعة » ، باب فضل والغرس إذا أكل منه (٢٣٢٠) ، ومسلم ، كتاب « المساقاة » ، باب فضل الغرس والزرع (١٥٥٣) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « النفقات » ، باب فضل النفقة على الأهل (٥٣٥٣) ، ومسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (٢٩٨٢) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٣٦) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٢/ ٤٥٣) ، وصححه لشواهده الألباني في « الصحيحة » (٩٠٦) ، وحسَّنه في « صحيح الجامع » (١٧٦) .

كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تَطْرِدُ عَنْهُ جُوعًا ، وَلأَنْ أَمْشِي مَعَ أَخِي الْمُسْلِمِ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي الْمَسْجِدِ ـ يعني مسجد المدينة ـ شَهْرًا ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ ، سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ ـ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ ـ مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ رِضَىً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ فِي حَاجَتِهِ حَتَّى يُثْبِتَهَا، أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزِلُّ الأَقْدَامُ ، وإِنَّ سُوءَ الْخُلُقِ لِيُفْسِدَ الْعَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ » .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] من حديث أبي هريرة وسهل بن سعد ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ ...» وأشار النبيُّ ﷺ بإصبعيه السبابة والوسطى ، وقد يظن بعض الناس أن هذا اليتيم يجب أن يكون من أهله ؛ فقال النبيُّ ﷺ : « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ» . والحديث رواه الحميدي والبخاريُّ في « الأدب المفرد» ، والطبراني في «الأوسط» وصحَّحه العلامة الألباني[2] .

قلت : فقد يكون هذا اليتيم من يتامى المسلمين ، لا علاقة لك به من حيث صلة النسب .

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ[3] من حديث ابن عمر ﷺ أَنَّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الطلاق» ، باب اللعان (٥٣٠٤) ، وأحمد (٥/ ٣٣٣) عن سهل بن سعد ، وأخرجه مسلم ، كتاب «الزهد والرقائق» ، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (٢٩٨٣) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه الحميديُّ (٨٣٨) ، والبخاريُّ في « الأدب المفرد» (صحيح الأدب ص٧٥) من حديث مرة بن عمرو الفهري ، وله شاهدٌ عن عائشة ؛ أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٧٣٩) ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٤٧٦) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «المظالم» ، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه (٢٤٤٢) ، ومسلم ، كتاب « البر والصلة » ، باب تحريم الظلم (٢٥٨٠) .

النبيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ » .

وهـذه المسألة لها فقهٌ لطيفٌ ذكره الإمام القرطبي في «الجامع» فقال : « الناس صنفان : صنف اشتهر بين الناس بدينه وصلاحه ، فهذا إن زلَّ أو أخطأ أو أذنب وجب على المسلمين أن يستروا عليه .

وصنفٌ يجهر بالمعصية ، ويبارز ربَّه بالمعاصي ويستهين بها ؛ فهذا لا حرج ولا إثم على من حذَّر الناس من شرِّه »[1] .

هذه بعض الأحاديث في فضل من ستر أخاه المسلم .. وأعجبُ من هذا أن النبيَّ ﷺ قد جعل الوقت الذي يقضيه الرجل مع امرأته في الحلال الطيب صدقة ؛ يؤجر عليه إن صحت فيه النية ؛ كما في «صحيح مسلم»[2] من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : جَاءَ أَنَاسٌ إِلى النَّبيِّ ﷺ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ (يعني: أصحاب الأموال) بِالأُجُورِ ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ (يعني ما زاد من أموالهم) ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ : « أَوَلَيْسَ الله قَدْ جَعَلَ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ » (البُضْع قد يكون الفرج لغة ، وقد يكون الجماع) ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ ويَكُونَ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ : «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ ؟ » قَالُوا : بَلَى ، يَا رَسُولَ الله ، قال: « فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ » .

---

(١) راجع «تفسير القرطبي» (عند آية الحجرات:١٢) بتصرف .

(٢) أخرجه مسلم «كتاب الزكاة ، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كلِّ نوع من المعروف (١٠٠٦) .

وهكذا يعيش المسلم في مجتمعه ينبوعًا يفيض بالخير والرحمة ، ويتدفق بالنفع والبركة ، يفعل الخير ، ويدعو الله ، ويبذل المعروف ، ويدلُّ عليه ؛ فهو مفتاح للخير ، مغلاق للشر ، كما حثه النبيُّ ﷺ[1]؛ لأنه يتعامل مع كل شيء من منطلق أنه طاعة وعبادة لله تبارك وتعالى ، فهو إن تبسم فهو يرضي ربه ، وإن غفر لأخيه فهو يرضي ربه ، وإن ستر أخاه فهو يطيع ربه .. وهكذا ؛ فهو يتعامل مع كل جزئية من جزئيات حياته الخاصة والعامة على أنها عبادة وطاعة وقربة إلى الله سبحانه وتعالى ، حتى وإن ابتلي فصبر ، فصبْرُه قربة وطاعة وعبادة ، لكنني أودُّ في الوقت ذاته أن أذكِّر بعض إخواننا ممن يسيئون الظن في بعض إخوانهم إن قصدوهم في خدمة أو في حاجة ولم ييسر الله لهم قضاء حوائجهم عند هؤلاء الإخوة ، أقصد : فلا يقضي الله له حاجته على يد هذا الأخ ، فيسيء به الظن ، ويتهم نيته ؛ بل وقد يسيء إليه القول ، فهذا أيضًا مما حذَّر منه رسول الله ﷺ ، ونهى عنه ، وكنتُ قد ذكرتُ قبل ذلك أن من الأدب بين الأخوة مع بعضهم البعض : أن يسأل العبدُ ربه ابتداءً ، وأن يستعين به سبحانه وتعالى على قضاء حوائجه ، ثم لا حرج عليه بعد ذلك أن يأخذ بالأسباب ؛ فإن ذهب إلى أخٍ من إخوانه ، يقول: «أخي في الله هذه حاجتي إلى الله ثم إليك ، فإن قضيتها حمدتُ الله وشكرتُكَ ، وإن لم تقضها حمدتُ الله وَعَذَرْتُكَ ؛ فإن الأمور كلَّها تُقْضى بمقادير الله تعالى» . هذا هو الأدب ، وأنت لا تدري ظروف أخيك وأحواله ، وربما يفسح الإنسان لنفسه العنان في تصور أشياء لا وجود لها أصلاً ، ومن خلال هذا التصور والظن السيء قد يحكم على إخوانه فيظلمهم ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ

---

(١) انظر ابن ماجه في المقدمة ، باب من كان مفتاحا للخير (٢٣٧) ، والحديث حسنه بمجموع طرقه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٣٣٢) .

عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:٨] .

والله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ يقول : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦] .

وهكذا يتضحُ بجلاء المعنى الشامل لمفهوم العبادة ؛ فالعبادة تسعُ الحياة كلَّها ـ كما ذكرت ـ والمسلمُ لا يقسم حياته إلى حياة روحية وحياة مادية ؛ فهو في المسجد مستسلمٌ لله سبحانه وتعالى يُسْلم زِمَامَ حياته لله ﷻ ولرسوله ﷺ ، فإن خرج فهو إنسانٌ آخرُ يأكل ما يشاء ، ويفعل ما يشاء ، ويلبس ما يشاء ، ويتحدث في كل ما يريد !! فالمسلم يجعل حياته كلَّها في كل جزئياتها لله سبحانه وتعالى ؛ قال تعالى :﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢،١٦٣].

هذه هي حقيقة العبادة ؛ فالمسلم لا يدع شيئًا ، ولا يفعل شيئًا إلا وهو يراقب الله ﷻ ،ويريد بذلك القرب من الله ﷻ ، إن أعطى يريدُ وجه الله .. وإن منع يريدُ وجه الله .. وإن أحب أحب لله .. وإن أبغض أبغض لله ، هذا هو المسلم العابد لله سبحانه وتعالى ... لا يعبد الله في الليل ، ويعبد المجتمع والدولة في النهار .. لا يعبد الله يوم الجمعة ويترك عبادة الله في بقية أيام الأسبوع .. لا يعبد الله ﷻ في المسجد ويعبد الدنيا أو المال خارج المسجد .. فهذه هي حقيقة العبودية ؛ بل هذه هي حقيقة الإحسان ؛ قال الله ﷻ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١١٥] .

فالمسلم يراقب الله ﷻ على أيِّ أرضٍ وتحت أيِّ سماءٍ ، لكنك ترى صنفًا يوهم نفسه ويُخيل لها أنه يستطيع أن يتفلت من بعض الأوامر والنواهي بدعوى أنه لا يعيش في بيئة طاعة ؛ فقد يتفلت المسلم في الوظيفة إن كان

النساء يعملن معه في مكانٍ واحد ؛ فيطلق لبصره العنان في النظر إلى الموظفات ، ويطلق لنفسه العنان في مداعبة الزميلات ومحادثتهن بدعوى أنه في بيئة مليئة بالنساء ، وينسى أنه مأمور بأمر الله في أي أرض وتحت أي سماء .

ففي أوربا وأمريكا تتفلَّتُ المسلمة من الحجاب الشرعي بدعوى أنها في بيئة كافرة ، ويتفلَّتُ المسلم من بعض الأوامر الشرعية بدعوى أنه في بيئة كفر !! وهذا لا يجوز ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١١٥] .

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تُخفي عليه يغيب [(١)]

قال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [المجادلة:٧]

فمقتضى العبادة ـ أيها الأخوة ـ أن يسلم المرء حياته كلها لله تبارك وتعالى وعلى منهج النبيِّ ﷺ ؛ فلا يجوز لمسلم أن يتفلت في أي جانب ؛ قد ترى مسلمًا يلبس خاتمًا من ذهب مثلاً فتقول له : إن رسول الله ﷺ أمسك الذهب والحرير يومًا ، وقال [(٢)] : « هَذَانِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي ، حِلٌّ لإِنَاثِهِمِ » .

---

(١) عزا هذين البيتين الحافظ ابن كثير رحمه الله للإمام أحمد إمام أهل السنة ، انظر : «تفسير القرآن العظيم» (لسورة الحديد : ٤) .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٩٦) ، وأبو داود ، كتاب « اللباس» ، باب في الحرير للنساء (٤٠٥٧) ، والنسائي ، كتاب «الزينة» ، باب تحريم الذهب على الرجال (٨/ ١٥٩) ، وابن ماجه ، كتاب اللباس ، باب لبس الحرير والذهب للنساء (٣٥٩٥) ، وابن حبان (٥٤٣٤) ، وصححه الألباني في « صحيح أبي داود » (٢/ ٧٦٥، ٧٦٦) .

فتجد هذا الشخص غير مكترث ؛ بل ويردُّ عليك بكلِّ يُسْرٍ وسهولة ، ويقول لك : أنا أعلم أن الذهب حرام ، ويظل لابسًا لهذا الخاتم .. انظر إلى فهم هذا الإنسان للعبودية ، وفهم صحابيٍّ جليلٍ رآه رسول الله ﷺ يلبس خاتمًا من ذهب فقال(1) : « يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ » ؛ فألقى هذا الصحابي الخاتم على الفور .

ولما نزلت هذه الآية :﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٨٤] ؛ شقَّ على أصحابِ النبيِّ ﷺ فقالوا : يا رسول الله كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق ؛ الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، ولقد نزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ؛ فقال النبيُّ ﷺ : « أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكُمْ ؛ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ؟ بَلْ قُولُوا :﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥] » ، فردَّ الصحابة على قلبِ رجلٍ واحدٍ :﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، فلما فعلوا ذلك نسخها بقوله تعالى :﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] .

انظروا إلى بركة السمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ ، ونزل قول الله تعالى :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «اللباس والزينة» ، باب تحريم خاتم الذهب على الرجال ونسخ ما كان من إباحته في أول الإسلام (٢٠٩٠) .

أنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦] ، قال الله تعالى : نعم » .

وفي لفظٍ : قال الله تعالى : « قد فعلت » [(١)].

فالذي أريد أن أذكِّر به أن العبادة لا تقتصر على الشعائر الدينية ؛كما هو مفهوم عند كثيرٍ من المسلمين ؛ كالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والعُمرة ، والحج ، يتصور أحدهم أن هذه هي العبادة فقط ، فإن أدى هذا فقد أدى حق الألوهية كاملاً ، وله بعد ذلك أن يفعل ما يشاء في الوقت الذي يشاء !!

كلاً ، كلاً ؛ فليس بعابدٍ لله من تصوَّر هذا ؛ فالعبادة تسع الحياة كلَّها ، ويجب على المسلم أن يُسْلِمَ حياته الخاصة والعامة في اعتقاداته وأقواله وأفعاله للرسول ﷺ ؛ ليقود النبيُّ ﷺ هذا المسلم الموفَّق إلى بَرِّ الأمان في الدنيا والسعادة في الآخرة بوحي الله المعصوم وما زال الحديث ممتدًا عن العبادة بمفهومها الشامل الواسع ؛ كما سنوضحه في الفصل القادم ـ بإذن الله .

*****

(١) الحديث بطوله ، رواه الإمام مسلم ، كتاب «الإيمان» ، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يُطاق (١٢٥) من حديث أبي هريرة ﷺ ، ورواه (١٢٦) من حديث ابن عباس ﷺ .

حياةُ المسلمِ عبادةٌ

فالمسْلِمُ يعبد الله ﷻ بفكرِه ، ويعبد الله ﷻ بقلْبِهِ ، ويعبد الله ﷻ بجوراحِه ، ويعبد الله ﷻ ببدنه كلِّه ، ويعبد الله ﷻ ببذل ماله ونفسه ، ومفارقته لأهله ، ووطنه ؛ فكما أنَّ العبادة تسع الحياة كلَّها ؛ فإنها تسع البدنَ كلَّه أيضًا ـ كما سأبين إن شاء الله .

إن كلَّ ساعةٍ يتفكر فيها في خلق الله تعالى علويه وسفليه هي من أرقى وأعظم العبادات ؛ فالمسلمُ عن طريق التأمل في الكون من عرشه إلى فرشه ، من سمائه إلى أرضه .. عن طريق التأمل في البحار ، والأشجار ، والأنهار ، والأزهار ، والإنسان ، والحيوان ، وسائر المخلوقات ؛ هذا التفكر والتدبر لآيات الله سبحانه وتعالى في هذا الكون الفسيح عبادة لله ﷻ ؛ فالمسلم يتعبد لله بفكره وبعقله ؛ قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢٠، ٢١] .

أي : في أنفسكم آيات للموقنين المؤمنين أيضًا ، أفلا تبصرون ؛ فلو نظرت في هذا الكون وتدبرت فيه لامتلأ قلبك بحبه وبعظمة الله سبحانه وتعالى .

انظر إلى السماء وارتفاعها ، وإلى الأرض واتساعها ، وإلى الجبال وأثقالها ، وإلى الأفلاك ودورانها ، وإلى البحار وأمواجها ، انظر إلى كلِّ ما هو متحرك ، وإلى كلِّ ما هو ساكن . والله إنَّ الكون كلَّه يقرُّ بتوحيد الله ، ولا يغفل عن ذكر مولاه إلا مَنْ كفر من الإنس والجن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ألم يقل ـ جَلَّ في علاه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج:١٨] ، وقال

الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] .

بعد هذا التفكُّر يصل أولو الألباب إلى هذه النتيجة الحتمية ؛ ألا وهي : نتيجة العبودية لله ـ تبارك وتعالى ـ فيتضرعون إلى الله ﷻ بهذا الدعاء الودود: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] .

قال أبو الدرداء والحسن [(١)]: « تَفكُّر ساعةٍ خيرٌ مِنْ قِيامِ لَيْلَةٍ » .

وفي «سنن الترمذي» و«أبي داود» و«ابن ماجه» وغيرهم [(٢)] من حديث أبي الدرداء ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا ، سَهَّلَ الله بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ». وهو حديثٌ حسنٌ بشواهده ، وهو حديثٌ طويلٌ .

وهو في «صحيح مسلم» [(٣)] فالتفكر عِلْمٌ لِتَعْلَم عظمةَ الله ﷻ في خلْقِهِ عِلْمًا يورِّثك الخشيةَ لله ، ويورثك حبَّ الله سبحانه وتعالى .

---

(١) أخرجه أحمد في « الزهد» (ص٢٦٢ ط ابن رجب) بسندٍ رجاله ثقات عن أم الدرداء عن أبي الدرداء ، وأخرجه أيضًا البيهقي في «الشعب» (١١٧) ط الرشد ، وورد عن الحسن ؛ كما في «الإحياء» للغزالي(٥/ ٥) ط الحديث .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب «العلم» ، باب الحث على طلب العلم (٣٦٤١) ، والترمذي ،كتاب « العلم» ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢) ، وابن ماجه ،كتاب «السنة» ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٣) ، وأحمد (٥/ ١٩٦) وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧) من حديث أبي الدرداء ، وجاء من حديث أبي هريرة ، انظر : «جامع بيان العلم » (٤٤) ، و «صحيح الجامع» (٦٢٩٨) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب «الذكر والدعاء »، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٢٦٩٩) عن أبي هريرة .

قال الشافعيُّ رحمه الله [١] : «طلب العلم أفضَلُ من صلاة النافلة» ، وقال ذلك كذلك أبو حنيفة رحمه الله .

وقال وهب : كنت بين يدي مالك بن أنس ـ إمام دار الهجرة رضي الله عنه ، فوضعت ألواحي (التي تحوي العلم) وقمت أصلي النافلة ؛ فقال لي مالك : ما الذي قمتَ إليه بأفضلَ مِنَ الذي قمت عنه[٢] . يقصدُ طلب العلم ؛ بل إن طلب العلم فرضٌ.

كما قال النبيُّ ﷺ : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ »[٣] .

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامعه» (١/ ٢٥ط الكتب العلمية) ، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٢٣٧) .

(٢) أخرجه ابن عبد البر (١/ ٢٥) .

تعقيب : في «السير» للذهبي (٧/ ١٦٧) : « قال أبو أسامة سمعتُ مسعرًا يقول : إن هذا الحديث يصدكم عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ » قلتُ : هذه مسألة مختلفٌ فيها : هل طلب العلم أفضل ، أو صلاة النافلة والتلاوة والذكر ؟ فأمَّا مَنْ كان مخلصًا لله في طلب العلم ، وذهنه جيد فالعلم أولى ، ولكن مع حظٍّ وتعبد ، فإنْ رأيته مجدًا في طلب العلم لاَحظَّ له في القربات ، فهذا كسلان مهين ، وليس هو بصادقٍ في حسن نيته .

وأما من كان طلبه الحديث والفقه غية ومحبة نفسانية ، فالعبادة في حقه أفضل ، بل ما بينهما أفعل تفضيل ، وهذا تقسيمٌ في الجملة . فقلَّ ـ والله ـ مَنْ رأيته مخلصًا في طلب العلم ، دَعْنَا من هذا كلِّه .

فليس طلب الحديث اليوم على الوضع المتعارف من حيِّز طلب العلم ؛ بل اصطلاح وطلب أسانيد عالية ، وأخذ عن شيخ لا يعي ، وتسميع لطفلٍ يلعب ولا يفهم ، أو لرضيع يبكي فليس عنده من الفضيلة أكثر من قراءة ما في الجزء ، سواء تصحف عليه الاسم ، أو الفقيه يتحدث مع حدث ، أو آخر ينسخ .

وفاضلهم مشغول عن الحديث بكتابة الأسماء أو بالنعاس ، والقارئ إن كان له مشاركة ، أو اختلط المتن ، أو كان من الموضوعات .

فالعلم عن هؤلاء بمعزل ، والعمل لا أكاد أراه ، بل أرى أمورًا سيئةً !! نسأل الله العفو » ا.هـ .

(٣) أخرجه ابن ماجه ، في المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٤) ، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٥ـ٣٠) ، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٧٠) ؛ أما زيادةُ : «ومسلمة» التي اشتهرت على الألسنة ؛ فلا أصل لها البتة ؛ كما قال الإمام الألباني في «المشكاة» (١/ ٧٦) (٢١٨) ، وراجع تخريج أخينا أبي الأشبال الزهيري لـ «جامع بيان العلم» (١/ ٢٣ـ٥٢) ط ابن الجوزي ؛ فقد انتهى إلى تحسينه لشواهده دون هذه اللفظة المذكورة .

فالعلم أن تتفكر وأن تتدبر، وأنْ تتعلم آيات الله سبحانه العظيم في كونه ؛ لأن هذه عبادةٌ لله سبحانه وتعالى ؛ بل لقد أمر الله العباد في كثيرٍ من آيات القرآن أن يتفكروا في هذا الكون الفسيح لتزداد عبوديتهم لله : فهذه هي الغاية من التفكر والتدبر .

قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت:٢٠]، وقال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام:١١]، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]

نعم .. تفكر وتدبر في آيات الله المقروءة ؛ ألا وهي : القرآن .. وتفكر في آيات الله الكونية المسموعة والمرئية في كونه الفسيح .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [آل عمران:١٩٠] ؛ أي: لأصحاب القلوب الذكية النقية : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ ﴾ [آل عمران:١٩١] ؛ فالتفكر عبادةٌ ؛ فالمسلم يتعبد لله بها ؛ بل لو جلست الآن في بيتك لتُفكِّر في أحوال الأمة ، وفي همومها ، وأنت محترق القلب ما المخرج ؟! ما السبيل ؟! ما دَوْرِي ؟! ما واجبي الذي لا بد أن أبذلَه ؟! كلُّ دقيقة مرَّتْ عليك وأنت في هذا الهم ؛ فهي عبادة ، وعبودية القلب هي أرقى أنواع العبوديات ؛ فالمؤمن يعبد الله ﷻ بقلبه ؛ من الحب لله ولرسول لله ، والخوف من الله ؛ والبغض في الله ، والتوكل على الله ، والإنابة ، والإخلاص ، والتفويض ، والرجاء ، والاستعانة ، والاستغاثة ، والصبر ، والرضا ، واليقين .. كلُّ هذا من تعبد القلب لله سبحانه وتعالى ؛ فكلُّ لحظةٍ تمرُّ عليك وقلبك وَجِلٌ مِنَ الله ؛ فأَنْتَ

في عبادة . وكلُّ لحظةٍ تمرُّ عليك وأنت محبٌّ لله ؛ فأنت في عبادة . وكلُّ لحظةٍ تمرُّ عليك وأنت مبغضٌ لأعداء الله ؛ فأنت في عبادة ، وكلُّ لحظةٍ تمرُّ عليك وأنت محبٌّ لأولياء الله ولإخوانك ؛ فأنت في عبادة ، وكلُّ لحظة تمرُّ عليك وأنت تتجرَّع الصبر على بلاءِ الله ؛ فأنت في عبادة ؛ فكلُّ هذه الأعمال من أعمال القلب ، فإنما هي عبودية وعبادةٌ لله سبحانه وتعالى .

والمسلم يتعبد كذلك بلسانه ؛ فأنا في عبادة حينما أعلِّمك وأدعوك إلى الله ، وأقول : قال الله وقال الرسول ﷺ ، وأنت عندما تُسخِّر لي وقتك لتسمع أيضًا عن الله ورسوله ﷺ ؛ فأنت في عبادة .

وذكر الله عبادة ، وقراءة القرآن عبادة ، والتسبيح عبادة ، والتهليل عبادة ، والتكبير عبادة ، والاستغفار عبادة ، والأمر بالمعروف عبادة ، والنهي عن المنكر عبادة ، والكلمة الطيبة عبادة ؛ كلُّ هذه عبادات يتعبدها المسلم بلسانه ؛ فانظر كم فرَّطنا في ألوانٍ كثيرةٍ من العبادات ؛ فأنت تستطيع أن تشغل كلَّ أنفاسك في عبادة الله ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الأحزاب:٤١، ٤٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:٢٠٥] .

فالغافل عن ذكر الله ميت وإن تحرَّك بين الأحياء ،والذَّاكر حيٌّ وإن مرض وحبست منه الأعضاء.

قال حبيب القلوب محمدٌ ﷺ ؛ كما في «الصَّحيحين» [(١)] من حديث أبي

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الدعوات» ، باب فضل التسبيح (٦٤٠٧) ، ومسلم ، صلاة المسافرين ، باب استحباب صلاة النافلة في بيته (٧٧٩) ، وفي لفظ مسلم : « مَثَلُ البيت الذي يُذكر الله فيه ... » .

موسى الأشعري ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ، وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ».

وقال النبيُّ ﷺ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ» يعني: باللسان، والتفكير بالقلب، والنظر بالعين؛ فالعين حين تنظر إلى القرآن فهي في عبادة، والقلب حينما يتفكر في القرآن فهو في عبادة، واللسان حينما يقرأ القرآن فهو في عبادة؛ فالعبودية تعودُ على أعضاء البدن كلِّه.

ولقد قال النبيُّ ﷺ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»[1]. وَالْبَطَلَةُ: السَّحَرَةُ.. اللهم شفِّع فينا القرآن، وشفِّع من أنزلْتَ عليه القرآن فينا، برحمتك يا أرحم الراحمين.

ويقول النبيُّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لاَ أَقُولُ ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلاَمٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ». والحديث رواه الترمذيُّ وغيره بسندٍ صحيحٍ[2] من حديث ابن مسعود ﷺ.

ويقول النبيُّ ﷺ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ؛ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ، بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا». والحديثُ أخرجه

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب «صلاة المسافرين»، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤).

(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب «فضائل القرآن»، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر (٢٩١٠)، والبخاري في «التاريخ» (١/ ٢١٦) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٦٩).

مسلم[1] مِنْ حديثِ النواس بن سمعان ﷺ.

والذِّكْر نوعان : ذكرُ ثناء ، وذكرُ دعاء .

أمَّا ذكر الثناء ؛ كقولك : سبحان الله ؛ والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر، سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته ... إلى آخر هذه الأذكار ؛ فهذه أذكارُ ثناءٍ على العزيز الغفار .

أمَّا ذكر الدعاء ؛ كقولك : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣] ؛ وكدعاء يونس عليه السلام : ﴿ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧] .

ولقد جاء في النوعين من الذكر الكثير من الأذكار الثابتة الواردة الصحيحة عن المصطفى ﷺ ؛ ومِنْ أجَلِّ ما كُتِبَ في ذلك : كتاب «الأذكار» للإمام النووي ، وكتاب «الكَلِم الطَّيِّب» لشيخ الإسلام ، و«الوابل الصيب» لابن القيم ـ رحمهم الله تعالى .

والذكرُ المحمود الذي أُمِرْنا به هو الذكر الذي يجتمع فيه القلب مع اللسان .. وكثيرٌ من الناس يذكر الله بقلبه ، دون تحريك للسان ؛ فهذا ذكر ، ولكن الذكر الذي أُمِرَ به هو أن ينشغل القلبُ بالذكر ويشتغل اللسانُ في الوقت ذاته به ؛ فاذكر الله بلسانك مع القلب ؛ فهذا هو الذكر المحمود الذي أمَرَنا به صاحبُ المقام المحمود ﷺ ، إذ لا خير في ذكر اللسان إذا كان القلبُ غافلاً !! وهنا تجدُ كثيرًا من الناس يشتكي ؛ فيقول أحدهم : أنا أقرأ الأذكار وأرى الكوابيس وأرى الأحلام المزعجة !! فما هذا الأمر ؟

والجواب : في كلمات يسيرة ؛ فأقولُ لك : أنت ردَّدتَ الأذكار بلسانك

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «صلاة المسافرين» ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٥) .

فقط مع غفلةٍ تامةٍ للقلب ؛ فلا خير في ذكرٍ كان القلبُ فيه غافلاً عَمَّا يردده اللسان ، وإلا فهي كلماتٌ وعباراتٌ كانت كريمةً طيبةً فاضلةً محمودةً .. لكن لا يَنْتفعُ بها المرءُ إلا إذا ردَّدها لسانه ، وحضر وخشع فيها قلبه لله تبارك وتعالى ؛ أسأل الله أن يعيننا وإياكم على ذلك .

والمسلم يتعبد لله بسمعه ؛ بالكف عن سماع الحرام ؛ كالأغاني الفاحشة الماجنة التي تملأ بيوتَ المسلمين الآن إلا من رحم ربك ﷻ ، وأعْجَبُ مِمَّنْ يُحِلُّ هذا الغناء الذي هو معلومٌ للقاصي والداني في هذه الأيام !! فأنا حينما أُسأل عن الغناء ؛ فأنا أُسأل عن الغناء الذي يَعْرِفه الجميع .. غناء تَصْحبه آلات اللهو .. غناء يغنيه رجلٌ فاسقٌ ، أو تغنيه امرأة فاسقة نسيت في الغالب أن تلبس ثيابها !! خرجت متجردة من كلِّ عفة ، ومن كل حياء ...مع هذه الأنوار وعدسات الزُّووم التي تُقرِّب وتُبْعد ، بصورة تجعل العُبَّاد الزُّهَّاد فُسَّاقًا فجارًا إلا من رحم ربك !!! فحينما نسأل عن الغناء لا نسأل عن غناء في كوكب المريخ ! إنما نسأل عن غناءٍ يعرفهُ القاصي والداني .

قال ذو الجلال والإكرام : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [لقمان:٦] .

والغناء هو لهو الحديث ؛ كما قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما [١] ممن هم أعلم الناسِ بمراد الله ورسوله ﷺ ؛ لأنهم عايشوا التنزيل ، وفهموا حقائق التأويل ؛ فمن كان مستنًا فليستنَّ بمَنْ قَدْ مات ؛ فإن الحيَّ لا تؤمنُ عليه الفتنة ، أولئك أصحاب مُحَمَّد ﷺ كانوا أفضل هذه لأمة ، أبرَّها قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلُّفًا ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، ولإقامة دينه ،

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (سورة لقمان/ ٦) (برقم ٢٨٠٤٠و...) عن ابن مسعود و(برقم : ٢٨٠٤٢و ...) ، عن ابن عباس و (برقم ٢٨٠٤٧) عن جابر وغيرهم .

فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على آثارهم ، وتمسَّكُوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم ؛ وهذا من كلام عبد الله بن مسعود ؛ كما رواه ابن عبد البر وغيره[1] ؛ فالسمع يتعبد لله تعالى بالبعد عن كلِّ حرام ، ويدنو بمسامعه لكلِّ حلالٍ يقرِّبه إلى الله ﷻ ؛ فسماعك للقرآن عبادةٌ ، وسماعك لأشرطة العلم ومجالس العلماء وإصغاؤك لأيِّ عالم من أهل العلم الربانيين أو داعية من الدعاة الصادقين ، وهو يُذَكِّرك بالله وبكلام رسول الله ﷺ عبادةٌ ، وإصغاؤك للغيبة معصية ، وإصغاؤك للكفر إن تأثرت به معصية ، وإن أصغيت لقول الكفر لتردَّهُ وليزداد إيمانك ويقينك بمعرفة ضد الإيمان ؛ فالإيمان مستقرٌّ في القلب فهذا لا بأس به ؛ فلقد قصَّ الله ﷻ علينا أقوال الكافرين في قرآنه الكريم ... وهكذا ما دام السمعُ في سماعٍ لله ولرسول الله ﷺ ، ولكلِّ طيبٍ من القول ؛ فهو في عبادة .. وما دام السمع في إصغاءٍ للباطل والكفر وأهله والفسق والغيبة والنميمة والفجور من القول ، وسماع الأشرطة الفاضحة ؛ فحينئذٍ يكونُ هذا السمع صاحبه في معصيةٍ لله تبارك وتعالى .. وهكذا لا أُريد أن أفَصِّل أكثر من ذلك .

أقولُ : كما أن العبادة تسعُ الحياة كلَّها ؛ فالعبادةُ أيضًا تَسَعُ البدنَ كلَّه ، وتستوعبُ البدن كلَّه ؛ فأنت تستطيع أن تعبد الله بقلبك ، وعقلك ، وفكرك ، ولسانك ، وسمعك ، وبصرك ، ويدك ، ورِجْلِكَ ؛ فالبدن كلُّه يجب أن يسخره المسلم لطاعة الله وعبادته جلَّ في علاه.

تدبر هذه الآية العجيبة الجليلة : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢] .

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٨١٠) ، والطبراني في «الكبير» (٩/ ١٦٦) ، واللالكائي في «شرح الاعتقاد» (١/ ١٠٤) .

فالحياة كلُّها حتى المهات يجب أن تكون لله ، وإلا لو لم تكن لله ؛ فهي للشيطان!!

ويتعبد المسلم لله ببذل ماله ؛ فبذلُ المال عبادة مالية ـ كما يسميها الفقهاء ـ وإن القلب يحثُّ الجوارح على البذل ، وإن أُشرِب البخل فلا تستطيع اليد أن تنفق !! وأن تُبسط بالإنفاق ؛ بل إن الذي يبسط يده بالإنفاق صاحبُ قلبٍ سليم ، لأن القلب هو ملك الأعضاء ؛ فلا تستطيع اليدُ أن تبذل والقلب مريض !! لا تستطيع العينُ أن تكفَّ عن الحرام والقلب مريض !! لا تستطيع القدمُ أن تكفَّ عن السعي إلى المعصية والقلب مريض !! لا يستطيع القلب أن يحفظ القرآن وأن يحفظ كلام رسول الله ﷺ وهو مريض ؛ بل لن تفوز برضوان الله في الآخرة إلا بقلبٍ سليمٍ بريءٍ من المرض ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩] ، اللهم ارزقنا القلب السليم ؛ فالمسلم يتعبد لله ببذله للمال ؛ فالمال شقيقُ الروح ، ولذا قدَّم الله المال على الأولاد في آيات من القرآن الكريم ؛ فقال سبحانه : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف:٤٦] .

ويتعبد كذلك المسلم لله ببذله لنفسه ، وروحه ، ومهجته ؛ بل بهجرته من وطنه من أجل دينه ، ومن أجل عقيدته ؛ فالهجرةُ ـ هجرةُ النبيِّ ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة ـ من أعظم العبادات لله سبحانه وتعالى ؛ حيث ضحَّى هؤلاء بالمال والنفس والوطن من أجل العقيدة والدين ؛ فهجرتك من المعصية إلى الطاعة عبادة ، وهجرتك من البدعة إلى السنة ، ومن الحرام إلى الحلال عبادة .. كلُّ هذه صورٌ من صورِ العبادات التي يستطيع المسلم ببدنه أن يؤديها لله تبارك وتعالى .

وقد فصَّلَ ابنُ القيم ـ رحمه الله تعالى ـ تفصيلاً بديعًا في هذه المراتب ، وجعل مراتب العبودية خمسين مرتبة ، ووزَّعها على القلب واللسان والجوارح ،ولا يتسع المقام لذكر هذه المراتب الخمسين ، فمن نشط لهذه المراتب ؛ فليراجعها في الجزء الأول من كتاب «مدارج السالكين» .

يقول ابن القيم [1] : « ورحى العبودية تدورُ على خمس عشرة قاعدة ، مَنْ كَمَّلها كمَّل مراتب الدين .

وبيانها : أن العبودية منقسمة على القلب ، واللسان ، والجوارح .. وعلى كلٍّ منها ـ أي على القلب واللسان والجوارح ـ عبودية تَخصُّه .

والأحكام التي للعبودية خمسة : واجب ، ومستحب ، وحرام ، ومكروه ، ومباح . وهي لكلِّ واحدٍ من القلب واللسان والجوارح » .

ثم فصَّل ـ رَحِمَهُ الله تعالى ـ في ذلك تفصيلاً بديعًا ؛ فقال رحمه الله [2] :

« أهل مقام : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها وأعظمها وأقربها إلى الله تعالى أربع طرق » .

ولقد مَرَّ بنا أنَّ العبادة تستوعب البدن كلَّه والحياة كلَّها ؛ فقد يقول قائل : لقد أَغرقْتَنَا في بحر العبادة ! ولو أحسن القول؛ لقد طوَّفْتَ بنا في بستان وارفٍ للعبادة ؛ فلا ندري تحت أيِّ جزءٍ من الظلال نقف ، وأمام أي زهرة من أزهاره نستنشق ،وبأي لون من ألوان الشذا والعبير نستمتع ؟!

أقولُ : أفضل العبادة وأنفعها وأقربها إلى سبحانه وتعالى أربع طرق ، والكلام لابن القيم رحمه الله وعضُّوا على هذا الكلام بالنواجذ .

---

(١) انظر «مدارج السالكين» (١/ ١٢٣) ط دار الكتب .

(٢) المصدر السابق (١/ ٩٧) بتصرف .

قال ـ رحمه الله تعالى[(١)] : « وأهل مقام : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق ؛ فهم في ذلك أربعة أصناف :

فالصنف الأول : صنفٌ عندهم أنفع العبادات وأفضلها : أشقها على النفوس وأصعبها ؛ قالوا : لأنه أبعد الأشياء عن هوى النفس ، وهو حقيقة التعبد » .

ومعنى قوله : صنفٌ عندهم أنفع العبادات وأفضلها : أشقها على النفوس وأصعبها ؛ كأن تصوم في يوم شديد الحرارة ، أو أن تقوم لتتوضأ في يوم شديد البرودة ، أو ترى فتنةً عارمة ؛ كفتنة النساء في الشوارع فتغض عنهن البصر ؛ فأقرب وأنفع العبادات إلى الله هي أشقها وأصعبها على النفس ، قال أصحاب الصنف الأول : « والأجر على قدر المشقة » .

قال ابن القيم : « وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس . قالوا : إنما تستقيم النفوس بذلك . إذ طبعها الكسل والمهانة ، والخلود إلى الأرض ؛ فلا تستقيمُ إلاَّ بركوبِ الأهوال ، وَتَحَمُّلِ المشاق » .

هذا المجمل من الكلام يحتاج إلى تفصيل ؛ فأقول : ليست النفوسُ على الإطلاق مُهَانة ، وربما يكون هذا الوصف لنفسٍ واحدةٍ ؛ ألا وهي النفس الأمَّارة . وهناك النفس اللوَّامة ، وبعد ذلك : النفس المطمئنة ؛ اللهمَّ اجعلنا من أهلها .

أمَّا النفس الأمَّارة بالسوء ؛ فهي التي تقودُ صاحبها إلى الشهوات ، وتخلد إلى الأرض ، فإنْ فطمها صاحِبُها بمثل هذه العبادات التي تشقُّ عليها ،

(١) المصدر السابق (١/ ٩٧، ٩٨).

وأمسكها بلجام التقوى والطاعة والقرب من الله ﷻ ارتقت النفسُ الأمَّارة إلى النفس اللَّوامة ، فصارت هذه النفس تلومُ صاحبها على الخير والشر . نعم .. تلومُ صاحبها على الخير ، وعلى تقصيره في حق ربه . وتلومُ صاحِبَها على ما وقع فيه من الشرّ ، إذا وصلت النفس إلى هذه المرتبة تصِلُ بعد مدةٍ إلى مرْتَبةِ النَّفسِ المطمئنة التي لا تُحَدِّث بعد هذا بمعصية لا يحتاج العبد بعدها إلى أحدٍ يقول له : قُمْ فصلِّ ! ولا يحتاج إلى من يقول له : هذا المال حرام ! ولا يحتاج إلى من يقول له : هذا الشراب حرام ، وهذا الملبس حرام !! لأنه مطمئن النفس ، ولا تطمئن النفسُ إلا مع الله .. مع أمره ونهيه وحده ؛ فلا تطمئن إلاَّ في طاعة الله والقرب منه سبحانه ، وتكْمُل طمأنينتها وسعادتها بلقاء الله ﷻ .

قال النبيُّ ﷺ كما في حديث عائشة في «الصحيحين»[1]: « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ الله لِقَاءَهُ» قَالَتْ : يَا نَبِيَّ الله ، أَكَرَاهِيَةُ المْوْتِ ؟ فَكُلُّنَا يَكْرَهُ المْوْتَ ، فَقَالَ : « لَيْسَ كَذَلِكِ يَا عَائِشَةُ ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرُه المْوت بُشِّرَ بِرَحْمَةِ الله وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ ، أَحَبَّ لِقَاءَ الله ، وَأَحَبَّ الله لِقَاءَهُ ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِر بُشِّرَ بِسَخَطِ الله وَعَذَابه ، كَرِهَ لِقَاءَ الله وَكَرِهَ الله لِقَاءَهُ ».

فالصنف الأول : صنفٌ يقول : بأن أفضل العبادات هو أشقها على النفس .

الصنف الثاني[2]: قالوا : أفضل العبادات : التجرد والزهد في الدنيا .. يقول ابنُ القيم : وهؤلاء قسمان : عوام وخواص ؛ فعوامُّهم : ظنوا أن الزهد في الدنيا غاية ، فشمَّروا إليه ، وعملوا عليه ، ودعوا الناس إليه ، وقالوا : هو

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الرقاق» ، باب مَنْ أحب لقاء الله أحبَّ الله لقاءه (٦٥٠٧) ، ومسلم ، كتاب «الذكر والدعاء» ، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٢٦٨٤) .

(٢) وهنا يبدأ الكلام لابن القيم . والنقل بتصرف .

أَفْضَلُ من درجة العلم والعبادة ، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها .

وخواصهم قالوا : إن الزهد في الدنيا ليس غاية ، وإنما هو مقصود لغيره ، وأن المقصود به ـ أي : الزهد في الدنيا عكوف القلب عليه سبحانه وتعالى ، وجمع الهمة عليه ، وتفريغ القلب لمحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والاشتغال بمرضاته » .

فَأَهْلُ الزهد قسمان : عوام وخواص .

العوام : ظنوا أن الزهد في الدنيا غاية ، وخواص : رأوا أن الزهد وسيلة إلى غاية ؛ ثم هؤلاء الخواص قسمان ؛ كما قال ابن القيم : « الخواص قسمان : العارفون المتبعون منهم (أي من خواص الخواص) إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه (أي : إذا أمروا ائتمروا ، وإذا نُهُوا انتهو ، وإذا حدَّ الله لهم وقفوا عند حدود الله) .

قال : «والمنحرفون منهم يقولون : المقصود من العبادة جمعية القلب على الله » [(يعني : عكوف القلب على العبادة بدون عمل الجوارح وبدون عبادة الجوارح) هذه هي الغاية عندهم ، وهذا فريق من المتصوفة] .

قال : « والمنحرفون منهم يقولون : المقصود من العبادة جمعية القلب على الله ؛ فإذا جاء ما يفرقه لم يلتفت إليه ، وربما يقول قائلهم :

يُطالَب بالأوراد مَنْ كان غافلاً فكيف بقلبٍ كلُّ أوقاته ورد؟»ا.هـ

وهذا هوسٌ ؛ فإنَّ أَصْفى القلوبِ هو قلبٌ واحدٌ عرفته الأرض كلُّها وهو قلب المصطفى ﷺ ؛ فلا يجوزُ لأيِّ مخلوق على وجه الأرض من الصوفية وغيرهم أن يدَّعي أو أن يزعم بأن قلبه لا يغفل !!

فإن هذا هو قلب المصطفى ﷺ فقط ؛ كما في «صحيح البخاري» [(١)] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقولُ : « جَاءَتْ مَلاَئِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ نَائِمٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ ، فَقَالُوا : إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلاً ، فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلاً : فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ نَائِمٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ » .

فقلْبُ النبيِّ ﷺ لا يغفل لحظةً عن الذكر ؛ سواء في اليقظة أو في النوم .. تلك خصوصية للمصطفى ﷺ ليست لغيره ؛ فالمنحرفون هم الذين يقولون بجمع القلب على الله سبحانه وتعالى ، قالوا : لأن الله لا يحتاج منا عبادة الأبدان ، وأن عبادة القصد أجمع قلبي على الله ، وألاّ أُشتت قلبي بأي شيء آخر عن هذا الذي فيه !!

الصنفُ الثالثُ : رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها : ما كان فيه نفع متعدٍّ : أي تتعدى منفعته إلى الغير ، وهو أفضل من النفع القاصر على العابد نفسه ، قالوا : فخدمةُ الفقراء ، والاشتغالُ بمصالح الناس ، وقضاءِ حوائجهم ، ومساعدتهم بالمالِ والجاهِ والنفعِ أفضلُ من العبادة التي يقتصر نفعها على صاحبها فحسب .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الاعتصام بالكتاب والسُّنة » ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٧٢٨١) .

تعقيب : قال الإمامُ النوويُّ في «شرحه لصحيح مسلم » (١٧/ ٢٣، ٢٤) : قَوْلُه ﷺ : « إنه ليغان عليَّ ، وإنِّي لأستغفرُ الله في اليوم مائة مرة » ، قال أهل اللغة : الغين بالغين المعجمة ، والغيم بمعنى ، والمراد هنا ما يتغشى القلب ، قال القاضي : قيل المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه ، فإذا فتر عنه ، أو غفل عد ذلك ذنبًا ، واستغفر منه ، قال : وقيل : هو همه بسبب أمته ، وما أطلع عليه من أحوالها بعده فيستغفر لهم ، وقيل : سببه اشتغاله بالنظر في مصالح أمته وأمورهم ... » ونقل الحافظ عن السهروردي : « لا يعتقد أن الغين في حالة نقص ، بل هو كمال أو تتمة كمال » («الفتح» ١١/ ١٠٤) .

واحتجُّوا : بأن عمل العابد قاصرٌ على نفسه ، وبأن عمل النفَّاع ـ أي : الذي ينفع غيره متعدٌّ إلى الغير ، وأين أحدهما من الآخر ؟ واحتجوا : بأن عمل العالم أفضل عند الله من عمل العابد ؛ لأَنَّ عمل العابد لا يتعدى نفسَهُ ، أما عمل العالم فإنه يتعدَّى إلى غيره .

وثبت أَنَّ رسول الله ﷺ قال: « وإِنَّ فَضْلَ العالِمِ عَلى العَابِدِ ، كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ » . وهو جزء من حديث أبي الدرداء وهو حديثٌ حسنٌ بشواهده [1] ، واحتجوا بقول النبيِّ ﷺ لعليٍّ ﷺ وهو في «الصَّحِيحَيْنِ» [2] : « لأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَم » .. وهذا التفضيل للنفع المتعدي للغير .

وقال النبيُّ ﷺ ؛ كما في «صحيح مسلم» [3] من حديث أبي هريرةَ ﷺ : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدَىً كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِك مِنْ أُجُورِهِم شَيْئًا » .

وهذا نفعٌ متعدٌّ للغير . واحتجُّوا بقول رسول الله ﷺ : « إِنَّ الله ومَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ » [4] .

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب « العلم » ، باب الحث على طلب العلم (٣٦٤١) والترمذيُّ ، كتاب « العلم » ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢) وقد تقدم في أول الباب ، وانظر «صحيح الجامع» (٤٢١٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الجهاد والسير» ، باب دعاء النبيِّ ﷺ إلى الإسلام والنبوة (٢٩٤٢) ومسلم ، كتاب « فضائل الصحابة » ، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ (٢٤٠٦) .

(٣) أخرجه مسلمٌ ، كتاب « العلم » ، باب من سنَّ سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة (٢٦٧٤) .

(٤) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب « العلم » ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٥) ، والطبراني في « الكبير » (٧٩١٢) عن أبي أمامة ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (١٨٣٨) ، و« صحيح الترمذي » (٢/ ٣٤٣) (٢١٦١) .

والله إن هذا الحديث يجعل كلَّ مسلم يحرصُ على طلب العلم ، ويحرص على أن يبلغه ؛ وقد قال النبيُّ ﷺ : « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَة »[1] .

فعندما تحفظ آية بلِّغها عن رسول الله ﷺ ، وكذلك إذا حفظت حديثًا بلِّغه ، ونيتك أن ينالك فضل وبركة ، وقال النبيُّ ﷺ : « إِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمواتِ ومَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ »[2] .

نعم .. الأسماك في البحار تستغفر للعلماء .. ومن المسلمين مَنْ يَسبُّون العلماء !!! إنَّ صاحب العبادة يموت إذا انقطع عمله ، أما صاحب النفع إذا مات فيظلُّ نفعه باقيًا ما دام ينتفع به الناس .

واحتجُّوا : بأن الأنبياء إنما بُعثوا بالإحسان إلى الخلق ، وهداية الخلق ، ونفع الخلق في معاشهم ومعادهم ، ولم يُبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهُّب ؛ ولهذا أنكر النبيُّ ﷺ على أولئك النفر الثلاثة[3] الذين همُّوا بالانقطاع للتعبد ، وترك مخالطة الناس . ورأى هؤلاء أن الاشتغال بأمر الله ، ونفع عباده والإحسان إليهم ، أفضل من جَمْع وَتفرُّغ القلْبِ والانقطاع للعبادة ؛ **فالصنف الثالث** : هو الذي رأى أن أفضل العبادات التي يتعدى نفعها إلى الناس ؛ كالدعوة إلى الله ﷻ ، وقضاء حوائج الناس ، والأمر

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٦١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه أبو داود في العلم ، باب الحث على طلب العلم (٣٦٤١) ، والترمذيُّ في العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢) ، وابن ماجة في السنة ، باب فضل العلماء (٢٢٣) ، وصحَّحه الألباني في « صحيح الجامع » (٦٢٩٧) والحديث تقدَّم من حديث أبي الدرداء الطويل .

(٣) كما في « صحيح البخاري» ، كتاب « النكاح» ، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣) ، ومسلم ، كتاب « النكاح » ، باب استحباب النكاح (١٤٠١) عن أنس . أنَّ نفرًا من أصحاب النبيِّ ﷺ سألوا أزواج النبيِّ ﷺ عن عمله في السرِّ ؟ .. الحديث .

بالمعروف والنهي عن المنكر وطلب العلم والصدقات الجارية .. إلى غير ذلك .

الصنفُ الرابعُ : (وهم القائلون : بأن لكلِّ وقتٍ عبادته وهي الأفضل) ـ وكلام هؤلاء نفيسٌ جدًّا ، وهو الذي رجحه ابن القيم ﷺ[1] : قالوا : إن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الربِّ سبحانه وتعالى في كلِّ وقت بما هو مقتضى الوقت ووظيفته .

فأفضلُ العبادات في وقت الجهاد : الجهاد ، وإن آل ذلك إلى ترك الأوراد .. يحرم عليك في وقت الجهاد إن كان الجهادُ حينئذٍ فرضَ عين ـ وهو جهاد الدفع ـ أما جهاد الطلب فالأمر فيه سعة ؛ لأن جهاد الطلب إن قام به بعضُ المسلمين أُسقط الإثم عن الآخرين ، قالوا : فأفضل العبادات في وقت الجهاد : الجهاد ، وإن آل ذلك إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار . بل ومِنْ تَرْكِ إتمام صلاة الفرض في حال الخوف ؛ ففي حال الأمن تختلف فيه الصلاة عن حال الخوف ؛ كما هو معلوم .

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلًا : القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب . وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل .

والأفضل في وقت السحر : الاشتغال بالصلاة ، والقرآن ، والدعاء ، والذكر ، والاستغفار .

وأفضل العبادة في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل : الإقبال على تعليمه والاشتغال به .

والأفضل في أوقات الأذان : ترك ما هو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن .

---

(١) « المدارج » (١/ ١٠٠) بتصرف .

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس : الجد في إيقاعها على أكمل وجه ، والمبادرة إليها في أول الوقت ، والخروج إلى بيت الله للصلاة فيه في جماعة ، وإن بَعُدَ المسجد كان أفضل .

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه ، أو البدن ، أو المال : الانشغال بمساعدته ، وإغاثة لهفته ، وإيثار ذلك على أورادك وخلواتك .

والأفضل في وقت قراءة القرآن : جمعية القلب ، والهمة على تدبره وتفهمه ، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به .

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة : الاجتهاد بالتضرع والذكر والدعاء دون الصوم المضْعِف عن ذلك ، لأن الدعاء والذكر أفضل من الصيام في يوم عرفة لمن وقف بعرفة .

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة : الإكثار من التعبد ، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد .

والأفضل في العشر الأخير من رمضان ، لزوم المسجد فيه ، والخلوة ، والاعتكاف دون التصدِّي لمخالطة الناس والانشغال بهم .

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته وحضور جنازته وتشييعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك .

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذى الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بالناس دون الهرب منهم ؛ فإنَّ المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل عند الله من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم .

فالأفضل في وقتٍ وحالٍ إيثارِ مرضاةِ الله في ذلك الوقت والحال ، والاشتغال

بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

قال ابن القيم : وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق ، والأصناف قبلهم هم أهل التعبد المقيد ؛ فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به وفارقه يرى نفسه كأنه قد ينقص وترك عبادته ؛ فهو يعبد الله على وجْهٍ واحد . وصاحبُ التعبد المطلق ليس له غرض في تعبدٍ بعينه يُؤْثِره على غيره ؛ بل غرضه تتبع مرضاة الله أين كانت ؛ فمدار تعبده عليها ؛ فهو لا يزالُ متنقلًا في منازل العبودية ، كلَّما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلةٌ أخرى ؛ فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره ؛ فإن رأيت العلماء رأيته معهم ، وإن رأيت العُبَّاد رأيته معهم ، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم ، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم ، وإن رأيت الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر رأيته معهم ؛ فهذا هو العبد المطلق ، الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه ، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات ؛ بل هو على مراد ربه ، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه .. فهذا هو المتحقق بقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ حقًّا .. القائم بهما صدقًا ؛ فملبسه ما تهيأ . ومأكله ما تيسر . واشتغاله بما أمر الله به في كلِّ وقت بوقته . ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا . لا تملكه إشارة . ولا يتعبده قيد . ولا يستولي عليه رسم . حرٌّ مجرد . دائرٌ مع الأمر حيث دار . يدين بدين الآمر أنّى توجهت ركائبه . ويدور معه حيث استقلَّت مضاربه .. يأنس به كلُّ محقٍّ ، ويستوحش منه كلُّ مبطل . (صنفٌ يراه أَهْل الباطل كأنهم رأوا ثعبانًا ! نعم ؛ فهؤلاء يستوحشون من صنفٍ بعينه ، وصنف من الناس يأنس بهذا). قال : كالغيث حيث وقع نفع ، وكالنخلة لا يسقط ورقها . وكلُّها منفعةٌ حتى

شوكها . وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله ، والغضبُ إذا انتهكت محارم الله» .

قال ابن القيم : « فهو لله وبالله ومع الله » ؛ فهو لله : ملكٌ كلُّه لله ؛ كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ ﴾ [الأنعام/ ١٦٢] .

فهو لله وبالله ، أي: يعيش بالله ؛ بفضله .. برحمته .. بستره .. بأمره .. لمرضاته ؛ يمتثل الأمر ، ويتجنب النهي ، ويقف عند الحدِّ ، يضربُ مع كلِّ أهلِ عبوديةٍ من هذه العبوديات بسهم .

فيا أخي : لا تقيِّد نفسك برسمٍ أو اسمٍ أو قيدٍ .. لا تقيِّد نفسك بجماعة ضيقة دون الجماعة المطلقة ؛ ألا وهي : جماعة المسلمين ؛ فنحن ندين لله بأن شيخنا هو رسول الله ﷺ ، وبأن جماعتنا التي ننتمي إليها ونوالي ونعادي عليها هي جماعة المسلمين ، وندين لله بأن مرابطتنا هو كلُّ مكانٍ يُرْضِي ربَّنا سبحانه وتعالى .

قال ابن القيم (١) : « إن سألوك عن شيخك ؛ فقُلْ : شيخي رسول الله ﷺ .. وإن سألوك عن جماعتك ؛ فقل : هو سمَّاكم المسلمين .. وإن سألوك عن آخيتك ــ أي عن المكان الذي ترابط فيه ــ فقُلْ : ألا إن بيوت الله في الأرض المساجد » .

لِمَ تقيد نفسك برسمٍ أو اسمٍ أو حدٍّ ؟! اضرب مع كلِّ أهل عبودية بسهم .. كن ذاكرًا مع الذاكرين .. كن شاكرًا مع الشاكرين .. كن داعيًا مع الدعاة إلى الله وكن آمرًا مع الآمرين بالمعروف .. كن ناهيًا عن المنكر مع الناهين عن المنكر .. كن مصليًا مع المصلين .. كن عفيفًا مع أهل العفة .. كن شريفًا مع أهل

---

(١) « المدارج » (٣/ ١٨٢ ، ١٨٣) ط الحديث (بتصرف).

الشرف .. كن باذلًا مع أهل البذل .. كن مجاهدًا مع أهل الجهاد .. كن قائمًا بالليل مع أهل القيام .. كن محافظًا على الصلوات مع أهل الحفاظ على الصلوات .. كن محافظًا على مجالس العلم مع أهل الحفاظ على مجالس العلم .

وهذا الصنف ـ والله ـ هو الموفق والمسدَّد ؛ فهذا هو ما كان عليه المصطفى ﷺ وأصحابه .. كان الصحابيُّ يجلس مع المصطفى ﷺ يبكي .. يسمع عن الله ورسوله فتخْضَلُّ لحيته من البكاء ؛ فإذا عاد إلى بيته عافس زوجته ـ أي: داعبها ـ وأولاده ؛ فإذا خرج من بيته إلى متجره ترى التاجر الأمين ؛ فإذا خرج من متجره إلى المسجد ترى المصلي الخاشع العابد ؛ فإن خرج من المسجد إلى ساحة الجهاد ترى رجلًا بطلًا مغوارًا يبحث عن الموت في سبيل الله ؛ فإن جنَّ عليه الليل رأيتَ رجلًا آخر ينتفض بين يدي الله انتفاضة عصفورٍ مبللٍ بماءِ المطر من خشية الله وعظمته وجلاله .. كلُّ هذه الشخصيات شخصٌ واحد .. فهؤلاء هم أهل التعبد المطلق ممن لم يقيدوا أنفسهم برسمٍ ولا اسمٍ ولا قيدٍ ولا حدٍّ ؛ نسأل الله أن يجعلنا منهم بمنه وكرمه .

وبعد هذا التأصيل للعبادة لغةً وشرعًا .. ولمجالات العبادة في الإسلام ، وفي كيان الإنسان يتبين لنا أن كثيرًا من الناس قد انحرفوا انحرافًا مزريًا عن حقيقة العبادة ؛ كما يأتي مفصَّلًا في الفصل القادم ـ بإذن الله.

*****

صور الانحراف في العبادة

العبادة هي التي من أجلها خَلَقَ الله الخَلْقَ ، ولأجلها خَلَقَ السماوات والأرض ، ولأجلها خَلَقَ الجنة والنار ، ولأجلها أنزل الكتب ، وأرسل الرسل ، وقد انحرف كثير من الناس انحرافًا مزريًا عن حقيقة هذه العبادة ؛ كما سنوضح ؛ فنقول :

الصنف الأول ـ من الأصناف المنحرفة التي انحرفت عن حقيقة العبادة : صنف كَفَرَ بالله ، ولم يذعن لهذا الحق الذي من أجله خُلِقَ .. قال معاذ بن جبل رضي الله عنه ؛ كما في «الصَّحِيحَيْنِ»[1] : كنت رديفَ النبيِّ ﷺ يومًا على حِمَارٍ يُقَالُ له : عُفَيْر ؛ فقال النبيُّ ﷺ : «يَا مُعَاذ» ! قلتُ : لبَّيكَ رَسُولَ الله وَسعْدَيْك ، قال : «أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ ؟».. قُلْتُ : الله ورَسُولُهُ أَعْلَم . قالَ : «حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكوا بِهِ شَيْئًا ..» الحديث، فالحقُّ الأول لله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ على العبادِ جميعًا هو أن يعبدوه تبارك وتعالى ولا يشركوا به شيئًا .

فالصنف الخبيث الأول من الأصناف المنحرفة : صنفٌ كَفَرَ بالله أصلًا ، ولم يُذْعِن لهذا الحق الذي من أجله خُلِقَ .. فَصَرَفَ العبادة ـ التي هي حقٌّ خالصٌ لله ـ لغير الله .. وقد يظنُّ بعض النَّاس أن هذه الآلهة التي صرفت لها العبادة من دون الله تتمثَّلُ في الأصنام والتماثيل فحسب ! كَلَّا كَلَّا .. إن العالم مليئٌ بركامٍ هائل من الآلهة الباطلة التي عَبَدَهَا كثيرٌ من الناس من دون خالق الناس ـ تبارك وتعالى !!

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الجهاد والسير» ، باب اسم الفرس والحمار (٢٨٥٦) ، ومسلم كتاب «الإيمان» ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٣٠) .

انظر إلى هذه الآلهة الكثيرة التي عُبِدَت ! وكيف صرف كثيرٌ من الجهلة الأغبياء الحق الخالصَ لله تبارك وتعالى لهذه الآلهة المكذوبة المدَّعاة ؟! فهناك صنف عَبَدَ الشمس من دون الله تعالى ؛ كما حكى الله في القرآن عن ملكة سبأ ؛ فلقد عَبَدَتْ هذه الملكة مع قومها الشمس ؛ كما صرَّح بذلك الهدهُد الموحِّد لله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ حينما جاء ليعلن غضبتَهُ للتوحيد الذي دنَّسه البشر ؛ فقال لنبيِّ الله سليمان ﷺ : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٢ـ٢٤] .

ثم يعلنُ الهدهد عن توحيده الخالص لله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النمل : ٢٥ـ٢٦] .

هؤلاء قومٌ عبدوا الشمس من دون الله ، ولكن الله أراد لهذه الملكة وقومها الهُدى ؛ فشرح الله صدرها وقومها للإسلام ، وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤] .

فلقد أسلمت وأذعنت للتوحيد بفضل الله ثم بفضل دعوة الهدهد الموحد!

وهناك قومٌ عبدوا القمر والكواكب ؛ كقوم إبراهيم ؛ فقوم إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ عبدوا القمر والكواكب!! وهناك قومٌ عبدوا النار ؛ كالمجوس .. وهناك قومٌ عبدوا الحجارة والأوثان !!

يقول أبو رجاء العطاردي ـ كما روى البخاريُّ[1] : « كنا نعبد الحجر في

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « المغازي » ، باب وفد بني حنيفة ،وحديث ثمامة بن أثال (٤٣٧٦) ، وانظر «الحلية » لأبي نعيم (٢/ ٣٠٦) ، و « الفتح » لابن حجر (٨/ ٩١) ط الفكر .

الجاهلية ، فإذا وجدنا حجرًا هو أحسن من الأول ألقيناه وعبدنا الآخر» !!

ثم قال أبو رجاء : فإذا لم نجد حجرًا جمعنا حفنة (كومة) من التراب فحلبنا من لبن أغنامنا ثم طفنا به ؛ أي : بهذه الكومة لنعبدها من دون الله تبارك وتعالى !!!

انظر إلى ضحالة العقول !!

وهناك قومٌ عبدوا الجن ؛ كما قال تعالى : ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[سبأ:٤١] .

وهناك قومٌ عبدوا البقرة !! من يتصور أن البقرة تُعْبد وتصير إلهًا ؛ ففي الهند إلى يومنا هذا ما يزيد على مائتي مليون بقرة تُعْبَدُ من دون الله !!! ويقدِّسون البقرة تقديسًا عجيبًا ! حتى لو مرَّت البقرة في شارع من الشوارع العامة تتعطل حركة المرور تمامًا ، ولا تجرؤ سيارةٌ مهما كان قائدها أن تخطو خطوةً واحدة إلا إذا تفضَّلَتْ صاحبةُ الجلال !! البقرة بالانصراف ؛ بل إذا دخلت البقرة محلاً من المحلَّات العامة مهما كان فخمًا أو ضخمًا وتبولَّت لسَعِدَ صاحبُ المحلِّ سعادةً غامرةً زاعمًا أن بركات إلهه قد حلَّتْ عليه أو إن شئت فقُلْ : قد أوحلت عليه !

وقد صرَّحَ زعيمُ الهندِ الكبير ! غاندي في مؤتمر صحفيٍّ عالميٍّ بأنه سيظلُّ يدافع عن عبادة الشعب الهنديِّ للبقرة أمام العالم أجمع ، ثم قال : إن أُمَّهُ البقرة أحبُّ إليه من أُمِّه التي ولدته !! قيل : كيف ذلك أيها العبقري الكبير ؟! قال : لأنَّ أُمَّهُ التي ولدته حملته تسعة أشهر وأرضعته حَوْلَين كاملين ، وهي في مقابل ذلك تطالبُهُ بخدمتها طوال حياتها ، ولكنَّ أُمَّهُ البقرةَ تمنحه كلَّ شيءٍ ولا تطالبه البتة بأيِّ شيءٍ !!

هذه هي ضَحَالَةُ العُقول !! والعجيبُ أنَّها عقولٌ تُكَرَّم ويُشَرَّفُ أَصْحَابُها ، ويُرْفَعون على أعناق القطيع ممن يُصَفِّقون للساقطين والكافرين وهم لا يشعرون !

وهناك قومٌ عبدوا البشر !! بشرٌ يؤلِّهون بَشَرًا ، ويعبدونهم من دون الله ؛ كما عبد اليهود عزيرًا ؛ قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠] .

وكما عبد النصارى عيسى ابْنَ مريم !! وكَمْ في الأرض من وثنيَّاتٍ وجاهليَّاتٍ وقَوْمِيَّاتٍ وأيدلوجيات تعبدُ في الأرض اليوم من دون الله !!

آلهةٌ كثيرةٌ لا تتوقف صورةُ الإلهِ الآن عند صنمٍ من الحجر أو من الخشب فحسب!! بل لقد كانوا يصنعون أحيانًا آلهتهم من الحلوى ؛ كما رُوي عن عمر بن الخطاب ، قبل أن يشرح الله صدره للإسلام ـ ولم أقف على سندِ هذا الأثر ـ صنع إلهه من الحلوى ، فلما عبث الجوع ببطنه قام ليدس هذا الإله الرخيص في جوفه للتو واللحظة!!

واليوم عبد البشرُ هذه الآلهة العصرية ، وعُبِدَت الدول ، وعُبِدَت المنظَّمات ، وعُبِدَت المناهج ، وعُبِدَ الدولار ، وعُبِدَ الدرهم والدينار ، وعُبِدَت المرأة ، بل وعُبِدَ الفأر !! تقام المعابد الفخمة الآن ـ في عصر العلم ، وعصر الإنترنت ـ في الهند وفي بعض دول شرق آسيا ، وتُقَدَّمُ القرابين والنذور للآلهة المعبودة في هذه المعابد الضخمة الفخمة !! وستعجبون إذا علمتم أن هذه اللآلهة هي الفئران !!! بل وعُبد عُضْوُ الذكورة عند الرجل في كثير من القبائل مِنْ قِبَل النساء !! وينحت موضع العفة في المرأة ، ويُسْجَدُ له ويُعبدُ مِنْ قِبَل الرجال !! ركامٌ هائلٌ من آلهةٍ مكذوبةٍ باطلةٍ مُدَّعاةٍ تُعْبَد اليوم في الأرض من دون الله !

فلا تتصوروا أن الآلهة لا تتعدى هذه الصورة ، ألا وهي : صورة الآلهة المنحوتة من الخشب أو الحجر؛ فهذا صنفٌ خبيثٌ .. ومن هنا لا نستغرب هذه الحملة القوية بالإسلام على الشرك وأهله .

تصور أن الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ يخاطب نبيه المصطفى ﷺ بقوله : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥] .

هذا خطابٌ لمن ؟! لرسول الله ﷺ .. لسيد الأولين والآخرين .

تصور هذا لتقف على خطر الشرك ، وعلى حجم حرب الإسلام للشرك ! يخاطَبُ رسُول الله ﷺ بهذا الخطاب الشديد من الله ﷻ ؛ فلا مجاملة لمخلوق في ذلك مهما كان . وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨] .

وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ حكاية عن لقمان : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] .

وقال النبيُّ ﷺ ؛ كما في «صحيح مسلم»[1] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه : « مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بالله شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّة ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بالله شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ » .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥] .

أي : من حبِّ أَهْلَ الشِّرك لأندادهم ولآلهتهم ولأربابهم وطواغيتهم التي يُقَدِّمون لها من فروض الحبِّ والولاء والطاعة ما لا يقدِّمونه لمن يستحقُّ

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « الإيمان » ، باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة (٩٣) .

ذلك وحْدَهُ بلا منازعٍ أو شريك ـ وهو الله ـ جَلَّ وَعَلاَ.

وفي «صحيح البخاري»[١] من حديث ابن مسعود ﷺ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُ الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام:٨٢] شَقَّ ذَلك عَلى أَصْحاب النَّبيِّ ﷺ ، وقالُوا : يَا رَسُولَ الله : أَيُّنا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ؟ قَالَ : « لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ ، لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ بِشِرْكٍ ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ العَبْدِ الصَّالِحِ لِوَلَدِهِ : ﴿ يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] .

إذًا المراد بالظلم في قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ يعني : الشرك . ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام:٨٢] .

هؤلاء هم أصحاب الأمن والأمان ، وأصحاب الهدى في الدنيا ، وأصحاب النجاة والسعادة في الآخرة .. أسأل الله أن يجعلنا منهم بمنه وكرمه .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ»[٢] عن سعيد بن المسيَّب عن أبيه قال : لَمَّا حَضَرتْ أَبَا طَالِبِ الوَفَاةُ جَاءَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ ، وعَبْدَ الله بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ وقال : « يَا عَمِّ ! قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله » ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وعَبْدُ الله بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ : يَا أَبَا طَالِبٍ ! أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْد المطَّلِبِ ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ ﷺ الله يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ ، وَيُعِيدُ تِلْكَ المَقَالَةَ ـ وفي رواية ـ ويَعُودَانِ بِتِلْكَ المَقَالَةَ ـ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمهُمْ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المطَّلب ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « التفسير » ، باب سورة لقمان (٤٧٧٦) وكتاب « أحاديث الأنبياء » باب قول الله : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء:١٢٥] (٣٦٦٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الجنائز » ، باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله (١٣٦٠) ، ومسلم كتاب « الإيمان » ، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة (٢٤) .

وَأَبَى أَنْ يَقُولَ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « أَمَا والله لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ » فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣] .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ » .

وفي رواية عتبان بن مالك[2] : « فَإِنَّ الله حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله تَعَالَى » .

هذا هو التوحيد ، وهذا هو خطر الشرك بالعزيز الحميد .

فالصنفُ الأول : صنفٌ خبيثٌ صرفَ هذا الحق الذي هو حقٌّ خالصٌ لله ـ ألا وهو العبادة ـ لغير الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ لكثيرٍ من الآلهةِ والأندادِ والأربابِ والطواغيتِ التي تُعبد وعُبدت في الأرض من دون الله تبارك وتعالى .

والصنفُ الثاني : صنفٌ صرفَ كثيرًا من صُوَرِ العبادة لغير الله ؛ كما قال ـ سبحانه : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة :٣١] .

ولقد دخل عديُّ بن حاتم رضي الله عنه على النبيِّ ﷺ بعد ما أسلم ، فقرأ النبيُّ ﷺ هذه الآية : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ ﴾ والأحبار هم العلماء ، ﴿ وَرُهْبَٰنَهُمْ ﴾

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب « أحاديث الأنبياء » ، باب قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ ﴾ [المائدة:٧٧] (٣٤٣٥) ، ومسلم ، كتاب « الإيمان » ، باب الدليل على أن مَنْ مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٢٨) .

(٢) رواها البخاريُّ ، كتاب «الصلاة» ، باب المساجد في البيوت (٤٢٥) .

والرهبان هم العباد ﴿ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾؛ فقال عديٌّ : يا رسولَ الله ! أَمَا إِنَّهُم لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُم (أي : لم يتخذوهم أربابًا من دون الله) فقال أعلم الناس بمراد ربه ﷺ : « وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ »[1].

فالتحليل والتحريم حقٌّ لله ورسوله ، ليس من حقِّ حاكم ، أو دولة ، أو هيئة ، أو سلطة ، أو مجلس شعب ، أو مجلس شورى ؛ بل هو حقٌّ خالصٌ لله ورسوله ﷺ.

قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[المائدة:٥٠] ؛ وقال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف :٤٠] ؛ وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [الحجرات :١].

قال ابن عباس [2]: « لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة » .

وقال القرطبي [3] : « أي : لا تقدِّموا قولًا ولا فعلًا بين يدي الله وقول رسوله وفعله فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا . ومن قدَّم قوله أو فعله على الرسول ﷺ فقدَّمه على الله تعالى ، لأن الرسول ﷺ إنما يأمر عن أمر الله » .

وقال الشنقيطي [4] : « ويدخل في ذلك دخولًا أوليًّا تشريع ما لم يأذن به

---

(١) تقدَّم ؛ وقد أخرجه الترمذيُّ ، كتاب « تفسير القرآن » ، باب ومن سورة التوبة (٣٠٩٥) وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الترمذي » (٣/ ٥٦) .

(٢) أخرجه الطبريُّ في « تفسيره » (٣١٦٥٧) من طريق عليٍّ ـ ابن أبي طلحة ـ عن ابن عباس . وقد قال أبو حاتم : « عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس مرسل » .

(٣) القرطبيُّ في « تفسيره » (١٦/ ٣٠٠) ط دار الكتب.

(٤) « أضواء البيان » (٧/ ٦١٤ تفسير الحجرات) .

الله ، وتحريم ما لم يحرِّمه ، وتحليل ما لم يحلّه ؛ لأنه لا حلال إلا ما أحلَّ الله ، ولا حرام إلا ما حرَّم الله ، ولا دين إلا ما شرعه الله » .

فالتشريع حقٌّ خالصٌ لله وللرسول ﷺ .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر:٧] ؛ وقال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:٨٠] .

وفي « سنن الترمذي » ، و « ابن ماجه » ، و « أبي داود » ـ واللفظ له ـ بسندٍ صحَّحه شيخنا الألباني [1] من حديث المقدام بن معد يكرب أن النبيَّ ﷺ قال: « أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ مُتَكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ : عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ ؛ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ ، أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِيِّ ، وَلاَ كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ وَلاَ لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ ... » .

وفي رواية الترمذي وابن ماجه : «وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا حَرَّمَ اللهُ » .

فهناك صنفٌ صرفَ كثيرًا مِنْ صُوَرِ العبادة لغير الله ؛ عبدوا الأحبار والرهبان حينما أحلُّوا لهم الحرام ، وحرَّمُوا عليهم الحلال فأطاعوهم ؛ فهذه الطاعة : عبادة للأحبار والرهبان من دون الله الرحيم الرحمن ـ جلَّ وعلا.

تدبر معي قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٨] .

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب « العلم » ، باب ما نهى عنه أن يُقال عن حديث النبي ﷺ (٢٦٦٤) ، وابن ماجه ، في المقدمة ، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه (١٢) ، وأبو داود ، كتاب « السنة » ، باب في لزوم السنة (٤٦٠٤) ، واللفظ له ، وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » (٢/ ٣٣٩) و « صحيح الجامع » (٢٦٥٧) .

فيخرج علينا مُشَرِّع ! من مهازيل البشر ، ويقول هذه وحشية وهمجية وبربرية لا تتواءم مع مدنية القرن الحادي والعشرين !!!

وتدبر كذلك قول الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٢، ٣]

فيخرج علينا من يقول : إذا زنت المرأة وتنازل زوجها أو وليُّ أمرها عن القضية سقطت القضية بالكلية ؛ فلا عقاب لا على الزاني ولا على الزانية !

فالتشريع حقٌّ خالصٌ لله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ ولرسوله الذي لا ينطق عن الهوى ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم:١-٥] .

ومن الناس أيضًا ـ تحت هذا الصنف ـ مَنْ صرف بعض صور العبادة لغير الله ؛ كالذبح ، والنذر ، والحلف ، والاستعانة وغيرها . والنبيُّ ﷺ يقول: « لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ »(١) .

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « الأضاحي » ، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله (١٩٧٨) ولفظه : «لعن الله من لعن والده ، ولعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثًا ، ولعن الله من غيَّر منار الأرض» .واللعن هو البعد عن نطاق الرحمة ومواطنها . انظر « فتح المجيد » (١٤٩/ وما بعدها) ط ابن رجب .

قال الحافظ ابن كثير في « تفسيره » لسورة الأنعام (آية :١٦١ و ١٦٢) : وقوله تعالى :﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين ، الذين يعبدون غير الله ، ويذبحون لغير اسمه : أنه مخالف لهم في ذلك ، فإن صلاته لله ، ونسكه على اسمه وحده لا شريك له ، وهذا كقوله تعالى :﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر:٢] ، أي : أخلص له صلاتك =

فالذبح قربةٌ لا تجوز لغير الله، والنذر كذلك، والحلف أيضًا؛ ففي الحديث الصحيح: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ »[1].

وقد يقع المسلم في ذلك! وكثيرٌ منهم يقول: «توكلنا على الله وعليك»، وكذلك قولهم: «ما لي غير الله وأنت».

وقد روى أحمد في «مسنده» والبخاري في « الأدب المفرد »، وابن ماجه « السنن »[2] من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلاً، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ: « جَعَلْتَنِي للهِ عَدْلاً ـ وفي رواية: نِدًّا، ولِكنْ قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ » وفي لفظٍ: « بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ ».

ويُمَتِّعُ فؤادك شيخنا الألباني في فقه هذا الحديث في « السلسلة الصحيحة » العطرة؛ فيقول: «قلت: وفي هذه الأحاديث أن قول الرجل لغيره: « مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ »: يُعَدُّ شركًا في الشريعة، وهو من شرك الألفاظ؛ لأنه يوهم أن مشيئة العبد في درجة مشيئة الرب ـ سبحانه وتعالى ـ وسببه القرن بين المشيئتين، ومثل ذلك قول بعض العامة وأشباههم ممَّن يدَّعي العلم: « ما لي

= وذبحك، فإن المشركين كانوا يعبون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم، والانحراف عما هم فيه، والإقبال والقصد والنية والعزم على الإخلاص لله ا.هـ.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤، ٦٩)، وأبو داود، كتاب «الأيمان والنذور»، باب في كراهية الحلف بالآباء (٣٢٥١)، والترمذي، كتاب « النذور »، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (١٥٣٥)، قال الترمذي: «هذا حديث حسن، وفُسِّر هذا الحديث عن بعضِ أهل العلم أنَّ قوله: « فقد كفر أو أشرك » على التغليظ» والحديث صححه الألباني في « الإرواء » (٢٥٦١).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٨٣)، والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (٧٨٣)، وابن ماجه(٢١١٧) وصححه الألباني في « صحيح الأدب المفرد » (ص ٢٩٢) (٦٠١)، وحسَّنه في « الصحيحة » (١٣٩).

غير الله وأنت »، « وتوكلنا على الله وعليك » ومثله قول بعض المحاضرين : « باسم الله والوطن »، أو « باسم الله والشعب »، ونحو ذلك من الألفاظ الشركية التي يجب الانتهاء عنها والتوبة منها أدبًا مع الله ـ تبارك وتعالى.

ولقد غفل عن هذا الأدب الكريم كثيرٌ من العامة، وغير قليل من الخاصة الذين يسوِّغون النطق بمثل هذه الشركيات، كمناداتهم غير الله في الشدائد، والاستنجاد بالأموات من الصالحين، والحلف بهم من دون الله تعالى، والإقسام بهم على الله ﷻ، فإذا ما أنكر ذلك عليهم عالمٌ بالكتاب والسنة؛ فإنهم بدل أن يكونوا معه عونًا على إنكار المنكر؛ عادوا بالإنكار عليه، وقالوا : إن نية أولئك المنادين غير الله طيبة ! وإنما الأعمال بالنيات كما جاء في الحديث !

فيجهلون أو يتجاهلون ـ إرضاء للعامة ـ أن النية الطيبة وإن وجدت عند المذكورين؛ فهي لا تجعل العمل السيئ صالحًا، وأن معنى الحديث المذكور : إنما الأعمال الصالحة بالنيات الخالصة، لا أن الأعمال المخالفة للشريعة تنقلب إلى أعمال صالحة مشروعة بسبب اقتران النية الصالحة بها، ذلك ما لا يقوله إلا جاهل أو مغرض ! ألا ترى أن رجلًا لو صلَّى تجاه القبر، لكان ذلك مُنْكَرًا من العمل؛ لمخالفته للأحاديث والآثار الواردة في النهي عن استقبال القبر بالصلاة؛ فهل يقول عاقل : إن الذي يعود إلى الاستقبال ـ بعد علمه بنهي الشرع عنه ـ إن نيته طيبة وعمله مشروع ؟! كَلَّا ثم كَلَّا؛ فكذلك هؤلاء الذي يستغيثون بغير الله تعالى، وينسونه تعالى في حالةٍ هم أحوج ما يكونون فيها إلى عونه ومدده، لا يعقل أن تكون نياتهم طيبة، فضلًا عن أن يكون عملهم صالحًا، وهم يصرون على هذا المنكر وهم يعلمون » انتهى .

فالعبادة كلها لا ينبغي أن تكون إلا لله جل وعلا وحده بلا منازع أو شريك .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣] .

وصنفٌ ثالثٌ : صرف العبادة لله ، لكنه لم يتقيد في تَعبُّده بهَدْيِ رسول الله ﷺ ! وهذا انحرافٌ أيضًا .

ترى هذا الصنف يصلي لله ، ويزكِّي لله ، ويتعبد لله ؛ لكنه لا يتعبد على هَدْيِ الحبيب رسول الله ﷺ . والله ﷻ يقول : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥] .وقال : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك:٢] .

قال الفضيل بن عياض[١] : « أصوبه وأخلصه ، والخالصُ أن يكون لله ؛ والصواب أن يكون على السنة » . فأحْسَنُ العمل وأصوبه هو ما كان خالصًا على سنة رسول الله ﷺ .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ »[٢] من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنه فهُوَ رَدٌّ » ؛ فالبدعة أمرٌ محدثٌ في الدين ، وليس في الدنيا ؛ فالرسول ﷺ يقول : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا » أي : في ديننا هذا « مَا لَيْسَ مِنه فهُوَ رَدٌّ » يعني : مردودٌ على رأسه !! تصوَّر لَوْ أَنَّ رجلًا مُخْلِصًا قام مع مجموعة أفراد ليصلي معهم الظهر أو العصر ست

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٩٥) بإسناد لا بأس به .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الصلح » ، باب إذا اصطلحوا على جَوْر فالصلح مردود (٢٦٩٧) ، ومسلم كتاب « الأقضية » ، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨) .

ركعات فالصلاة باطلة ؛ لأنها مخالفة لما شرع الله ورسوله .. وهكذا .

وقد خرج علينا صحفيٌّ يقول : أنا أعجب لجهل المسلمين المدقع !! لماذا يُعَذِّبون أنفسهم بالحج في هذا الوقت الشديد الحر ! لماذا لا يُؤَجِّلُون الحج إلى شهر الربيع ؟!!

وهكذا ؛ فلا تقبل منا عبادة ولا طاعة ولو كانت النية خالصة لله إلا إذا كانت هذه العبادة أو الطاعة على وفق ما شرع لنا رسول الله ﷺ .

إذًا ؛ كلُّ طاعة ، وكلُّ عبادة ، وإن كانت خالصة ؛ لكنها ليست على سنة المصطفى ﷺ ؛ فهي مردودة على رأس صاحبها ؛ كما قال الحبيبُ ﷺ .

الصنف الرابع : صنفٌ فَهِمَ العبادة فهمًا جزئيًّا قاصرًا ؛ فالعبادة عند هذا الصنف لا تتعدى الشعائر التعبدية فقط ؛ كالصلاة والصيام والزكاة والعمرة والحج وما يتعلق بهذه الشعائر من أذكارٍ وتسبيحاتٍ واستغفار .. إلى آخره .

ووالله لقد سمعتُ بأذني من ممثلة شَرَحَ الله صدرها الآن للتوبة والهداية قالت : والله كنتُ إذا سمعتُ المؤذن أو حان وقت الصلاة بعد الانتهاء من تصوير لقطة في فيلم ونحوه أخرجُ للصلاة !! وكانت مدعوةً لمؤتمرٍ في لوس أنجلوس تقول : كنتُ أصورُ لقطة على شاطئ البحر بثيابه العارية المعروفة ، ولما انتهيتُ ونظرتُ إلى قُرْص الشمس ، ووجدت أن العصر سيفوت وقته ، تقول : فجريتُ وتوضَّأْتُ من ماء البحر ، وأسرعتُ بزيِّي هذا ، وصلَّيت العصر على الشاطئ وأنا لا أعلم ، وأتصور أنني أديتُ ما لله سبحانه وتعالى عليَّ من حق !!

فكثيرٌ من الناس فَهِمَ العبادة فهْمًا جزئيًّا قاصرًا . إذا ذكَّرتَ أَحَدَهم بآيات الربا .. قال الله في الربا كذا ، قال لك بتهكُّم صريح : ما للإسلام ولهذا ؟!! أنا

حرٌّ !! أضع مالي في أيِّ مكان شئتُ ، وآكل من أيِّ الطعام أردتُ !! طالما أني أصلي وأصوم !

وآخر تقول له : إن الذهب الذي تلبسه حَرَّمَه شرْعُنا المُطهَّر ، يقول لك: أنا حرٌّ ! وآخر تذكِّره بأنَّ ثوبه الذي يلبسه طويل ، أو أن امرأته تلبس ثيابًا ضيقةً أو شفافة ؛ فيقول هذا الصنفُ : ما للإسلام ولهذه الأمور ؟!! انفصامٌ نكد ، وانسلاخٌ مُزرٍ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ فالإسلام له حكمٌ على كل جزئية من جزئيات حياتك ما دمت قد أذعنت مطيعًا محبًا مختارًا لتوحيد الله ـ جلَّ وعلَّا ـ وقد سبق تفصيل الكلام حول هذه المسألة.

واعلم يا أخي أن الإسلام لا يُكْرِهُك أبدًا على الدخول فيه بعد البلاغ والبيان ؛ قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف :٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة :٢٥٦] .

فالإسلام لا يُكْرِهُكَ لكنه يدعوك ؛ فإن قلتَ : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإن هذا الدين له عليك حكمٌ في كُلِّ شيء .. في صلاتك .. في نومك .. في زواجك .. في دخولك للخلاء .. في جماعك لامرأتك .. في طعامك وشرابك .. في زيِّك .. في سفرك .. في دخولك .. في خروجك .. في مقعدك .. في قيامك ؛ فالإسلام له حكم في كل جزئية من هذه الجزئيات ، لا يجوز لمنْ أسلم لله أن ينفكَّ عنها ؛ بل يجبُ عليه أن يُذْعِنَ في كلِّ جزئيات حياته لله سبحانه وتعالى ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلَّا: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام :١٦٢، ١٦٣] .

وفي «صحيح مسلم »[١] وبوَّب النوويُّ عليه بقوله : بَاب فَضْلِ دَوَامِ الذكرِ وَالفِكْرِ فِي أُمُورِ الآخِرَةِ وَالْمُرَاقَبَةِ وَجَوَازِ تَرْكِ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ وَالاشْتِغَالِ بِالدُّنْيَا .

من حديثِ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ (وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ الله ﷺ) قَالَ : لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ ، قَالَ سُبْحَانَ الله ، مَا تَقُولُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ[٢] .

فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ[٣] وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ[٤] فَنَسِينَا كَثِيرًا ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَوَالله إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ الله ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « وَمَا ذَاكَ ؟» قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي ، وَفِي الذِّكْرِ ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ ، وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ ، سَاعَةً وَسَاعَةً » ثلاث مرات.

وفي روايةٍ لمسلم أيضًا : قال حنظلةُ : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَوَعَظَنَا فَذَكَّرَ النَّارَ ، قَالَ : ثُمَّ جِئْتُ إِلَى الْبَيْتِ فَضَاحَكْتُ الصِّبْيَانَ ، وَلاعَبْتُ الْمَرْأَةَ ، قَالَ : فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « التوبة » (٢٧٥٠) .

(٢) انظر : إلى شفافية ورقة قلوب الصحابة .

(٣) أي : لاعبنا الزوجات .

(٤) أي : التجارة والأموال .

تَذْكُرُ ، فَلَقِينَا رَسُولَ الله ﷺ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، نَافَقَ حَنْظَلَةُ ، فَقَالَ : « مَهْ ». فَحَدَّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا فَعَلَ ، فَقَالَ : « يَا حَنْظَلَةُ ، سَاعَةً وَسَاعَةً ، وَلَوْ كَانَتْ تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذِّكْرِ ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ ، حَتَّى تُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ فِي الطُّرُقِ ».

أي : بهذا الحال لن تكونوا بشرًا ! بل ستكونون ملائكة ! وهذا لن يكون .

فيستفادُ من الحديث : ساعة عافِس الزوجات والأولاد والضيعات ، وساعة ابكِ واخشع فيها لله سبحانه وتعالى . وليس كما يقول هؤلاء: ساعة لقلبك وساعة لربك !! يقول لي رجلٌ : إني أريد الجنة ، لكِنْ مشكلتي أنني لا أستطيع أنَ أصبر على المعاصي ! قلْتُ له : كيف تتمنَّى الجنة ثم تدَّعي أنك لا تصبر على المعاصي ؟! . من يطلب الجنة يَلجِم نفسه التقوى ، ويقهر النفس عن معصية الله تبارك وتعالى ؛ هؤلاء هم الصادقون في طلب جنات ربنا سبحانه وتعالى ؛ نسأل الله أن يجعلنا منهم بمنه وكرمه .

الصنف الخامس : من الأصناف المنحرفة في فهم حقيقة العبادة : صنف فَهِمَ أن العبادة هي الحبُّ دون الإذعان والطاعة !!

وهذا الصنف ينقسمُ إلى قسمين : قسم يظنُّ أن العبادة حبٌّ دون إذعان ، ولا يريد الله منا صلاة ولا حجًا ولا .. !! وصنفٌ قال : العبادة طاعة وإذعان دون حبِّ الله ؛ لأنه لا يليق به أن يحبَّ ربَّه ؛ قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى : صنف أسرف في دعوة المحبة وتدخَّل العبد في نوع الربوبية التي لا تصلح إلا لله ؛ فيدَّعي أحدهم دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين بدعوى أنه محبٌّ ، وهذا وَقَعَ فيه كثير من المتصوفة ، وكثير من شيوخهم ، وكثير من الذين سلكوا هذا الطريق ادَّعوا في حب الله ﷻ أنواعًا من أمور الجهل بالدين مِنْ تضييع لحدود الله أو من ادِّعاء لدعاوى باطلة لا حقيقة لها ،

من هؤلاء الذين يزعمون أن العبادة هي الحب ، يقول : أنا محبٌّ إذن قد وصلت إلى أعلى المراتب !! . هذه المرتبة التي وصلوا إليها ـ زعموا ـ يقولون فيها كلمات يتجاوزون فيها حدود الربوبية ؛ يقول أحدهم لمريديه : أيُّ مريد لي يترك واحدًا في النار فأنا بريء منه ! وقال أحدهم : أي مريد ترك أحدًا من المؤمنين يدخل النار فأنا منه بريء ! فالشيخ الأول جعل مريدَه يُخْرِج كلَّ مَنْ في النار ، والمريد الثاني : يجعل مريده يمنع أهل الكبائر من الدخول في النار !!! ويقول بعضهم : إذا كان يوم القيامة نصبتُ خيْمَتي على جهنم حتى لا يدخلها أحد !! وهذا ضلالٌ مبينٌ ، وتلاعب بدين الله ، وبقرآن الله ؛ فإن هؤلاء لا يلتفتون إلى الآيات الكثيرة في القرآن من أوله إلى آخره التي تتحدث عن العذاب وعن النار بدعوى أنهم يحبون الله !! والله سبحانه وتعالى لا يدخل أحدًا من خلقه النار لأنهم يحبونه ـ زعموا ـ !! إذًا فأين قوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] ؟

وأين قول الله تعالى : ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ١، ٢] ؛ وأين قول الله : ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ـ ١٠٨] .

وأين قول الله ـ جَلَّ وَعَلا : ﴿ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ [النجم: ٥٧ـ ٦٢] .

آيات كثيرةٌ جدًا في القرآن تتكلَّم عن الوعيد .. والله إنها آياتٌ تخلع

القلوب ؛ اقرأ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف:٢٩] ؛ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ [النبأ:٢١ـ ٢٣] ؛ وقال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم:٧١، ٧٢] ؛ وقال تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم:١٥ـ١٧] ؛ وقال تعالى : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ [الصافات:٦٢ـ ٦٧] ؛ وقال تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ [الحج:١٩ـ٢١] .

هذا كلام الرحيم الرحمن .. هذه كلمات اللطيف .. هذه كلمات الخبير .. هذه كلمات الحنان المنان .. هذه كلمات الله ؛ فكيف تُلْغى ؟ !!! بدعوى الحب .. إلى آخر هذه الأقوال الخطيرة المنكرة !

أقولُ : هذا صنفٌ زعم وادَّعَى أن العبادة هي المحبة دون امتثالٍ لأمرٍ ، دون اجتناب لنهي ، ودون وقوف عند حدٍّ ؛ فلا صلاة ولا صيام ولا زكاة ولا .. ؛ لأن العبادة عنده هي الحب وفقط ! وهذا الصنف كاذب في دعواه ! قال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران:٣١] .

وهذه آية عجيبة ، ولذلك سَمَّاها بعضُ أهل العلم آية المحنة ، وعند بعضهم : آية المحبة ؛ فهي آية المحنة ؛ لأن الله ابتلى بها قومًا يزعمون الحبَّ ! فهي حاكمةٌ على مدَّعي محبة الحبيب رسول الله ﷺ ، وليس هو على الطريقة المحمدية ؛ فإنه كاذب في دعواه حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله .

قال الحسن البصري وغيره من السلف[(١)]: «زعم قومٌ أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية ؛ فقال : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١] » ؛ إذن المتَّبِع هو المحب ؛ نعم .. المتَّبع للنبيِّ ﷺ في الظاهر والباطن ؛ هذا هو المحبُّ الصادق لله ورسوله ﷺ .

أما الفريق الثاني الذي أخطأ في فهم حقيقة العبادة فظنَّ أن المحبة لا تتحقق من المخلوق للخالق ، إنما المطلوب الإذعان والطاعة والانقياد بدون حبٌّ لله تعالى !!

وفي الحقيقة أن المحبة لا تنافي أبدًا المخافة والخشية من الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الخوف ثمرة المحبة ؛ بل هي لازمة للمحبة ؛ قال المصطفى ﷺ : « أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِالله وأَشَدُّكُم لَهُ خَشْيَةَ »[(٢)] .

فرسول الله ﷺ أعرف الناس بالله ، ومن عَرَفَ الله أحبه ، ومن أحبَّه خافه ، وأذعن له ، واجتنب نَهْيَهُ ، ووقف عند حدوده تبارك وتعالى .

وتبين هذه الآية الكريمة أن عَبْدَ الله المحب لا يكون أبدًا إلا بين خوفٍ ورجاء ؛ تدبر قول الله ﷻ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ

---

(١) راجع « تفسير الطبري » (٦٨٤٠ـ ٦٨٤٤) ، و« تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٦) ط أولاد الشيخ .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الأدب » ، باب ما لم يواجه الناس بالعتاب (٦١٠١) ، ومسلم ، كتاب « الفضائل» ، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته (٢٣٥٦) .

ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧] .

إنهم يرجون رحمته ، وفي نفس الوقت يخافون عذابه . هذا هو العبد المحب . يرجو رحمة الله ويخشى عذاب الله وسخطه وغضبه ؛ فهو يطير بين جناحي الخوف والرجاء ، ويظلُّ هكذا بهذين الجناحين حتَّى يلقى ربَّ الأرض والسماء ؛ فإذا ادَّعيت المحبة فامتثل لله أمره ، واجتنب نهيه ، وقف عند حدوده ، وإذا ادَّعيت المحبة ـ أيتها الأخت المسلمة ـ فامتثلي الأمر ، واجتنبي النهي ، وقفي عند حدود الله تبارك وتعالى .

من يدَّعي حبَّ النبيِّ ولم يفد ... من هَدْيِه فسفاهةٌ وهراء

فالحبُّ أولُ شرطِهِ وفروضه ... إن كان صِدْقًا طاعة ووفاء

يقول بعض السلف [١] : مَنْ عَبَدَ الله بالحب فهو زنديق ، ومَنْ عَبَدَ الله بالرجاء فقط فهو مرجئ ! فما أقل حياء من طمع في جنة الله ولم يعمل بطاعة الله !!

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون:٦٠]

رَوَى أحمد في «مسنده» ، والترمذي في «سننه» وابن ماجه كذلك ، والحاكم في «مستدركه» وغيرهم [٢] من حديث عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت فِي هَذِه الآية :

---

(١) « معارج القبول » (٢/ ٤٣٧) .

(٢) أخرجه أحمد (٦ / ١٥٩) ، والترمذي ، كتاب « تفسير القرآن » ، باب : ومن سورة المؤمنون (٣١٧٥) ، وابن ماجه ، كتاب « الزهد » ، باب التوقي على العمل (٤١٩٨) ، والحاكم (٢ / ٣٩٣ ـ ٣٩٤) . لكن فيه علة الانقطاع بين عبد الرحمن وعائشة ، لكن يقويه حديث أبي هريرة ؛ كما قال العلامة الألباني في « الصحيحة » (١٦٢) ، وانظر : « صحيح الترمذي » (٣/ ٧٩ ، ٨٠) .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون:٦٠] يَا رَسُولَ الله ! هُوَ الَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ ، وَهُوَ يَخَافُ الله ؟ قَالَ : « لاَ ، يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي ، وَيَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُ ، وَهُوَ يَخَافُ الله ﷻ ».

فمَنْ عَبَدَ الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومَنْ عَبَدَ الله بالرجاء فهو مرجيء ، ومَنْ عَبَدَ الله بالخوف وحده فهو حروريٌّ ـ والحروريُّ نسبه للخوارج الذين يأخذون بآيات الوعيد فحسب ـ ومَنْ عَبَدَ الله بالحب والرجاء والخوف ؛ فهو مُؤمنٌ موحِّد لله متبعٌ لهَدْي رسول الله ﷺ الذي كان يحبُّ الله ، ويخشى الله ، ويخاف الله ؛ لذا كان أعرف الناس بالله ، وأخوف الخلق من الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ ولقد كان النبيُّ ﷺ يتغير لونه ويتغير حاله .

رَوَى البخاريُّ ومسلمٌ [1] من حديث عائشة ﵂ قالت : كَانَ النبيُّ ﷺ إِذَا رَأَى مَخِيلَةً ـ أي: سحابة فيها رعد وبرق ـ فِي السَّمَاءِ ، أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ ، وَدَخَلَ وَخَرَجَ ، وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ ، فَإِذَا أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ سُرِّيَ عَنْهُ ، فَعَرَّفَتْهُ عَائِشَةُ ذَلِكَ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « وَمَا أَدْرِي لَعَلَّهُ كَمَا قَالَ قَوْمٌ عَادٍ : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ﴾ [الأحقاف:٢٤] ».

وفي « سنن الترمذي » و« مسند أحمد » [2] من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ قال : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « كَيْفَ أَنْعَمُ ـ أي : كيف أعيشُ في نعيم ورغد عيش ـ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ ، وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « بدء الخلق » (٣٢٠٦) ، ومسلم ، كتاب « صلاة الاستسقاء » ، باب التعوذ عند رؤية الريح (٨٩٩/ ١٥) .

(٢) أخرجه أحمد (٣ / ٧ ، ٧٣) ، والترمذيُّ ، في صفة القيامة ، باب ما جاء في شأن الصور (٢٤٣١) ، وانظر « الصحيحة » (١٠٧٩) .

فَيَنْفُخُ ...» الحديث.

فانظر إلى حاله ﷺ؛ وهو الذي أخبرنا بعلامات الساعة الصغرى والكبرى، لكن انظر إلى خوفه وإلى وجله من الله، فعلى قَدْرِ معرفتك لله يكون حبك له، وخوفك منه سبحانه وتعالى؛ فمن عرف الله أحبه وخافه وخشي منه؛ وهؤلاء الذين يزعمون أنه وصل حالهم مع الله مبلغًا عظيمًا !! بحيث أنه لم تعد لتكاليف الشرع عندهم في هذه الحال قيمة !!

هؤلاء قال في حقهم الإمام الغزالي: هذا مما لا شك في وجوب قتلهم !! أي: من قبل وليِّ الأمر.

فلا يجوز لأي إنسان أن يقول هذا الكلام حتى أقرب الخلق وأعرف الخلق بربه؛ وهو رسول الله ﷺ.

فرسولُ الله ﷺ لم يقل هذا يومًا، وهُو مَنْ هو - بأبي هو وروحي -؛ في حال القرب من الله سبحانه ؟!!

وربُّ العزة يقول لحبيبنا النبيِّ ﷺ: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]. يعني: الموت. والنبيُّ ﷺ في مرض موته خرج يتكئ على أحد الصحابة من أجل أن يصلي [(١)] ﷺ فهو لآخر لحظة من لحظات حياته ما ترك التعبد لله قط، وهو أقرب الخلق إلى الخالق.

فصنفٌ من الناس يدَّعي بأنه وصل إلى حالٍ مع الله انسلخ فيها عن تكاليف الشرع؛ فمثل هذا مما لا شك في وجوب قتله؛ إذ ضررهُ في الدين أعظم، وينفتح به باب من الإباحة لا يُسدُّ، وضرر هذا فوق من يقول

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب «الأذان»، باب حد المريض أن يشهد الجماعة (٦٦٤) ومسلم، كتاب «الصلاة»، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر (٤١٨) (٩٥).

بالإباحة مطلقًا ؛ فإنه يَمنعُ عن الإصغاء إليه ظهورُ كفره ؛ وأما هذا فإنه يهدم الشرع ، ويزعم بأنه لم يرتكب فيه إلا تخصيص عموم ! إذ خصَّص عموم التكاليف بمن ليس له مثل درجته في الدين ، وربما يزعم أنه يلابس ويقارف المعاصي بظاهره وهو بباطنه بريء عنها .

فحقيقة المحبة أنها لا تتم إلا بموالاة المحبوب ، وهي موافقته سبحانه وتعالى في حبِّ ما يحب ، وبغض ما يبغض . والله يحبُّ الإيمان والتقوى ، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان .. هذه هي العبودية أن تعبد الله وأنت في غاية الحب لله ، والرضا عن الله ، وفي غاية الذل والخضوع والانقياد لأمر الله تبارك وتعالى .

هذه بعض أصناف الناس ممن انحرفوا عن فهم حقيقة العبادة .

وإذا خَلَصَ الخلقُ وانحرفوا عن عبادة الله تبارك وتعالى ؛ فإنَّ الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ غنيٌّ عن كلِّ خلقه لا تنفعه ـ سبحانه ـ الطاعة ولا تضره المعصية ؛ فالكونُ يسجدُ لله ويعبد الله إلا من كفر من الإنس والجن ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج:١٨] ، وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء:٤٤] .

وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ في الحديث القدسي الجليل [١] : « يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « البر والصلة » ، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ .

زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ الله ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ ».

فالله غنيٌّ عن جميع خلقه . لا تنفعه طاعةُ الطائعين ، ولا يضرُّه كفر الكافرين ، ولا عصيان العاصين ، ولا جحود الجاحدين ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥] .

والسُّؤالُ المهم الآن : إذا كان الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ غنيًّا عن كلِّ خلقه ؛ فلماذا أمر الخلق جميعًا بعبادته ؟ والجواب على هذا السؤال كما يلي :

لماذا نعبد الله ؟

إن كلَّ ما يُعبد من دون الله تبارك وتعالى مخلوقٌ عاجزٌ لا قدرة له ، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ، فضلًا عن غيره ؛ فالذي يستحقُّ العبادةَ وحْدَه هو الله ﷻ بلا منازع أو شريك .

ولو تخلَّى أهلُ الأرض جميعًا عن عبادة الله تبارك وتعالى ؛ فإن الله ﷻ غنيٌّ عن كل خَلْقِه ليس في حاجة إلى أيِّ أحدٍ من الخلق ، فإذا استكبر الخلق جميعًا عن عبادته ، فإن الكون كله يوحِّدُ خالقه ويعبُدُهُ إلاَّ من كفر من الإنس والجن في هذا الكون !!

فالملائكة عند الله لا تستكبر عن عبادته ؛ بل ولا تفتر عن تسبيحه ـ سبحانه وتعالى ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩ ، ٢٠] .

وقال الله في شأن ملائكته التي لا تغفل عن طاعته وعن عبادته : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦] .

بل وفي «الصَّحِيحَيْنِ» [1] في حديث الإسراء الطويل ـ من حديث أنس ﷺ وفيه ـ أن النبيَّ ﷺ قال : « ثُمَّ رُفِعَ لِي البَيْتُ المَعْمُورُ » ـ والبيت المعمور : بيتٌ كالكعبة ؛ أقسم الله به في صَدْر سورة الطور ؛ وهو بيتٌ تطوفُ به ملائكة الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ قال النبيُّ ﷺ : « ثُمَّ رُفِعَ لِيَ الْبَيْتُ المَعْمُورُ ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لاَ يَعُودُونَ إِلَيهِ » .

تَصوَّر هذا العددَ الذي يدخل البيتَ المعمور !! يدخله كلَّ يومٍ سَبْعُون أَلْفاً من الملائكة يطوفون به تعظيمًا لله سبحانه ، لا يخرجون منه ولا يعودون إليه أبدًا ، يظلُّونَ فيه للعبادةِ والذكر والتسبيح .. وهكذا إلى يوم القيامة ؛ فكم يكون إذن عددُ الملائكة الذين دخلوا إلى هذا البيت المعمور لتطوف به ولتوحِّدَ العزيز الغفور ﷻ ؟!! ففي السنة الواحدة ما يقارب (٢٥٦٢٠٠٠٠) أي: خمسة وعشرين مليونًا وستمائة وعشرون ألفًا من الملائكة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

وأنتم تعلَمُون السموات والأرض والقمر والنجوم والشجر والدواب ـ كُلُّ هذه المخلوقات ـ تسبح ربَّ الأرض والسموات كما سبق ذكره .

إذا كان ذلك كذلك ـ وهذا هو المدخل لهذا الفصْل ـ إذا كان الله غنيًّا عن كلِّ خلقه ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا يضرُّه كفرُ الكافرين ، ولا يزيدُ مُلْكَهُ حَمْدُ الحامدين وشكْرُ الشاكرين ، ولا ينقص ملْكَهُ عصيان المذنبين وشرك المشركين ، إذا كان ذلك كذلك ؛ فلماذا أمر الخلق بطاعته؟ ولماذا أمرنا

---

(١) أخرجه البخاريُّ في « الصحيح » في كتاب « بدء الخلق» ، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم (٣٢٠٧) ومسلم في كتاب « الإيمان» في باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات (١٦٢) .

الله تعالى بعبادته ؟

والجواب في نقاط محددة :

أولًا : نعبد الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ لأن العبادة حقٌّ الله على خلقه وعباده .

فالعبادة حقٌّ خالصٌ لله ، وليس بمستغرب ولا بمسْتَنْكَر أن يكون لله على عباده حقٌّ ؛ بل المستنكر والمستغرب أَنْ نصرفَ العبادة لغيره سبحانه وتعالى !

فمن الجفاء والجحود أن يعترف الإنسان بإحسان من أحسن إليه من البشر وينسى إحسان ربِّ البشر ؛ لأن الكريم هو من يعترف بإحسان من أحسن إليه . أما اللئيم ؛ فإنه ينكر إحسان من أحسن إليه ؛ فإن أحسنتَ إِلَيَّ وكنتُ أنا من أهل الكرم ، فلَنْ أنسى جميلك ، ولن أنسى إحسانك ، ولن أنسى فضلك عليَّ ؛ فكيف لا ينسى الإنسانُ إحسان من أحسن إليه من البشر ، وينسى إحسان رب البشر تبارك وتعالى إليه ؟!!

والله يَغْمُرُنَا مِنْ حياتنا لمماتنا ومن رأسنا إلى أخمص أقدامنا بفضله تعالى إلى يوم ميعادنا .

وَأَعِرْنِي قلبك تمامًا لنقف على شيء من إحسان الله للخلق ، ولنقف على مدى جحود الجاحدين ؛ حينما صرفوا العبادة لغير الله سبحانه .

مَنِ الذي أخرجنا من العدم ولم نكن شيئًا مذكورًا ؟

مَنْ الذي كَرَّمنا وخلقنا في أحسنِ تقويم ؟

ومن الذي صوَّرنا في أحسن صورة ، وعلَّمنا البيان ، ويسَّر لنا النطق والكلام ؟

مَنْ الذي مَنَحَنَا العقل وسخَّر لنا الكائنات ؟ وجعل الأرض مهدًا وفراشًا ، وجعل لنا السماء سقفًا وبناءًا ، وزينها بالشموس والأقمار

والكواكب والنجوم ؟

من الذي أسبغ علينا النعم ظاهرًا وباطنًا ؟

مَنِ الذي بعثَ إلينا حبيبه المصطفى ﷺ؟ وأنزل عليه القرآن الكريم ، وجعل هذا القرآن يظلُّ بين أيدينا بعد موت النبيِّ ﷺ؛ ليظلَّ لنا حبلًا للنجاة وطريقًا للسعادة في الدنيا والآخرة ؟ كل هذا كَرَمُ مَنْ ؟ كلُّ هذا عطاء مَنْ ؟ كل هذا مِنْ فَضل مَنْ ؟ أَلَا يستحق هذا الإله العظيم أن يُعبد وحْدَه ؟! والله إنَّ الإنسان لظلومٌ كفَّار !!

تدَّبر معي : الحياة كلُّها تبدو تافهة القيمة ، مبتورة الهدف ، معدومة النفع ، إن لم تكن مرتبطة بخالقها الأجل الأعظم ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[الأنعام:١٦٢،١٦٣] .

إن التفكير الحرَّ المستنير ، والعقلَ اليقِظَ الواعي يربط السببَ بالمسبب ، والمخلوق بالخالق ، والإبداع والجمال والجلال بذي الإبداع والجمال والجلال .

بل ولقد اكتشف العلْمُ الحديثُ أن النظام الكائن في المجرة هو نفس النظام القائم في الذرَّة ؛ فإنْ دلَّ ذلك فإنما يدلُّ على أن الذي وضع هذا النظام كلَّهُ ، وخَلقَ هذا الكونَ كلَّهُ بهذا الإتقان والإبداع إنما هو إلهٌ واحدٌ لا شريك له ، ولا منازع له ولا مثيل .

ولو نظر الإنسان بلا جحودٍ ولا كِبْرٍ ولا غرور ولا طغيان إلى أيِّ ذرة من ذرَّات هذا الكون لوقف على عظمة الخالق ﷻ، ولعلم يقينًا أن الذي يستحقُّ أنْ يُعْبَد وحْدَه هو الله سبحانه لا شريك له .

انظر إلى السماء وارتفاعها ، وإلى الأرض واتساعها ، وإلى الجبال وعلوها

ورسوخها ، وإلى الأفلاك ودورانها ، والشمس وشعاعها ، والفصول وأزمانها ، والأوقات وإتيانها ، وإلى البحار وأمواجها ، وإلى كلِّ ما هو متحرك وما هو ساكن ، وظاهر وكامن ، ومستيقظ ، وراكع ، وساجد ، وما غاب وما حضر ، وما خفي وما ظهر ؛ فوالله إن الكلَّ يقرُّ بجلال الله وكماله ، ويعلنُ التوحيد لله ، ولا يغفل عن شكر وذكر مولاه ، إلا من كفر من الإنس والجن ، ولا قوة إلا بالله !!!

ونظرك فيك يكفيك على أن الذي يستحقُّ أن يعبد وحده هو الله . انظر إلى فمك وعينيك وكيف وضعت في هذه العظام !! انظر إلى أنفك وأذنيك!!انظر إلى هذه العين القوية الحافظة المتينة ، وقد ظلَّلها بالرموش لتدفع هذه الرموشُ ضوءَ الشمس عن عينيك ، وأحاط هذه الرموش بأهداب دقيقة تمنعُ أن يتساقط العرقُ إليها، وجعل لهذه العين نوعًا معينًا من هذه المياه ؛ ذلكم الماء الذي يسمَّى بالدموع ، وجعل الله تبارك وتعالى هذا الماء قاتلًا لغالب الميكروبات التي تتسرب إلى العين من أتربة الهواء ؛ فماء العين مالح ، وماء الأنف حامض ، وماء الفم حلو ، وماء الأذن مر ، وأصل هذا الماء واحدٌ ، وهو رأسك أيها الإنسان .. هذا خلقُ مَنْ ؟ إنه الله ! وسبحان الله ! نفس المكان فيه أنواعٌ من المياه ، كُلُّ لونٍ من ألوان هذه المياه يختلف اختلافًا كبيرًا عن الآخر ؛ بل وتختلف وظيفة كلٍّ منها عن الآخر[1] ؛ فجعل الله ماء العين مالحًا لقتل هذه الميكروبات والأتربة ، وجعل الله ماء الأنف حامضًا حتى لا تتسرب هذه الميكروبات بهذا الفلتر العجيب للتقنية أثناء التنفس ، وجعل ماء الفم حلوًا وعذبًا ليتذوق به ألوان الطعام والشراب ،

(١) انظر « النبوات » لشيخ الإسلام ابن تيمية ؛ ففيه تلك الإشارات اللطيفة (٢ / ٦٢٩ ، ٦٣٠) ط ابن عباس .

وجعل ماء الأذن مرًّا حتى لا تتسرب الحشرات إلى أذنك وأنت لا تدري !! كل هذا خلق مَنْ ؟! ألا يستحقُّ هذا الإله العظيم أن يعبد وحْدَه ؟!

مَنِ الذي خلق البلعوم بهذه الدقة وجعل على مقدمته بوابةً حصينةً منيعةً تُسمَّى بلسان المزمار ؟! ولو أخطأتْ هذه البوابةُ لحظةً في عملها لهلك الإنسان ، ذلك المتكبر المغرور !! ولسان المزمار هذا الجزء الصغير الدقيق الذي يسدُّ القصبة الهوائية عند البلع ، ويسدُّ البلعوم عند التنفس ، لو أخطأ هذا العضو وأخطأت هذه البوابة في عملها لربما هلك الإنسان مع شربة ماء أو لقمة خبز !!

ف : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[الانفطار :٦ـ٨] .

إنه الغرور !! والإنسان هو مَنْ هو ؟ إنه من أضعف مخلوقات الله في الكون ، ومع ذلك لا ترى الكبر والجحود والإنكار إلا منه في حقِّ خالقه سبحانه وتعالى !!

ومن الذي خَلَق كُوز الذرة بهذا الجمال والجلال ؟ والله لو نظرت لكوز الذُّرَة وأمعنت النظر إليه لأفردت الله وحده بالعبادة !! حبَّة واحدة أخرجت هذا العود ـ بفضل الله سبحانه ـ الذي يحتوي على عدد كبير من كيزان الذرة . ثم بعد ذلك خُذْ كوزًا من هذه الكيزان وجَرِّدْهُ من ملابسه الجميلة ، ولو توقفت مع ملابس الكوز فقط لتعجبت ، فكُلَّما وصلت إلى الثوب الداخلي الذي يلامس حبات الذرة ستجد ملبسًا ناعم الملمس ، ولو وقفت مع أول ثوب لوجدت ملبسًا خشن الملمس ليتواءم مع عوامل التعرية ، فإذا ما جرَّدتَ هذا الكوز من ملابسه الكثيرة وجردته من هذه الشعيرات التي تسمَّى بالشرابة ، والتي تقوم بنقل عملية التلقيح فضلًا عن التنفس للحبات ،

وإخراج ما نتج عن الحبات من تنفس، ثم بعد ذلك خُذْ هذا الكوز من قولحته وأدِرْهُ دورةً كاملةً أمام عينيك وبين يديك، وانظر إليه بتأمل ودقة، وسل نفسك مَنِ الذي خلق تلك الحبات اللؤلؤية البيضاء ونظمها بهذا الإتقان والجمال والإبداع ؟!

اربط قلب ولدك بهذا الخالق العظيم سبحانه وتعالى .

ومَنِ الذي حجز بين العَذْب الفرات والملح الأجاج، وجعل بينهما برزخًا وحجرًا محجورًا ؛ كما قال تعالى: ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن:٢٠] ؟

والآيات في الكون كثيرة جدًّا تحتاج إلى تأمُّل وتفكر .

لذا أقول : فَضْل الله ﷻ علينا أَنْ خَلَقَنَا وأَوجَدَنَا من العدمِ، وصوَّرنا في أحسنِ صورةٍ، وخَلَقَنَا في أحسنِ تقويم، ومَنَحَنَا العقل، وَمَنَحَنَا العلم، وَمَنَحَنَا اللسان، وقوَّانا على النطق والبيان، وأعاننا على الحركة والمشي، وأرسل لنا نبيه المصطفى ﷺ، وأنزل عليه القرآن العظيم، وأبقى في أمته بعد نبيه العلماء ليقيموا الحجة، وليبينوا للناس دين الله تبارك وتعالى . هذه النعم التي تغمرنا من رؤوسنا إلى أقدامنا .. ألا تستحقُّ منَّا أَنْ نُفرِدَ الله وحدَهُ بالعبادة حقًّا لله على عباده ؟ قال الله - جلَّ وعلَّا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» [(١)] من حديث معاذ بن جبل قال : كُنْتُ رَدِيفَ النَّبيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْر ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله ؟ » قَالَ : قُلْتُ : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ : «حَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» فهذا حقٌّ خالصٌ على

---

(١) أخرجه البخاريُّ في «الأدب»، باب «إرداف الرجل خلفَ الرجل» (٥٩٦٧)، ومسلم في «الإيمان» باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٣٠) [٤٨ ، ٤٩] .

العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا ؛ قال ﷺ : « وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا » فَقَالَ مُعَاذُ : أَفَلاَ أُبَشِّرُ النَّاسَ بِذَلِكَ ؟ فقَالَ الْمُصْطَفَى ﷺ : « لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا » فَأَخْبَرَ بها مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ تَأَثُّمًا [1] أي : خشية أن يقع في إثم كتمانه للعلم عن رسول الله ﷺ .

فحقُّ الله علينا أن نَعبُدَهُ .

لو قلْتَ : حق الوالد على ولده أن يتأدب معه وأن يطيعه ؛ فإنَّ هذا أمرٌ عاديٌّ طبيعيٌّ . وحقُّ الأم على ولدها أن يتأدب معها ولا يعصيها ؛ بل وأنت تستنكر على ولدك إن لم يمنحك هذا الحق ، وتغضب على موظفك الذي يعمل في شركتك الخاصة ومنحته راتبًا كبيرًا ؛ بل ربما تخصم منه هذا الراتب إن قصَّر في العمل المطلوب منه ؛ بل وتَحُولُ بينه وبين العمل إن خان العمل ولم يؤده على أكمل وجه ، فأنت تغضب على موظفك وعلى ولدك إن لم يمنحك حقك ؛ فكيف لا تعط الله سبحانه وتعالى حقَّهُ الذي خلقنا من أجله ، ألا وهو العبادة ؟! .

إذًا نعبد الله ؛ لأن العبادة حقٌّ خالصٌ لله تبارك وتعالى على خلقه وعباده أجمعين.

فهذا الإله وحده الخالق العظيم الذي يُدَبِّرُ أمر الكونِ كلِّه ، هو الذي يستحقُّ أن يعبد ، وهو الذي يستحق أن يُحَبَّ وحده لذاته ، وأن يُذَلَّ له وحده ، وأن يُتَوكَّل عليه وحده ، وأن يستغاث به وحده ، وأن يُلْجَأ إليه وحده ، وأن تفوض الأمور كلُّها إليه وحده ، وأن يُحْلف به وحده ، وأن يُذْبح له وحده ، وأن تُقَدَّم النذور له وحده ، وأن يطاف ببيته وحده ؛ فلا يجوز البتة أن تصرف

(١) انظر : « صحيح البخاري » ، كتاب « العلم » ، باب من خصَّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا (١٢٨) ومسلم ، كتاب « الإيمان » باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٣٢) .

أَيُّ صورةٍ من صور العبادة لغيره تبارك وتعالى .

فالعبادة بكلِّ جزيئاتها وصورها وأشكالها إنها هي حقٌّ واضحٌ لِمَنْ يستحق هذا الحقَّ وحْدَه بدون منازعٍ ولا شريك وهو الله جلَّ جلاله .

ثانيًا : نعبُدُ الله ؛ لأن العبادة غذاء للأرواح ، والإنسانُ جسدٌ وروح ، ولا يمكن لأيِّ بشرٍ على وجْهِ الأرض أَنْ يحيا حياةً سوية مستقيمة إلا بحياة الروح والجسد .

أما حياة الأجساد مع قتل الأرواح ؛ فهي حياة البهائم والحيوانات التي لا تعيش إلا للطعام والشراب والتكاثر وفقط ، ولذا يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد:١٢] .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

فالإنسانُ بدنٌ وروح ، وحياة الأبدان في الطعام والشراب وغير ذلك ؛ وحياة الروح ــ التي هي نفخة الله في الإنسان ــ لا تحيا إلا بعبادة الخالق سبحانه وتعالى .

لو استطاع طائر جبار أن يُحلِّق في أجواء الفضاء بجناحٍ واحد وإن طالت مدة طيرانه ، حتمًا سيسقط لينكسر جناحه الآخر .

فالغرب الآن ـ وهذا هو السِّرُّ وراء حالات الانتحار الجماعية والفردية ، وهذا هو سرُّ انتشارِ العيادات النفسية في بلادهم ـ أعطى للبدن كلَّ ما يشتهيه ، وبقيت الروحُ في أعماق هذا البدن تصْرُخُ بعد وقت تبحث هي الأخرى عن دوائها وغذائها ؛ فغذاء الروح ليس طعامًا ، وليس شرابًا ،

وليس جاهًا ، وليس مالًا . هذا كلُّه لا يغذِّي الروح ؛ بل هذا كلُّه لغذاء البدن . والروحُ لا تُوزنُ بالجرام ، ولا تُقاسُ بالترمومتر الزئبقي ، ولا توضع في بوتقة التجارب في معامل الكيمياء والفيزياء ؛ بل لا يَعْلَم حقيقتها إلا خالقها ؛ قال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٨٥] .

واعلم أن أي قلب أو أي إنسان في حاجة دومًا إلى الله ؛ لذا يصرف له العبادة ؛ فمنهم من يوفق للإله الحق سبحانه وتعالى ، ومنهم من يخذل ، ويَصْرِف عبادته إلى آلهة مكذوبةٍ باطلة مدعاة ! فالقلبُ الإنسانيُّ دائم الشعور بالحاجة إلى الله ؛ تصوَّر وتدبر معي قول الله تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [يونس:٢٢] .

فالإنسان بطبعه مفطورٌ إلى أن يتجه إلى الله سبحانه وتعالى ، لكن منهم من لَوَّثَ الفطرة ، وبدأ يتَّجه إلى آلهة باطلة ؛ فمن يوفقه الله تبارك وتعالى إلى الإله الحق ؛ فهذا هو السعيد في الدنيا والآخرة . ولا يمكن أبدًا أن ترى إنسانًا يعيش بلا هذا الشعور ؛ فإن الذي يعيش للبدن فقط يشعر بالقلق والتمزق الداخلي ؛ بل إن كثيرًا ممن يصرفون العبادة لغير الله تبارك وتعالى يشعرون أيضًا بهذا القلق والتمزُّق الداخلي .

تدبر هذا الكلام النفيس من شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول [١] :

---

(١) « مجموع الفتاوى » (١٠/ ١٩٣، ١٩٤) ، وانظر : « العبودية » (٢٩) .

« القلب فقير إلى الله بالذات من جهتين : من جهة العبادة ، ومن جهة الاستعانة والتوكل » .

نعم .. فالقلب محتاج إلى عون الله ، وإلى أن يتوكل على الله وأن يخلص في توكله على الله وحده .

ثم قال : « فالقلب لا يصلح ، ولا يفلح ، ولا يتنعم ، ولا يسر ، ولا يلتذ ، ولا يطيب ، ولا يطمئن ، ولا يسكن إلا بعبادة ربّه ، وحُبّه ، والإنابة إليه ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن إلاّ إلى الله سبحانه » .

لأن القلوب مفطورة على توحيد الله ؛ وكل الخلق قد أقرُّوا لله بالواحدنية ؛ كما قال ربُّ البرية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٢] .

وفي «مسند أحمد» وغيره[١] ما يوضِّح هذه الآية ؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ قال : « أَخَذَ الله الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ[٢] بِنَعْمَانَ - يَعْنِي عَرَفَةَ - فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا ، فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ[٣] ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلاً[٤] قَالَ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝ ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣] » .

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢) ، والحاكم (٢/ ٥٤٤) ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢٣) .

(٢) أي : خلقها في ظهره وأودعها فيه .

(٣) واحدها : الذرة ، وهي النملة .

(٤) أي : عيانًا . (السندي ـ التعليق على المسند ٤/ ٢٦٨ ط الرسالة) .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» [(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ - فطرة التوحيد - فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» فالكلُّ فُطِر على (لا إله إلا الله) ثم بعد ذلك اجتالت الشياطين كثيرًا من الخلق فأبعدتهم عن هذا الميثاق الأول؛ ميثاق الفطرة.

ثم قال شيخ الإسلام: «إذ في القلب فقر ذاتي إلى ربه - بالفطرة - من حيثُ هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة، وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له فالعبد دائمًا مفتقر إلى حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

لذا كان النبيُّ ﷺ يقول لمعاذٍ: «لاَ تَدَعَنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ أَنْ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» [(٢)].

قال: «فإنه لو أُعِينَ على كلِّ ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ولم يحصل له عبادة لله - فلم يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب، ولم يخلص من نكد الدنيا وآلام عيشها إلا بإخلاصٍ لله - بحيث يكون الله هو غاية مراده، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له في القصد الأول، وكل ما سواه، فإنه يحب لأجله - أي: لأجل الله - فلا يُحِبُّ شيئًا لذاته إلا الله».

حتى النبيُّ ﷺ؛ فحبُّنا لنبينا تابعٌ لحبنا لربنا؛ فلا يُحَبُّ لذاته إلا الله، وكلَّما أخلص المرء العبودية لله تبارك وتعالى وجد نفسه، واهتدى إلى سرِّ

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «الجنائز»، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض عليه الإسلام (١٦٥٩)، ومسلم، كتاب «القدر»، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٤، ٢٤٥)، وأبو داود، كتاب «الصلاة»، باب في الاستغفار (١٥٢٢)، والنسائي في كتاب «السهو»، باب الدعاء بعد الذكر (٣/ ٥٣) وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٦٩).

وجوده ، ووجد مع ذلك سعادة روحية لا تدانيها ـ والله ـ سعادة ، تمثل فيما أخبر عنه نبينا ﷺ بقوله : « وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ » ؛ كما في الحديث الذي في «الصَّحِيحَيْنِ » [(١)] من حديث أنس أن النبيَّ ﷺ قال : « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ...».

فيجب عليك أن يكون حبُّك للمصطفى ﷺ يفوق حبك لنفسك التي بين جنبيك ؛ روى البخاريُّ [(٢)] من حديث عبد الله بن هشام رضي الله عنه ـ وهو صحابيٌّ صغير ـ أَنَّ النبي ﷺ قال : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِه ». قَالَ عُمَرُ : والله أَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِي يَا رَسُولَ الله ...» وحتى لا يلتبس الأمر في مراد عمر ؛ فقد قال الخطابيُّ [(٣)] : « حبُّ الإنسان لنفسه طبع ، وحب الإنسان لغيره اختيار ، بتوسط الأسباب ، وما طلب النبيُّ ﷺ من عمر حب الطبع ، إذ لا سبيل إلى قلب الطباع عمَّا جُبلت عليه ؛ لكنه طلب منه حب الاختيار » ؛ فلما نظر عمر بتوسط الأسباب وَجَد أنَّ النبيَّ ﷺ هو سببُ نجاته من النار ، فعلم حينئذٍ أنه أحبُّ إليه من نفسه ؛ لأنه كان سبب نجاة هذه النفس من جهنم ؛ فقال : «والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي » فَقَالَ النبيُّ ﷺ : « الآنَ يَا عُمَرُ » أي : الآن عرفت فنطقت بما يجب ؛ ذكره الحافظ في «الفتح»[(٤)] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب « الإيمان » ، باب حلاوة الإيمان (١٦) ، ومسلم ، كتاب «الإيمان» ، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الأيمان والنذور » ، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٦٣٢) ، وأحمد (٤/ ٢٣٣) واللفظُ له .

(٣) انظر : «فتح الباري» (١١/ ٥٢٨) ، ط دار الفكر (تحت رقم ٦٦٣٢) بتصرف .

(٤) «الفتح » (١١/ ٥٢٨) .

قال ابنُ القيم ــ رحمه الله تعالى[1] : « إنه لا شيء أحبَّ إلى القلوب ومعبودها ومولاها من خالقها وفاطرها ؛ فهو إلاهها ، ومعبودها ، ووليها ، ومدبرها ، ورازقها ، ومميتها ، ومحييها ؛ فمحبته سبحانه نعيم النفوس » .

فالعبادة فضْلٌ كبير ، ونعمة من الله علينا ؛ فعلى كل مسلم أن يستذكر ذلك ، وإلا لصارت حياتنا إلى ما نشاهده الآن في الشرق الملحد والغرب الكافر ؛ لأن بعض الناس يظن أنها قيدٌ حول عنقه ؛ بل هي من أَجَلِّ نعم الله ؛ لأن بها تحيا الروح ، وبدونها تموت الروح في بدنك وأنت لا تدري !!

قال ابن القيم[2] : « فمحبة الله نعيم النفوس ، وحياة الأرواح ، وسرور النفوس ، وقوت القلوب ، ونور العقول ، وقرة العيون ، وعمارة الباطن ، فليس عند القلوب السليمة ، والأرواح الطيبة ، والعقول الزاكية أحلى ولا أطيب ولا أنعم ولا أسر من محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه ، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بحبِّ الله والإنس به فوق كلِّ حلاوة ، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم ، واللذة التي تناله أعلى من كلِّ لذة ، كما أخبر أحدهم عن حاله ؛ فقال : « إنه ليمر بالقلب أوقات أقولُ فيها : إنْ كان أهلُ الجنة في مثل هذا ؟ إنهم لفي عيش طيب » ـ والدنيا فيها جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، وجنة الدنيا هي الأنس بالله والشوق إليه سبحانه وتعالى ـ ويقول آخر : « مساكين ـ والله ـ أهل الغفلة خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها !! قيل له : وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله والأنس به » .. وقال آخر : « لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٩٧) ط دار المعرفة .

(٢) «الإغاثة» (٢/ ١٩٨).

بالسيوف » .

أي : من حُبِّ الله ، والأُنسِ بطاعته ،وتزكيته أرواحنَا بعبادتِه تبارك وتعالى ؛ فالقلب لا يفلح ولا يصلح ، ولا ينعم ولا يبتهج ، ولا يلتذ ولا يطمئن ولا يسكن إلا بعبادة ربه سبحانه ،وكلما تمكنت محبة الله من القلب ، وقويت فيه أخرجت منه تألهه لما سواه ، وعبوديته له » . انتهى بتصرف يسير .

وقال فخر الدين الرازي[1] : « اعلم أنه من عرف فوائد العبادة طاب له الاشتغال بها ، وثقل عليه أن ينشغل عنها بغيرها ، وبيان ذلك من وجوه :

الوجه الأول : أن الكمال محبوب بالذات ، وأكمل أحوال الإنسان وأقواها في كونها سعادة : اشتغاله بعبادة الله ؛ فإنه يستنير قلبه بنور الإلهية ، ويتشرف لسانه بشرف الذكر والقراءة ، وتتجمل أعضاؤه بجمال خدمة الله سبحانه ، وهذه الأحوال أشرف المراتب الإنسانية والدرجات البشرية ، فإذا كان حصول هذه الأحوال أعظم السعادات الإنسانية في الحال ، وهي موجبة أيضًا لأكمل السعادات في الزمان المستقبل ، فمن وقف على هذه الأحوال زال عنه ثقل الطاعات ، وعظمت حلاوة الطاعات في قلبه .

الوجه الثاني : أن العبادة أمانة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢] » .انتهى كلام الرازي .

فالعبادة هي هذه الأمانة ؛ فمن أجل التفسيرات التي وقفت عليها في

(١) «مفاتيح الغيب» وهو التفسير الكبير للرازي (تفسير سورة الفاتحة :٤) في قوله تعالى :﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] ، الفائدة الخامسة .

تفسير هذه الأمانة ما قال قتادة : « الأمانة هي الدين » [١] فالدين كُلُّهُ أمانة .. وبعضهم فسَّر الأمانة بالصلاة ، وبعضهم فسَّرها بالفرائض .. إلى آخره [٢].

لكن هذا التفسير هو أشمل التفسيرات ،أعني قولهم : الأمانة هي الدين . فالدين كلُّه أمانه .

قال الرازيُّ : « العبادة أمانة ـ بدليل هذه الآية ـ وأداء الأمانة صفة من صفات الكمال محبوبة بالذات ؛ ولأن أداء الأمانة من أحد الجانبين سبب لأداء الأمانة من الجانب الثاني .

قال أحد السلف : رأيتُ أعرابيًّا أتى المسجد فنزل عن ناقته ، وربط الناقة خارج المسجد ،ودخل المسجد فصلَّى بالسكينة والوقار ، ودعا بها شاء الله له أن يدعو . قال : فتعجَّبنا له ـ رجل أعرابيٌّ !

أي : قد لا يحسن هذا إلا القلة ـ فلما خرج لم يجد ناقته ، فوقف ورفع رأسه إلى الله ، وقال : إلهي أديتُ أمانتك فأين أمانتي ؟ قال: فازددنا تعجبًا .

قال : والله ما مضى إلا وقتٌ يسير ، وإذا برجل جاء يركب ناقة هذا الرجل ، وسلَّم الناقة إليه » .

ألم يقل النبيُّ ﷺ: « احْفَظِ الله يَحْفَظكَ » [٣].

قال الحافظ ابن رجب [٤]: « احفظ الله بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ،

---

(١)أخرجه الطبري في «التفسير» (لسورة الأحزاب :٧٢) (٢٨٦٩٣) .

(٢)انظر : « تفسير الطبري » (٢٨٦٨١ـ ٢٨٦٩٧) ، و« تفسير ابن كثير » عند آية (الأحزاب ٧٢ (١١/ ٢٥٠) ط أولاد الشيخ .

(٣)أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣) ،والترمذيُّ ، في صفة القيامة (٢٥١٦) وصححه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧) .

(٤)« جامع العلوم والحكم » (٣٣٣) ط ابن رجب ، بتصرف يسير .

والوقوف عند حدوده».. يحفظك في مالك ،وفي نفسك ، وبدنك ، وفي زوجتك وأولادك ، احفظ الله يحفظ عليك كلَّ شيء ، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى أو تعدُّ ؛ فمن حفظ الله حفظه الله .

ولقد ذكر الحافظ ابنُ رجب في كتابه الماتع «جامع العلوم والحكم» (١) :

« أن رجلاً من السلف قد جاوز المائة سنة ، وهو ممتَّعٌ بقوته وعقله ، فوثب يومًا وثبة شديدة ، فعوتب في ذلك : يومًا ؛ فقال : هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر ، فحفظها الله علينا في الكبر » تحفظ هذه الجوارح من الوقوع في المعصية وأنت شابٌّ يحفظ الله عليك هذه الجوارح وأنت شيخ كبير !

قال الرازيُّ: «الوجه الثالث : أن الاشتغال بالعبادة انتقال من عالم الغرور إلى عالم السرور ، ومن الاشتغال بالخلق إلى الاشتغال بالحق ، وذلك يوجب كمال اللذة والبهجة ، اقرأ قول الله تعالى :﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف:٣١].

قال : فإن النسوة لما غلب عليهن جمالُ يوسف عليه السلام وصلت تلك الغلبة عليهن حتَّى قطَّعن أيديهن ،وما شعرن بذلك !! تصور امرأة تقطع يدها من جمال يوسف وهي لا تشعر .. تصورً حال القلب في هذه اللحظات ؟!

قال : فإذا جاز هذا ـ أي إذا جاز أن ينشغل إنسان بجمال بشر إلى الحد الذي يقطع فيه يده وهو لا يدري ـ قال : فإذا جاز هذا في حق البشر فلأنْ

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص٣٣٦) ط ابن رجب .

يجوز هذا عند استيلاء عظمة الله على القلب أَوْلى .

فكيف لو غلب جلالُ الحقِّ ، وغلبت هيبة الله على قلب عبدٍ يعرف لله قدره وجلاله ؟!!

قال : فإن مَنْ دخل على مَلِكٍ مهيبٍ ، فمرَّ عليه أبواه وبنوه ، وهو ينظر إليهم ولا يعرفهم ؛ لأن استيلاء هيبة ذلك الملك تمنع القلب عن الشعور بهم - بمن يحبُّ غير الملك ؛ فإذا جاز هذا في حق ملكٍ مخلوق فلأن يجوز هذا في حق الملك الخالق أولى » اهـ . بتصرف يسير . اللهم ارزقنا حبك ، والأنس بك .

ما أجملها من حياة مَنْ ذاق طعم الإيمان ، ومن ذاق حلاوة ثمرات العبادة ؛ فإن العبد يشعر حينئذٍ بأن العبادة من أعظم نعم الله . بالله عليك إذا كنت في ضنكٍ وقلقٍ وألم ، ودخلت بيتًا من بيوت الله ، وسمعت الإمام يقرأ القرآن بصوتٍ نديٍّ ، فتبكي ، أو تسمع شيخًا من الدعاة الربانيين الصادقين فيخشع جلدك ، ويرق قلبك ، وتدمع عينك .. بالله عليك ما هو الشعور الذي تشعر به الآن بعد أن ملأ الهم والحزن قلبك ؟!

فأنا أقول : لا تنظروا إلى العبادة على أنها قيودٌ وحدودٌ يُقيِّدُ الله بها عباده ! بل هي نعمةٌ من أعظم وأجلِّ نعم الله على عباده ؛ لأنَّ البدن وإن أُعطي كُلَّ ما يشتهيه فسيصل حتمًا إلى مرحلةٍ يشعر فيها بالملل ؛ لأن الروح هي الأخرى إن لم تأخذ دواءها وغذاءها ستصرخ في أعماق هذا البدن ، تبحث عن دوائها وغذائها !

قال تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٣، ١٢٤] .

انظر إلى دقة اللفظ القرآني في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ نعم سيتحول كل نعيم بين يديه إلى ضنك حقيقي .. ولن يشعر بالسعادة والرضا إلاَّ إن كانت كلُّ هذه النعم مرتبطةً بالنعيم الأكبر ، والأنس الأعظم بربه وحْدَه لا شريك له .

وقد دخل عليَّ رجلٌ أمريكي بصحبة أخوين مسلمين سوريَيْن وأنا ألقي محاضرة في مركز إسلامي في لوس أنجلوس جاء مسلمًا يريد أن ينطق الشهادة ، ويعلن إسلامه لله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ فقلت له : بالله لماذا أسلمت ؟ وما الذي جاء بك إلينا وأنت ترى حالَ المسلمين ؟ فأخبرني أنه يعيش حياة بائسة مع أنه يملك مالاً وفيرًا ، قال : بل أنا ملياردير .. أملك الأموال والشركات والأساطيل!! قلت : وتعيش حياة بائسة كئيبة مع هذا النعيم الماديِّ ؟ قال : وحاولتُ أكثر من مرة لأتخلَّصَ من هذه الحياة المؤلمة فلم أستطع ! ـ لأن الله قد قضى أن يموت هذا الرجل على التوحيد ـ قال : لفت نظري هذا الرجل ـ وأشار إلى أحد الأخوين السوريَيْن ـ قال : دخلت الشركة فوجدته يغسل قدمه في الحوض الذي أغسل فيه وجهي ، فصرخت في وجهه : كيف تغسل قدمك هنا وأنا أغسل وجهي في هذا المكان ؟ فقال له : أنا أغسل قدمي هذه كل يوم خمس مرات ، قال : ولماذا تغسل قدمك كل يوم خمس مرات ؟ ثم أخبر بأنه لا يغسل وجهه إلا مرة في اليوم وأحيانًا لا يغسله !! قال صاحبه : أنا أتوضأ ، قال : ولماذا تتوضأ ؟ ، قال : لكي أصلِّي . قال : ولماذا تصلِّي ؟ قال : أصلِّي لله (١) .

---

(١) أيها الأحبة : مع الاتصالات الهائلة الموجودة فإن هناك أناسًا لا يعرفون شيئًا عن الإسلام ،وَمَنْ عرف منهم عن الإسلام عرف الصورة المزوَّرة المشوَّهة .

والله لقد تعلَّق بي شابٌ أمريكيٌّ وهو يبكي ، وقال : والله لأسئلنكم بين يدي الله يوم القيامة لماذا تركتم والديَّ يموتان على الكفر ؟! نعم .. الصُّورة تنقل عن الإسلام عبر وسائل الإعلام اليهودي الماكرة المجرمة الخبيثة مشوَّهة ومزوَّرة .

فقال الأمريكيُّ : ما دخلتُ عليك قط إلا ووجدت البسمة والسعادة تعلو وجهك .

قال : الحمد لله فإن نبيي ﷺ يعلمني هذا ؛ فيقول[(١)] : « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ كله إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » ؛ فأنا ـ والحمد لله ـ أعيش سعيدًا مطمئنًا راضيًا آمنًا ، قال : ما دخلتُ عليك قط فوجدتك سكرانَ .

قال : أعوذُ بالله ! ديني يُحَرِّمُ عليَّ الخمر . قال : أيُّ دينٍ هذا ؟ فأخبره .. فما هي إلا معلومات قليلة جدًّا ؛ فقال له هذا الرجل : فهل لو دخلتُ دينكم هذا أشعرُ بالراحة التي تشعرُ بها ؟ قال : بلا شك إنْ صدقت ، قال : أنا صادق ؛ فماذا أفعل ؟ قال له : اغْتَسِل . فاغْتَسلَ ، وأخذه ، وجاء به إلى المركز ، ورزقني الله هذا الرزق الثمين بغير سبب ؛ فقلتُ له : قل : أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله ، ووالله لم أشعر بثِقَل النطق بـالشهادة إلا في هذه اللحظة ؛ فنحن نرددها سهلةً ،ولكنها ثقيلة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل:٥] .

والله إنه لقولٌ ثقيل ؛ إلَّا على من يَسَّرهُ الله عليه ، فلما ردَّدها ارتجف وبكى واضطرب ، فأراد الأخوة أن يسكتوه ؛ فقلت للأخوة : اتركوه يغتسل ويتطهر أي: بدموعِ التوبة والأوبة ، فلمَّا هدأ ، وسكنت جوارحه ، قلتُ له : لماذا بكيتَ ؟ فنظر إليَّ مبتسمًا .

وقال : والله أشعر الآن براحةٍ في صدري ما ذقتُ طعمها قبل النطق بهذه الكلمة . قلْتُ : هذه نعمةُ شرحِ الصَّدْر بالإسلام ، ولا يذوقها إلا من دخل هذا

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «الزهد والرقائق» ، باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩) عن صهيب .

الدين ؛ كما قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[الشرح:١].

فحياة الأبدان فقط هي حياة البهائم ، والإنسان بدنٌ وروح ، وهذه الروح لا غذاء لها إلا في العبادة ، ولا دواء لها إلا في الطاعة ؛ لأنها نفخة من الله تبارك وتعالى في الإنسان ؛ قال تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾[ص:٧٢] .

هذه النفخة .. هذه الروح تحتاج إلى غذاء .. تفتقر إلى دواء . ومن رحمة الله بالإنسان أنْ فَرَضَ عليه العبادة ليُغذِّي هذه الروح ، فهذا غذاؤها ، وهذا دواؤها . فنحن نعبدُ الله ؛ لأنَّ العبادةَ حقٌّ لله على عباده ، ونعبد الله ؛ لأن العبادة غذاءٌ لأرواحنا ؛ ولو عرفنا حلاوة هذه العبادة لسجدنا لله شكرًا أن خصَّنا بهذا الفضل ، وجعلنا نعبده ونوحِّدُه .

أسأل الله ﷻ أن يرزقنا حلاوة حُبِّه ، وحلاوة الذلِّ إليه وحده ، وحلاوة التعبد إليه وحده ، إنه على كلِّ شيء قدير .

*****

ثالثًا : نعبد الله تبارك وتعالى ؛ لأن العبادة سبيلٌ للعزة والحرية والكرامة ؛ فالعبادة الخالصة لله وحده ـ بلا منازع وبلا شريك ـ تُحَرِّر العبد من رقِّ العبودية وذُلِّها لآلهةٍ باطلةٍ شتَّى ؛ فلو أخْلَص الإنسانُ العبادةَ لله تبارك وتعالى الذي يستحق وحده أن يُعْبَد خلَّصَ نفسه من الذُّلِّ لغير الله ؛ لأن الذلَّ لله ﷻ والعبودية له ، رفعة ، وكرامة ؛ فكلَّما ازددت عبوديةً لغير الله ازددت ذلاًّ ، وكلَّما ازددت عبودية لله ازددت رفعة وكرامة ؛ فمن صار عبدًا لبشرٍ أو لهوى أو لدولةٍ أو لمنهجٍ أو لجماعةٍ أو لمنصبٍ أو لشهرةٍ أو لجاهٍ أو لأيِّ إلهٍ ؛ فالآلهة كثيرة ؛ كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية:٢٣] .

أو صار عبدًا للمال ؛ كما قال ﷺ : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّينار »[1] أقول : من صار عبدًا لأيِّ إلهٍ سوى الله شعر بالذل والمهانة ؛ فالعبودية لغير الله ذلٌّ ؛ والعبودية لله رفعة ، ولذلك لم يثن الله ﷻ على المصطفى ﷺ بأعلى وأرفع مقامات الثناء ، إلاَّ لأن المصطفى ﷺ حقق لله أعلى مراتب العبودية ؛ فقد أثنى الله بصفة العبودية على نبيه ﷺ في مقام الدعوة ؛ فقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾[الجن:١٩] .

وأثنى عليه في مقام الإسراء بصفة العبودية ؛ فقال سبحانه : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾[الإسراء:١] . ولم يقل برسوله ولا نبيه .

وأثنى عليه بصفة العبودية في مقام التحدِّي للمشركين ؛ فقال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾[البقرة:٢٣] .

ولم يقل: على نبينا ولا على رسولنا ، وكلَّما ازددت عبودية لأيِّ إلهٍ من الآلهة المكذوبة المدعاة ازددت ذلاًّ ومهانة .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الجهاد والسير» ، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٦) .

إنْ صِرْتَ عبدًا للمال صِرْت ذليلًا .. إن صِرْتَ عبدًا للشهوة والشهرة صرت ذليلاً .. إنْ صِرْتَ عبدًا للمنصب صرت ذليلاً .. فكلُّ إله لك سوى الله ستشعر معه بالذل والذلة والمهانة ، وإن صَرَفْتَ العبادة خالصة لله شعرت بالعزَّة والرفعة والكرامة ؛ يقول ربنا تبارك وتعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٢٩] .

انظر إلى هذا التعبير القرآني البديع المعجز ؛ فليس أشرف ولا أطيب ولا أكرم ولا أعزَّ للإنسان العاقل من أنْ يُخْلِص قلبه كُلَّه لله وحَدَه ، ؛ فلو تشتت القلبُ وأحبَّ آلهة كثيرة ، صار هذا العبد مشتتًا ممزقًا ! تصَّور عبدًا يعمل في قَصْرٍ فيه أكثر من مَلِكٍ وسَيِّدٍ ، فينادي عليه سيدٌ من السادة ليكلِّفه بأمرٍ ، وبينما هو في طريقه ليعمل ما أمره به هذا السيد قابلَهُ سيدٌ آخر وكلفهُ بضده ؛ فإذا انطلق ليؤدي هذا العبد عمله نادى عليه سيد ثالث وكلَّفُه بضده ؛ فإذا انطلق ليؤدي هذا العبد نادى عليه سيد رابع وكلَّفهُ بعملٍ مستقلٍّ آخر !!! ما أتعس هذا العبد وما أشقاه ، إنه عبد مشتت الذهن .. مشتت الحركة .. لكن تصور : لو أن عبدًا يعيش في قَصْرٍ له سيدٌ واحدٌ هو صاحب الأمر والنهي فيه ، فإنك سترى أنه يسمع وينطلق بيسرٍ وأريحية ورضًى لينفذ ما أمر به سيدهُ ؛ فهو إذًا عبدٌ مستريح القلب .. مستريح البدن ؛ لأنه ينفذ أمرًا يرضى عنه به سيده .. ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل:٦٠] .

فالعبد السالم القلب .. السالم العمل لله تبارك وتعالى عبدٌ مستريح ، والعبد المشتت بين آلهةٍ هو عبدٌ شقي تعيسٌ ؛ فليس أجْلَبَ لسعادةِ الإنسان ، وانشراح صدره ، وطمأنينة قلبه من أن يعبد الله وحْدَه بلا منازعٍ أو شريك .

قال ابنُ تيمية رحمه الله (١): « وكلُّ من استكبر عن عبادة الله لابد أن يعبد غير الله ؛ لأن القلبَ مفطورٌ على التوجه إلى الله ، فإن انصرف لغير الله انصرف للإله الباطل » قال : « فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة ؛ فقد ثبت في «الصحيح» (٢)عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « أَصْدَقُ الأسماء حَارِثٌ وهَمَّام » .. فالحارث : الكاسب الفاعل ـ متحرك ـ والهمام فعال من الهم . والهمُّ أول الإرداة ؛ فالإنسان له إرادةٌ على الدوام ، وكلُّ إرادةٍ لابد لها من مراد تنتهي إليه ، فلابد لكلِّ عبدٍ من مرادٍ محبوبٍ هو منتهى حُبِّهِ وإرادته ، فَمنْ لَمْ يكن الله مرادَه ومعبوده ومنتهى حُبِّه وإرادته ، بل استكبر عن ذلك ، فلابد أن يكون له مراد محبوب ، يستعبده غير الله ، فيكون عبدًا لذلك المراد المحبوب ، إما المال ، وإما الجاه ، وإما الصور ، وإما إمامًا يتخذه إلها من دون الله ؛ كالشمس والقمر والنجوم والكواكب والأوثان وقبور الأنبياء والصالحين أو من الملائكة الذين يتخذهم من دون الله ، وإذا كان عبدًا لغير الله يكون مشركًا » ؛ قال تعالى :

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾[الجاثية:٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾[البقرة:١٦٥] .

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٩٦) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بتصرف يسير .

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٤٥) ، وأبو داود ، كتاب «الأدب» ، باب تغيير الأسماء (٤٩٥٠) والحديث ضعَّفه الألباني في «الإرواء» (٤/ ٤٠٨) ، وقال : « تنبيه : قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في «مجموع لفتاوى» (١/ ٣٧٩) : « وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن نافع عن عبد الله ابن عمر أن النبيَّ ﷺ قال : «أحب الأسماء إلى الله عبد الله ، وعبد الرحمن ، وأصدقها حارث وهمام ، وأقبحها حرب ومرة » ، وهذا من أوهامه رحمه الله ؛ فإنه كان يكتب من حفظه قلَّما يراجع كتابًا عندما يكتب ؛ فإن حديث ابن عمر في «صحيح مسلم» كما قال ، لكن دون قوله : «وأصدقها » .. الخ ، وإنما هذه زيادة في حديث أبي وهب الجشمي هذا ، ولا تصحُّ كما علمت ، فاقتضى التنبيه » انتهى .

فالذين آمنوا أشد حبًّا لله من حب المشركين لأندادهم الذين اتخذوهم أندادًا مع الله أو من دونه سبحانه وتعالى ، فإذا كان عبدًا لغير الله يكون مشركًا . قال : « وكلُّ مستكبرٍ عن عبادة الله فهو مشرك ، ولذلك كان فرعون من أعظم الخلقِ استكبارًا عن عبادة الله ، وكان أكفر أهل الأرض ؛ قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر:٢٧] إلى قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر:٣٥]

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف:١٢٧] .

فكلَّما استكبر العبد عن عبادة الله كلَّما ازداد كفرًا وشركًا بالله تبارك وتعالى ، ولن يستغني القلبُ عن جميع المخلوقات ، إلا بأن الله هو مولاه ، الذي لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يتوكَّلُ إلا عليه ... » اهـ .

فلن يستغني القَلبُ أبدًا عن إله ؛ إما أن يكون هذا الإله : الإله الحق ، وإما أن يكون هذا الإله : إله الباطل ؛ إما أن يعبد الله وحده لا شريك له ، وإما أن يعبد إلهًا آخر من الآلهة المكذوبة الباطلة المدَّعاة ؛ فمن رحمة الله بنا أنْ فرض الله علينا العبادة ليخلِّصنا بعبادته وحده من رقِّ العبودية ،وذلِّ العبودية لغيره سبحانه وتعالى .

ولو وضعنا الأنوف على التراب سُجَّدًا لله لنوفِّيَهُ شُكَره ، على أن مَنَّ علينا بالعبادة ، وأن خلقنا موحدين له ، والله مَا وفَّينا شُكْره ؛ فالعبادة حقٌّ لله على عباده ؛ فهي غذاءٌ لأرواحنا ،وتحريرٌ للقلب من رقِّ العبودية وذلِّها لغير الله سبحانه وتعالى .

رابعًا : نعبد الله ﷻ لأن العبادة ابتلاءٌ وإعداد ؛ فالدنيا دار ابتلاء ؛ فالله جعل للمؤمنين دارًا هي دار البقاء . وأما الدنيا فهي تفنى وتبيد وتنتهي ، ليست دار قرار ، وإنها دار ممر وقنطرة لنعبر عليها إلى الدار الباقية الدائمة .. الدنيا مزرعة للعمل الصالح لنغرس فيها ، ولنجني الثمار هنالك في دار البقاء والجنان ؛ أسأل الله أن يجعلنا من أهل الجنان .. الدنيا دار ابتلاء ؛ فالخير فيها للابتلاء ، والشرُّ فيها للابتلاء كذلك ؛ قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٥] .

فالشرُّ فتنة ، والخير فتنة ؛ بل أنا أقولُ لكم ـ مرارًا: إن الفتنة بالخير تكون أعظم من الفتنة بالشر ؛ لأنَّ الفتنة بالشر تستجيش دوافع الحذر والحيطة من الوقوع فيها يسخط الله ؛ فلو مات لك ولد أو حدثت لك مصيبة ـ أسأل الله أن يرفع عنا وعنكم المصائب ـ حينها تستجمع بالآيات الكريمة والدروس العظيمة التي ذُكِّرتَ بها ، دوافع الحيطة والحذر ؛ فإذا ما جاءك الشيطان استرجعت ، وقلْتَ : إنا لله وإنا إليه راجعون ، لله ما أخذ ، ولله ما أعطى ، وكلُّ شيءٍ عنده بأجل مسمًّى ، فلنصبر ولنحتسب [1]، ولتذكّر نفسك في مواطن الفتن والشر ، بالله سبحانه وتعالى ؛ بل في مواطن الخير ، لكن قَلَّ من يُذَكِّر نفسه بالله في مواطن الخير ؛ فالإنسان الذي يكون في نعيم متكرِّر ، وفي نعيم واسعٍ ، إن لم يكن على قُرْبٍ من الله حقيقة سينغمس بهذا النعيم في الشهوات والملذَّات والبعد عن ربِّ الأرض والسموات ؛ فإن الابتلاء بالنعيم يلهي

(١) كما في «صحيح البخاريّ» ، كتاب «الجنائز» ، باب قول النبيِّ ﷺ : «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه» (١٢٨٤) ، ومسلم ، كتاب «الجنائز» ، باب البكاء على الميت (٩٢٣) عن أسامة بن زيد ، لما أرسلت إحدى بنات النبي ﷺ إليه أن صبيًّا لها في الموت . فذكرها بقوله : «إن لله ما أخذ.. الحديث» .

وينسي ويطغي إلا من رحم ربك ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ فكم من ناس كانوا على الدرب ، ثم لما فتح الله عليهم من متاع الدنيا عُدْتَ لا تراهم في بيت الله مع المصلين!! إنه البلاء . وما خشي رسولُ الله ﷺ على هذه الأمة بعد فتنة النساء كفتنة بسط الدنيا ففي «الصَّحِيحَيْنِ » [(١)] من حديث عمرو بن عوف الأنصاريِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « والله مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا ، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ » ، وفي رواية : «وَتُلْهِيكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ».

والله كنت أعرف أخًا من إخواننا كنتُ أتعلمُ منه ـ كان يكبرني سنًّا وفضلاً ـ وكنت أعجبُ به لزهده وفقره ، مع رضاه ، وحرصه على الطلب ، وعجبتُ حينما عُدْتُ من السعودية بعد سنوات طوال ، فعلمتُ أن الله ﷻ قد فتح عليه فتحًا كبيرًا ، أبحثُ عنه ـ وربِّ الكعبة ـ في مجالس العلم ، فلم أره فيها مرة قط !! أقول : أين فلان ؟ إذا بالردِّ ـ ما شاء الله : ربك وَسَّعَ عليه من أوسع الأبواب !! أقولُ : لا والله أيُّ سعةٍ في البعد عن الله سبحانه وتعالى ؟! أيُّ خَيْرٍ أنت فيه وأنت بعيدٌ عن هذا الخير ؟! أيُّ فضلٍ تحياه وأنت بعيدٌ عن السماع عن الله وعن رسوله ﷺ ؟! ما أتعسها ـ والله ـ من حياة ، وما أشقاها وإن كنت غارقًا من رأسك إلى ظفر قدمك في النعيم وأنت بعيدٌ عن الله العليم الكريم ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤].

ستعيش الضنك وتحياه وأنت بعيدٌ عن الله سبحانه وتعالى !! فالابتلاء بالنعيم

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب « الرقاق» باب ما يحذر من زهرة الدنيا ، والتنافس فيها (٦٤٢٥) ، ومسلم ، كتاب «الزهد» (٢٩٦١) .

يُطْغي ويُنْسي ؛ قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾[التوبة:٧٥ـ ٧٧] .

إنها آيات تحتاج إلى وقفات ، ما منا من أحدٍ الآن إلا وبينه وبين الله من العهود ما يعلمه ربه ، ثم هو لم يفِ بواحدةٍ منها . ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فذكِّر نفسك بالعهود التي قطعتها مع ربك . كم من عهدٍ قطعتَهُ على نفسك لربك تبارك وتعالى فخنته وأخلفته ونسيته ؟! ما منا من أحدٍ وهو في أزمة وضيق إلا وعاهد ربه على أمور ، فإذا فرَّجَ الله كَرْبَهُ ويسَّر أَمْرَه نسي ربه ! فتراه يقول : الحقوق كثيرة ! فن الإدارة ! أنا أعمل بالكمبيوتر المنفتح الآن على العالم من خلال الإنترنت ! وإنها لخيانة مع ما عهد به ربَّه تعالى.اللهم طهِّر قلوبنا من النفاق ، وألسنتنا من الكذب .

إذًا الدنيا دار ابتلاء .. ابتلاء بالخير وابتلاء بالشر ؛ قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود:٧] ، وقال تعالى : ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك:١، ٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف:٧] ، وقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان:١، ٢] .

وأعظم إعدادٍ من الله لعباده المؤمنين في دار الابتلاء هو العبادة ، وأعظم تربية

لا تكون إلا بالتعبد لله ، وإلا بتخليص القلب والعمل له سبحانه ؛ فالله ﷻ يفرض علينا الصلاة والصيام والزكاة والعبادات كلَّها لِيُعِدَّنا تبارك وتعالى في دار الإعداد ، ودار الابتلاء ، ودار الفناء ؛ لنكون أهلًا لدار البقاء ؛ قال تعالى :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٤] .

أي : الدار الباقية التي لا تفنى ولا تبيد .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله [١] ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ ﴾ أي : الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ، ولا انقضاء ؛ بل هي مستمرة أبد الآباد »

ولا تعارض بين هذه الآية وبين قول الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ [هود:١٠٨] .

فهذا الاستثناء الوارد في الآية لا يدلُّ على انقطاع النعيم في الآخرة قط ، إذًا فما معنى هذا الاستثناء ؟ قلَّبتُ كثيرًا في صفحات التفسير فلم أجد أروع ولا أرقَّ من هذا القول النفيس الذي ذكره بعضهم ؛ وهو : لتظلَّ قلوبُ أهل الجنة - حتَّى وهُمْ في الجنة في النعيم الذي لا ينقطع - معلقةً بخالق الجنة ، لا بنعيم الجنة !!

قال ابن كثير [٢]: « معنى الاستثناء ها هنا :أنَّ دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرًا واجبًا بذاته ؛ بل هو موكولٌ إلى مشيئة الله تعالى ؛ فله المنة عليهم دائمًا ، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النَّفَس ».

فعطاء الله لا ينقطع بنصِّ القرآن والسنة ،والجنة لا تفنى ولا تبيد ، ومع ذلك يقول ربُّ العزة : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ - لتتعلق قلوبهم - وهم في النعيم

---

(١) «التفسير» لسورة (العنكبوت/ ٦٤) .

(٢) «التفسير» لسورة (هود/ ١٠٨) ، وراجع هذه المسألة في « حادي الأرواح » لابن القيم رحمه الله (ص٤٠٨) ط ابن رجب .

الدائم الذي لا ينقطع بالله تعالى ؛ قال تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة:٧٢]

فرضوان الله أغلى وأعلى وأعظم وأجلُّ من أيِّ نعيم .

ولله درُّ القائل :

قليلٌ منك يكفيني ولكن   قليلك لا يقال له قليل

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل النعيم .

فالعبادة : ابتلاء ، وإعداد ، وتربية ، وتطهير، وتنقية ؛ فمن استجاب لله سبحانه ، وعبَدَهُ ، وامتثل أمره ، واجتنب نهيه ، ووقف عند حَدِّه ، يُعِدُّه الله سبحانه وتعالى ويهيؤه ؛ ليكون أهلاً لدار البقاء ، وأهلاً لدار النعيم الأبدي ؛ ليكون أهلاً للجنة ؛ فهذه الدنيا لا تُعْطِي حصادها إلا لمن يزرعون ، ولا تمنح جناها إلا لمن يغرسون ، ولا ينال المرء فيها ما يحبُّ إلا بصبره على ما يكره ؛ من أجل ذلك : قال المصطفى ﷺ : « حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ ، وحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَواتِ »[1].

لابد أن تُبتلى وأن تصاب بالمكاره ؛ فطريق الجنة محفوفٌ بالمكاره والابتلاء والنكبات والشهوات ، وطريق النار محفوفٌ بالشهوات ،ولا ينال المرء فيها ما يحب إلا بصبره على ما يكره ، كما ذكرت .

تدبر معي قول المتنبي ـ وهو قولٌ بديع ـ يقول[2]:

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الرقاق» ، باب حجبت النار بالشهوات (٦٤٨٧) ، ومسلم ، كتاب «صفة القيامة والجنة والنار » (٢٨٢٢ ، ٢٨٢٣) ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة ، ورواه مسلم عن أنس ﷺ .

(٢) «معجزة أحمد» (العراقيات الأخيرة) لأبي العلاء المعري (٤٢٩) ، و«التذكرة الحمدونية» لابن حمدون (١٥١) ، و«يتيمة الدهر » للثعالبي (٦٣) .

ذَرِيني أَنَا مَا لاَ يَنَالُ مِن العُلا فَصَعْبُ العُلا في الصَّعْبِ والسَّهْلُ في السَّهل

تُرِيدين إِدراكَ المَعَالي رَخِيصةً ولابُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ

ويقول المتنبي أيضًا[1]:

إذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام

إذا أردت العلا فاعلم أن الأمر شاق وعسير في الدنيا .. إن أردت أن تكون فقيهًا ، فلابد من البذل والتعب وعدم الراحة .

قيل لعروة بن الزبير : « ماذا تتمنى يا عروة ؟ فقال : أتمنى أن أكون فقيهًا وأن يحمل الناسُ عنِّي حديثَ رسولِ الله ﷺ ، قيل : وأنت يا ابن عمر ؟ فقال ابن عمر : أما أنا فأتمنى الجنة »[2] .

أحزان قلبي لا تزول حتى أُبَشَّر بالقبول

وأرى كتابي باليمين وتقرَّ عيني بالرسول

حنيئذٍ تنتهي كلُّ الآلام والأحزان ؛ فلا يُنال العلا في أمور الدنيا إلا بالجهد ، وإلا بالمشاق ، وإلا بالعمل ؛ فكيف بدار الخلود عند الغفور الودود ؟ فهل تتصور أنك تنال جنة الخلود عند الغفور الودود بالنوم والكسل ؟ لا ؛ بل

(١) «صبح الأعشى» (٢/ ١٢٥) ط الفكر .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتابه «مجابو الدعوة» (٨٢) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣١/ ١٧١) ، واللالكائي في «كرامات الأولياء» (٩٣) بسندٍ موضوع عن الشعبي به .
قال شيخ الإسلام في «الفتاوى» (١/ ٢٦٢، ٢٦٣) : « وإسماعيل بن أبان الذي روى هذا عن سفيان الثوري كذاب ، وقال أحمد بن حنبل : كتبتُ عنه ، ثم حدث بأحاديث موضوعة فتركناه ، وطارق بن عبد العزيز الذي ذكر أن الثوري روى عنه لا يعرف من هو » ثم ذكر شيخ الإسلام إسنادًا آخر ساقه من عند أبي نعيم عن الطبراني في ذكر هذا الخبر ؛ وقال : « وهذا إسنادٌ خيرٌ من ذاك الإسناد باتفاق أهل العلم .... » اهـ . وهو في «الحلية» لأبي نعيم (١/ ٣٠٩) .

لابد من أن تُضَاعِف العمل والجهد، وأن تضاعف العبادة لله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ حينئذٍ نعلم يقينًا أن الله تعالى ما فرض علينا العبادة إلا للإعداد .. إلا للانتقال .. إلا لنتربَّى بهذه العبادة في الدنيا؛ لنكون أهلاً لدار الخلود في الآخرة؛ فالعبادة ابتلاءٌ وإعدادٌ وتربيةٌ لهذا الجسد ولهذه الروح ولهذه النفس البشرية؛ لنكون أهلاً لمجاورة الملك القدوس ﷻ؛ فإنك ستصير في الجنة جارًا للملك، ويا لها ـ والله ـ من كرامة وفخامة ومكانة ونعيم لأهل الإيمان والاستقامة؛ نسأل الله أن يجعلنا منهم، وأن يرزقنا لذة النظر إلى وجهه الكريم والأنس بجلاله العظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

خامسًا: نعبد الله تبارك وتعالى بعد كلِّ هذا طلبًا لجنته، وخوفًا من ناره: وهناك من يحتج على هذا السبب ويقول: من عبد الله طلبًا لجنته وخوفًا من ناره فهو كأجير السوء، إن أخذ الأجرة عَمِل وإن لم يأخذ الأجرة لم يَعْمَل!! وهذا القول مردودٌ بالأدلة الناصعة؛ فلقد ردَّ أهل العلم على هذا القول الواهي[1]، واحتجوا بأن أعرف الناس بالله هم الأنبياء والرسل، وعلى رأس كُلِّ هؤلاء رسولنا ﷺ، ومع ذلك فقد صرَّح القرآن ودلَّت السنة الصحيحة على أن هؤلاء الأنبياء والمرسلين تضرَّعوا إلى الله ﷻ وسألوه الجنة، واستعاذوا به من النار.

فهذا خليلُ الله إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي أُمر نبينا المصطفى ﷺ أن يقتدي به، وأولى الناس باتباع إبراهيم رسولُ الله ﷺ وأمته من

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» في الرد على هذا القول (١٠/ ٦٢، ٢٤٠)، و«الفتاوى الكبرى» (٢/ ٤٠٤)، (٥/ ٢١٨)، و«النبوات» (١/ ٢٣٣) لشيخ الإسلام ابن تيمية، و«مدارج السالكين» (٢/ ٧٦) للعلامة ابن القيم.

الموحدين ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران:٦٨] .

ومع ذلك سأل خليل الله إبراهيم ـ قدوة المحققين وإمام الموحدين ـ سأل ربه الجنة واستعاذ به من النار ؛ قال الله تبارك وتعالى ـ حكاية عنه : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء:٨٢ـ٨٩] .

وهذا سيد المرسلين ، وقدوة المحققين ، وإمام الموحدين ، وسيد النبيين وأعرف الخلق أجمعين ـ بلا منازع ـ برب العالمين ؛ يقول المصطفى الأمين ﷺ: « أَمَا والله إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ »[١] .

وفي روايةٍ : « والله إِنِّي لأَعْلَمُهُمْ بِالله وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً »[٢] .

وفي لفظٍ : «والله إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُم لله ، وأَعْلَمُكُمْ بِما أَتَّقِي»[٣] .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وصحّحه شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى[٤] ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «النكاح» ، باب الترغيب في النكاح ، (٥٠٦٣) عن أنس ، وهو عند مسلم بدون هذه اللفظة ، في كتاب «النكاح» ، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (١٤٠١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الأدب» ، باب من لم يواجه الناس بالعتاب (٦١٠١) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب «الصيام» ، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب (١١١٠) .

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٤) ، وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب تخفيف الصلاة (٧٩٢) ، وابن ماجه ، كتاب « إقامة الصلاة » ، باب ما يقال في التشهد (٩١٠) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٦٣) .

سأل يومًا رجلاً من أصحابه ؛ فقال له : « مَا تَدْعُو فِي صَلاتِك ؟» ؛ فَقَالَ الرجل : أَسْأَلُ الله الْجَنَّةَ ، وَأَعُوذُ بِهِ مِنَ النَّارِ ، أَمَا إِنِّي لا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلاَ دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ ، يَا رَسُولَ الله ، (يعني : لا أحسن أن أقول الدعوات التي تدعو الله بها أنت ومعاذ بن جبل ـ رضوان الله عليه ـ لكنني أسأل الله الجنة ، وأعوذ به من النار ، فأنا لا أحسن هذه الدندنة مثلكما) فقال النبيُّ ﷺ : « حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ »[1].

وفي رواية أبي داود : « إِنِّي وَمُعاذًا حَوْلَ هَاتَيْن » أي : حولها أنا ومعاذ ندندن .

وفي لفظٍ : « وَهَلْ تَصِيرُ دَنْدَنَتِي وَدَنْدَنَةُ مُعَاذٍ إِلاَّ أَنْ نَسْأَلَ الله الْجَنَّةَ وَنَعُوذَ بِهِ مِنَ النَّارِ »[2].

هذه حالة واضحة لنبينا ﷺ وأصحابه .

وذكر الله في صفات عباد الرحمن أنهم كانوا يتعوَّذون به من جهنم ؛ فقال في حقِّهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان:٦٥] .

ويتضرعون أن يجعلهم الله أئمة للمتقين ،والمتقون يسألون ربهم الجنة ؛ بل هم أهل الجنان ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٣٥] .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٤) ، وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب تخفيف الصلاة (٧٩٢) ،وابن ماجه ، كتاب « إقامة الصلاة » ، باب ما يقال في التشهد (٩١٠) ،وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٦٣) .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٧٤) بسندٍ منقطع ، عن معاذ بن رفاعة الأنصاري عن رجلٍ من بني سلمة به ؛ قال الهيثميُّ في «المجمع»(٢/ ٧٢) : « رواه أحمد ومعاذ بن رفاعة لم يدرك الرجل الذي من بني سلمة لأنه استشهد بأحد ، ومعاذ تابعيٌّ ، والله أعلم » ، وحكم عليه بالانقطاع الحافظ ابن رجب في كتاب « التخويف من النار » (١٥) .

يقول الله عن عباد الرحمن : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٧٤، ٧٥] .

وذكر الله أولي الألباب ـ أصحاب العقول ـ الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض ؛ فقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران:١٩١] .

هذا أول دعاء : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾
[آل عمران:١٩٢ـ ١٩٥]

هؤلاء هم عباد الرحمن ،وهؤلاء هم أولو الألباب ، وهؤلاء هم الأنبياء ، والمرسلون كلُّهم يسألون الله الجنة ، ويتعوَّذون به من النار ، ومع ذلك أقولُ : يزيلُ لنا الإمام ابن القيم بفهمه الراقي الإشكال بين الفريقين : فريق أهل التصوف ـ الذي زعم أن مَنْ عَبَدَ الله من أجل الجنة أو النار فهو أجير السوء ـ وبين قول أهل السنة ـ الذين احتجوا بأن أعرف الناس بالله هم الأنبياء والرسل ، ومع ذلك سألوا الله الجنة واستعاذوا به من النار ـ فيزيل الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ بفهمه الدقيق هذا الإشكال في هذه القضية ؛ فيقول[1] :

«والتحقيق أن يقال : الجنة ليست اسمًا لمجرد الأشجار والفواكه والطعام والشراب والأنهار والقصور والحور العين ؛ فأكثر الناس يغلطون في مسمَّى

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٨٠) ط دار الكتاب ، بتصرف يسير .

الجنة ؛ فإن الجنة اسمٌ لدار النعيم المطلق الكامل ، وأعظم هذا النعيم هو التمتع بالنظر إلى الربِّ الكريم » .

قال ابن القيم : « فأيسر يسير من رضوانه أكبر من الجنان وما فيها من نعيم» !!

قال تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة:٧٢] .

أي : أكبر من الجنة وما فيها من نعيم ، ولفظة :﴿ وَرِضْوَانٌ ﴾ جاءت نكرة في سياق الإثبات ؛ فالمعنى : أيُّ شيءٍ من رضوانه تعالى على عبدٍ فهو أكبر وأجل وأعظم من كلِّ ما في الجنة من نعيم [١].

قال ابن عاشور في «تفسير التحرير» [٢]: « والتنكير في «رضوان» للتنويع يدلُّ على جنس الرضوان ، وإنما لم يقرن بلام تعريف الجنس ليتوسل بالتنكير إلى الإشعار بالتعظيم ، فإن رضوان الله تعالى عظيم، و﴿ أَكْبَرُ ﴾ تفضيل لم يذكر معه المفضَّل عليه لظهوره من المقام ،أي : أكبر من الجنات ؛ لأن رضوان الله أصْل لجميع الخيرات ، وفيه دليل على أن السعادات الروحانية أعلى وأشرف من الجثمانية » .

روى الإمام مسلمٌ في «صحيحه» [٣]من حديث أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، قَالَ : يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ » .

---

(١) انظر : « تفسير الزمخشري» (٢/ ٢٠٢) ،و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٣٦) ط أولاد الشيخ ، و«المدارج» (٢/ ٨٠) ، و« بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/ ٣٩٣) ط مكتبة نزار .

(٢) « تفسير التحرير والتنوير» لمحمد الطاهر ابن عاشور (١٠/ ٢٦٤، ٢٦٥) ط الدار التونسية للنشر .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب «الإيمان» ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨١) .

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢،٢٣].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

و﴿الْحُسْنَىٰ﴾: هي الجنة. ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: هي النعيم والنظر إلى وجه خالق الجنة تبارك وتعالى[1].

فنحن نعبد الله طلبًا لجنته وخوفًا من ناره؛ فمَنْ مِنَّا يستغني عن الجنة وَمَنْ مِنَّا يَقْوى على ناره ؟! فالطعام في النار نار، والشراب في النار نار، والثياب في النار نار !! فالطعام: زقوم وضريع وغسلين.

قال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ۝ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات:٦٢ـ ٦٧]؛ وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية:١ـ٦].

والضريع: نوع من أنواع الشوك[2].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ۝ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ

---

(١) انظر: «حادي الأرواح» (٣٤٤ـ ٣٤٩) ط ابن رجب.

(٢) كما ورد عن عكرمة ومجاهد وقتادة وغيرهم. انظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٥٥٣،٥٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (١٤/ ٣٣٠، ٣٣١) ط أولاد الشيخ.

طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة:٢٥-٣٧].

و﴿غِسْلِينٍ﴾: عصارة أهل النار[١].

والشراب في النار نار؛ قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩]. و﴿ٱلْمُهْلِ﴾ كالزيت المغلي[٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٥-١٧].

حتى الثياب تُفَصَّل لأهلِ النار من النار!!

قال تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج:١٩].

---

(١) كما ورد عن ابن عباس بسندٍ فيه كلام، انظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٢٢١، ٢٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (١٤/ ١٢١).

(٢) كما ورد عن ابن عباس، كما في البخاري معلقًا (كتاب التفسير: باب سورة الدخان) (٨/ ٤٣٣ فتح)؛ قال الحافظ: «وصله ابن أبي حاتم من طريق: مطرف عن عطية، سئل ابن عباس عن المهل، قال: شيء غليظ كدردي الزيت» اهـ. وعطية ضعيف.
وأخرج أحمد (٣/ ٧٠، ٧١)، والترمذي، كتاب «التفسير»، باب ومن سورة سأل سائل (٣٣٢٢) بسندٍ ضعيف عن أبي سعيد عن النبيِّ ﷺ في قوله ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ قال: «كَعَكَرِ الزَّيْتِ، فَإِذَا قُرِّبَ إِلَي وَجْهِهِ سَقَطَتْ فَرْوَةُ وَجْهِهِ فِيهِ»، وانظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٣٣)، و«تحقيق المسند» للشيخ شعيب (١٨/ ٢١٠).

فإذا تذكَّر أهل النار ما هم فيه من ضنك وشقاء تضرَّعوا لخزنة جهنم ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر:٤٩، ٥٠].

فيستغيثون بمالك نفسه ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف:٧٧].

فينادي أهلُ النارِ أَهْلَ التوحيد ، وكانوا يعرفونهم في الدنيا ؛ فينادي أهل النار عليهم وهم في الجنة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:٥٠].

فيستغيث أهل النار من عذاب النار بالله ـ وهو الرحيم الرحمن ـ ومع ذلك انظر إلى الجواب !

إنهم يأسوا من خَزَنَةِ جهنم ، ويأسوا من مالك نفسه ، ويأسوا من إخوانهم من أهل التوحيد ممن كانوا يعرفونهم من أهل الدنيا ودخلوا الجنة ويتضرع أهل الجنة للعزيز الغفار ؛ ومع ذلك يأتي الجواب ؛ كما قال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون:١٠٦ـ١٠٨].

فمَنْ مِنَّا يَقْوى على نار الجبار جل جلاله ؛ فالطعام في النار نار ، والشراب في النار نار ، والثياب في النار نار !!

أيها المسلمون : اتقوا النار ؛ فإن حرَّها شديد ، وقعرها بعيد[(١)] ، ومقامعها حديد[(٢)] .

نسأل الله أن يحرم أجسادنا على النار ، وأن يدخلنا الجنة مع الأبرار .

وَمَنْ مِنَّا يستغني عن الجنة ، وفيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطَر على قلب بشر ؛ وكما في الحديث القدسي الصحيح[(٣)] قال الله ﷻ : « أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ».

وفي «صحيح مسلم»[(٤)] من حديث المغيرة بن شعبة أن النبيَّ ﷺ قال : « سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ مَنْ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً ؟ فَقَالَ الله ﷻ : هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، فَيُقَالُ لَهُ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! كَيْفَ ؟ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ ؟ فَيُقَالُ لَهُ : أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا ؟ فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ ! فَيَقُولُ : لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ : رَضِيتُ رَبِّ ! فَيَقُولُ :

---

(١) قال أبو هريرة : « والذي نفسُ أبي هريرة بيده ! إن قعر جهنم لسبعون خريفًا » ، انظر : «صحيح مسلم » ، كتاب «الإيمان» ، باب آخر أهل النار خروجًا (١٩٥) .
وفي «صحيح مسلم» ، كتاب «صفة القيامة والجنة والنار» (٢٨٤٤) من حديث أبي هريرة ﷺ وفيه أن النبيَّ ﷺ قال : « هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا ، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا ».

(٢) جاء ذلك في حديث آخر أخرجه الترمذيُّ ، كتاب «صفة جهنم» ، باب ما جاء في صفة قعر جهنم (٢٥٧٥) من حديث الحسن عن عتبة بن غزوان عن عمر قوله . قال الترمذيُّ : « لا نعرف للحسن سماعًا من عتبة بن غزوان » ، وانظر : «الصحيحة» (١٦١٢) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتابُ «بدء الخلق» ، باب ما جاء في صفة الجنة (٣٢٤٤) ، ومسلم ، كتاب «الجنة وصفة نعيمها» (٢٨٢٤) عن أبي هريرة .

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب «الإيمان» ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٨٩) .

هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ ، فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ ! قَالَ رَبِّ ! فَأَعْلاَهُمْ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي ، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا ، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » قَالَ : وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ الله ﷻ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة:١٧] .

إذًا نحن نعبد الله طلبًا لجنته وخوفًا من ناره ،وأُجْمِلُ الجواب على السؤال مرة أخرى ؛ فأقولُ : نعبد الله ، لأنَّ العبادة حقٌّ لله على عباده .

ثانيًا : نعبد الله ؛ لأن العبادة غذاء لأرواحنا .

ثالثًا : نعبد الله ؛ لأن العبادة سبيلٌ للعز والكرامة والحرية .

رابعًا : نعبد الله ؛ لأن العبادة ابتلاء وإعداد .

وأخيرًا : نعبد الله طلبًا لجنته وخوفًا من ناره .

والسؤال : بماذا نعبد الله ؟

أعني : كيف نعبد الله سبحانه ؟

والجوابُ كما يلي :

كيف نعبد الله ؟!

ليست كلُّ عبادة لله تبارك وتعالى ـ وإن كانت خالصة لوجهه ـ مقبولة ؛ بل لابد مع إخلاص القول والنية في العبادة أن تكون هذه العبادة على هدي سيد البشرية ﷺ ؛ فكيفية العبادة ليست متروكةً لأحدٍ ، ليختار الكيفية التي يريد ،والوضع الذي يشاء !! كَلَّا ؛ فالله سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا صوابًا ، والخالص : هو ما ابتغيتَ به وجه الله ، والصواب : هو ما كان موافقًا لهدي رسول الله ﷺ ؛ قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ

رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠] .

وقال تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١٢] ؛ وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء:١٢٥] ؛ وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥] ؛ وقال جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك:١، ٢] .

قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ : «أحسن العمل أخلصه وأصوبه قالوا : يا أبا عليٍّ ما أخلصه وما أصوبه ؟ فقال الفضيل : إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان العملُ صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، حتى يكون خالصًا صوابًا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على سنة رسول الله ﷺ»(١) .

فهب أَنَّ واحدًا مِنَّا الآن لا نشكك في إخلاصه قام فصلَّى المغرب خمس ركعات ! هل تصح صلاته ؟! وهل يسقط عنه فَرْضُ المغرب ؟ لا ، هذا لا تسقط عنه الفريضة ، حتى ولو كانت نيته التقرب إلى الله تعالى .. حتى ولو كان خالص النية .. سليم القلب والطوية ؛ بل لابد أن يكون العملُ خالصًا لله تعالى ، وصوابًا على هدي وسنة رسول الله ﷺ .

فإن العبادة الحقَّةَ الصحيحة هي أن تعبد الله تبارك وتعالى عبادةً ترضيه ؛ أسأل الله أن يجعلنا من المقبولين .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٥) ولا بأس بإسناده .

فالعبادة لابد أن تكون خالصة لله ـ ولو كانت العبادةُ قليلة يسيرة ـ فلا تحقرن عملاً من الأعمال ،كما قال النبيُّ ﷺ [(١)]، وأن يكون العمل صوابًا علي هدي رسول الله ﷺ ، ولذا ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول [(٢)] : « اللهم اجعل عملي كُلَّه صالحًا ، واجعله لوجهك خالصًا » .

إخلاص وسنة واتباع ؛ ثم قال : « ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئًا » فعمر رضي الله عنه يتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بهذا الدعاء الودود الجميل ،نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل ، والسر والعلن ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

ولقد حذَّر الإسلام تحذيرًا شديدًا من الشرك ، وتدبروا معي جيدًا هذه العبارة ؛ أقولُ الابتداع سببُ الشركِ ، وطريقه ،وسبيله ؛ فالابتداع في الدين منكرٌ كبيرٌ ؛ فلا يجوز لأحدٍ البتة أن يبتدع في دين الله شيئًا ؛ لأن الله تعالى قد خاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] .

فما لم يكن يومئذ دينًا لا يكون اليوم دينًا [(٣)]، وما قبض الله رسوله إلا وقد أكمل الدين وأتم النعمة ؛ فليس من حقِّ أحد ـ وإن علا كعبه ـ أن يشرِّع في هذا الدين شرعًا جديدًا ، وأن يحدث في هذا الدين حدثًا جديدًا ، وإن ظن أنه لا يعمل شيئًا من الإثم ، لأن بعض الناس ربما يحتجُّ ـ مثلاً ـ ويقول : أنا أقرأ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «البر والصلة» ، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء (٢٦٢٦) .

(٢) أخرجه أحمد، في «الزهد» (٦١٧) عن الحسن أن عمر كان يقول.. ، والحسن لم يسمع من عمر ، وانظر : « طبقات المحدثين بأصبهان » لأبي محمد بن حيان (٦٥٣) ، و«الفتاوى» لشيخ الإسلام (٣/ ١٢٤) ، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٨٤٣) .

(٣) انظر : «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٣٣، ٢٩٧، ٣٢٥) قال : « قال ابن الماجشون: سمعت مالكًا يقول : من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة ؛ لأن الله يقول : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة:٣] ، فما لم يكن يومئذ دينًا ، فلا يكون اليوم دينًا » .

القرآن فما الحرج ، وأنا أجلس يوم الجمعة لأسمع سورة الكهف عن طريق المذياع ؟!! أو يقرأ قارئ والناس يستمعونه قبل وقت الخطبة ؟ وما الحرج في أن أُهِلَّ بالإحرام من قبر النبيِّ ﷺ لا من أبيار عليٍّ ؟! فما هي إلا أمتار قليلة زِدْتُها على مكان الميقات ! فما الداعي على أن تعلن الحرب على مثل هذه الأعمال ؟!!! انظر إلى هذا المدخل الخطير ؛ إنه مدخلُ الابتداع الذي قد يوقع أصحابه في الفتنة الحقيقية ؛ فقد جاء رجلٌ إلى الإمام مالك ـ إمام دار الهجرة ـ وقال له : يا إمام ، من أين أُحْرِم بالحج ؟ قال : من ذي الحليفة ؛ من حيث أحرم رسول الله ﷺ[1].

قال : وماذا لو أحرمتُ من قبر النبيِّ ﷺ ؛ فما هي إلا أمتار أزيدها على مكان الميقات[2]؟ فقال له الإمام مالك[3]: لا تفعل ؛ إني أخشى عليك الفتنة ، قال : وأيُّ فتنة ؟ قال : وهل هناك فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصَّر عنها رسول الله ﷺ ؟ انظر إلى هذا الردِّ العظيم من إمام دار الهجرة الإمام مالك رحمه الله ؛ يعني أنك ترى أن الفضل في الإحرام من المسجد النبوي وكان موجودًا على عهد النبيِّ ﷺ ، إذ هذه فضيلة لم يلهمها رسول الله ﷺ وقصَّر في الوصول إليها ، وأنت أتيت بعقلك الذكي وفهمك النير الأبي !! لتصل إلى ما لم يصل إليه الحبيب النبيُّ ﷺ ؛ فأيُّ فتنة أعظمُ من أن تظن أنك قد وصلت إلى فضيلةٍ قصَّر عنها رسولُ الله ﷺ ، ثم قرأ عليه قوله تعالى :

---

(١) وهو الميقات المكانيُّ لأهل المدينة ويُسمَّى الآن بأبيار عليٍّ .

(٢) أظن لو وضعنا ذا الحليفة والقبر النبوي أو المسجد النبوي في مقارنة فلا وجه للمقارنة على الإطلاق ، فالمسجد النبوي بما فيه الحجرة المشرفة بجثمانه ﷺ هي أشرف بقاع الأرض في المدينة بلا نزاع .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٦ / ٣٢٦) ، والبيهقي في « المدخل » (٢٣٨) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٣٨٣) ، وابن بطة في « الإنابة » (٩٨ / الإيمان) .

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾
[النور:٦٣]

فالإسلام يشدد غاية التشديد ويحذر غاية التحذير من البدعة ، ومن اتباعِ الأهواء ؛ بل يبين أن العبادةَ المقبولة لا بد لها من أصلين :

الأول : أن تكون العبادة خالصة لله .

والثاني : أن تكون العبادة على هدي رسول الله ﷺ .

وانتبه إلى أن الابتداع مجاله الدنيا .. ابْتَدِع في الدنيا ما شئت بلا حدود ، فالابتداع في الدنيا واسع ؛ لكن لا يجوز أن تبتدع في الدين !! ؛ إذ لا يجوز لأحدٍ ، ولا لجماعةٍ ، ولا لمجلسٍ شعبٍ ، ولا لمجلسٍ نيابيٍّ ، ولا لسلطةٍ ، ولا لدولة أن تُشَرِّع للبشر في دين الله ؛ فإن التشريع حقٌّ خالصٌ لله وحده ، ولرسوله ﷺ ؛ كما سأبين الآن في مراتب السنة مع القرآن :

ومن نفيس كلام ابن القيم رحمه الله أنه قال[1]: « السنة مع القرآن ثلاث حالات :

الحالة الأولى : أن تكون السنةُ موافقةً للقرآن من كلِّ وجه . وهذا من باب توارد الأدلة وتضافرها في المسألة الواحدة ؛ كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة :٤٣] .

وأضرب مثالًا آخر ؛ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران:٩٧] .

وهذا أمرٌ منه سبحانه وتعالى ؛ فاللام هنا لام الإيجاب ؛ فتأتي السنة المطهرة لتؤكد القرآن ؛ فيقول النبيُّ ﷺ ؛ كما في « الصَّحِيحَيْنِ »[2] من

---

(١) « إعلام الموقعين » (٢/ ٣٠٧) ط دار الجيل بتصرف .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الإيمان » ، دعاؤكم إيمانكم (٨) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام (١٦) .

حديث ابن عمر :

« بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ ».

الحالة الثانية : أن تكون السنة بيانًا لما أجمله القرآن ؛ فتأتي السنة تُفَصِّل هذا المجمل ، ولذلك قال مكحول الإمام العلم من أئمة أهل السنة ، يقول [1]: « القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن » لأنك لا تفهم القرآن إلا بالسنة ؛ فالله يقول : ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والسؤال : كيف أصلِّي ؟ لو فتحت القرآن من أوله إلى آخره لا تستطيع أبدًا أن تقف على آية لتتعلم منها كيفية الركوع ؟ أو كيفية السجود أو كيفية القيام ؟ أو ماذا تقرأ في القيام ؟ أو ماذا تقول في الركوع ؟ أو ماذا تقول في السجود ؟ أو ماذا تقول في الجلسة بين السجدتين ؟ أو ما عدد الركعات .. ما عدد ركعات المغرب ؟ .. ما عدد صلاة الظهر ؟ .. ما أركان الصلاة ؟ ما هي واجبات الصلاة ؟ ما هي مبطلات الصلاة ؟ ما هي النوافل ؟ إلى آخره .. لن تجد إجابات عن هذه الأسئلة إلا في سنة النبيِّ ﷺ، ومن هنا يقول النبيُّ ﷺ : « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي » [2].

وعن الحسن قال : بينما نحن عند عمران بن حصين ، قال له رجل : يا أبا نجيد ، حدِّثنا بالقرآن ، قال : « أليس تقرأ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة :٤٣] ، أكنتم تعرفون ما فيها ، وما ركوعها وسجودها ، وحدودها ،

---

(١) أخرجه محمد بن نصر في « السنة » (١ / ٣٣) ، والخطيب في « الكفاية » (١ / ١٤) وسعيد بن منصور كما في « تفسير القرطبي » (١ / ٧٢) في المقدمة ، وأخرجه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢ / ١٩١) ط دار الكتب ، وقد ذَكَرَ هذا القولَ عن الأوزاعي أيضًا . ولم يذكر له إسنادًا .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الأذان » ، باب الأذان للمسافرين (٦٣١) .

وما فيها ؟ أكنت تدري كم الزكاة في الوَرِقِ والذهب والإبل والبقر ، وأصناف المال ؟ شهدتُ ووعيتُ فرض رسول الله ﷺ ، في الزكاة كذا وكذا » قال الرجل : أحييتني يا أبا نجيد ، أحياك الله كما أحييتني »[(١)] .

وأيضًا في قوله تعالى :﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران:٩٧]. لكن كيف يحج ؟ كيف يحرم ؟ ما هي المواقيت المكانية ؟ وما هي المواقيت الزمانية ؟ وما هي حدود عرفة ؟ وما هو وادي عرنة ؟ ومتى أبيتُ في منى ؟ ومتى أبيتُ في مزدلفة ؟ وما هي أركان الحج ؟ وما هي رواتب أو سنن الحج ؟ لا يجيب على هذه الأسئلة إلا المصطفى ﷺ ؛ فقد قال عليه السلام : « لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ »[(٢)] .

إذًا السنة تأتي لتوضح ولتفصِّل ما أجمله القرآن .

الحالة الثالثة : وهي التي أشرتُ إليها بقولي : إن رسول الله ﷺ يُشَرِّعُ ؛ فكلُّ ما جاء به المصطفى ﷺ إنما هو شرع ، سواء أكان هذا الشرع من عند الله ـ تبارك وتعالى ـ أو من عند رسول الله ﷺ ، أي سواءٌ أكان بالقرآن أو بالسنة ؛ فكلاهما شرعٌ من عند الله ﷻ .

قال تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم:١ـ٥] .

يعني : جبريل عليه السلام بأمرٍ من الله ـ تبارك وتعالى .

قال ابن القيم ـ أن تكون السنةُ موجبةً لحُكْمٍ سكت عنه القرآن أو محرمةً

---

(١) أخرجه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢٣٨) ، والحاكم في « المستدرك » (١ / ١٠٩) ، كتاب «العلم » وصححه ، وأقره الذهبيُّ رحمه الله .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب « الحج » ، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا وبيان قوله ﷺ : « لتأخذوا مناسككم » (١٢٧٩) .

لشيءٍ سكت عنه القرآن ؛ كما في «سنن أبي داود» بسندٍ صحَّحه شيخنا الألباني رحمه الله (١) من حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ ومِثْلَهُ مَعَهُ ».والمراد بالثانية : السنة : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة:١٢٨] .

فالرسول ﷺ إنْ أَمَرَ ، أو إن أحلَّ ، أو إنْ حرَّم ؛ فمِنْ منطلق أنه مُشَرِّعٌ وأنَّه مبلِّغ عن الله ـ تبارك وتعالى ـ ومن منطلق أنه رحيم بهذه الأمة ، لا يُحِلّ ولا يحرِّم عليها إلا ما فيه صلاحها وسعادتها وفلاحها في الدنيا قبل الآخرة .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب:٣٤] .وتدبر لفظة : ﴿ مَا يُتْلَىٰ ﴾ وهذا اللفظ للقرآن والسنة ، ثم قال المصطفى ﷺ : «أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ : عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ » .

انظر إلى التشريع النبوي . قال ﷺ : « أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِيِّ » فلو فتشت في القرآن كلِّه ، لم تجد آية كريمة بين دفتيه تحرِّم علينا الحمار الأهلي ؛ بل هو ثابتٌ في السنة ، ثم قال ﷺ : « وَلاَ كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ وَلاَ لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ » .فهذه الأمور إنما حرَّمها النبيُّ ﷺ .

وفي رواية لهذا الحديث يقول ﷺ : « وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ الله ﷺ كَمَا حَرَّمَ الله »(٢) .

---

(١) أخرجه أحمد (٤ / ١٣١) وأبو داود ، كتاب « السنة » ، باب في لزوم السنة (٤٦٠٤) ، وصحَّحهُ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٢٦٤٣) .

(٢) رواها الترمذي ، كتاب « العلم » ، باب ما نهى عنه أن يُقال عند حديث النبي ﷺ (٢٦٦٤) ، وابن ماجه في المقدمة (باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على مَنْ عارضه) (١٢) ، وصحح الرواية الألباني في « صحيح الترمذي » (٢ / ٣٣٩) .

وخُذْ فيْضًا من الأدلة توضِّح لك أنَّ ما حرم الله كما حرم رسوله ﷺ ؛ قال تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧] ، وقال الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦] ؛ وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [النور:٥١ـ٥٣] .

وقال تعالى في شأن المجرمين : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء:٦٠، ٦١] .

وقال تعالى :﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:٨٠] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران :٣١]

وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات :١] .

قال ابن عباس [(١)]: « لا تقدموا بين يدي الله ورسوله أي : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة » وللأمانة ؛ فإن في السند انقطاعًا .

وقال القرطبي [(٢)]: « أي: لا تقدِّموا قولًا ولا فعلًا بين يدي الله وقول رسوله وفعله فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا ، ومن قدَّم قوله أو فعله على الرسول ﷺ فقد قدَّمه على الله تعالى ؛ لأن الرَّسول ﷺ إنما يأمر عن أمر الله ﷻ» .

وقال الشنقيطي في كتابه الماتع « أضواء البيان » [(٣)]: « ويدخل في هذه الآية دخولًا أوليًّا تشريع ما لم يأذن به الله ، وتحريم ما لم يحرِّمه ، وتحليل ما لم يحلله ، فلا حلال إلا ما أحلَّه الله ورسوله ، ولا حرام إلا ما حرَّم الله ورسوله ، ولا دين إلا ما شرعه الله على لسان رسوله » .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [(٤)]: « وجماع الدين أصلان :

الأصل الأول : أن نعبد الله وحده لا شريك له .

الأصل الثاني : أن نعبده بما شرعه على لسان رسوله » .

قال : « وهذان الأصلان هما حقيقة قولنا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله » ؛ فبالأصل الأول يعرف المعبود ﷻ وبالأصل الثاني يُعرف كيف يَصِلُ إلى المعبود ﷻ؛ لأن كلَّ الطرق إلى الله مسدودة إلا من طريق المصطفى ﷺ؛ فليس هناك وصول إلى الله وإلى مرضاته وإلى جناته

---

(١) أخرجه الطبريُّ في « تفسيره » (لسورة الحجرات / ١) من طريق علي ـ ابن أبي طلحة ـ عن ابن عباس . قال أبو حاتم : « علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مرسل ؛ إنما يروي عن مجاهد والقاسم بن محمد » ؛ وقد تقدَّم مرارًا .

(٢) انظر: « تفسير القرطبي » (لسورة الحجرات / ١) .

(٣) انظر : « أضواء البيان » للعلامة الشنقيطي (٧ / ٦١٤) ط ابن تيمية (بتصرف) .

(٤) تقدَّم ، وانظر أيضًا : « مجموع الفتاوى » (١ / ٣٣٣) بتصرف .

إلا من طريق النبيِّ عليه السلام بأبي هو وأمي وروحي ونفسي ﷺ .

انظر ـ أيها الحبيب ـ لتقف على خطر الابتداع ؛ فالابتداع قد يوقع أصحابه في الشرك فضلًا عن أن كلَّ بدعة ضلالة ، وكلَّ ضلالة في النار[1] !!

فعن طريق الابتداع زحف الشركُ إلى الأمم كلِّها ، وجاء الغلو في الدين ، ووقع التنطع ، والتشتت ، والإفراط ، وعن طريق الابتداع حرَّم أيضًا الغلاةُ ما أحلَّ الله ؛ فهناك ابتداعٌ في جانب الإفراط ، وابتداعٌ في جانب التفريط ؛ فكلاهما ابتداع !!

انظر إلى مشركي العرب كيف عبدوا الحجارة والأوثان والأصنام لتقربهم إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ زلفى ، قالوا : نعبد الحجارة والأوثان ، نريد أن نتقرب عن طريقها إلى الله ! النية طيبة لكن انظر إلى خطر العمل !! وإلى خطر الابتداع ! لما انحرفوا عن دين إبراهيم وعن الدين الذي جاء به النبيُّ الأمين ، أوقعهم هذا الابتداع والانحراف عن منهج النبيين في الشرك برب العالمين ، وزيَّنت لهم أهواؤهم وأنفسهم وشياطينهم تحريم ما أحلَّ الله وتحليل ما حرَّم الله ـ تبارك وتعالى ـ من أجل ذلك يحمل الإسلام هذه الحملة الشديدة على المبتدعين وعلى أصحاب الأهواء ؛ فيقول ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ مخاطبًا نبيًّا كريمًا من أنبيائه :

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص :٢٦] . وقال ـ جَلَّ وَعَلا ـ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية :٢٣] .

---

(١) كما جاء عن النبي ﷺ ، وقد تقدَّم عزوه . انظر « خطبة الحاجة » (ص ٢٦) ط المكتب الإسلامي .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣] ؛ وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] ؛ والمراد بالإسلام ؛ أي : إسلام الوجه لله والإذعان والانقياد له ـ تبارك وتعالى .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» [(١)] من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا ـ أي : في ديننا ـ هَذَا مَالَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» أي : مردود على رأسه لا قبول له عند الله .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» [(٢)] من حديث أنس . ورواه أحمد من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قَالَ : «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» [(٣)] ــ وتدبَّروا هذا الحديث ــ وهو حديثٌ جليلٌ خطير ــ من حديث عبد الله بن مسعود أنه ﷺ قال: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ» اللهم أوردنا حوض نبيك ، واسقنا منه شربة هنيئة مريئة لا نُردُّ ولا نظمأ بعدها أبدًا يا رب العالمين ؛ قال : «مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا ، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، فَأَقُولُ : إِنَّهُمْ مِنِّي» .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الصلح» ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧) ، ومسلم ، كتاب «الأقضية» ، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «النكاح» ، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣) ، ومسلم ، كتاب «النكاح» باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة (١٤٠١) من حديث أنس ، وأخرجه أحمد (٢ / ١٥٨) عن عبد الله بن عمرو ، وانظر «ظلال الجنة» (١/ ٣١) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الرقاق» باب : في الحوض (٦٥٨٣ ، ٦٥٨٤) ، ومسلم ، كتاب «الفضائل» ، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٢٢٩٠) عن سهل وأبي سعيد رضي الله عنهما

وفي رواية : « يا رب أصحابي »[١].

فالبدعة : هي كل أمر محدث في الدين وليس في الدنيا ، وهنا قد يستشكل هذا الحديث على بعض الطلاب ، ويقول : لقد ذكرت في هذا الحديث قولة شديدة ؛ ألا وهي : قول النبي ﷺ : « يا رب أصحابي » وهل أحدث الصحابة ؟ هل ابتدع الصحابة في دين الله ؟ حاشا لله ، وكلا . إذا ؛ لماذا قال النبي ﷺ : « يا رب أصحابي » ؟ والمراد : المنافقين ، وقد دعاهم بذلك لتشبههم بالصحابة وإظهارهم الإسلام ؛ ولذلك حينما قيل له : يا رسول الله ! اقتل المنافقين فأنت تعرفهم ، قال :

« لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه »[٢] وهذا في المنافقين ؛ فهم مشهورون أنهم من أصحاب النبي ﷺ ؛ فهؤلاء هم الذين أحدثوا بعد موت رسول الله ﷺ وابتدعوا ، فيحال بينهم وبين رسول الله ﷺ ؛ سواء كان نفاقهم اعتقاديا ، وأظهروا الإسلام بألسنتهم ، وكذبوه بقلوبهم ، وأنكرت أعمالهم ؛ فهذا نفاق الاعتقاد ، وهو النفاق الأكبر وأصحابه في الدرك الأسفل من النار . أما النفاق الأصغر وهو نفاق العمل ؛ فقد حدد النبي ﷺ أصوله في خمسة أصول ؛ كما في رواية أبي هريرة ورواية عبد الله بن عمرو بن العاص ، والروايتان في الصحيح :

أما الأولى : فهي قوله ـ عليه الصلاة والسلام : « آية المنافق ثلاث :إذا

---

(١) عند البخاري ، كتاب « الرقاق » باب في الحوض (٦٥٧٦) ، ومسلم ، كتاب « الفضائل » ، باب بإثبات الحوض (٢٢٩٧) عن عبد الله بن مسعود .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب « التفسير » ، باب قوله : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ ﴾[المنافقون: ٦] (٤٩٠٥) ، ومسلم ، كتاب «البر والصلة» ، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما (٢٥٨٤ / ٦٣) عن جابر.

حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ »[١] .

والرواية الأخرى : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ »[٢] .

اللهمَّ جَنِّبْنَا النفاق برحمتك يا رب العالمين .

وقال القاضي عياض عند قوله ﷺ : « يَا رَبِّ أَصْحَابِي »[٣] : « وقوله في رواية أنس في هذا الحديث فيمن يُذَادُ : « رِجَالٌ مِمَّن صَاحَبَنِي » هذا دليلٌ لصحة تأويل من تأوَّل أنهم أهل الردَّة ، ولهذا قال فيهم : « سُحْقًا سُحْقًا » ، ولا يقول ذلك في مذنبي الأمة ؛ بل يشفع لهم ، ويهتم لأمرهم ، ويتضرع إلى الله تعالى في رحمتهم والعفو عنهم .

وقيل : بل هم صنفان ، ومنهم العصاة المرتدون عن الاستقامة ، المبدلون عملهم الصالح غيره . ومنهم المرتدُّون على أعقابهم بالكفر . واسم التبديل يشمل الصنفين .

فالنبيُّ ﷺ يبين أن صنفًا يحالُ بينه وبين رسول الله ﷺ للإحداث في الدين بعد موته ، قال عبد الله بن مسعود :

« تعلموا العلم قبل أن يقبض ، وقبض العلم أن يذهب أهله ، ألا وإياكم

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الإيمان » ، باب علامات النفاق (٣٣) ، ومسلم كتاب « الإيمان » ، باب بيان خصال المنافق (٥٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٤) ، ومسلم (٥٨) .

(٣) « إكمال المعلم بفوائد الإمام مسلم » للقاضي عياض (٧/ ٢٦٩) ط الوفاء ، و « شرح مسلم » للنووي (٨/ ٧٣) ط دار الحديث .

والتنطع والتعمق والبدع وعليكم بالعتيق »[(١)] أي : بالقديم ، يعني : ما كان على عهد النبيِّ ﷺ .

وقال عمر : « سيأتي قومٌ يجادلونكم بشبهات القرآن ، فخذوهم بالسنن ؛ فإنَّ أصحاب السنن أعلم بكتاب الله ﷻ »[(٢)] ؛ ولذلك لما ذهب ابن عباس ليناظر الخوارج ناظرهم بالسنة بوصية عليٍّ رضي الله عنه [(٣)] .

وعن عثمان الأزدي قال : « دخلتُ على ابن عباس فقلتُ له : أوصني؟ فقال: « عليك بتقوى الله تعالى ، والاستقامة ، اتبع ولا تبتدع »[(٤)] .

انظروا إلى هذه الوصايا الغالية فهي لنا ، وجميعنا محتاج إليها .

وكان الصديق رضي الله عنه يقول في خُطَبِهِ : «بل أنا متبع ولست بمبتدع»[(٥)] .

وقَبَّل الفاروقُ عمرُ رضي الله عنه الحجرَ الأسود وقال : « والله إنِّي أعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفع ، ولولا أني رأيتُ رسول الله ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ »[(٦)] .

وقال عليٌّ رضي الله عنه : « لو كان الدينُ بالرأي لكان المَسْحُ على باطنِ الخُفِّ أَوْلى من المسح على أعلاه »[(٧)] .

---

(١) أخرجه الدارميُّ في « السنن » (١ / ٥٤) وابن عبد البر في « جامع بيان العلم » (١ / ٥٩٢) ط ابن الجوزي .

(٢) أخرجه الدارميُّ (١ / ٤٩) وابن عبد البر (١ / ١٠١٠، ١٩٢٦، ١٩٢٧) .

(٣) أخرجه النسائيُّ في « الكبرى » كتاب « الخصائص » (٨٥٧٥) بسندٍ حسن ، في قصةٍ طويلة عن ابن عباس في المناظرة الشهيرة .

(٤) أخرجه ابن وضاح في « البدع » (٦٥) والدارميُّ في « السنن » (١ / ٥٣) .

(٥) أخرجه القاسم بن سلام في « الأموال » (٦) وابن عساكر (٣٠ / ٣٠١ و ٣٠٢) وابن سعد في « الطبقات » (٢ / ١٨٢ و ١٨٣) .

(٦) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الحج » ، باب ما ذكر في الحجر الأسود (١٥٩٧) .

(٧) أخرجه أبو داود ، كتاب « الطهارة » باب كيف المسح (١٦٢ ـ ١٦٤) وصححه الحافظ ابن حجر في « التلخيص » (١ / ١٦٠) .

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: « ولو تركتُم سُنَّة نبيكم لضللتم » [(١)].

وقال ابن مسعود وابن عمر ﷺ: « من كان مستنًا فليستن بمن قد مات ؛ فإن الحيَّ لا تُؤمَن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرَّها قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلَّها تكلفًا ، وأقومها هَدْيًا ، وأحسنها حالًا ، اختارهم الله لصحبة نبيِّه ، ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوا آثارهم ، وتمسكوا ما استطعتم بأخلاقهم وسيرهم ، وطرائقهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » [(٢)].

وفي «مسند أحمد» [(٣)] بسندٍ حسنٍ عن ابن مسعود ﷺ قال : « إن الله تعالى نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، فابتعثه لرسالته ونبوته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد محمد ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيِّه يقاتلون على دينه » .

فالزم درْب هؤلاء الكرام ، لأنهم أشد الناس اقتفاءً واتباعًا لرسول الله ﷺ ، ما حادوا حذو أنملة عن طريق النبيِّ ﷺ ودربه وهَدْيِهِ .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول ـ وقد كتب له عامل يسأله عن الأهواء ، فكتب إليه : « أما بعد : أوصيك بتقوى الله تعالى ، والاقتصاد في أمره ، واتباع سنة رسوله ﷺ ، وترك ما أحدثه المحدِثون بعده ، فيما قد جرت بعد سنته ، وكُفُوا مؤنته ؛ فعليك بلزوم السنة ، فإنها لك بإذن الله عصمة .. » [(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « المسجد ومواضع الصلاة » (٦٥٤) باب صلاة الجماعة من سنن الهدى.

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١ / ٣٠٥) عن ابن عمر ، وأخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٨١٠) عن ابن مسعود . والأثر لا بأس به . وانظر « شرح أصول الاعتقاد » للالكائي (١ / ١٠٤ ، ١٠٥) .

(٣) أخرجه أحمد (١ / ٣٧٩) .

(٤) أخرجه أبو داود ، كتاب « السنة » ، باب لزوم السنة (٤٦١٢) وابن وضاح في كتاب « البدع » (٧٨) وهو صحيح .

وكان عبد الله بن عمر يقول : « كلُّ بدعة ضلالة ، وإن رآها الناس حسنة »[١] .

وأضربُ لك مثالًا مهمًّا :

لو جلستَ وسط مجتمع من المسلمين ، وتكلَّمت عن بدعةِ قراءةِ سورةِ الكهفِ يوم الجمعة بصوتٍ جهوري عن طريق مقرئٍ يجلسُ بين الناس ، أو عن طريق المذياع ، والناس يستمعون ؛ فماذا لو أنكرت على هؤلاء وقد انجذبوا جميعهم مع القارئ ؛ ستجد واحدًا أو مجموعة ، وربما كلُّهم ! أنكروا عليك بقولهم : وهل هذا القارئ يُغَنِّي ؟! انظر إلى قِصَر العلم !! هكذا تجدُ الردَّ : إنه لا يُغَنِّي ؛ بل يقرأ قرآنًا !! ويعترضُ هؤلاء عليك بهذا المدخلِ !!

لكنني أقول لهؤلاء : هل صوتُ هذا القارئ أحسنُ وأحلى من صوت ابن مسعود أو من صوت أبي بكر أو من صوت أبي موسى الأشعري؟! .. لقد وقف النبيُّ ﷺ ليلةً ليستمع إلى أبي موسى الأشعري ، وهو يقرأ كتاب الله العلي ؛ فيا تُرى ما الذي أوقفه ؟ إنه جمالُ صوته وحُسنه وحلاوته ؛ فكان أبو موسى صاحب صوتٍ جميلٍ رخيم ؛ كما في «الصَّحِيحَيْنِ»[٢] من حديث أبي موسى الأشعري قال : قال رسولُ الله ﷺ : « لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ البَارِحةَ ! لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدِ » .

وهذا ابنُ مسعود ـ وكان من أقرأ الصحابة ـ كان نبينا ﷺ يذهب إليه ليسمع منه القرآن ؛ كما في «صحيح البخاريِّ» ، كتاب فضائل القرآن ، باب من

---

(١) أخرجه اللالكائيُّ في « شرح أصول الاعتقاد » (١٢٦) ، والبيهقيُّ في « المدخل إلى السنن الكبرى » (١٩١) وسنده صحيح .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « فضائل القرآن » ، باب الترجيع (٥٠٤٨) ، ومسلم ، كتاب « صلاة المسافرين » ، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٣ / ٢٣٦) .

أحبَّ أن يستمع القرآن من غيره [(١)]، عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي النبيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ القُرْآنَ»، قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» وغيرهما من الصحابة كانوا من القراء؛ كأبيِّ بن كعب، ومعاذٍ، وسالم مولى أبي حذيفة.

وأنا أسأل الآن: هل سمعنا من حديث حسنٍ أو ضعيفٍ أو حتى موضوع!! يُذكر فيه أنَّ النبي ﷺ أمر ابن مسعود أو أبا موسى الأشعري بأن يقرأ على الناس يوم الجمعة سورة الكهف؟!! لا، والله ما حَصَل هذا أبدًا.

إذًا ما لم يكن على عهد النبيِّ ﷺ يومئذ دينًا، فلا يكون اليوم دينًا إطلاقًا.

حتى إذا انتهيت من الرد على هذه الشبهة، رأيت آخر يقول لك: يا رجل هناك من لا يحسن أن يقرأ القرآن!

والجوابُ: أن هناك من أصحاب النبيِّ ﷺ من كان كذلك، لا يحسن قراءة القرآن؛ فالأصل في الأمة المحمدية أنها أمة أمية، والقلة من الصحابة الذين كانوا يقرءون ويكتبون، وهذا أمرٌ متواترٌ مشهورٌ، وكان في الصحابة مَنْ هُمْ في أمسِّ الحاجة إلى من يُسمعهم القرآن، ولكن النبيَّ ﷺ لم يفعل ذلك بمثل طرائق الناس اليوم! فلا يجوز أن نصنع أمرًا لم يصنعه رسول الله ﷺ ولو رآه الناسُ حَسَنًا!!

بعد هذا التأصيل؟ نوجِّه لهؤلاء سؤالًا، وهو: هَلْ أنتم أحرص على الدين من الرسول ﷺ والصحابة؟!! وقد علمتم أن هذا العمل لم يسبقكم إليه رسول الله ﷺ؟ فلستم بأحرص على الخير منه! وقد أكمل الله الدين؛ قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

قال أيوب السَّخْتياني ـ رحمه الله تعالى: «ما ازداد صاحبُ بدعة اجتهادًا

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٠٤٩).

إلا ازداد من الله بعدًا»[1] يتصور المبتدع أنه يزداد طاعة وقُرْبةً لله بعمله وهذا عملٌ يحبه إبليس ؛ قال سفيان الثوريُّ [2]: « البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يُتاب منها ، والبدعة فلا يتاب منها» ؛ لأن المبتدع يظن أنه على حق ؛ بل وتراه يجادل لأجل هذا الباطل وسيجد له أنصارًا ، والهوى لا تدفعه الحجةُ ولو كانت بالغة وبليغة ، لكن يدفع الهوى الخوفُ من الله والتقوى منه سبحانه ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[الأنفال:٢٩] .

فتقوى الله هي التي تفرّق بين السنة والبدعة ، والحلال والحرام ، والحق والباطل ، فالمبتدعُ بمنأى عن التوبة من بدعته ، بخلاف صاحب المعصية إلا إن تاب الله على صاحب البدعة وشرح صدْرَه للسنة ، وليس معنى ذلك أن نشتد ونقسوا على إخواننا من المسلمين الواقعين في البدع قبل أن نبين لهم السنة بحكمةٍ ورحمةٍ وتواضع .

وأذكر أني نشأتُ في قريةٍ ما تعلّمتُ فيها من السنة شيئًا ، فما رأيت إلا البدع في كلِّ جزئيات التعبد ، وكان هؤلاء يرون أنهم على الصواب ، وأشهد أنهم ما كانوا من المتكبّرين ، لأني نشأت بينهم ، لكنهم ما وجدوا من علماء السنة من يعلّمهم السنة ، لذلك أنا أنصح الآن إخواني ممن مَنَّ الله عليهم بالسنَّة ، ومَنَّ الله عليهم بعلماء من أهل السنة أن ينتشروا بين الناس ويُحَوِّلوا حُبَّهم للبدع إلى حبٍّ للسنة بالخُلُقِ العذب وبالكلمة الحانية الرقيقة الرقراقة ، ونحن نبغض البدع ، ولكن يجبُ علينا أن نحذِّر أهلها وأن ننصح القائمين

---

(١) أخرجه ابن وضاح في « المبدع » (٧١) وسنده فيه ضعف ، لكن رواه ابن وضاح (٧٠) عن الحسن بسندٍ صحيح ، ولفظه : « صاحب البدعة لا يزداد اجتهادًا صيامًا وصلاة إلا ازداد من الله بعدًا » .

(٢) أخرجه البغويُّ في « الجعديات » (١٨٨٥) ، واللالكائي في « أصول الاعتقاد » (٢٣٨) .

عليها ، والنصيحة لها ضوابط وشروط ـ كما بينتُ ـ لكنك لو أقمت الحجة على رجلٍ مبتدع وبينت له الدليل من السنة بأسلوبٍ جميل وفَهْمٍ للحُجَّة ؛ ـ فشتان شتان بين إقامةِ الحجة وفَهْمِ الحجة ـ فإن أصرَّ بعد ذلك على البدعة ، فحينئذٍ يجبُ عليك أن تبغضه في الله تبارك وتعالى ، وأن تهجر ، ولا تكن فَرِحًا أنه على بدعة ! ؛ بل عليك أن تحزن ، وأن تحاول مراتٍ ومراتٍ أن تعلِّمه بالحكمة والرحمة .

لا ينبغي أن نتعجل بالحكم على الناس قبل أن نعلِّمَهُم ، وقبل أن ننصح لهم ، وقبل أن نُبَيِّنَ ، والبيانُ له مقام ، ومقام البيان ومقام الدعوة ، هو الحلم والرحمة واللين؛ قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾[طه:٤٣،٤٤] .

سبحانك ربي ! ما أحلمك تأمر موسى وهارون أن يقولا لفرعون قولًا لَيِّنًا ، إذا كان هذا حلمك بفرعون الذي قال : أنا ربكم الأعلى ، فكيف يكون حلمك بمن قال:سبحان ربي الأعلى ؟!.

وكان الفضل بن عيسى الرقاشي إذا تلا هذه الآية قال : « يا مَنْ يتحبب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه ؟ »[(١)] .

وقال يحيى بن معاذ : « إلهي هذا رفقك بمن يقول : أنا الإله ، فكيف رفقك بمن يقول:أنت الله ؟ » .

أسأل الله أن يرزقنا وإياكم الحلم والحكمة والرحمة واللين ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

---

(١) راجع « روح المعاني » للآلوسي (١٦ / ١٩٥) و « تفسير ابن كثير » (سورة طه : ٤٤) .
وأثر الفضل بن عيسى ؛ أخرجه ابن أبي حاتم ؛ كما في « الدر المنثور» (٥ / ٥٨٠) ط الفكر .

الشاهد : أن البدعة خطيرة ؛ وقد قال الفضيل بن عياض[١] : « من جلس إلى صاحب بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه » .

وأنا أؤيد هذا القول للفضيل ، لكنْ أذكر قيدًا ؛ وأقول : من جلس إلى صاحب بدعة وهو محبٌّ لهذه البدعة ، لكن إن جلس إلى صاحب بدعة ليعلِّمه وليذكِّره ، ويرفع عنه البلاء الذي هو فيه فهو مأجور - بإذن الله .

ومن تلك الآثار التي تحذر من البدعة ومن أهلها ما قال أبو قلابة : « لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ؛ فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم ، ويُلَبِّسوا عليكم كثيرًا مما تعرفون »[٢] .

وقال الأوزاعي[٣] : « كان يقال خمسٌ كان عليها أصحابُ النبيِّ ﷺ : لزوم الجماعة ، واتباع السنة ، وعمارة المساجد ، وتلاوة القرآن ، والجهاد في سبيل الله » .

وقال عبد الله بن مسعود[٤] : « الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة » .

وقال أبيٌّ بن كعب رضي الله عنه : « عليكم بالسبيل والسنة ؛ فإنه ليس من عبدٍ على سبيل وسنة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار أبدًا ، وإن اقتصادًا في سبيل وسنة خيرٌ من اجتهاد في غير سبيل وسنة »[٥] .

---

(١) أخرجه اللالكائيُّ في « أصول الاعتقاد » (٢٦٣) ، وانظر : « الأمر بالاتباع » للسيوطي (٦٧) .
(٢) أخرجه الدارمي (١ / ١٠٨) ، واللالكائي (٢٤٤) ، وابن وضاح في كتاب « البدع » (١٢٦) .
(٣) أخرجه اللالكائي (٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦ / ١٤٢) . (٢٦٣) ، وانظر : « الأمر بالاتباع » للسيوطي (٦٧) .
(٤) أخرجه الحاكم (١ / ١٠٣) ، واللالكائيُّ (١١٤) .
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٧ / ٢٢٤) ، واللالكائي (١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١ / ٢٥٢ ، ٢٥٣) .

وقال سفيان الثوري ﷺ: «استوصوا بأهل السنة خيرًا فإنهم غُرباء»(١).

آه والله ، فالمتبع غريب ،وصاحب السنة غريب !!

لقد كنا في سفر ، فأوقفنا شخص ، وسألني ؛ وهو ينظر إلى لحيتي : لماذا قد أطلقت لحيتك ؟! فقلتُ له : ولماذا أنت حالق لحيتك ؟! فضحك ، ولم يجد جوابًا ، فقلتُ له : هذه سنةُ النبيِّ ﷺ، ولكن ما أنت عليه سنةُ مَنْ ؟!

يُنْظَر إلى أخواتنا المتقبات نظرةً غريبة ! ترى أخًا من المسلمين في وظيفة يسمع الأذان فيذهب إلى المسجد ليصلي ، فيُنظر إليه بغرابة ! وكونه ـ مثلًا ـ رجلًا صالحًا لا يتعامل بالرشوة ، أصبح أمره عند الناس غريبًا !!! وهكذا .. بل ربما يُسخر من أصحاب السنة . فصارت السنة وصار أهلُها غرباء ، والنبيُّ ﷺ يقول : « بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ ، فطُوبى للغُرَبَاءِ »(٢).

ويقول سفيان الثوري ليوسف بن أسباط : « إذا بلغك عن رجل بالمشرق ، أنه صاحب سنة ، فابعث إليه بالسلام ، فقد قَلَّ أهل السنة والجماعة »(٣).

ويقول الجنيد : « الطرقُ كُلُّها مسدودة على الخلق إلا على المقتفين آثار رسول الله والمتبعين سنته وطريقته ، فإن طرق الخيرات كلَّها مفتوحة عليه ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[الأحزاب:٢١] »(٤).

إذًا ـ أيها الأحبة ـ كلُّ عبادة على هدى رسول الله ﷺ إن كانت خالصةً لله فهي عبادةٌ مقبولة ، لاعنت فيها ولا حرج ، وكلُّ عبادة وإن ابْتُغِي بها وجه الله تعالى ، ولم تكن على هدي رسول الله ﷺ فهي عبادة مردودة ؛ كما قال ﷺ: « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » ؛ وقد سبق .

---

(١) أخرجه اللالكائيُّ (٤٩) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب« الإيمان » ، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا (١٤٥) .

(٣) أخرجه اللالكائيُّ (٥٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٤) .

(٤) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١٠ / ٢٥٥) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٤٠٧) ، وانظر « الأمر بالاتباع » للسيوطي (٥٣) .

فيجب أن تكون عبادتُنا خالصةً لوجه الله تبارك وتعالى ؛ وعلى هدي رسول الله ﷺ.

أسأل الله تعالى أن يرزقنا الإخلاص والاتباع ، وأن يحشرنا مع إمام الموحدين وقدوة المحققين ، وأن يوردنا حوضه الأصفى ، وأن يسقينا منه شربة هنيئة مريئةً لا نظمأ بعدها أبدًا حتى نستمتع بالنظر إلى وجه ربنا في جنات النعيم .

*****

فهرس المجلد الخامس

الموضوع **الصفحة**


مجلة
الابتسامة
www.ibtesama.com


حصريات
مجلة
الابتسامة